تأشــيرة غــياب

(روايـة)

عـمــاد بـرّاكة

عمـــاد بـرّاكة: تأشيرة غياب (رواية)

الحضارة للنشر

11 شارع نوال – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing

11 Nawal Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Mobile: (20-122) 316 48 67

facebook/alhadarabooks

الطبعة الأولى: يونيو 2016

رقم الإيداع بدار الكتب 13887 /2016

ISBN: 978-977-476-253-1

إهــداء

مع سبق الإصرار

إلى

منيرة طبعاً

تَـنْبِيه

من العادة أن أختار أسماء شخوص روايتى معتمداً على النطق الموسيقى كى أتعامل معها بواقعية، وإن عرضاً تطابقت مع أسماء أشخاص فى الواقع فهى مصادفة.

الكاتب

1

فى اللحظة التى وطئت فيها أقدامى رصيف المحطة، كان الطقس فى أفضل حالاته هذا الأسبوع برغم توعك الشمس، لاحظتُ لشىء غريب، أنا الوحيد الذى نزل فى هذه المدينة، وبعدها مباشرة تحرك القطار، التفتُ إليه كما لو أننى أحاول أن أستفسره. ثم انتبهتُ إلى أن جميع الركاب ينظرون لى باستغراب، كأننى مخلوق غريب. تابعتهم من وراء النوافذ الزجاجية المتحركة، تحوّلت نظراتهم إلى ازدراء واستهجان حتى اختفى القطار وعلت ملامحى امتعاضة. ماذا حدث؟ سألت نفسى. بدأ الشك يشب على أمشاطه، وكما هى عادتى أخلق تفاصيل مرّيبة، لم أهتم بها لحظتها. تساءلت، لماذا كانت تنظر لى تلك العجوز الهولندية بطريقة غريبة وعجيبة؟ وذلك الشاب الذى كان يحمل حقيبة على ظهره حاول أن يجلس بجانبى على الكنبة ولكن سرعان ما غيّر رأيه وجلس فى مكان آخر. وكذلك مفتش التذاكر، سلوكه معى كان مقصوداً، عندما طلب منى إبراز التذكرة لم يكتفِ بقراءة التاريخ فقط بل أمسكها بيده وتفحصها جيداً كما لو كان يتوقع التزوير، مع العلم أنه لم يفعل ذلك مع الآخرين، وهذا إن دل على شىء إنما يدل على أن هناك مؤامرة ممنهجة. كان هذا هو إحساسى فى تلك اللحظة. حاولت أن أتجاوز شكوكى قدر الإمكان، إهدأ يا اشرف، كن طبيعياً، لا تتوتر. ظننتُ أننى أسأتُ لهم أو ارتكبت حماقة لا تُغفر، ولكنى متأكد من تصرفاتى وواعٍ بها

بشكل جيد، ورغما عن ذلك عدتُ أسأل نفسى، هل بدر منى تصرفاً خاطئاً وأنا غير منتبه؟ قمتُ بإعادة سريعة لتصرفاتى الأخيرة داخل القطار، لقد قرأت بعض العناوين الرئيسة على صحيفة المترو المجانية ثم تركتها فى مكانها، اغلب الوقت كنتُ انظر من النافذة، محاولاً تهجى أسماء المحطات التى توقف بها القطار وعندما جاء دور هذه المحطة قرأت الاسم فى اللافتات الزرقاء ثم نهضتُ من مقعدى ووقفت أمام الباب، انتظرتُ حتى توقف القطار تماماً ثم ضغطتُ على الزر الأخضر الذى جعل الباب يفتح تلقائياً، دققت فى هذه الأحداث لم يكن هناك شىء يدعو لكل هذه الدهشة والاستهجان، إذن لماذا هذه النظرات المريبة؟ لم يكن لدىَّ أدنى فكرة عما يجرى وأيضاً، لم يكن بالإمكان إنكار التوتر الذى اجتاحنى فى تلك اللحظة، لذا إستبدلتُ ملامحى بعلامة تعجب، وفى لحظة واحدة رفعتُ أكتافى للأعلى وأخلجتُ حاجبى ثم أدلمتُ شفتى السفلى حتى رأيتها، بعد ذلك تفوّهت بجملة داعرة ومن ثم استدرتُ نحو مبنى المحطة. بدت لى هى الأخرى مهجورة لتتعظّم حيرتى، ليس بها أحد غيرى، حتى الرصيف المقابل كان خالٍ من الركاب، شعرتُ أن هناك شيء ما غير طبيعى، تشكل لدى انطباع غير مُريّح، أقرب إلى النحس ربطتُ هذا الإحساس بنظرات ركاب القطار لحظة مغادرته، صدقت أمى، كانت تقول لى دائماً: "أنت مثل خالك جعفر، شكّاك وخواف"، خاطبتُ نفسى بصوتٍ خافض هناك شىء ما ليس على ما يرام، لكن ما هو يا ترى؟ هل يمكن أن أكون قد

أخطأت فى المحطة؟ يستحيل. ها هى أمامى وعلى مستوى رؤيتى بالضبط لوحة سوداء مستطيلة كُتبت عليها بالخط الأبيض العريض اسم المحطة، إذن هى نفسها المدينة التى اقصدها، ولكن لماذا تبدو هكذا مهجورة وخالية من الركاب؟ ربما لأنها ليست من المدن الكبيرة المشهورة. إلى حد ما تبدو إجابة مقبولة، حسناً، ولكن لماذا تلك النظرات المستفزة التى رمقنى بها الركاب؟ لا إرادياً نفختُ هواءً قوياً من فمى جعل شفتاى تهتز بسرعة مصدرة صوت "طرررررر"، يحدث لى هذا لحظات الشلل الذهنى، حالة أشبه باستدعاء الغباء الطفولى حتى تشفق على عقلى فكرة ما. نظرتُ فى كل الاتجاهات كما لو أن شكلى يثير الشبهات، كان الملمح السائد يوحى بالخراب. استرجع فى ذهنى تلك الوجوه الوقحة التى تابعتنى من نوافذ القطار، لا يمكن أن تكون عنصرية اتفق عليها الجميع فى لحظة واحدة، ربما هى صدفة ليس إلا، أحاول تهدئة دواخلى، لكن هل يعقل للصدفة أن تستهلك نفسها مرتين وفى نفس التوقيت: أولا، أكون أنا الوحيد الذى ينزل من القطار بهذه المحطة، وثانياً، كل الركاب يتابعونى بنظرات تهكم، موقف كافٍ ليرتعد بدنى وأحس بالقشعريرة. باختصار تحركتُ بخطواتٍ بطيئةٍ متقدماً للأمام، مدفوعاً برعب مشابه لما يشعر به المرء لدى توقع لحظة انفجار، الحذر واجب، هكذا قلت لنفسى كأنى مطالب بالتبرير، كانت الساعة تشير إلى 13:23 بعد الظهر، لاحظتُ لمبنى المحطة، كان صغيراً ومنقسماً إلى جزئين بينهما ممر واسع مسقوف على شكل قوس، كانت على

يسارى عدد من المكاتب تبدو خالية من أى حركة، لا ليست تبدو، إنها فعلاً خالية من أى بشر، وعلى اليمين استراحة الركاب واجهتها زجاجية وأمام بابها تكومت أوراق الشجر اليابسة لتصبح دليلاً قاطعاً على إغلاقها، أو لم تعد تتحمل قلق الانتظار، لم أرَ أى شيئا يدل على أن هناك محطة قطار، فقط ثلاث ماكينات لبيع التذاكر، من نوعية الموديلات القديمة والتى لا تستجيب إلا للعملة المعدنية فقط وليس بها شاشات الكترونية تستخدم باللمس كالتى توجد فى معظم محطات المدن الهولندية الكبيرة، بداية غير مشجعة للسكن فى هذه المدينة، أكيد لن استطيع احتمال ذلك. شعرتُ بالاستياء ،خمنّت، ربما تكون مثلها مثل قرى الريف الهولندى، اجتزتُ الممر الذى يشبه الرواق، لفحتنى نسمة هواء بارد ورطب. عضضتُ على أضراسى بقوة كما لو أننى أريد أن اكتم صوت الخشخشة المزعجة الصادر عن هرس أقدامى لأوراق الشجر اليابسة. وجدت نفسى أواجه ساحة كبيرة فى وسطها شجرة ضخمة، بدا لى وكأننى أواجه عدو بدون ذخيرة. أسوأ ما فى الأمر لم أشاهد أى مخلوق فى هذه الساحة، رفت عينى اليسرى، أمى تقول إن كانت رفّة العين من الجفن الأعلى سترى شخص لم تتوقعه، أما إن كانت من تحت العين ففى الغالب أنك ستبكى، لكنى لم استطع أن أتبين مكانها الصحيح، أو بالأصح اللحظة غير مناسبة لفك شفرة التنجيم. هبطت ورقة جافة من الشجرة على كتفى كتمت على أنفاسى، التفت غريزياً إلى كل الاتجاهات، أخرجت زفرة قوية ورحتُ اخفف على نفسى من وطأة الذعر. قلت

لنفسى، أنا متوتر فقط، ليس هناك شيء يدعو للخوف، سأسكن هنا لفترة قصيرة لأنها قريبة من مكان الدراسة، ويجب ألا أنسى أن هذا الكورس انتظرته طويلاً حتى توافق عليه بلدية أمستردام. أشعلت سيجارة وتدحرجتُ أعاين المكان، لا زال قلبى مشدوداً بسعف نخيل مُبتل، لم أر أى شخص خارج المحطة، موقف السيارات خالٍ، رجّحتُ ذلك لسبب التوقيت الذى حضرت به، منتصف الظهيرة. أخرجت هاتفى نظرت للتوقيت، كان من المفروض أن يكون هنا شخص فى انتظارى، احد أبناء وطنى ولكنى لا اعرفه، تكلمنا فقط عبر الهاتف ولنا صديق مشترك، مهمته أن يأخذنى لمعاينة الغرفة التى سأسكن بها بصورة مؤقتة، وبما أننى لم أر شخصاً خارج المحطة وبالأصح كنت خائف، اتصلت عليه ووجدت هاتفه مشغولاً، رجعتُ أداوم على خوفى، غمغمتُ بمفردات وقحة، وشنّفتُ سلوك أبناء وطنى وخاصة فى تعاملهم مع الالتزام بالمواعيد، خاطبت نفسى بصوتٍ مسموع، من طريقة كلامه، كان واضحاً أنه من تلك الفئة التى لا تتأذى نفسياً إذا لم يفِ بوعده. منذ أن شعرتُ به يكرر لى فى جملة: إن شاء الله، عرفتُ أنه شخص غير جاد، يستحيل التزامه بالمواعيد، إحباط جديد، نحن أصلا لن نترك عاداتنا مهما طال بقائنا فى أوروبا. لابد أن اقرّ بأن المكان الخالى بقدر ما كان مخيفاً شجعنى على التفكير بصوت مسموع، وعندما أكون خائفا أمارسُ هذه العادة التى ندر ما اعترفت بها. استبدلت شنطة كتفى من الجهة اليمنى إلى اليسرى دون سبب واضح، اتصلت عليه مرة أخرى وهذه

المرة جرس بدون رد. جاوب يا دين حجر، هكذا قلت محدثا نفسى. حتى لا أفقد أعصابى قررت أن أتجول واكتشف المكان القريب من المحطة، تدفعنى رغبة لرؤية أى شخص، إنسان استمد منه الطمأنينة، رحتُ أبدد الوقت بالتدخين والمشى فى نفس المكان حتى يأتى هذا الشخص الأرعن. على يمينى كانت هناك حديقة مهملة، سياجها المهدم يحتجز الأوساخ بصورة ملفته للنظر، تحركتُ نحوها، خطوات أقدامى تهرس فى صفق الشجر الجاف هرساً وتضرس أسنانى، تفاديتها بدخولى أرضية الحديقة. بدت لى مدينة حديثة بعض الشيء، المبانى بطراز عصرى، غياب تام لرائحة الرطوبة التى تعشعش فى أحياء أمستردام، ولكنها أشبه بمدن الأشباح التى تصورها السينما عادةً، هدوء تام، صمت مفتعل قبل بداية المجزرة، صراحة أكره هذه النوعية من الأفلام، مبتذلة وسخيفة. فجأةً فطنتُ لشيء يدعو للرعب، سمعتُ على أثره ضربات قلبى، حتى على محيط المحطة لم أر أى شخص، تذكرت نظرات الركاب والقطار مغادر، تحركت بخطوات سريعة، اقتربت من شارع الأسفلت الذى تفصلنى عنه الحديقة، متوقعاً ظهور هذا الشخص فى أى لحظة، أهدئ نفسى باحتمالات، فى الغالب سيأتى من هذه الناحية، أو ربما من الجهة الأخرى للمحطة، وحتماً لن يجتهد كثيراً للبحث عنى، فليس هناك بشر غيرى فى هذا المكان اللعين. رحتُ لا شعورياً أدندن بأغنية، نفس الأغنية التى رددتها وأنا فى القطار، تذكرت سبب إصرارى على ترديديها، أنها عالقة بذهنى منذ أن استمعتُ لها

ليلة أمس من على جهاز الكمبيوتر، أصبحت مملة بعد هذا الاكتشاف. وجدتُ أقدامى تجرجرنى إلى منتصف الحديقة، كان فى وسطها يقف نصب تذكارى مهمل، عبارة عن مصطبة مرتفعة حوالى متر ونُصِبت عليها ألواح من الرخام الأسود، اقتربتُ أكثر، كانت أوراق الشجر الذابلة والمبتلة بالأمطار مقززة، رائحة وملمس، لم تفِدها أشعة الشمس التى أضاءت المكان دون اثر لحرارتها. تقدمتُ بحذر، وقفت أمام ألواح الرخام، رأيت بها ستة وستين اسماً منقوشة بخط ذهبى مقسمة على ثلاثة ألواح رخام ومدوّناً عليها تورايخ وفاتهم على يد قوات جيش هتلر، رحت أحاول تهجى بعض الأسماء وتاريخ الوفاة، غالبيتهم لقوا حتفهم فى شتاء الجوع، ذلك الشتاء الذى ضرب هولندا بقسوة ومؤامرة من الاحتلال الألمانى. لا ادرى، شىء ما جعلنى ابحث عن أسماء يهودية تقليدية، لاحظت أن هناك بعض الأسماء عند الهولنديين مكررة، كما لو أنها مقدسة، وبينما أنا منشغل فى مهمتى وإستهجاء الأسماء وأدخن، فزعنى صوت جهورى، لهجة سودانية لا تخطئها الأُذن مطلقاً:

– سيجارة لو سمحت.

التفت مُخفياً جفلتى وفزعى بابتسامة مصطنعة كى أرد على الطريقة العبيطة التى جاء بها هذا الشخص ليحافظ على مخزون الاعتذار الوطنى، وأساسا ليس هناك لزوم لتغليف الحرج بالمزاح، على كلٍ، أنا لن أعاتبه على التأخير، فهو فى نهاية الأمر جاء من اجل مساعدتى، اتفقتُ مسبقاً مع هذه التبريرات لأننى لن أجرؤ على

مواجهته وانتقاده أو توبيخه على التأخير، أنا لا أقوى على هذه الجرأة، لم يحدث أن واجهتُ أحداً برأيى الذى أبطنه نحوه، اخجل من مواجهة الحقيقة مثل معظم البشر. ولكن الغريب فى الأمر رأيتُ شخصاً يستحيل أن يكون هو نفسه الذى انتظره، شخص كأنه شبح، كنتُ قاب قوسين أو اصرخ، تقهقرت خطوات للوراء، استعداداً للهرب، بدا لى كأنه أحد الأسماء التى على النصب التذكارى، شبح خرج من المقبرة لتوه، قلبى قفز إلى الجانب الأيمن، صواميل مفاصلى سقطت سهواً، وقفتُ مستنداً على رعبى، أبحلق فيه وأنا ارتجف، لم تبدر منه أى حركة مخيفة، ظل يحدق فى عينى مباشرةً وهو جامد، ترك لى سانحة تفكير، تبدو فعلاً مدينة أشباح، وإلا من أين جاء هذا الشخص؟ هل فعلاً تحدث بلهجة سودانية أم هى مجرد تخيلات؟ تذكرت نظرات الركاب عندما نزلتُ فى هذه المحطة، أعتقد أننى فى مأزق حقيقى، ماذا أفعل الآن؟ أأهرب نحو شارع الأسفلت؟ أم أعود إلى المحطة؟ ولكن ربما أجد شبحاً آخر ينتظرنى هناك، لا شعوريا إلتجأتُ للمقاومة الداخلية، رحت أتلو فى سرى آية الكرسى بسرعة فائقة كما لو أننى أسابق نيّة هذا الشخص البشع قبل أن تصدر عنه حركة مباغتة، ظلت عينيه المحمرتان تحملقان فى وجهى بدون أن يرمش، وبعد ثوانٍ لم احسبها من شدة الخوف، سمعته ينطق مرة أخرى بصوتٍ واهن:

- يبدو أننى أرعبتك، بشكلى المخيف، على كلٍ أنا أسف، هل ممكن أن تمنحنى سيجارة؟

لعنته فى سرى، لقد تأكدتُ بما لا يدعو للشك أنه من أبناء وطنى قلت لنفسى، لا لا، يستحيل أن يكون هذا هو الشخص الذى سيستقبلنى!! اعتقد أنه معتوه. لحيته نمت لشهور عديدة، شعره مُلبّك بالأوساخ، له ضفائر خشنة تدلت حول كتفيه، وبشّعت بملامحه، أسنان صفراء ومقزّزة، يرتدى بنطلون جينز فقد لونه الأصلى، وسترة سوداء ممزقة من الأطراف، وحذاء رياضى عاجز عن مهمته. كان أطول منى بقليل، رائحته نتنة تستدعى التقيـّؤ من أصوله، عينيه ترتجفان داخل محجريهما، يكْرشُ فى جسده بصوت خشن، يرتعش، يتابع بنظرات شغوفة دخان سيجارتى ولا شعورياً أصبعا يده السبابة والأوسط يقلدان طريقة التدخين، أظافره كانت سوداء قذرة، عند هذه الملاحظة تأكدتُ انه أحد المدمنين الذين يعيشون على المحطات، ما أكثرهم فى محطة أمستردام، من عادتى أن احتقرهم ولا أوليهم أدنى اهتمام، ولكن لا بأس هذه المرة، ربما لأنه أول شخص ألتقيه فى هذا المكان، أو لأنه صراحةً أربكنى ولم يترك لى مجالاً لتجاهله، تنفستُ الصعداء وتصنّعتُ ملامح جادة أخفى بها رعبى، وبسرعة وارتباك مددت له سيجارة ثم كتمتُ على أنفاسى حتى أشعلتها له، رائحته كانت لا تطاق أبداً، غادرنى مباشرة بعد أن نفث أول دخان، ذهب يطنطن دون أن يشكرنى، كما لو أنه استعاد دين قديم بعد محاججة، مشى بخطوات سريعة وجلس متكئاً بظهره على جذع الشجرة الضخمة متلذذاً بالتدخين، ينفخ الدخان للأعلى ويتابعه كما لو أنه سيتوصل لنتيجة حتمية ينسف بها مضار التدخين، كان

بالقرب منه شوّال كبيرة بلون بنى بداخله ملابس وأشياء قديمة ، يظهر من بعيد كصخرة، وحوله أكياس وأشياء أخرى تؤكد تشرّده، تابعته بأقل اهتمام بعد أن شتمته فى سرى بعبارات غير مهذبة، لأنه صراحةً، أفزعنى، كان شكلى سيبدو جباناً ومخزياً وأنا اهرب من معتوه، تفاديت قدر الإمكان إخفاء ابتسامتى عندما لاحت بخاطرى الطريقة المضحكة التى كنت سأجرى بها وأنا افقد هيبتى، يخيّل إلى أن من الظلم أن أورطه فى حقدى، شعرتُ به يتكلم بصوت غير مسموع وبين الفينة والأخرى يرمقنى بنظرة ثم يبتسم، وعندما يصطدم بنظراتى الجادة، يشيح ببصره إلى الأمام ويشتم فى شخصٍ غير مرئى، كأنما شعر بمراقبتى له وراح يفتعل تلك الحركات. تابعته وأنا أتساءل هل هو مطالب بأن يثبت لى مدى اختلاله العقلى؟ هيئته تكفّلت بذلك، سلفته بعضاً من شفقتى التى تضاءلت فى الفترة الأخيرة، ربما لأنه أحد أبناء وطنى، وفى الغربة ينمو لنا حنين إضافى للون البشرة، ذهنى تعرّض لأسئلة تقليدية، كيف وصل لهذه الحالة؟ ما الذى حدث له؟ هل بسبب إجراءات اللجوء التعسفية؟ لم اجتهد كثيراً لأغوص وافترض أسباب وأصل بها لإجابات مرضية، الأمر لم يكن يعنينى كثيراً. عدت أعاين المكان، أتأمل اللافتات، مكتب رعاية صحية للأطفال، صيدلية وعيادة أسنان، شارع خاص للدراجات بلونٍ طوبى مرافق لشارع الأسفلت ولكن مفصول بحاجز، لم أشاهد دراجات مثل أمستردام، فعلاً شىء غريب هل هذه المدينة بلا سكان؟ إلتفت إلى الجهة الأخرى حتى أدحض فكرتى. فى هذه

اللحظة سمعت صوت سيارة تتوقف يترجل منها شاب مبتسم، لوح لى بيده وهرول نحو هذا الشخص المعتوه ووضع أمامه كيس دون أن يتكلم معه، مثل ما يزيح شخص حجر من الطريق ويضعه قرب شجرة. ومن ثمّ أسرع لملاقاتى، ببهجة كأنه تلّقى نبأ رائعاً، شاهراً ابتسامة سخيّة حشّفت من عينيه وضيّقتهما. كنتُ لحظتها قد خرجتُ من حديقة النصب التذكارى مدفوعاً نحوه بلهفة من عثر على طوق النَّجاة، لنلتقى فى نقطة أقرب إلى جذع الشجرة الضخمة، عانقنى بود مفرط كأنه يعرفنى منذ فترة طويلة أو كأنه شعر بالرّعب الذى تعرضتُ له قبل قليل. ربّت على ظهرى بضربات سريعة ومُوجعة، لا يمكن أن يكون هذا سلام! تذكرتُ أننى تلقيتُ هذه الرصعات المُعبرة عن السلام بعد عودتى الأولى للوطن بعد غياب استمر سبع سنوات، وخاصة عندما زرتُ أهل والدى فى القرية. ولكن لم أتوقع أن أصادف أحداً فى هولندا محتفظاً بهذا الإرث. تشكّل لدى انطباع بأنه إنسان بسيط، والحصيلة كانت حكة فى منتصف ظهرى. رحّب بى بفرح، صوته مبحوح يجعلك لا شعورياً تتنحنح معه، قصير القامة وأجلح، ملابسه غير متناسقة، يرتدى سترة ليست مقاسه، عرّفنى على نفسه:

– أنا عثمان جبارة، لكن معروف بعثمان فخة.

ثم انفجر فى ضحكة عالية، جاملته بابتسامة عريضة مخلوطة بكحة السجائر، أصرّ على حمل شنطة كتفى الخفيفة مع كوم اعتذارات على تأخيره، الغريب فى الأمر أن تعابير وجهه لم تكن توحى بأنه

متأسف على التأخير. عبثا حاولتُ أن أتمسك بالشنطة، لكنه انتزعها منى بالقوة بعد أن حلف بكل مقدساته، توجهنا إلى سيارته، حاولتُ بيدى اليسرى أن أتحسس مكان الرصعات والضربات التى نلتها من هذا السلام، إحساس بتهيُّج جلدى ودعوة ملحة للهرش، محاولات يائسة من أصابعى للوصول إلى منتصف الظهر وحكه. فكرتُ أولاً قبل كل شىء أن اطرح عليه تساؤلاتى: أين سكان هذه المدينة؟ ولماذا كان ركاب القطار ينظرون لى بطريقة غريبة لحظة نزولى فى المحطة؟ فتحت باب السيارة وجلستُ على المقعد ورحتُ ادعك فى ظهرى بالمقعد، التفتُّ أتابع المعتوه، وكما توقعت لقد فتح الكيس وبدأ يأكل بلا شهية، خطر بذهنى أن اذهب إليه وأعطيه علبة سجائرى، إحساسى بالكرم دائماً ما يأتِ متأخراً أو بتأثير من الآخرين، ولكن للأسف ها هو عثمان فخة يدير محرِّك السيارة ليعطِّل الفكرة، كان من الممكن أن استأذنه، ثوانٍ معدودة، أرمى علبة السجائر أمام هذا المعتوه ثم أعود، لا أدرى لماذا تردد، كان من الممكن أن أفعلها بكل يُسر، واحتفظ بسيجارة واحدة حتى أشترى علبة أخرى، رجعت أتأمله، تابعنى بنظرات قاسية وهو يلوك الطعام، كان بمقدورى أن أتخيل المرارة التى يتذوق بها الأكل. حدقنا فى بعضنا حتى دارت السيارة دورة كاملة ليلتف الندم حولى وأستعين بزفرة هواء حادة، ولكن سريعا ما خففتُ من وطأة تأنيب ضميرى وقلتُ لنفسى، لا يهم الآن، سأعود للمحطة بعد قليل للمغادرة وحتماً سأجده، حينها، سأعتذر له وأعطيه باقى السجائر. عثمان فخة يبدو أنه أحسّ بى أتابع المعتوه

ولم أركز مع حكايته التى كان يسردها بمتعة ليبهجنى، التفت لى مباشرة لحظة أن توقف أمام إشارة المرور:

– تخيل يا أشرف...

ثم صمت كأنه شعر بأنه سيورط نفسه فى زلة لسان ثم استدرك:

– مش فعلا الاسم الأول اشرف، ولا أنا غلطان؟

أومأت بهزة رأسى حتى لا أعيق استرساله، ولكنه أطلق قهقهة ولام ذاكرته البليدة، ثم واصل:

تخيّل هذا الشاب سودانى، سكن معنا فى هذه المدينة مدة طويلة، شخص ممتاز جداً، ولكن للأسف الشديد ماتت زوجته الهولندية فى ظروف غامضة، يقال أنها انتحرت والبعض الآخر قال إنها قتلت، المهم بعد ذلك تدهورت حالته النفسية إلى الحد الذى لم يعد بإمكانه رعاية طفله، ومهّد بنفسه لمنظمة رعاية الأطفال التى أخذته منه عنوة. بصراحة كان مستهدفاً، مسكين، تحوّل إلى هذه الحالة التى يرثى لها.

سألته ذلك السؤال المستهلك فى تلك الحالات التى أجد فيها نفسى عاجزاً عن بلورة إحساسى أو اتخاذ رأى إيجابى، قاطع تجاه ما يسرد من مأساة، باختصار رسمتُ تكشيرة على وجهى، تكشيرة نمطية يمكن لها حتى أن تصلح ردة فعل لاحتراق مكرونة على النار، استخدمتُ سلاح الأسئلة لكسب الوقت للإتيان برد فعل حقيقى رد على بانفعال كأننى ألومه هو شخصياً:

– لقد فعنا ذلك أكثر من مرة، ولكنه رفض بشدة، لقد أصبح شخصا

حادا جدا.

قلت له:

– حسناً، أليس له هنا معارف أو أقارب، يعيدونه للوطن؟

نفى بشكل قاطع أن يكون لهذا الشخص أقارب أو أصدقاء. لحظتئذٍ غمرتنى عاطفة تجاهه أدهشتنى أنا نفسى. للأمانة كنت فى حالتى العادية عندما أسمع عن شخص ألمّت به ظروف عوِيصة مثل هذا المعتوه، أتعاطف بالقدر الذى تسمح به أنانّيتى فقط، ومن ثم أتفاخر بحظى الذى تكفّل بدفع الضرائب نيابة عنى. ولكن مع هذه المعتوه الذى أرعبنى قبل قليل كان الإحساس مختلفاً. فمن المؤكد أنه نال نصيبه مضاعفاً من الخيبة والإحباط. سرحت مع فكرة انتحار زوجته متجاهلاً الرأى الذى يرجِّح احتمالية قتلها، لسببٍ بسيط هو تضاؤل نسبة الجريمة فى هذا البلد، وفقدانه لابنه فى غربة قاسية الطقس، ضياع زوجة وابن سببان كفيلان بانفجار الدماغ، وأثناء اللحظات النادرة لمؤامرة العبرة وكمين الدموع، أخذ عثمان فخة منحنىً سيئاً، مثل تعامله المستهتر مع فن القيادة، وراح يحكى عن المدينة ويجمّلها ليصبح أشبه بسمسار عقارات محترف. أغاظنى جداً، شعرتُ به كشخص يعبر شارع الأسفلت فى أماكن ليس بها خطوط عبور مشاة، واصل قهقهته وهو يعدِّد لى محاسن المدينة، ومن ضمن المحاسن حسب رأيه أنها مدينة هولندية ولكن بدون هولنديين، وكأنه أحس بسؤالى القادم، بإحساس التشفى أجابنى:

– لقد هجرها الهولنديون، نعم هجروها لأن الأجانب أصبحوا أغلبية،

وهذا ما جعل عنصريتهم تطفح، تخيَل. أعلنوا بكل صراحة عن استيائهم لاستقبال الأجانب، ليتأجج الصراع ويصل ذروته فى معركة حاسمة ينتصر فيها الأجانب. وأنت تعلم أن الهولنديين جبناء بطبعهم، لم يصمدوا أمام هتلر أكثر من ست ساعات، شعروا بأقليتهم، خافوا على أرواحهم وراحوا يتسللون واحداً بعد الآخر.

فى البداية شعرت به كلاماً غير منطقياً، ولكن عندما ربطت ذلك بنظرات ركاب القطار تقبّلته على مضض، تحاشى عثمان فخة أن يتحدث عن التفاصيل التى سأعرِفها فيما بعد، ولكن المعتوه تلصص على ذهنى عنوة، رجعت أتخيل أننى فى مكانه ومررت بنفس الظروف، هل يا ترى سأصل لنفس النتيجة الحتمية؟ لا أدرى شيئاً ما جعله ينخر فى ذهنى، رغم أننى جئت هنا لمهمة محددة، يجب أن تنتهى وأعود أدراجى.

عثمان فخة قبل أن ينهى لى مهمتى أنجز عدداً من المهام الخاصة به وأسرف فى ضحكته المجلجلة، لذلك عرفتُ سبب التسمية. يحمل فى سيارته أشياء مختلفة، بعضها داخل صناديق والبعض الآخر فى أكياس مانعة الرؤية، توقف فى عدة أماكن وسلّم البضائع مع قهقهة عالية، حسدته على سجيته وبساطته، أوقف السيارة فى شارع رئيسى مزدحم بالناس والمحلات التجارية المختلفة، ملابس مشنوقة على حبال حجبت مداخل المحلات، محلات لصيانة الموبيلات، ورشة موبيليا، مقاهى انترنيت، مطاعم مختلفة الجنسيات، لافتات بكل اللغات عدّا الهولندية، إزدحام يعيق حركة السيارات لذلك وجدت عذراً

لخلو المحطة من البشر، ولكن المثير للدهشة هذا المكان لا يشبه هولندا إطلاقاً، شعرتُ كأننى فى دولة أخرى، اقتنعتُ بكلام عثمان فخة يبدو فعلا أن الهولنديون هجروا هذه المكان لتصبح مدينة متعددة الجنسيات. لاحظتُ أن عثمان فخة مشهور فى هذا السوق، صافح البعض وتحدث صارخا مع المارة، دعانى للدخول إلى مطعم تركى وصافح عاملة الكاشير واثنين من العمال، وبدون أن يستشيرنى، طلب لى طبقاً من اللحوم المشكلة، شيش طاووق، كباب، شاورما، شرائح لحمة مشوية، وطبق آخر به سلطة مشكلة مع الطحينة والزيتون والجبنة البيضاء، كانت وجبة دسمة. شربت بعدها زجاجة كوكاكولا، تفاجأتُ بصوت دوى التجشؤ يصدر من داخلى حتى اهتز جسدى، انفجار حقيقى، التفتُ فقط نحو الفتاة التركية التى تصدر أوامر الطلبات، سعدت جداً أنها لم تسمع هذا الصوت كأنه صدر عن كائن خرافى.

أخيراً تفقُّدت الغرفة التى ساسكن بها مؤقتاً، كانت تلائم مِزاجى، اتفقت مع صاحبها على كل التفاصيل، وأنا فى عجلة من أمرى كى أعود للمحطة وألتقى ذلك المعتوه، لا أدرى ما الذى يجرّنى نحوه بهذه القوة المغناطيسية؟ هل يعقل أن يكون ما يجذبنى نحوه فقط كى أسلمه علبة السجائر؟ ربما تعاطفت معه لمجرد أنه أحد أبناء وطنى ليس إلا. وجدتُ المسافة من موقع الغرفة للمحطة قريب جداً ويمكن أن أمشيها على أقدامى، وأجد مبرراً اهرب به من عثمان فخة. قلت له:

– بما أن المحطة قريبة، من الأفضل أن أتمشّى حتى أتعرف على الطريق الذى سأسلكه يومياً.

أجابنى منفعلاً:

– لا يمكن أن تعود للمحطة وحدك، مستحيل، أنت ضيفنا.

تركنى لخيارى بعد مصارعة حرة وإصرار مبالغ به، فهو شخص من النوعية التى تسعد برفقته إلى حيّن، شخص كريم وتلقائى فى تعليقاته، يتمتّع بخفة دمه مذهلة ولكن مشكلته تكمن فى أنه بمجرد ما يشعر أنك مستمتع به يزيد من عيار قفشاته بصوره مفتعلة ليصبح شخصاً مملاً، حتى إنك ترغب فى أن تصفعه ليكف عن هذا الهرج، فهو إنسان بسيط لا يعلم أن عبقريته تكمن فى عفويته، تخلّصت منه بمشقة بعد أن أمدنى بمعلومات عن هذه المدينة.

2

كانت فى السابق بلدة صغيرة تقع فى وسط هولندا محاطة بغابات كثيفة، بها محطتان للقطار واحدة فى الناحية الشمالية تربط البلدة بخط أمستردام وتمر بها القطارات الدولية، والأخرى تقع على الناحية الشرقية ويمر بها القطار القادم من جنوب هولندا عدد سكانها قليل وغالبيتهم هولنديون طيبون، يعشون فى بيوت متشابه بأسقف مضلعة وحدائق أمامية وخلفية حتى الأغنياء منهم كانت بيوتهم بنفس الشاكلة، يتسوقون من نفس المحلات التجارية كأنهم دعاة الاشتراكية. أما الاختلاف الوحيد بينهم، كان غير مرئياً، هو الأماكن التى يقضون فيها عطلاتهم الصيفية، يحدث أن تكون تكلفة تذكرة طيران أحد الأغنياء لجزر الكاريبى تعادل ميزانية أسرة كاملة لقضاء عطلة صيفية فى إحدى "البانقلوهات"، ولكن تجدهم يجلسون متجاورين على مقاعد الكنيسة الخشبية. سياراتهم متشابهة، يغسلونها بأنفسهم فى عطلة نهاية الأسبوع. كانت بيوتهم تتحوّر مع الطقس، تزهر حدائقها فى الربيع وتنزاح الستائر القاتمة وتطل من خلف النوافذ منحوتات جالسة على أرفف. كراسى الحدائق تستعد لتستقبل أشعة الشمس، وسط الخضرة. هذه البيوت برغم أنها قديمة ولكن تشعر أنها مصممة بهندسة تخطيطية جيدة، لقد أنشئت حول المبانى الرئيسية والأسواق بحيث صارت عبارة عن دوائر متوالدة بينها شوارع أسفلت واسعة. قبل سنوات سكن بها عدد قليل من الأجانب، وجدوا

ترحاباً ومعامله حسنة من الهولنديين، وغالبيتهم استأجروا شققاً فى عمارات قديمة ذات طابقين وقريبة من وسط المدينة، وكان المبنى الوحيد الفخم فى تلك المنطقة هو عمارة دار العجزة والمسنين تفتح مباشرة نحو الأسواق والمقاهى، وأيضاً كانت هناك المبانى الحكومية بما فيها مبنى البلدية، كانت تعتبر بلدة نموذجية، صغيرة وهادئة، يعيش سكانها فى سلام تام، حتى جاء رئيس البلدية "البيرت فان ديرك" باقتراح مذهل، بعد أن توصل مع مساعديه إلى خطة لتحويل البلدة إلى مدينة تنافس المدن الهولندية الكبيرة، وذلك لموقعها الاستراتيجى، بها خطان مختلفان لحركة القطارات وتربط جنوب هولندا بأمستردام، إضافة لذلك يمر بها أكثر من ثلاثة طرق سريعة رئيسة. هى ليست بالقرية ولها مقومات التوسع لمساحة كبيرة خاصة وأن حولها غابات كثيفة ويمكن بسهولة إزالة الغابات التى فى جنوبها الممتدة حتى حدود الطريق السريع. ولكن لكى يوافق البرلمان الهولندى على اقتراح فان ديرك كان لابد له أن يزيد عدد السكان البلدة أولاً، لأن هناك نسبة سكانية محددة للمدن ولابد أن ينطبق هذا الشرط. فطُرِح القرار للاستفتاء داخل البلدية فوجد الدعم من كبار المزارعين وأصحاب الشركات، أما السكان الأصليون فانقسموا إلى فئة مؤيدة وأخرى رافضة دخول الأجانب بأعداد كبيرة، ولكن الغالبية كانت مع أصحاب الاستثمارات و تم بناء عمارات كبيرة بعد إزالة جزء من الغابة التى تحف بالبلدة من الجهة الجنوبية ولم يؤثر ذلك على خضرتها، لقد كانوا يطلقون عليها اسم البلدة الخضراء. توسّع

السوق ليضم محلات تجارية أخرى وظهرت استثمارات فندقية وتم إنشاء مستشفى كبير وعدد من المرافق الحكومية، وفى وقت وجيز تم إنشاء عمارات ووحدات سكنية متكاملة وتم الإعلان لاستقبال مستأجرين بلا شروط، فكانت فرصة ذهبية للأجانب الذين كانوا ينتظرون دورهم للحصول على سكن، وجدوا ضالتهم فى هذه المدينة الجديدة التى تفتح ذراعيها، فهجموا على شقق حديثة بدون تعقيدات وانتظار، وفى غضون أشهر قليلة اكتمل النصاب، امتلأت العمارات بالوافدين الأجانب وأقيم احتفال أمام البلدية بحضور الرأسمالى "ماريو كوك" الذى يقال أنه الداعم الرسمى والمهندس لهذه الفكرة وتبادل شرب الأنخاب مع "فان ديرك" رئيس البلدية ومساعديه والمؤيدين للحزب و عدد غير قليل من الهولنديين الذين آمنوا بالفكرة والذين لهم مآرب أخرى. ألقى رئيس البلدية خطبة رحب بالوافدين الأجانب وشنّ هجوماً حاداً على مناهضى دخول الأجانب ومتهماً إياهم بقصر النظر.

لقد كانت هناك شريحة تضم هذين الفريقين المختلفين يجتمعون شبه يومياً فى مقهى وسط المدينة الرئيسى كل صباح حسب عاداتهم ومعظمهم فى سن التقاعد أو سكان بيت المسنين نساء ورجال هم أول المستيقظين فى هذه المدينة يبدأون صباحهم بحوارات مع القهوة قبل التسوق ويحدث الجدل اليومى ثم يتفرقون على الأسواق.

الجاليتان المغربية والتركية كان لهما الحظ الأوفر فى احتلال عمارات المدينة الجديدة نسبة لتعدادهما السكانى العالى بسبب ظهور

الجيل الرابع، لقد جاءوا من مدن أخرى مكتظة سكانياً، بعضهم استقر فى سكنه سريعا وجلب أقاربه، لذلك تجد فى نفس العمارة أقارب وأشقاء وأحياناً فى طابق واحد. أيضاً الصوماليون لم يكن عددهم بالقليل جاءوا من معسكرات اللجوء مصطحبين أطفالهم بأعمار متقاربة، أربكت مؤسسة التعليم مما اضطرت البلدية معه لإنشاء مدارس ارتجالية بالقرب من المبانى الجديدة ومعظم طلابها من الأجانب وتم الاهتمام بهم بشكل ملحوظ وأصوات التعاطف كانت تتعقبهم باستمرار لسياسة الدولة فى الاهتمام بالجيل القادم. كانت هناك إحصائية، ولكنها غير دقيقة، تقول أن سبعين بالمائة من مسيحيى هولندا يقطنون بهذه البلدة لذلك احتفوا بالوافدين الجدد، قليل منهم الذى تذمر. رئيس البلدية "فان ديرك" اجتمع بالجاليات الكبيرة لتدعمه فى الانتخابات القادمة مقابل المزيد من المساعدات، أفراد الجالية المغربية طالبوا بمسجد مقابل أصواتهم واشترطوا أيضاً استقدام خطيب للمسجد من المغرب وأن يخصص له منزلاً وراتباً شهرياً، والأتراك طالبوا بنفس المطلب ولكن من غير خطيب مسجد، وتمّ إنشاء مسجدين فى المدينة قبل موعد الانتخابات، أما الجاليات العربية الاخرى فإعتصموا بمسجد المغاربة، بعد ذلك وجد الهولنديون أنفسهم محاصرين داخل منازلهم الأرضية بأجانب من مختلف الجنسيات ومحلات تجارية صغيرة تفتح أبوابها إلى وقتٍ متأخر من الليل وأصوات أغانى تخدش الصمت الذى تعودوا عليه. فاز رئيس البلدية مره أخرى ولكن شعر بعجز فى ميزانيته، لقد جلب

عدد كبير من العاطلين عن العمل يدفع لهم إعانات شهريا جعلتهم يتكاسلون أكثر ويستلذون بعطالتهم التى لا تبدو لها نهاية، وخصوصا أن بعضهم وجدوا أشغالاً هامشية من وراء ظهر البلدية حتى لا تتوقف عنهم الإعانة المجزية.

3

عندما عدت إلى المحطة لم أتوجه نحو لوحة مواعيد القطارات، وإنما رحتُ أبحث عن المعتوه، لم يكن جالساً، فى مكانه تحت الشجرة ولكن شواله القذر كان فى نفس المكان قرب ساق الشجرة الضخم، قلت لنفسى، أتمنى ألا يكون قد غادر المكان. عندئذٍ لمحته يتبول واقفاً على النصب التذكارى بلا أدنى توتر ودون اعتبار لذكرى هؤلاء الموتى، خطر ببالى أنه يشفى غليله بخيال مبتكر، يتبول على أكاليل الزهور التى كان يتم وضعها فى الذكرى السنوية، اتجهتُ نحوه بخطوات بطيئة حتى أدعه يكمل مهمته بإخلاص، واستلفت سيجارة من العلبة التى سأتركها له، عندما شاهدنى جلس مباشرةً كمن يستسلم لحظ عاثر، تهالك جسده بالتدريج على المصطبة التى شيّد عليها النصب التذكارى، مددت له علب السجائر والولاعة، أخذها وأشعل واحدة دون أن يشكرنى أو حتى يتخذ قرارا فيما كان سيعيد لى علبة السجائر أم يحتفظ بها. تركها ملعقة فى مصير قبضة يده، ظل يحدِّق فى مكان ما ويدخن بشراهة كما لو أنه ينتظر أن يهتدى لفكرة جيدة، لحظتئذٍ فضلتُ أن أغادره دون حوار، لقد أنجزتُ مهمتى وسلّمته علبة السجائر، يجب على أن أغادر وأنا محتفٍ بكرمى حتى اصل أمستردام. تساءلت، هل يا ترى استاء من إحساس تعاطفى إزاءه؟ لم تكن بمحفظتى نقود كافية حتى أدعمه، تردد قليلاً، خطرت لى فكرة، على الأقل أن أواسيه ببعض الكلمات

وخاصة بشأن فقدانه لابنه ولكنى شعرت بحماقة ما كنت سأتفوه به، أراهن أنه كان فى حالة نفسية مهتكة، جملة واحدة منى كانت كافية لانهياره التام. وفى اللحظة التى أدرت فيها وجهى، تنحنح بطريقة غريبة كما لو أنه يفحص فى حباله الصوتية ليتأكد من متانتها قبل أن يتكلم، لم يخطر على بالى انه يستطيع الآن أن ينبس بكلمة، ولكنى سمعت صوته كأنه يخرج من مخزن كتب قديمة يحمل فى نبراته رائحة الغبار:

– آلا زلت تكتب الشعر يا اشرف الصافى؟

إلتفت إليه بسرعة، مذهول، وقبل أن أختار أسرع سؤال انفض به غبار الدهشة وأقول له من أنت؟ أو كيف عرفت اسمى؟ وجدته يداهمنى حتى فى عقر خصوصيتى وعشقى:

– هل علاقتك برباب تاج السر أثمرت؟

كأنما مؤخرتى سقطت منى على المصطبة، جلستُ احدِّق به وفمى مفتوح ضلفتين، مشوش، جعلنى أنا الذى أبدو معتوهاً، حبستُ أنفاسى منتظراً إجابات، وعندما طال صمته، انتبهت أن أسئلتى تتصارع من أجل الأولوية داخل ذهنى ولم انطق بها بعد، ظل ينظر ناحية مبنى المحطة وعلت ملامحه امتعاضة كأنها محاولة جادة فى إخفاء ابتسامته الساخرة، شعرتُ به يتلذذ بتضليلى، أخيراً ظفرت بأحد الأسئلة:

– إنت منو؟

تغيّرت ملامحه بسرعة وارتدى قناعاً من نوع الغضب غير المبرر

داخلياً، لأنى لاحظتُ لجسده كان مسترخياً، وثانياً سؤالى لم يكن مفاجئاً ولا يحمل سوى استفهامٍ عاديّ ومشروع، فمن أين استدعى هذه العداوة؟ كمن يرتدى أزياء سهرة فى منتصف الظهيرة، فكرتُ، ربما شعر بأنه سيفقد شخصية المعتوه التى يتقمصها وحاول استعادتها بهذا التناقض حتى لا اكتشف أمره ولذلك لن يجيب على سؤالى، استدركتُ أننى أُفكر فى الاتجاه المعاكس لما ابحث عنه، من المستحيل أن يكون أحد أصدقائى، لماذا لا أجتهد قليلا كى أتذكره؟ التفت إليه بكامل جسدى ونظرت إليه بتفحص وتابعتُ تفاحة آدم التى كانت أبرز مميزات بلعة ريقه، شعرت بعينيه الواسعتين تلتهماننى عنوةً، شاهدت صورتى منعكسة داخل بؤرة عينيه أو أنا الذى تعثّرت داخل سوادهما، أربكتنى حدة نظرته وخاصةً إنه ظل وراء قناعه دون أن يرمش لقد شعرت بأنى تجاوزت المدة الزمنية المقرر فيها حبس أنفاسى ليلتقط ذهنى صورة واضحة المعالم وبسرعة التفتُ بزفيرى خارج الكادر ومكرراً سؤالى مرة أخرى بتأكيد مبالغ فيه لطريقة نطق الحروف.

صرخ بأعلى صوته:

– أنا الجانى والمجنون.

فى حقيقة الأمر لقد أرعبتنى صرخته حتى أننى لم ألاحظ لرزاز لعابه الذى تطاير على وجهى. نهض بسرعة كأنه شاهد ابنه ينزلق من مكان شاهق وهو يرتل بغمغمة:

– يا ساتر ما تستر شجر، حت الصفق، حت الصفق كامل.

بدا لى كأننى أرى أوراق الشجرة تسقط على جسده، أسراب جراد تحط على سترته القذرة، خطواته كانت اقرب للهرولة، هرس تحت قدميه أوراق أشجار يابسة بصوت تهشم مكتوم كأنه يمشى على طين الطمى اليابس. وقف يبحلق للأعلى ثم دار حول الشجرة مرتين كأنها مزار مقدس ثم اتجه نحو ركن مبنى المحطة بخطوات جندى تحت التدريب وظل يتحرك فى حركة عشوائية، يمشى خطوات معدودة فى اتجاه معين ومباشرة يغير رأيه ليمشى إلى الناحية الأخرى كأنها الاتجاه الصحيح الذى يقصده ثم ينحرف إلى مسار آخر. توقف عندما تعارض أمامه حائط مبنى المحطة، إستهلك ثوانٍ يبحلق فى الحائط، مرّر إصبعه السبابة على الخطوط الأسمنتية الخشنة التى بين الطوب ثم غمغم وركل بقدمه اليمنى كوم أوراق شجر يابسة جعله يتناثر فى الهواء، ثم وقف متجهما كأنه متردد فى استنكار سلوكه. رويداً رويداً دوزنتُ إيقاعى الداخلى حتى استوعب بشكل جيد، وأفكر على الأقل بقدر من النزاهة. ماذا يريد أن يفعل بى هذا المعتوه؟ فى البداية أرعبنى وكنت على وشك أن أهرب من الخوف والآن يشل ذهنى تماماً. لقد إستنتجتُ من حركته التى قام بها قبل قليل، ربما أنه فعلاً يعانى من مشكلة نفسية وبالتالى محاولة إصرارى لمعرفة علاقتى به من خلاله تبدو لى أمراً لا جدوى منه، اعتقد أن أملى الضئيل تلاشى ولكن رغم أننى شعرت بها حُمّى استسلام ليس إلا. تابعته بشغف دون أن أهمل أرشيف الذاكرة الذى انفتح على مصراعيه، أصدقائى، أبناء دفعتى، صورهم تطفُو فوق

ذهنى كحبات فِلّين. إستدعيتهم جميعا لامتحان شفهى، اصطفوا حسب الحميمية التى أكنها لهم، لم أستثنِ حتى الذين غادروا الدنيا، للأسف لم ينجح أحد، جميعهم فشلوا فى مطابقة الملامح. لمعت فى ذهنى فكرة. ربما تكون هذه الضفائر واللحية القذرة قد استبدلت من ملامحه الأصلية وضللتنى. نهضتُ وأنا مشوّش بالأسئلة توجهت إليه مباشرة ونظرتُ هذه المرة إلى ملامح وجهه بمنعزل عن الشعر الكثيف الذى يحيطه، عندئذ ظهرت لى ملامح مختلفة، شاهدتُ حزناً متراكماً، فم عبارة عن جحر مهجور وعينين واسعتين ضائعتين تماماً، نظرته كانت فارغة من أى معنى، حتى قامته الطويلة ولونه المهوقنى لم يسعفان ذاكرتى، اقتربتُ منه أكثر يدفعنى إصرار ويعيقنى عجز تام، دست بحذائى على أوراق السنة الناشفة كلها حتى أصله وفى نيتى أن أكرر نفس السؤال من أنت؟ وكل توقعاتى مجتمعة فى عدم إفصاحه القادم ولكن بمجرد ما شعر بى اقترب منه، تشنّج وراح يلعن فى أناسٍ لا يراهم إلا هو، وارتفع صوته:

– أنا ميت .. أنا ميت.

إرتبكت، تردُّدت فى خطواتى، التفت حولى حتى أطمئن بألا أحد قد لمحنى فى هذه اللحظة، كان هناك شاب يسير نحو مدخل المحطة، ولكنه لم يعرنا أدنى انتباه ورغم ذلك خجلت من نفسى، تركته وأنا مغتاظ، خالجنى شعور بأن أحداً ما كان خلفى يتأملنى بإسْتخفاف، توجهت مباشرة نحو رصيف القطار وذاكرتى عبثاً تبعزق فى نفسها، وصلت لحالة ذهنية متناقضة سببت لى قنوطاً. تسمّرت أمام لوحة

مواعيد حركة القطار الملتزمة لأبعد الحدود بتنفيذ مخططها، ولكن لم أرَ سوى وجه هذا المعتوه الذى أول شيء يشدّ الانتباه له تفاحة آدم التى تكاد أن تفتق رقبته وهو يبتلعها دون جدوى، ولكنه رغم ذلك إلتهم ذهنى على الريق. استبعدتُ أصدقاء هولندا نهائياً لا أحد هنا يعلم بعلاقتى برباب تاج السر، قلت لنفسى، إذن يجب أن اختصر بحثى فى علاقاتى أثناء الدراسة. حتى الأسئلة غير المنطقية تبرعت بالمشاركة فى معرفته، قدمت نفسها بزى الاحتمالات الواردة، هل هو شقيقها؟ يا للسخف، أساساً رباب تاج السر ليس لديها أشقاء، كانت لها أخت أكبر منها متزوجة. لما لا يكون احد أصدقائها ولم اتذكره؟ إطلاقاً، لا يمكن أن يحدث هذا، لأنه ببساطة شديدة، أصدقاؤنا وزملاؤنا مشتركين، أذن وارد جداً أن يكون ضمن هؤلاء الأصدقاء والتشرد غيّر فى ملامحه وشكله، ولكن ليس لهذا الحد الذى يجعلنى لا أجد شيئا يذكرنى به مطلقاً، ولا حتى نبرة صوته، احتمال أن يكون صديقاً عابراً التقيته لفترة زمنية قصيرة قابلة للنسيان،لا لا، لا اعتقد كل الذين وقعوا حضور أثناء علاقتى برباب تاج السر، كانوا هم أعضاء الوفد الداعم للعلاقة وضالعين معنا فى حميمية وصحبة دراسة مستمرة حتى اللحظة، استدعيت وجههم الواحد تلو الآخر ورحت أدقق فى ذاكرتى جيداً، أحسب فى أصابع يدى الذين هاجروا إلى أوروبا، ثلاثة موجودون بألمانيا وأربعة أصدقاء فى فرنسا وهنا معى فى هولندا اثنان وأنا ثالثهم ولم يتطرق أحد لوجود صديق رابع معنا فى هولندا نفسها، ومتزوج من هولندية، وقد انتحرت، شيء

عجيب لم أسمع حتى بهذه الحادثة، ناهيك أنها حدثت لصديق. فى هذه اللحظة فقط شعرت أننى وصلت إلى فك شفرة هذا المعتوه. فمعلومة زواجه بهولندية وانتحارها اخبرنى بها عثمان فخة، يا للغباء، لم أفطِن لذلك. بسرعة غريبة أخرجت هاتفى واتصلت به وسألته عن اسم المعتوه الذى يجلس فى المحطة، وبدل ما يجبنى على سؤالى تقمص دور المحقق التقليدى وأمطرنى بأسئلة خرمت طبلة أذنى، زادت من توترى، قلت له:

– أنه صديق قديم ولكن الذاكرة الملعونة يبدو أنها شطبت اسمه.

قال:

– يا سلام، صدفة عجيبة. أكيد صداقة دراسة، انها اجمل ايام العمر.

لاشعورياً صرخت به:

– يا بنى آدم، اسمو منو؟

– اسمو عامر عباس قنديل.

أغلقت الهاتف قبل أن أسمع نهاية جملة اعتذاره. كنتُ متوقعاً أن مجرد ما ينطق لى بالاسم سأتعرف عليه، ولكن هذا الاسم ليس ضمن قائمة أصدقائى، تذكرت أحد زملائى كان يدعى عامر ياسين من أبناء مدينة كوستى كان قصير القامة وممتلئ الجسم، أذكر حتى كنا نطلق عليه عامر السمين، وبالطبع ليس هو، هذا المعتوه عامر جعل ذهنى عامراً بالأسئلة الافتراضية. انتبهت لصوت جرسٍ متواصل يعلن وصول القطار التفت نحو اليمين مصدر الصوت كان

هناك الشاب الذى رأيته قبل قليل يدخل المحطة، كان منشغلاً بهاتفه، ولم استطع أن أتبين جنسيته وبالأصح لم اكترث كثيراً. أيضاً كانت هناك امرأة تركية تحمل تذكرتها فى يدها وتجر حقيبة كبيرة بعجلات، نهضت من الكنبة واقتربت بضع خطوات نحو حافة الرصيف تتابع القطار وهو مبطئ فى سرعته، كانت تبحلق به كأنها أول مرة تشاهد قطار، تابعتُ بعض الوجوه التى مرّت أمامى خلف النوافذ الزجاجية، تابعتها بلا تركيز، بل فى الواقع كنت أتابع وجهى الذى انعكس على الزجاج القاتم من دون قصد، نظرتى الثاقبة جعلت الوجوه التى بادلتنى الفضول تنزوى بقانون الخجل، كانت نظرات نقيضة لحالة مغادرتى للقطار. كان من ضمن عاداتى الغريبة والتى لا اعترف بها لسبب بسيط لأننى أقوم بها بلا وعى وبسطحية ساذجة . يحدث ذلك فى حالة سفرى الطبيعى، دائماً اختار مكاناً عشوائياً على رصيف القطار أقف به وأخمِّن أن هذا الموقع سيصادف باب إحدى عربات الدرجة الثانية مباشرة لحظة توقف القطار تماماً لأدخل مباشرة، لم يكن الغرض منها الكسل بقدر ما هو رهان هامشى لحظى المتوعك دائماً، أما الآن حالتى الذهنية لا تفسح مجالاً للسذاجة والتخمين. التفت للوراء أنظر من خلال الممر الذى يؤدى للساحة الخارجية للمحطة، شاهدتُ الشجرة الضخمة ولم أرَ المعتوه الذى يدعى عامر عباس قنديل، فكرتُ أن أنتظر القطار التالى لكى أعود إليه مرة أخرى ربما يكون قد هدأ قليلاً واستطيع أن أطرح عليه أسئلتى، شعرتُ كأنما كمسارى القطار قرأ ما كنت أفكر به فنفخ

بصفارته الحادة وحسم ترددى الداخلى، كأنه صرخ فى أذنى وأشار لى برأسه لكى أصعد داخل القطار، وجدتنى أجلس فى عربة بها عدد من المراهقين يتحدثون زعيقاً، وهذا ما ينقصه دماغى لينفجر، سرعان ما غيّرت إلى درجة أخرى ليس بها سوى المرأة التركية صاحبة الحقيبة الكبيرة التى تجرها بعجلات، نظرت لى شذراً كما لو أننى خذلتها فى اتفاق مصيرى، رجحت أنها عاتبة، لأننى لم أساعدها فى رفع حقيبتها داخل القطار، و طبعاً لم اهتم كثيراً، جلستُ فى مكانى المفضل تلك المقاعد التى وضعيتها فى نفس اتجاه سير حركة القطار، هذه جلستى المفضلة عندما أركب القطار أحبذ المقاعد التى تقابلها مقاعد أخرى واجلس مواجها إلى الأمام. شعرت فقط الآن بأننى منهك جداً، جسدى كله يؤلمنى، زفرت أنفاسى وشتمتُ هذا المعتوه السخيف لقد جعلنى فى حيص بيص، مددت قدمىّ للأمام وأسندتُ ظهرى على المقعد ثم أغمضتُ عينى مباشرةً. وسرعان ما استحضر ذهنى رسمة تفصيلية دقيقة للمدرج الكبير وبعد ذلك قمتُ باستدعاء كل وجوه أبناء الدفعة، حتى طلبة اقتصاد الذين كانوا يشاركوننا بعض المواد، شاهدتنى أجلس وعلى يمينى رباب تاج السر تعبث بقلمها ولا تدوِّن أى ملاحظات وأحياناً تمرره على شفتيها المكتنزتين بطريقة إغراء عفوية، عندئذ الكزها بركبتى على فخذها فتجفل وتطأطئ رأسها خجلا تظل بتلك الوضعية وجسدها يهتز كاتمة ضحكتها، وبزاوية نظر حادة أتأمل وجنتها، ثم أنحرف بذاكرتى وأتأمل ملامح الذين كنت أحبهم، لقد لبوا دعوتى

دون تأخير ولم تكن وجههم منزعجة لتوقيت استدعائى لهم أو حتى مقارناتى الفاشلة بينهم وبين المعتوه عامر قنديل، لذا حضروا فى أبهج حالاتهم، وجوههم يومئذٍ مبتسمة، ضاحكةً بقهقهة، أما الذين هم كانوا تحت طى النسيان وجدتُ مشقة وتعب فى استرجاع ملامحهم، بالكاد تذكرتُ أسماءهم الأولى، كانوا عالقين على هامش ذاكرتى ومتأقلمين على هذا الحال، لقد بانت لى وجوههم مرهقة ظهرت على شكل فقاعات ثم انفجرت محافظةً على نفس الاستياء الذى ظهرت به، حتى الصديقات كنّ حاضرات بأناقة، ولم يبخلنّ بالابتسامات، للأسف لم أجد له شبيهاً أطلاقاً، وبدون أن افتح عينى انحرفتُ بذهنى أتابع استنتاجاً ما انتبهت إليه من خلال هذه الذاكرة التى بدأت كأنها معقل العنصرية الأساسى، لأنى لاحظتُ أنها هيّجت غضب الذين هم على هامشها واستاءوا حتى من الدعوة غير المتوقعة، لذلك لم يستطع أحد منهم أن يظل أكثر من الزمن المقرر للفقاعة حتى تنفجر، يبدو لى أن عدم الاهتمام الواعى هو الذى يرسخ الانتقائية داخل مستودع الذاكرة. إلتفت نحو النافذة، تغيّر الطقس بسرعة مذهلة. كانت السماء محتشدة بالغيوم الرمادية الداكنة، تعتيم كامل لضوء الشمس، تبدو مؤامرة، لا تتسرب منها سوى الكآبة، إضاءة فضية محايدة تسيطر على المشهد العام، خطر على بالى، إذا استيقظ شخص ما الآن، لا يمكن له أن يخمِّن التوقيت الصحيح فى هذه اللحظة، كان اقرب للفجر منه إلى العصر، ها هى بدأت تمطر بغزارة فى الخارج زادت الكآبة بؤساً،

حبات المطر تهاجم القطار كحشرات متوحشة تنفذ هجوماً شرساً بغباء انتحارى، تصطدم بالزجاج مخطئة أهدافها، قطرات مطر تسيل على النوافذ، ترتعش من أطرافها، تطردها الرياح التى هبت مع سرعة القطار، عبثاً تحاول أن تتشبث بلا فائدة، كل محاولاتها كانت فاشلة. أتابع دمعة مطر بنفس لون الزجاج تسيل ببطء مرتجفة، إختلجت وتعرّجت فى مسارها، إنسلخ جزء من قشرتها لينزلق ما تبقى وينساب بسرعة ليختبئ فى ركن النافدة، تذكرت المعتوه وأين يختبئ عندما تمطر بشراسة؟ من المؤكد إنه تعوّد على هذا التشرد ويعرف كيف يخبئ نفسه من هذه الأمطار. شعرتُ بأنى سأبدأ من جديد فى محاولة يائسة كى أتذكره، وأنا متعب بسبب الجهد الذى بذلته فى محاولة التذكر، لقد أنهك ذهنى، وغالباً ما يكون السبب راجع إلى الدهشة التى أصابتنى وأحدثت ضرراً بليغاً فى مستودعات الذاكرة، وعرقلت استرسالها. فمن الأفضل أن أكف عن الجهد الذهنى الآن. هدأنى هذا التحليل المنطقى مؤقتاً، إلتفت أتابع المشهد الخارجى ولكنه كان غير مفيد فى هذه اللحظات، عثرت بالصدفة على مجلة محشورة بين المقعدين، رحت أتصفحها بلا رغبة، جاءت فتاة هولندية جلست فى المقعد المقابل بعد أن خصتنى بإحدى إبتساماتها المصطنعة والتى تجيدها بإحترافية متقنة، رغم ذلك بادلتها بصدق ورحت أتأمل فيها، لم يكن ينقصها شىء من الجمال حتى أضيف لها من خيالى، كانت حسناء كاملة الدسم، ناعمة الوجه، دعجاء العينين، أهدابها لامعة، فوق حاجبها الأيسر شامة، هى أول ما

يجذب الانتباه لها، خدودها متوردة وليس بداعى الخجل، شفتيها رقيقتين بلون قرمزىّ فاقع، تبدو فاتنة لحد الإثارة، ترتدى بنطلون جينز مُحزقاً على أفخاذها وبلوزة سوداء ضيقة أحكمت بها الخناق على عنقها مؤكدة على استدارة نهديها ومن فوقها ارتدت سترة قصيرة من الجلد الأسود. كانت تحمل معها كلباً وديعاً اعتقد أنه من فصيلة "الهارير"، بدا خائفاً من الطقس ربما انذره بالشؤم، رمقنى بنظرة محايدة ثم جلس مباشرة على المقعد المجاور تنقصه ابتسامة، نظر نحو النافذة لم يجد شيئاً يستحق المشاهدة أو أرعبته الأمطار أكثر فالتصق بصاحبته وراح يبحث عن مخبأ آمن داخل حجرها، ضمته لصدرها بكل حب، وقبلته مستفزه كوكب الأرض برمته، صرخت رجولتى تنبح مسعورة، كأنها لاحظت لنظراتى الجاسرة التى ازدحمت أمام إشارة خطوط العبور لصدرها، غصباً عنى حسدتُ الكلب. عندئذ نهضت تحمله بيد واحدة مع شنطة اليد، بعد أن غمغمت مستاءة، خيّل لى كأن الكلب قد أخرج لى لسانه عنوة، شتمتها كعادتى بألفاظ وقحة. أمسكت بالمجلة وتصفحتها بعنف واضح، كأنما رئيس تحريرها هو من نشر فضيحتى، انتبهت لتوترى فى أصابعى وهى تقلب الصفحات بسرعة، قرأت موضوع عن مهرجان الصيف السابق وتأملت الصور بلا معنى واضح، رجعتُ بذهنى لهذه الفتاة السخيفة، أصبحت صورتها فى ذهنى قبيحة، تمنيت أن يصيبها مكروهٌ ينتقم لى عن حركتها الاستفزازية. سمعتُ جرس الموبايل يرن، كان المتصل صديقى عصام رشاقة، اخبرنى أن هذا

هو رقمه الجديد ويجب أن أدوِّنه، جاءتنى رغبة ملحة فى أن أسرد له ما بدر، عن هذه الحسناء العنصرية ولكن شعرت بأننى سأسخر من نفسى وإستحيّتُ، وعند اللحظة التى قلت له فيها لقد حدث لى شىء عجيب انحرفت بسرعة لموضوع آخر مستفيداً من نفس المداخلة، قلت له:

- تخيل، يا رشاقة، اليوم التقيت بشخص غريب جداً، ولكن قبل أن احكى لك، قل لى من فضلك، هل تتذكر شخص درس معنا الجامعة اسمه عامر عباس قنديل؟

أجابنى بشكل قاطع وأنا أثق تماماً فى ذاكرته:

- أبداً يا مان، لا يوجد طالب بهذا الاسم إطلاقاً، وحتى فى الدفعات الأخرى.

قلت له:

- حسناً، هل سمعت بشخص سودانى متزوج من هولندية، وانتحرت قبل فترة؟

ضحك وقال لى ساخراً:

- لا أذكر ذلك، لكن لو إفترضنا أن هذا قد حدث بالفعل، أكيد ستكون انتحرت بسبب عادتنا وتقاليدنا.

ضحكت وقلت:

- من المستحيل أن تتغير، لا يمكن أن تتخلى عن رشاقتك، أنا أتكلم بصورة جادة، قابلت اليوم شخصاً سودانياً مختل عقليا، مع أننى اشك فى ذلك، لقد تعرّف على ونادانى بإسمى كاملاً، والأدهى

ما فى الأمر سألنى عن علاقتى برباب تاج السر، تخيل!! و بعدها رفض أن يفصح عن نفسه، وعندما ألححت عليه ادعى الجنون، وأنا لم أتذكره مطلقاً.

أجابنى بكل برود:

– المختل عقلياً هو أنت يا أشرف، لأن علاقتك برباب تاج السر انتهت من زمان، لكنك لا زلت مصرّا على أن تغير عليها حتى الآن، وللأسف هذه المرة من مجنون. وقهقه بصوتٍ عالٍ.

أجبته بغيظ:

– أنت أهبل صديق عرفته.

ودعته وأنا أجاهد فى كبح ضحكتى. دخل القطار محطة "اوترخت" الكبيرة، رحت أبحلق فى الركاب الذين كانوا مصطفين على الرصيف ينتظرون التوقف الكامل للقطار، صعد به عدداً كبيراً من المسافرين، معظمهم طلاب مدارس مراهقين كانت الساعة تشير على شاشة الموبايل إلى 16:16، شعرتُ ببهجة مبهمة لأننى كثيراً ما انظر للزمن ليصادف هذا التطابق بين أرقام الساعات والدقائق كما هذه اللحظة وأحياناً تصدف معهم حتى درجة الحرارة، بات يسعدنى تكرار هذه الصدفة، بدا لى كما لو أنه مفتاح حظ أوشك على فتح باب المستقبل، أصبحتُ متفائلاُ جداً بصدفة هذه الأرقام. رجعتُ بتعابير البهجة نفسها أنظر من النافذة إلى سهول خضراء تعودت على الأمطار التى تسقط عليها كعقاب أزلى، لا أمل فى جفافها مطلقاً، لم تعُد هذه الخضرة ممتعة مثل أيامى الأولى فى هولندا، إنبهارى بها

تقهقر بانطباع نفسى، غالباً ما يكون السبب من تكرار المشهد ولكن رغم ذلك عاينتها بتمعن، كانت مكررة فعلاً، مساحات خضراء ممتدة بلا حدود، فى السابق فعلا كنت أجدها ممتعة، طرا ببالى استنتاج، أن هذا المساحات الشاسعة هى التى حرّضت الأجانب على الامتعاض من أزمة السكن، خضرة متدفقة يحدها الأفق، وبين الفينة والأخرى تتخللها مساكن متفرقة تضم هناجر كبيرة، أبقار تأكل بلا توقف حتى المطر لا يمنعها من واجبها الممل، خيول متنوعة، شكل بعضها لا يتوقعه الخيال، غريبة جداً، أكوام شعير ملفوف فى هيئة سجاد أشبه بالبراميل، تمّ توزيعها على الأرض الخضراء بطريقة عشوائية، هكذا يبدو من الوهلة الأولى ولكن المدقق يكتشف أن المسافة بين كل سجادة شعير وأخرى محسوبة بدقة متناهية، فعلا الشعب الهولندى يمتاز بالتفاصيل.

استرجعت ملامح المعتوه عامر قنديل وحاولت أن أقدِّر عمره بالتقريب، ومن ملامحه يمكن أن أخمِّن أنه أكبر منى سناً ولم أنسَ خصم عوامل التشرد والحسرات، وبعد ذلك توصلت إلى نتيجة مرضية ومفيدة لملفات الذاكرة، يجب أولاً أن استبعده من زمالتى له فى دفعة واحدة بالكلية، ومن هذا المنطلق يصبح الاحتمال الوارد أن تكون معرفتى به تمت خارج نطاق الجامعة، و نشأت بيننا صداقة فى إحدى الأماكن التى كنت أتردد عليها فى غياباتى التى لا يكترث لها حتى حرس الجامعة، ذاكرتى بأنانيتها المفرطة فرضت على الأماكن الأقرب إلى نفسى، استرجعت مشهداً عاماً لشجرة النيم

العتيقة، كنتُ مغرماً بظلها البارد لإطلالتها الدائمة على النيل، ظلٌّ منعش فى ظهيرة قائظة، كنا نطلق عليها شجرة الهام ست الشاى، امرأة نحيفة جداً، كنت فى لحظات التجلى أتخيلها أحدى أغصان الشجرة نفسها، وفى منتصف الليل تنمو لها أوراق خضراء، إنها امرأة عصامية كانت تجلس على موقد الحزن ولا تذرف دمعة واحدة، ملامحها جامدة كأنها مخلوقة من الشمع ورغم ذلك كانت تشع بالحنان، فى البداية تعاطفت معها مرهوناً بذاتى للذاكرة الجماعية وبعد أن أدمنتُ عبق المكان وتلك القهوة، صرتُ صديقها، أناكفها كشقيقتى الكبرى، وأتعاطف معها مهما كانت درجة حرارة القسوة الخارجية. الذاكرة اللعينة صوّرت لى مشهد الشجرة فى طقس مختلف، إبتدعتها وسط سهول خضراء بالكاد أرى الظل، أدرت وجهى عن النافذة ربما تأثرت الذاكرة بالمشهد الخارجى، سقط بصرى على مراهق يجلس أمامى على وجهه قناع محمر من شدة البثور، أغمضتُ عينى بعد أن شعرت بالاشمئزاز كأن وجهه انطبع على ملامحى، كان يتعيّن على فى هذه الحالات تشتيت ذهنى حتى لا يمتلئ فمى باللعاب، تأملت ساعدى، تذكرت يد الهام ست الشاى بشرايينها البارزة تصب لى قهوتى الصباحية، وأثناء نغمة الملعقة بحواف الزجاج تخاطبنى مهيئة نفسها لمناكفة:

– والله يا أشرف، أنا لو نجحت فى الامتحان الربانى ده، مفروض استحق شهادة دكتوراه.

أرتشف من القهوة وأرد عليه بنفس لسعة الجنزبيل:

- أصلا شهادة الدكتوراه فى عهد هذه الحكومة، أصبحت عبارة عن إنقاذ لوضع اجتماعى منحط.

تبتسم:

- والله صدقت يا اخوى.

أتركها تلبى الطلبات الأخرى، لم تكن محظوظة مادياً، معظم زبائنها مثقفون وعطالة، لذا معظم دخلها اليومى عبارة عن مبلغ من الوعود غير المحترمة، ورغماً عن ذلك كانت كأنها تعيد لهم باقى الفكة ابتسامات. عرّفتنى بهذا المكان رباب تاج السر التى كانت تتردد يومياً على شاى النعناع مصطحبة معها صديقاتها تدفعهنّ عاطفة وتضامن منقطع النظير مع الهام بائعة الشاى، يسردنّ فى تفاصيل مأساتها يومياً، كدراما تلفزيونية مستهلكة:

- تخيلوا أن ابنها الكبير مشلول:

بصوت مهتز تتكلم رباب:

- وجع القلب الحقيقى من منظر طفلتها الصغيرة فى غرفة الانعاش:

- يا الله. تقول اخرى.

تضيف رباب:

- الطامة الكبرى أن زوجها فى السجن.

أساساً رباب تاج السر كانت عاشقة حياة المليودراما، وتجيد معيشتها بلا منازع، لا يمر علينا يوم بدون أن تذرف دموع أو تسرد قصة أسرة لم تنجب سوى الفقر، أو طفل تركته والدته مريضاً وممداً على مصطبة إحدى الصيدليات وذهبت تبحث عن ثمن العلاج. أتذكر

فى إحدى المرات كنتُ انتظرها تحت شجرة النيم المقابلة مدرج المحاضرات حتى ندخل سوياً، جاءت تمشى مهدودة يتبعها غم وعينيها مُمتلئتان بالدموع، طرحتها تلتف حول عنقها كأنها مقبلة على شنق نفسها بعد لحظات، وعندما استفسرتها بهزة رأسى، بمشقة نطقت، ومع فتحت فمها انهمرت دموعها بلا توقف كما لو أن لسانها هو من كان يمسك بزمام الدموع، عبثاً كنتُ أحاول أن افهم منها قصة الرجل المسن الذى التقته قبل قليل وهى فى طريقها للجامعة:

– تخيل يا اشرف اختارنى من دون خلق الله، سبحان الله.

هكذا تقول، أتوقع بعد ذلك معجزة قادمة، تعيد لى مأساته التى حكاها لها وهو منكسر ذليل، رجل فقير وخصّها بحكايته، لقد تكالبت عليه الكوارث ببشاعة يصعب تصديقها، يحكى لها عن حالة طفلته المريضة يقصها بصوت بكائى مستعين بتعبيرات وجه فقير معذب. أنا التقيته أكثر من مرة ولكنى لا أريد أن أحبطها اتركها تواصل سردها وسط النحيب. ينتقل بـ "مونولوجه" اليومى ويحكى لها عن صاحب المنزل الذى قرر طرده لعدم مقدرته على دفع الإيجار ويقول لها بنبرة حزينة: ديوان الزكاة يا بنتى لم يقدم لنا سوى الوعود الكاذبات، ألسنا بشراً مثل الآخرين؟ وهاتان الكليتان توقفتا عن العمل فجأة يا بنتى، تعرفين الغسيل يكلف الكثير. ثم يطأطئ رأسه من الخزى فمدّت له يد العون بكل ما وجدته داخل محفظتها، كنت واثقاً من أنها فى تلك اللحظة قد ذرفت دموعاً ضعف المبلغ الذى كان

معها، فهى دميّعة من الدرجة الأولى، بمشقة أتابع قصتها وذهنى يستحضر لى تلك الرسمة المستهلكة فى خلفية بعض الشاحنات لرجل لا محال هالك، يتدلى من فرع شجرة طويل ممتد نحو النهر وممسك بيديه الخائرتين طرف الفرع الناشف ويزحف خلفه ثعبان ضخم متسلقاً نفس الفرع الذى أوشك على السقوط وتحته تمساح فاتحاً فمه على مصراعيه. لقد سئمتُ حكاوى الحزن بسببها أو ربما لم أعد أتعاطف مع تلك الحكاوى بسبب تكرارها، دائماً تبدأ صباحنا بجملتها الأساسية:

– والله يا أشرف شاهدت الليلة منظر، يقطع القلب.

– يا رباب، هل ترغبين فى أن نستبدل أحاسيس علاقتنا إلى تغذية وريدية لصالح مستشفى الحوادث؟

– يا قلب، أنت قادر تتخيل حجم معاناة الناس اليومية دى.

– أنا على دراية كاملة بما يحدث من حولى، افهمى يا رباب، ما عجزت عنه الحكومة عن قصد لا يمكن أن نحققه نحن، أنا استعجب حتى من نفسى، كيف لنا أن نعارض حكومة ونعمل على إسقاطها وفى نفس اللحظة نعالج فى أخطائها الفادحة، بدون وعى نردم لها فجوات الثورة المرتقبة، نصبح عملاء الثورة، العادات والتقاليد والعواطف يا رباب لا تصنع دولة.

صمتها فى تلك اللحظات دائماً ما يربكنى، أتخيل أنها تقارن بينى وبين عشيقها السابق، تبكى عندما تعجز عن الرد، اعتقد انها استفادت فائدة عظيمة من تلك القصص المأساوية فى استمرار

علاقتنا، وخاصة أيام التوتر والقطيعة المحتملة، لقد أصبحت أعظم مختلق سيناريوهات درامية. كانت كلما نختلف وأحزم أمرى لفض هذه العلاقة والمغادرة للأبد، تخلق حول نفسها حالة من الكآبة والحزن وتؤلف قصصاً مؤلمة جدا عن نفسها تستدر بها عطف الوفد المرافق للعلاقة، حكاوى تلهب المشاعر، يستحيل أن يشك أحد فى مصداقيتها، لقد كانت تتمتع بذكاء درامى مدهش وإذا شعرت بأن السناريو لن يؤتى بأُكله، تلجأ إلى أسلوب تمثيلى عملى مقنع. اذكر فى احدى هذه الخلافات المتكررة حضرت متأخرة وبرّرت تأخيرها لزميلاتها بنحيب ونبرة مهتزة لتعلن أنها مصابة بمرض سكرى مفاجئ، وأخرجت من شنطتها نتيجة فحص المعمل للتاكيد، وبعدها اختارت التوقيت المثالى بعناية مدهشة فى منتصف اكثر المحاضرات ملأً، سقطت مغشيّاً عليها، جعلت إيمان صالح صديقتها تصرخ كالمجنونة، أذهلت الجميع بأداء تمثيلى رائع لينتهى الدرس بهذا المشهد الحزين، وتكتسب تعاطف الجميع، بما فيهم انا. وبعد أن تعود العلاقة لطبيعتها كان الصلح يتطلب ممارسة جنسية ترقى لمستوى الحدث وترضى الطرفين، وفى تلك اللحظة التى كانت تتمدد فيها بالقرب منى عارية وجسدها مهدود، صواميل مفاصلها خرجت من المسامير بفعل البلل وشدة الاحتقان، تظل مستلقية على ظهرها والنشوة لازالت عالقة، لم تهمد بعد، بين الفينة والأخرى تنتفض برعشة خفيفة وتضحك:

– تيار كهربائى لذيذ، عارف يا قلب مرات ثلاجتنا فى البيت بتعمل

معاى نفس الرعشة لكن بصرخ من الغضب.

تضحك ليرتج نهديها، بهزة غير مستقرة داخل جاذبية صدرها كميزان مائى، ندر ما أن يستقر على وضع ثابت، كانت تعبر عن سعادتها برجوعنا لبعض دون مواربة، ولا تتوجس فى استخدام ألفاظ بذيئة. وبعينين ذابلتين وهى مستلقية على غمامة تعترف لى ببعض مؤامراتها والحبكات المتقنة التى ابتكرتها لتعيدنى إليها سالماً، كانت تحبنى بجنون، أحياناً لا أجد له مبرراً.

– هل تعلم يا قلب، أنا رابطاك على وتد؟ ولو حاولت تفلت برجعك بالمحاية والبخرات.

أحضنها واضحك بقهقهة. كانت شخصية عنيدة ولكنها أسرع مخلوقة رأيتها تتناسى الغضب. كانت تنجز كل شيء بجدية متقنة، عدا واجباتها الأكاديمية، تبدو سلحفاة وهى تتعلم، ومساعداتى لها أسهمت فى كسلها، هى التى أجبرتنى على تحويل مسار قهوتى بنكهة الزنجبيل إلى مساهمة إنسانية فى علاج ابنة الهام ست الشاى، فعلا بعدها أدمنتُ المكان تحت ظل شجرة النيم الشامخة والتى تطل على النيل، شجرة كانت شاهد عيان لبدايات كتاباتى الشعرية. ظلها المنعش استقطب بعض الأصدقاء وتعرّفت هناك على عدد من المثقفين، لم تفلح ذاكرتى فى القبض على هذا المعتوه عامر قنديل لم أشاهده يجلس على "بنبر" قصير ويحتسى قهوة لاسعة تحت تلك الشجرة إطلاقاً. ولم يكن ضمن الذين كانت تدفع رباب تاج السر نيابة عنهم، كانت تفتح شنطة يدها قبل رشفة الشاى

الأولى وتدفع بسخاء وإصرار، لم تكن تفعل ذلك من باب الكرم أو التباهى، كانت تقصد فقط التحايل على كبرياء الهام ست الشاى ومساعدتها، لأنها كانت رافضة لأى مساعدة مالية مباشرة.

بعد ذلك استرجعتُ وجوه الذين التقيتهم فى حوش "مريوم" من عشاق الأكل البلدى ورواد قاعة صالة "كترينا" التى كنا نقرأ فيها قصائدنا كهواة فى كتابة الشعر، وننمى فى عداوتنا مع السلطة يومياً، وفى هذا المكان بالتحديد صنعتُ جرأتى ولفيف من المعجبين الذين هم من دفعونى لأصبح أول المؤمنين بموهبتى الشعرية، وجرفنى تيار متعة جعلنى أبدد وقتى فى الكتابة والتدريب على أسهل الطرق لجلب اهتمام الفتيات، مارستُ الشعوذة والمفردات المدهشة، أهيئ نفسى لكى أكون مميزاً، أحاول أن أترك أثراً خلفى، للأسف الشديد لم تكن هناك نزاهة فى هذا الوطن الذى يهتم بالمظهر، لن تعامل بصورة إنسانية إذا كنت شخصاً عادياً، لذلك أجتهد من أجل عيون الآخرين حتى أصبح شخصاً استثنائياً. وبما أن هذا المعتوه عامر قنديل سألنى عن الشعر توقعت من الممكن أن يكون قد تردد على هذا المكان، الذى حققت فيه تفردى، لكن أيضاً لم أتذكره يداوم على هذه القاعة ولا حتى ملامحه أدرجتها الذاكرة. عندما أتأمل تلك الأيام، أجدها ممتعة رغم ما بها من حسرات وألم، أيام مذهلة.

إنتبهت لهذه الذاكرة العجيبة التى تستطيع أن تعيد لك المكان بكل حذافيره، حتى كتمة الخرطوم قبل الغروب، والإضاءة المتواطئة مع الأفكار الساذجة، إستحضرتها أمامى. ذاكرة عديمة "الفلتر" جلبت

معها طمياً غير متوقع ترسب مع ركود تلك الأيام، التقيت أمام هذه القاعة بـ "نهلة جمال الدين" فتاة من خارج الواقع، كلما حاولتُ أن اقبض على ملامحها من الذاكرة، كنتُ استعين بمشهد راسخ فى ذهنى للأبد وهى تلعق مكعبات الثلج وتقرقشها بأسنانها بمتعة نادرة، عندئذٍ كانت تطل أمامى بملامحها غير المدرجة ضمن قائمة الجمال المتفق عليه من الجميع، خاصة عينيها ضيقتين وحادتين، وأول شيء يجذب انتباهك لها، شفتاها الغليظتان بلون الكاكاو، مع بروز طفيف للأسنان الأمامية، أو لنقل عنها "سنجابية" الفم إن جاز التعبير. كانت تقف مستنده بظهرها على سور صالة كترينا الخارجى وتعابير وجهها توحى بأنها مصممة على هدف معين. ترتدى جيبة جينز مهترئة من فعل الغسيل وتبدو أطول منها بقليل، أخفت بها حتى حذائها، وقميصاً حريرياً ناعماً بلونين أزرق وأحمر ومحزقاً على وسطها معلناً عن ضمور خصرها وتكوُّر أردافها ونهديها المندفعان بقوة. على رأسها قبعة ارتدتها بطريقة صبيانية متعمدة وضع الحافة الأمامية للخلف، فسّرتها تعويضا عن الطرحة الإجبارية التى تحمى بها شعرها. كانت بشرتها أنعم مما يُحدثه الطقس من غبار وعرق، كان واضحاً أنها لا علاقة لها بهذا المكان إطلاقاً، ولم تنضم للدوائر البشرية التى شكّلها الرواد بعد نهاية القراءات الشعرية كعادتهم، يشكلون دوائر بشرية عشوائية، يتبادلون الإشادات والمجاملات، لم يكن آنذاك النقد مفيداً وإيجابياً. أتذكر أننى انفلتُ من مجموعتى بدافع الرغبة العارمة فى التدخين لأقصدَ بائع السجائر الذى يجلس

أمام البوابة الرئيسة، فمررت بها وقد سدت على الطريق بشفتيها اللامعتين، تأكدت تماماً أنها دخيلة على هذا المكان، بسرعة استنفرتُ جراءتى وقررت أن أقتحم أنوثتها وليحدث ما يحدث، فى نهاية الأمر ليست من رواد كترينا، وحتى إن جاءت بصحبة أحد لن تتجرأ وتبلغ عنى، أصبحت أفهم سلوك الفتيات جيداً. وقبل أن اتفوه بإحدى حماقاتى، فاجأتنى فى عقر أفكارى، ويا لجرأتها، خاطبتنى دونما توقع منى:

– كلماتك متفردة، أعجبتنى.

– شفتاك أيضاً متفردة، أعجبتنى.

ابتسمت ابتسامة مختصرة لا تنم عن خجل، بقدر ما كانت رصانة تفرضها عليها طبيعتها، ثم أردفت:

– ومتفرد أيضاً حتى فى تعليقاتك، على كلٍ شكراً على هذا الإطراء.

قلت لها:

– لستُ متفرداً كما تظنين، نطقت فقط ما أحسست به.

عقدت يديها على صدرها كأنها تحتضن إحساسا غائبا وقالت:

– ربما يكون الجمال فى إحساسك، عذراً أنت شاعر وتفهم أفضل منى.

اتضح جلياً أنها مختلفة، تمنيتُ أن تكون لوحدها، وقع بصرى على تكوّر نهديها وشموخهما نتيجة الضغط الذى حدث بسبب ساعديها، كان واضحاً أنها لا ترتدى تلك النوعية من حاميات الصدر المبطنة الرخيصة التى تستخدمها معظم الفتيات. فكرتُ فى مضاعفة

سفاهتى كما يقول زميلى عاصم حليق: أطرق على الأجزاء البارزة تحدث الضجة. وأثناء تصميم الجرأة داخل خيالى كنت قد درست احتمالات شتى، ربما يكون ردها جافاً أو تغادر مستاءةً وأكون بذلك قد فرّطت ونلت جزائى. حسناً يجب التحلى بالصبر، ليس هناك داعٍ لاستعجال المغامرة، من الأفضل متابعة الطرق التى أحبذها جيداً، صحيح أنها طرق معقدة، تستنفذ وقتاً طويلاً، ولكن فى نهاية الأمر، ثمارها ممتعة. سأدهشها بمفرداتى وعطفى. كأنما شعرت بصمتى يعلن عن مؤامرة، أو ربما لاحظت لنظراتى الجاسرة تتربص بصدرها، واحتمال وارد أن يكون الصمت قد تجاوز الوقت الافتراضى دون تعليق على كلامها لذلك أضافت:

– بالجد أنا آسفة، تبدو مستعجلاً، ولم انتبه لذلك، ربما هناك رفقة تنتظرك؟

تبلد ذهنى لبرهة، أنا ورباب تاج السر فى هدنة خصام، قلت لها:

– لا، إطلاقاً، العجلة فقط من اجل التدخين.

ابتعدتُ عنها خطوتين واشتريت سيجارتين واحدة وضعتها على جيب قميصى والأخرى أشعلتها وأنا أخطط لاصطياد هذه الفريسة التى تبدو سهلة المنال أن كانت لوحدها، لقد أصبحت لدى حاسة قوية أميز بها الفتيات اللاتى لهنّ استعداد نفسى للمغامرة وممارسة الجنس، أحس برائحة معينة تنبعث عن أجسادهنّ. سحبتُ نفساً من سيجارتى وقلت لنفسى، هذه النوعية من الفتيات، يجب أن يكون المدخل إليها، الدفاع عن حقوق المرأة والإيمان بالمساواة، يجب أن

أهلل بشعارات "الجندرة". رجعت لأقف أمامها مباشرة، كانت تنبعث منها رائحة عطر مميز، لم اشتم مثله فى حياتى، ولم يتكرر بعد ذلك. إعتذرتُ لها نيابة عن دخان سيجارتى الذى داعب وجهها دون قصد. قالت كأنها تريد أن تورّط نفسها فى زلة لسان:

– على العكس، تروق لى رائحة السجائر عندما يدخنه الآخرون.

بغباء شديد، خمنّت أنها مدخنة وبالتالى هذا محفز جيد للاختلاء بها فى مكان خاص بداعى نكهة النيكوتين. تحدثت عن كتابات نوال السعداوى، ولكن فاجأتنى أنها لم تقرأ لها. عرّفتنى عن نفسها طالبة غير مجتهدة فى كلية الطب:

– بصدق! كثيرا ما فكرتُ أن أتوقف عن هذه الدراسة المملة.

ثم أضافت:

– أول مرة أزور هذا المكان، رائع، جئت فقط لأنى على موعدٍ مع إحدى زميلاتى.

كان يجب عليها أن تسلِّم صديقتها شيئاً ما وتغادر، ولحسن حظى تأخرت زميلتها وأسعدنى جداً أنها لوحدها وشرعتُ أخطط أن أصطحبها معى إلى أى مقهى ومن ثمّ أفكر فى المكان الخالى، دعوتها لتناول عصير فى مكانٍ ما، اتفقت معى على نفس جفاف الريق ثم اضافت:

– بعد إذنك، ممكن تسمح لى باختيار المكان؟ أعرف محلاً جيد يقدم عصائر طازجة وباردة، فقط أمهلنى قليلاً.

لم تتحرك إلا بعد أن أومأتُ بهزة رأسى، ثم ذهبت تبحث عن

صديقتها، كعادتى تابعتُ مؤخرتها التى رجّت عقلى. فعلاً تستحق المغامرة، كانت غيداء بمعنى الكلمة مشيتها رشيقة كشفت عن انتعالها لحذاء رياضى ماركت "اديداس"، تخيّلت أن لها ساقين رهيبتين، تابعتها حتى اختفت عن أنظارى، استهوتنى رقتها، يروق لى هذا النوع من الفتيات، نطقتها بصوت مسموع كأنما أتكلم مع أحد. رجعتُ أفكر بخبث، ابحث عن صديق يمكنه استضافتى لمدة ساعة زمنية فى حالة استدرجتها نحو القفص، لكن تذكرتُ أن معظم أصحاب تلك الأوكار صاروا خسيسين. إن لم أجلب معى رفيقة زائدة، حتماً سيختلقون لى أعذاراً جاهزة، ناهيك عن محاولاتهم القذرة لاقتسام الكعكة، فى نهاية التفكير وقع اختيارى على رأفت القبطى، صديق لا يعرف اللف والدوران، فى العادة أزوره ومعى رباب تاج السر، أعلم أنه سيستاء من خيانتى ولكن لن يكترث كثيراً وتستهويه المغامرة لأبعد الحدود. انتظرتها لمدة زمنية كافية لأطفئ سيجارتى الثانية وبعدها توقعتُ أنها زاغت من دعوتى بمجرد ما شعرت بسوء نيتى، راجعت أسئلتى مرة أخرى فعلا كانت موجهة نحو أنوثتها دون مواربة، شعرت بخيبة أمل كبيرة، لمُّتُ نفسى حدّ الضجر وقررتُ العودة إلى القطيع واستمع للمزيد من المدح. وبلا توقع وجدتها تقف أمامى مبتسمة لدرجة أننى رأيت ضجة رموشها، كأنما الوصية التى سلمتها لصديقتها كانت جاثمة على صدرها:

- آسفة تأخرت عليك وأنت عطشان، عندك مانع نذهب بسيارتى لأن المحل بعيد من هنا؟

شعرتُ بحاجة إلى فعل شىء ما، لكن المفاجأة حدثت بغتة، فلم يخطر على ذهنى شىء مفيد، لأول مرة أركب مع فتاة تقود سيارتها. مظهرها لا يوحى أنها تمتلك سيارة ماركة "كامرى" مقاعدها من الجلد البنى، تحرّكت على استحيائى ومن النافذة حذفتُ بمخططاتى على الأسفلت، لقد أخطأتُ فى حاسة تقديرى هذه المرة، نهلة جمال الدين ليست من النوعية التى استدرجها إلى غرفة كئيبة وإنارتها شمعة. مشكلة حقيقية، انك تقيِّم شخصاً مبدئياً معتمداً على مظهره أو طريقة كلامه، إحساس خسيس وأنت تشعر بنفسك تتحوّل من برج الاسد إلى برج الحمل. شربت ألذ عصير فى حياتى وفى مكانٍ لا يمت لى بصلة وأنا أتلذذ بطعم الآيسكريم تمهيداً للحب القادم بعد ان عدّلتُ فى استراتيجتى، قلت لها:

– اسم نهلة جميل ونادر.

قالت هى تبذل جهداً للوصول لمفردات تعبِّر عن حالتها:

– هذا الاسم اختارته أمى، ولكن لو كان لى فرصة الاختيار، ربما فضّلتُ اسم سارة.

اتفقتُ معها أيضاً بهزة من رأسى، أبدت سعادتها برفقتى دون تحفظ وهذا ما شدّنى إليها، استشفيت وخمنّت أن تربيتها كانت مغلقة لم تسمح لها بصحبة حقيقية، كانت تتعامل بسجيتها وتلقائية لا تشبه الفتيات الأخريات، بأصبعها لحست حواف كأس الآيسكريم ومصّت إحدى مكعبات الثلج ثم قرشتها بأسنانها وهى تقول:

– ليس لى صديق حقيقى حتى الآن، بماذا تفسر هذا؟

تلعثمت ولم أجب عليها، هربت أثرثر عن قيمة الصداقة، لم تكن من النوع الذى يحكى عن نفسه تركت لى المجال أسرح وأتحدث عن قيم وأفكار أدهشتنى أنا نفسى جاءت من وحى اللحظة، لم أفكر بها من قبل، كانت تسمعنى باهتمام بالغ. ومن تعابير وجهها شعرت أننى أبوح لها بأسرار عظيمة، أو كما لو أننى أتحدث عن طريقة تحضير الأرواح . كانت تهز رأسها موافقة على كل ما تفوهت به، لم تسألنى تلك الأسئلة التقليدية التى تعشعش فى أذهان معظم الفتيات، لم تكن تؤمن بأحد ولا تقلد أحداً، أسلوبها فى التعامل مبتكر ولم تشغل بالها بما يحدث من حولها حتى الوسط الطلابى لا يعنيها مطلقاً:

– اعذرنى لجهلى أنت أول شاعر اسمعه يقرأ قصيدة فى حياتى.

قلت لها:

– دراسة الطب هى التى تعيقك من هذه الفعاليات.

لقد أحست أنى أجاملها:

– للأسف الشديد أنا أبدد عمرى بلا معنى، مثل شخص جاء إلى هذا الكوكب بنفقة خاصة، أننى أعيش داخل قوقعة تقريباً.

وضعتُ كفى متشابكات على الطاولة وانحنيتُ فى اتجاهها وقلت لها:

– من الأفضل أن تحافظى على هذه القوقعة، لأن من العبث معايشة هذا الوطن المهتك، عليكِ بشىء واحد، ابتعدى قدر الإمكان من محاولات الوعى، لكى نظل هنا سعداء، يجب أن نعيش بدون أى فهم:

قالت لى ضاحكة وهى تحاول إخفاء أسنانها الأمامية:

– معقول! لهذه الدرجة. أنا بالكاد أتحدث مع زميلاتى.

– إذن أنت محظوظة.

فعلا لا تتحدث إلا إذا شعرت بضرورة لذلك وتنطق بالحقيقة فقط ولا يفوتها أن تعتذر أو تستأذن قبل أن تتفوّه، إنسانة بريئة وصادقة لأبعد الحدود تبحث عن رفقة حقيقية. طلبت منها أن تحدثنى عن نفسها. نظرت إلى سقف المحل كأنها تحاول إنقاذ صور من عاقبة النسيان وقالت:

– باختصار لا أقوم بأشياء جيدة، أعشق الاستماع للموسيقى، تقريباً لا أنام بدونها، دائماً ما أفقد الأشياء، تضيع منى بصوره مرعبة، إحساسى بمعرفة الاتجاهات سيئ للغاية، أعشق مشاهدة كرة القدم، ولكن سرعان ما أصاب بملل، والمزعج ما فى الأمر أشعر بقلق وعدم استقرار نفسى.

قلت لها بعد أن وضعت يدى حول صدرى واستندتُ على الطاولة:

– هناك لحظات كئيبة تمر على أى إنسان بسبب المحن التى تنهال علينا يومياً، فمن الحماقة الاستسلام إليها، إذن بالضرورة على المرء الدفع لمقاومة هذا القدر القاسى. وإذا تعذّر ذلك فالأمر ببساطة هو التحلى بالصبر. رغم أننى كنت مبهوراً بفكرتى التى ابتكرتها إلا أنها صفعتنى بردها وقالت كأنها تخص شخصاً آخر وهى تنظر فى اتجاه المدخل:

– من السهل أن تنطق بأرائك ما دام الأمر لا يخصك.

شعرتُ كم كنت مخطئاً فى أفكارى. راحت تنظر إلى المكيف الذى يقابلها مباشرة، توقعت أنها فقدت الرغبة فى مواصلة الحوار. ولكن عادت وحدّقت فى عينى مباشرة ثم أخذت نفساً عميقاً وكانت جفونها فاترة وقالت:

- أنا آسفة، أنت لا تعلم بأن الأحداث تمشى ببطء مع الفتيات الساذجات مثلى، لا أستطيع أن أتجاوز ما حدث، ولا أتوقع أن أفلت من الفشل.

قلت:

- درجة تحفِّز الإنسان النفسية هى التى تحدد مقدرته على تجاوز عقباته.

ساد صمت جعلنى اشعر أننى غير مقنع فأضفت:

- ألم تلاحظى أن كل المشاكل تصبح تافهة عندما تزول؟

تلاعبت بكأس الآيسكريم الذى أمامها ثم قالت بضحكة ساخرة:

- أحياناً تراودنى أفكار شريرة، أفكر أن أدوس أحدهم بسيارتى واهرب، تخيل! ولكن بعد ذلك تصيبنى قشعريرة بمجرد ما أتذكر أننى فكرت بهذه الطريقة.

قلت لها ضاحكاً:

- لا، أنت تحتاجين لطبيب نفسى.

قالت بكل جدية.

- بالفعل خضعتُ لعلاج نفسى لفترة طويلة.

ثم أردفت ضاحكة:

– لا تخف، أبدو الآن بحالة جيدة، وخاصة هذه اللحظة.

بدا الأمر لى معكوساً أنا الذى أحتاج لعلاج نفسى، باختصار أخفقتُ فى أمر إدهاشها ورغم ذلك عبّرت عن سعادتها بهذا اللقاء الصدفة وطلبت لنا عصير آخر ثم استدركت وقالت:

– أنا آسفة يا أشرف منذ فترة لم أتحدث مع شخص، بجد متأسفة. ضيّعتُ لك وقتك فى الفاضى، أليس كذلك؟

قلت:

– بالعكس، لدى وقت فائضاً عن حاجتى، يمكننى أن أسلِّفك منه كما تشائين.

ابتسمت بطريقة كما لو أنها تتوقع مفاجأة سارة وقالت:

– كم أنا محظوظة اليوم بهذا اللقاء.

ثم تغيّرت نبرة صوتها:

– للأسف التقيتك فى زمن متأخر.

وراحت ترتشف فى عصيرها سألتنى:

– عفواُ، اين تسكن؟

عندئذٍ شعرت بأن الوقت مضى سريعاً وقررت أن تنهى اللقاء بطريقة راقية كما كانت تفعل فى كل تصرفاتها، جاوبتها:

– انا أسكن في الخرطوم بحرى، حى المزاد.

وقررتُ بعد ذلك أن أشكرها وأغادر لا داعى أن تتأخر فتاة مثلها حتى هذا الوقت، وترددت أن أطلب منها رقم تلفونها أو أحدد معها لقاءاً آخر، ولكن للأسف فهمت إننى من يرغب فى المغادرة، لذلك

نهضت بسرعة وتفوّهت بكل عبارات الاعتذار التى تعرفها باللغتين العربية والانجليزية وأنا رحت بدورى أؤكد لها:

– أنا لم أتأخر، مازال لدى وقت طويل.

اعتقدت إننى أجاملها على حساب وقتى الثمين كشاعر وصحفى مهم حسب تعبيرها وقررت بطريقة صارمة لا جدال فيها أن تقلنى بسيارتها حتى البيت. اعترفت لها:

– ليس من عادتى العودة إلى البيت فى هذا التوقيت، مازال لدى وقت أسكر فيه مع أصدقائى.

ابتسمت ابتسامة ترجمتها سريعاً فى ذهنى كانت تعنى تعجبنى الصراحة، وتأملت وجهها بحذر كانت، عينيها ذابلتين ويبدو عليهما الأرق، ولاحظت أنها لم تضع أى نوع من أنواع المكياج سوى مرطب خفيف على شفتيها وبشرتها ناعمة جداً ولا زال تنبعث منها رائحة عطرها الجميل، كنت أنوى أن أعلق عليه لكنى لسبب ما اخترت تعليق آخر ونطقت به فى توقيت مناسب أثناء انعكاس اللون الأحمر على وجهها وهى تترقب إشارة المرور الخضراء فى احدى الشوارع الرئيسية:

– يروق لى أن أظل بجانبك.

نظرت إلى مرآة سيارته كأنما تريد أن تتأمل ابتسامتها ثم التفتت لى والسيارة متحركة والإضاءة الخضراء منعكسة على وجهها مستخدمة جملة انجليزية معفية من الخجل وتعنى:

– أنا كذالك.

بعدها قالت لى:

– أنا آسفة يا أشرف، تذكرت الآن فقط، هناك مباراة كرة قدم مهمة بالنسبة لى ولا بد لى من مشاهدتها، ستبدأ بعد ربع ساعة، هل تمانع إن شاهدناها سوياً وبعدها آخذك إلى البيت؟

لم أكن من عشاق هذه المستديرة ولكنى وافقت دون أعرف التفاصيل، لا أدرى، ولكن لسبب ما شعرت بها أصبحت تخصنى أنا وحدى، لذا ينبغى أن أظل بجانبها أطول وقت ممكن، تركتها تقود السيارة بطريقة احترافية جيدة ورحت أتابع الشوارع، بدت لى الخرطوم ذات مساء جميلة ولم أستطع أن أحدد اين نحن الآن؟ وما اسم هذا الشارع الكبير الذى نسير به؟ حتى وقفت بى أمام عمارة كبيرة تصلح أن تكون مستشفى خاصاً وبطريقة عفوية مصحوبة باعتذار:

– متأسفة أقحمتك فى برنامج ربما يكون مضجراً بالنسبة لك، ولكن فى نفس اللحظة مسرورة أن تزور البيت، تفضل.

أكدت لها بأننى مستمتع برفقتها، عدّلتُ من هندامى وشعرت بمدى قذارتى، حذائى مترب وملابسى ليست على ما يرام، الآن فقط شممتُ رائحة إبطى، كريهة كانت. سألتها:

– هل يمكن أن أحمل معى حقيبة كتفى؟

أجابتنى بلغة إنجليزية فى ما تعنى:

– على كيفك.

أدعو الله فى سرى أن يثبتنى أمام أسئلة والدتها أو والدها والذى استبعدتُ أن يكون موجوداً بالمنزل الآن، دخلنا شقة أرضية صالتها

واسعة بها طقم جلوس من الجلد البنى الداكن، كنبتان متقابلتان وكرسى وثير من نفس النوع وبينهم طاولة كبيرة سطحها زجاجى وعليها منفضة سجائر كبيرة ورفها الأسفل به مجلات أجنبية و"فازة". وعلى جانبيى الكنبة المسنودة على الحائط وقفت فازتان كبيرتان فى شموخ، وهناك طاولات صغيرة عليها تماثيل عاجية وأبنوسية وعلى واجهة كرسى الجلوس تلفزيون كبير على طاولة من ثلاثة أرفف بها أجهزة واستريو، والجانب الأيسر من الصالة تحتله طاولة الأكل التى تسع لستة أشخاص، وفى جزء مرتفع قليلاً وداخل إلى العمق ومؤطر بقوس من الطوب البنى البارز وضعت داخله جلسة فولكلورية عبارة عن سجاد عجمى وفوقه بروش و"بنابر" موزعة حول طاولة صغيرة مع كل الإكسسوارات التى تستخدمها قبائل الشرق فى طقس القهوة، وخلف طاولة الأكل مكتبة كبيرة بسعة عرض الحائط بها كتب أجنبية وبعض التحف، على الجدار لوحة واحدة ولم أر صور شخصية لأفراد العائلة كما فى معظم البيوت.

رحبت بى ودعتنى للجلوس ثم فتحت التلفزيون لتغيب لفترة، توقعتُ عودتها مع والدتها أو شقيقتها، رحتُ أتأمل اللوحة والتماثيل وأتابع التلفزيون لقد بدأ الاستديو التحليلى للمباراة فى منافسات الدورى الانجليزى، حمدا لله لأنها لم تكن مباراة وطنية لأننى أكره مشاهدة هذا النوع من الهوس غير الممتع، انتبهتُ لطفاية السجائر وشعرت أن نسبة النيكوتين تضاءلت فى دمى بما يعنى استعدادى للتوتر القادم، ظهرت فتاة نحيفة وأنيقة تحمل القهوة والماء نهضت واقفاً

استعداداً لمصافحتها، وضعت القهوة على طاولة صغيرة أمامى دون أن تنطق بكلمة، من ملامحها عرفت أنها أجنبية ومن صمتها والآلية التى قامت بها لخدمتى عرفت أنها خادمة لأسرة أرستقراطية، رغم ذلك مددت لها يدى صافحتنى بتردد، ارتبكت وغادرتنى سريعا، تابعتها حتى اختفت ورجعت انظر إلى القهوة، عادت نهلة جمال الدين تحمل ابتسامة زائدة عن مساحة الفم المسموحة وترتدى بنطلون حريرى واسع وقميص ابيض فضفاض وكان واضح أنها غسلت وجهها:

– آسفة لتاخيرى.

رفعت صوت التلفزيون قليلاً ثم أردفت:

– أنا طبعاً بموت فى فريق مانشستر.

وأكملت بلغة انجليزية:

– أتمنى أن وجودك يجلب لنا الحظ ونفوز على فريق شيلسى.

ثم مدت لى علبة سجائر ماركة بينسون ومعها ولاعة:

– دخّن.. أكيد "خرمان"، آسفة إذا كان مختلفاً عن النوع الذى تدخنه.

ارتبكت ووضعت علبة السجائر على الطاولة ثم ارتشفت من القهوة كأنما أريد تسهيل حركة لسانى لينطق:

– هل مسموح التدخين هنا؟

جاوبتنى بعد أن جلست على الأرض أمام طاولة الزجاج ونظراتها مترددة بين التلفزيون و شنطة يدها:

– اعذرنى يا اشرف على هذه السخرية التى ستسمعها الآن، بما أن هناك منفضة سجائر بهذا الحجم فيجب عليك أن تدخن دون أن تسأل.

ابتسمت وأنا أشعل سيجارة بسرعة كأننى أخاف أن تغير رأيها، انتبهتُ لها تنظر لى وبملامح راضية عن نفسها ثم أضافت:

– بعد أذنك يا اشرف، هل تمانع إذا دخنتُ "بانقو"؟ أعذرنى فأنا مدمنة ويجب على أن أدخن الآن، وخاصة أن هذه المباراة ستتلف أعصابى.

بلعتُ المفاجأ بثرثرة عن الحريات الشخصية وعدم ارتباط التدخين بالأخلاق، كل ما كان يهمها فى الأمر هل رائحة البنقو تزعجنى أم لا؟ أخبرتها أننى جرّبت تدخينه كثيراً، سألتها:

– هل أسرتك على علم بذلك؟

أومأت لى بالإيجاب ثم أضافت بعد صمت طويل كما لو أنها تجاهلت الموضوع:

– لقد فشلوا فى علاجى.

أخبرتنى أنها ابنة وحيدة ولدت فى مدينة مانشستر بالمملكة المتحدة والداها يعيشان هناك ويزورانها من وقت لآخر، كل العمارة تتبع لهم بعقود إيجار وتكفيهم هذه الشقة للإجازات، وقرار تحويل دراستها إلى هنا كان جزءاً من برنامج علاجها من الإدمان، قالت لى:

– كان الأمر خارجا عن متناول يدى، وليس بمقدورى أن أفعل شيئاً، لقد قُضى الأمر.

– ثم أردفت:

– بصدق أشعر أننى أفضل حالاً من السابق. لقد تعافيت من المخدرات الضارة، أما هذه فليست سوى نباتات، تبدو ممتعة.

ابتسمت وهى تضيف:

– لا تنسى إننى نباتية.

سألتها وأنا أرتشف نهاية قهوتى:

– أهذا يعنى انك تعيشين هنا لوحدك؟

هزت رأسها ثم أضافت كأنها انتبهت لسوء نيتى أو ربما خافت ألا أحسن الفهم:

– تعيش معى هذه الشابة الفلبينية الرائعة وتخدمنى بإخلاص.

رجعت أراقبها وهى تقوم بمهمتها بحرفية عالية ساجدة أمام الطاولة فى طقس إيمانى عظيم، عندما أحست بمراقبتى لها رفعت رأسها وعينيها اللتين تشبهان حبتى اللوز مسترخيتين، وقالت:

– اسمح لى، سأدعو لك بإخلاص حتى لا تدمنها مثلى.

فتحت علبة وأخرجت منها ماكينة صغيرة تشبه المسدس ووضعتها أمامها ثم أضافت:

– أرجوك لا تسخر منى، رغم قلة إيمانى فدعواتى دائما ما تستجاب.

ثم ضحكتُ معها وهى تحاول أن تسيطر على نفسها وتردد هذا المثل بافتتان:

– يضع سره فى اضعف خلقه.

ثم سألتنى:

– هل نطقت المثل بصورة صحيحة؟

أجبت بالموافقة بهزة من رأسى وأنا أتابع حركتها، وضعت ورق اللف الأبيض الشفاف على مجرى اسطوانى الشكل بطريقة معينة داخل المكينة الصغيرة ثم استأذنتنى لتأخذ سيجارة من علبتها، لا شعورياً جلست معها أمام الطاولة أتابع طريقتها المتطورة فى لف سيجارة البنقو، وضعت التبغ على نفس المجرى ونثرت فوقه البنقو، حبست أنفاسها وهى تتابع لحظة مهمة فى المباراة ثم صرخت مع هدف اللاعب الهولندى "فان نستروي" وصفّقت بانفعال وبنفس نشوة الانتصار سحبت ترباس المكينة الصغيرة بقوة لتخرج السيجارة ملفوفة من الفوهة كالطلقة، ضحكتُ بطريقة عبيطة وصفقت لها. دخنا ثلاث سيجارات بالتناوب أثناء مشاهدتنا لتلك المباراة التى تفاعلتُ معها بشكل غير مسبوق، غالباً ما يكون ذلك بسبب هذا الإحساس العظيم الذى أحدثه مفعول البنقو، أحياناً كنت اضحك من انفعالاتها وهى تخاطب لاعبى فريقها بأسمائهم، كانت تحثهم ليجتهدوا أكثر، للحظات تخيلتهم كأنهم يسمعونها، للأسف خسر فريقها النتيجة بعد أن كان متقدماً، لم يكن بالإمكان إنكار غضبى لهذه الخسارة لأنها جعلتنى أتنبأ مسبقاً بفشل علاقتى بها، فمن عاداتى الغريبة، كنت دائماً ما أراهن على تحقيق رغباتى بربطها بتحقق دلالات أخرى، فمثلاً فى هذه اللحظة خمنتُ استمرارية علاقتى بها مرهونة بفوز فريق مانشيستر. كانت تعشق فريق مسقط رأسها وتعلّمت التشجيع

مع والدها، هكذا أخبرتنى. استمرت علاقتى بها مستندة على قيم صادقة، صرنا أصدقاء بدرجة رفيعة المستوى. لقد أدمنتها حدّ التجشؤ بعطرها، لم تعد لدى رغبة أن ابتعد عنها لحظة واحدة. وهى بدورها لم تكن تتوارى فى التعبير عن إحساسها مطلقاً، قالت لى فى لقائنا الثانى:

– تصدق أمس طوال الليل كنت أفكر فيك.

شعرت بوخزة لسماعى هذا النبأ الرائع، وخجلت أن أقول لها لم تغادرى ذهنى منذ افتراقنا أمس. أصبحنا نلتقى يومياً، نتردد على أماكن مختلفة نثرثر حول مواضيع تنتجها الألفة، تقول لى:

– لدى إحساس انك تفكر بنفس الطريقة التى أفكر بها، ألا تعتقد ذلك؟

أبتسم وأقول لها:

– فى اعتقادى أنتِ أفضل رفقة ممكنة حينما يفاجئنى الليل.

نعود لشقتها، نجلس على سجادة الصالة، نستمع للموسيقى وندخن البنقو بتلذذ. ربما أبالغ إذا قلت فى تلك اللحظات وأنا مسترخٍ كنت أسمع صوت كل آلة موسيقية على حدى، حتى الأفلام كنا نشاهدها بتركيز عالٍ، نتنبأ بالأحداث قبل وقوعها، نعرف النهاية من منتصف الفيلم، ينقصه إدراج أسمائنا فى النهاية. فى بعض الأحيان نقترح فى توقيت واحد برامج عبثية، كنا ندور بسيارتها بلا هدف، صوت الموسيقى العالى يحفز على الصراخ، نطوف بشوارع مزدحمة، نتفقد مساء الخرطوم. نتناول العشاء فى مطعم فاخرة. لقد جعلتني اعترف

بمدى إعجابى بالحياة البرجوازية وأن احتفائى بمعيشة الفقر ليس سوى قشرة خارجية، تخص شعرى. أذكر فى أحد الأيام ونحن فى لحظة تجلٍ نادرة، امتلأت عيناها بدموع، لأول مرة تنهار، حكت لى عن صديقها البريطانى "ديفيد"، لقد تعرّفت عليه منذ أيام المراهقة، وكان أول رجل فى حياتها لذلك سمحت له أن يفض بكارتها بلا قيود، اعترفت لى أنه هو من علّمها تعاطى المخدرات، لتدمن لذة مزدوجة، لم تعد تتبّين من أين تأتى المتعة الحقيقية، رويداً رويداً، انغمست لاهثة وراء إحساس خرافى، جرّبت الأصناف الأكثر نعومة. ذبلتْ من حيث لا تدرى، انتقلت لتسكن معه، بعد أن صار يتحكم فى مزاجها، واستمرت علاقتهما جيدة، حتى تلك الليلة الرهيبة التى ذهبت معه إلى شلة أصدقائه وتعاطت جرعات مختلفة، ولم تنتبه للمشاجرة التى حدثت بين ديفيد وأحد أصدقائه، انفعل وغادر الشقة ليتركها مع ثلاثة ذئاب تناوبوا على اغتصابها، دون رحمة. كانت ممدة لا تقوى حتى على الدفاع عن نفسها، لم تشعر بنفسها إلا وهى بالمستشفى، مرّت عليها لحظات عصيبة، تعافت بالعلاج المكثف، والدها طبيب أقنعها بمغادرة بريطانيا حتى تتماسك. قالت لى وهى تنفخ دخان سيجارتها للأعلى كأنها تتأوه:

– أتساءل إلى أى مدى سيبقى هذا الهاجس مسيطراً علىّ؟ يصعب علىّ أن أعرف ذلك. هل تعتقد أن بمقدورى التغلب على هذا الإحساس الذى داهمنى، وأنا أُغتصب بطريقة فجة من قبل ثلاثة فتيان أصحاب روائح كريهة، كان إحساساً مقرفاً.

لا اعتقد أن العنف الذى مُورس عليها هو وحده من صدّعها بهذا الشكل، بل الطامة الكبرى كانت من خذلان صديقها الذى تركها آنذاك وحيده تفترس. حاولت أن اشرح لها بطريقة أخرى واستخدم مفردات عاطفية، ولكن تدريجياً فقدتُ حماستى، عندما لمحتُ دمعة مؤلمة تسيل على خدها. قالت لى بنبرة مرتجفة:

- لا أدرى ولكن بعد الذى حدث، أسأتُ إلى كل الذين حاولوا الاقتراب منى، إلا أنت.

إذا سألونى عن عصارة ندمى واهم الذين فقدتهم فى هذا الكوكب لن أتردد فى اختيار نهلة جمال الدين، لقد علّمتنى ما احتاجه بالضبط، انطق الصدق وأتعاطى المخدرات. لقد ترك غيابها فراغاً لم أتوقعه.

4

وصلت شقتى فى أمستردام ولم أصل لمعرفة هوية هذا المعتوه عامر قنديل الذى خبلنى ونبش ذاكرتى، ولكنه دون قصد قدّم لى خدمة جليلة جعلنى أتداعى واكتشفتُ أن من السهل تدفق الذكريات التى لم تكن هى المقصودة، مثل شخص يبحث بقلق داخل حقيبة قديمة عن شهادة ميلاده المفقودة وبالصدفة يعثر على أشياء أخرى تدهشه، نتائجه فى المدرسة الابتدائية، أول رسالة غرامية، صورة مع زملاء الصف السادس. لم أتوقع أن هناك أشياء عالقة داخل ذهنى بكل هذه التفاصيل، وأشد ما أبهرنى هو تلك الأشياء الدقيقة التى لم أعرها آنذاك ادنى اهتمام وجدتها عالقة بنفس صورتها ورائحتها، لم يخطر على بالى إطلاقاً أننى سأتذكر مكعبات الثلج التى كانت تأكلها نهلة جمال الدين وتهرسها بأسنانها. حتى فساتين رباب تاج السر استحضرتها بألوانها، شىء عجيب فعلاً. وبإمكانى حتى التعليق على ذكرياتى وتقييمها كما لو أننى لم أعشها آنذاك، صحيح سوء التخزين جعلها متربة وباهتة لكن إعادتها كانت ممتعاً. أغلقت خلفى الباب وانحنيتُ التقط رسالتين على الأرض، نظرت إلى الأولى كانت من البنك والأخرى رسالة من طبيب الأسنان وضعتهما مع مفاتح الشقة والموبايل على طاولة المطبخ الصغيرة ، خلعت سترتى وعلّقتها على الكرسى، فى تلك اللحظة داهمتنى رائحة المعتوه القذرة، رحتُ أشتم فى ملابسى كالكلب. اقتربتُ من سلة القمامة ربما هناك

شيء قد تعفّن، فعلاً، هنا مصدر الرائحة، ربطتُ الكيس الأسود وعقدته جيداً ثم فتحتُ نافذة المطبخ. ذهبت إلى الحمام لأغسل يدىّ وأزيل ما علق بي من نتانة القمامة، وفي أثناء ذلك طرأ بذهنى سؤال، لماذا وصل الحال بعامر قنديل إلى هذه القذارة والرائحة النتنة؟ صحيح أنه اخذ كفايته من الإحباط ولكن كان بإمكان أبناء وطنه فى تلك المدينة أن يمدوا له يد العون بشكل أفضل، حتى إن رفض المساعدة. كان بمقدورهم أن يتصلوا بالبلدية ويدخلوه إلى المصحة. الشيء الذى حيّرنى وجهجه ذاكرتى كيف عرف علاقتى برباب تاج السر؟ رجعتُ أعيد فى صياغة سؤاله مرة أخرى. وجدتُ به ثغرة زمنية ربما تفيدنى وأمسك من خلالها بخيط يوصلنى لمعرفته، لقد فهمتُ من سؤاله إنه يدل على عدم إلمامه بمصير علاقتى بها، هل مستمرة أم لا؟ إذن من الواضح، بكل تأكيد كان شاهداً على علاقتى برباب تاج السر ثم هاجر بعد ذلك، وليس لديه أدنى فكرة كيف كانت النهاية. إذن من هو هذا الصديق أو الزميل الذى هاجر فى تلك الفترة؟ اجتهاد دون جدوى، ذهنى تشوّش، الدم ينبض بشدة فى صدغى، رأسى يوشك أن ينشطر لنصفين من شدة التفكير فى هذا المخلوق العجيب، لقد ورطنى القدر فى هذا اللقاء عمداً. فتحت الثلاجة أخذت حبتين مُسكن وقررتُ أن أترك هذا المعتوه وأبعده عن ذهنى نهائياً، قلت لنفسى، من هو أساساً حتى يحتل كل هذا الحيز ويدوخنى لهذا الحد، فليذهب إلى الجحيم، أنا فعلا استحق هذا الصداع، لقد أعطيته زمناً أكثر مما يستحق، كان

من الأجدر بى أن احسم ذلك فى المحطة وأقول له: أنا أسف جداً لم أتذكرك، فمن فضلك، أن تعرفنى بنفسك إذا أمكن؟ وأنا أساساً لست ملزماً باستقرار حالته النفسية من عدمها. ثم ثانياً... انتبهت لنفسى أثناء هذا الانفعال هل أنا نطقت كلمة أولاً فى البداية؟ إذاً فعلاً لم أتذكر اننى قلتها أم لا، فلا داعى كى أقول ثم ثانياً. يبدو لى أننى فى حالة انفعال غير مبرر. اهدأ يا أشرف، ماذا حدث لك؟ فى تلك اللحظة كنت قد فتحت دولاب المطبخ وأخذتُ علبتى السكر وحليب البدرة ووضعتهما بالقرب من ماكينة القهوة الكهربائية ورحت أبحث عن الملعقة فانتبهت لمفارقة غريبة داخل الذاكرة، قبل قليل لم أتذكر كلمة هل نطقت بها أم لا بالرغم أن عمرها فى ذاكرتى يعد بالثوانى وفى نفس اللحظة أتذكر أشياء بتفاصيل دقيقة عمرها سنين وكأنها حدثت قبل قليل، هل هذا يعنى بأننى يجب أن أتذكر هذا المعتوه بسهوله؟ افرض أننى عرفته ثم ماذا، ما الذى سيفيدنى فى ذلك؟ هل سأعود إليه وأعانقه بالأحضان وأعيد معه علاقتنا السابقة؟ وفى نهاية الأمر أنا لستُ طبيباً نفسياً كى أعالجه، وجدتنى ممسكاً بزجاجة الماء البلاستكية وأصبها دفعة واحدة داخل خزان ماكينة القهوة بانفعال حتى فاض الماء على المصطبة، قلت لنفسى، لا تكن سخيفا، ما مبرر كل هذا الانفعال؟ عندئذٍ بان لى وجهه فى هذا الصمت، ظهر بنفس الشكل الذى تأملته به بعد أن بترتُ له ضفائره المتدلية من منظور رؤيتى، بد شكله حزيناً أكثر مما شاهدته، نظراته تنم على شخص تعرّض لتعذيب أو شىء من هذا القبيل، جعلنى

أتراجع عن انفعالى وأحاول أن أكون ايجابياً بعض الشيء، ربما أنا من يساعده ويمد له يد العون، لكن، هذا يتوقف على إتمام إجراءات سكنى فى تلك المدينة. والآن يجب أن أهدأ أولا، وأتجاوز هذا الإجهاد الذهنى، حتماً سأتذكره طال الزمن أم قصر، فلا داعى للجوء إلى الإصرار فلن يفيد، شعرتُ كأنى كنت أضغط على عنقى بقوة، ساترك ذاكرتى على طبيعتها، هذه أفضل وسيلة تتذكر بها الأشياء، التجاهل المتعمد وبوعى كامل سيفضى حتماً إلى ترتيب عام فى ملفات الذاكرة ويسهل تصفحها، أما الإصرار هو الذى يعيق مجرى الذاكرة، يجب أن أشغل ذهنى فى أشياء روتينية متصنعا طرده نهائياً، وضعتُ القهوة الهولندية على مظروف ورقى مخروطى الشكل وأدخلته داخل المكينة وأشعلت مفتاح التشغيل، وجلستُ على الكرسى انتظر أول قطرات القهوة، لقد تعودت على صناعتها بالطريقة الهولندية، إضافةً لنكهتها الجيدة، بها تدريب عالٍ جداً على الصبر وتحمّل الانتظار، لذلك هذا الشعب يمتلك صبر العناكب بلا منازع . فى هذه الأثناء فتحت رسالة طبيب الأسنان ولم أقرأ من بداية الصفحة بحثت سريعا عن المهم وهو الموعد الذى يُكتب عادةً بخط عريض وداكن، ثم التفتُ إلى باب المطبخ أطابق الموعد مع نتيجة التقويم السنوى التى علّقتها على مسمار منذ بداية يناير الفائت. وبالقلم رسمتُ دائرة حلول اليوم الذى صادف هذا الموعد . مع أول قطرة قهوة سقطت، سقط على دماغى سؤال، ترى لماذا انتحرت زوجته الهولندية؟ ولم أسمع أيضاً بأن أحد أبناء وطنى

انتحرت زوجته، من المحتمل أن يكون من أوائل المهاجرين وانزوى عن مجتمعنا، ولكن هجرة أبنا وطنى إلى هولندا حديثة وعمره أيضا لا يؤهله لأن يصبح من أوائل المهاجرين ونفيتُ فكرة انزوائه عن مجتمعه الأصلى بدليل أن عثمان فخة يعرفه جيداً، إذن وارد جداً معاشرته لهم واختلاطه بهم فى تلك المدينة قبل أن يحدث له ما حدث. وجدت نفسى أعود إلى نقطة البداية واسأل نفسى كيف تذكرنى؟ إنه شيء مدهش، افترض أننا كنا نعرف بعضنا بعضا قبل عدة سنوات وبعدها هاجر وحتماً صادفته غربة قاسية وحسرات لا تعد ولا تحصى وأعظمها موت زوجته، أى دماغٍ هذا الذى يجعله يتذكرنى بعد كل هذه النفقات، هل كان لصيقاً بى لهذه الدرجة التى تؤهلنى أن اجلس على المقاعد الأولى من ذاكرته؟ لا يمكن أن يسقط صديق من ذاكرتى بهذه السهولة، هناك شيء ما لا أفهمه. نهضتُ من الكرسى ووضعتُ على قهوتى ملعقة سكر ثم ارتشفتُ منها ورجعت اسند ظهرى على الكرسى، شعرتُ بتعب ينمو من جهة المفاصل ودماغى يتصدع بصوت تهشم، اشعر بشعيرات شعر بيضاء تخرج من فروة رأسى فجأةً، وانى أهرم بسرعة غير طبيعية، ربما أصير مثله بعد قليل، انتبهت لملاحظة العمر، بما أنه اكبر منى عمراً، أكيد قد تخرّج من الجامعة قبلى، نهضتُ من الكرسى كالملدوغ وهرولت نحو غرفتى رفعت سماعة تلفون البيت ولأنى أحفظ فى اللاوعى تلفون شقة ابن خالتى ياسر علوب الذى له رأى قاطع فى عدم استخدام أجهزة الموبايل نهائياً ورفض أن يصبح له

رقم متحرك، لذا لابد لى من الاتصال به فى البيت، واذكر عندما ذهبت للتقديم للجوء خرجتُ من شقته وكان على ألا احمل تلفون أو أى رقم له علاقة بهولندا، لان قصة اللجوء المفبركة والتى سأسردها للمحقق تحتم على أن أقنعهم بأنى وصلت لتوى أمستردام واخذ منى المهرب الإيرانى جوازى سفرى المزور بعد أن عبرنا إلى داخل صالة الوصول . لذلك قضيتُ ساعة كاملة أحفظ رقم تلفون بيته حتى اتصل به فى حالة أن حدث طارئ لذلك حفظته عن ظهر قلب. بسرعة خارقة ضغطت على الأرقام، ربما يتعرّف على هذا المعتوه لأنه تخرج قبلى من نفس الكلية واحتمال كبير كانا معاً فى نفس الدفعة، ومع كل رنة على هاتفه أتعجله فى سرى بأن يرفع السماعة، وأترجاه ألا يكون قد غادر البيت، وبمجرد ما سمعت كحته المعهودة، بلا تحية قفزتُ على أذنه بالحكاية بأنفاس متلاحقة، وبمجرد أن سردت له القصة، أجابنى بكل برود:

– سمعت عنه، كان سابقاً يسكن هنا فى أمستردام، شخص يدّعى المشاكل.

– هل درس معنا فى الجامعة؟

– ما افتكر، صحيح اسمو عامر عباس قنديل، لكن أنا شخصياً لم ألتق به.

– أليس شيئاً غريبة يا ابن خالتى، يعرف اسمى بالكامل وعلاقتى برباب تاج السر؟

– احتمال أن يكون قد تعرّف عليك عن طريق رباب نفسها.

– لا اعتقد.

– لم أنت شاغل بالك به لهذا الحد؟ أنس أمره، يقال عنه من النوعية التى يتشاجر حتى مع ظله.

سألته عن أخباره وأخبار الاهل. ثم وضعتُ السماعة مكانها واستلقيت على السرير وأقدامى على أرضية الغرفة تدندن بإيقاع غير معروف وأنظر لسقف غرفتى، بدت لى هذه المرة الأولى التى أتأمل فيها هذا السقف، رغم الإضاءة الشاحبة شاهدتُ على الحواف شباك عناكب هرمة، لم أبدِ أى تحفظ حولها، رحتُ أفكر فى حوارى مع ابن خالتى ياسر علوب حول هذا المعتوه وخاصة على معلومة انه شخص يفتعل المشاجرات، واسترجعتُ فى الذاكرة زملائى أصحاب الحماقات من الذى تنطبق عليهم هذه الأوصاف؟ ولكن بلا جدوى، انتبهتُ لشىء غريب، خط مهم لم أفكر به مطلقاً، لماذا لا يكون أحد أعدائى؟ أو أحد الذين يمقتوننى وما أكثرهم. تمنيتُ أن يكون حدسى صحيحاً وليس مجرد مظنة، حتى اشمت به. استجوبت نفسى كى أتحقق من أشد أعدائى، كان جلّهم من المدافعين عن النظام الحاكم، كانت بحوزتهم معلومات دقيقة عن كل من يختلف معهم فى الرأى، كانوا أشبه بطلاب استخبارات، يرصدون حركتنا بالتفصيل، وبالمقابل لم أكن مُلمّاً بكل إشكالهم وسحناتهم التى أمقتها بشدة، لقد كانوا يصرخون أثناء نقاشاتنا السياسية، وعندما ننتقد سلوكهم فى أدب الحوار يخرجون العصى من حيث لا ندرى ويتحول الجدل إلى حرب أشبه بمعارك الفتوحات الإسلامية. فهذا المعتوه احتمال وارد يكون

واحداً من ضمنهم. ويا ويله لو ثبت لى ذلك. حسناً لنفرض أنه أحد أعدائى، هل يعقل أن يوجه انتباهى إلى حالته الوضيعة التى لا يحسد عليها، ماذا يستفيد؟ هل ليفضح نفسه ويذلها؟ يستحيل. كان سيحدث فى هذه الحالة النقيض تماما، سيتحاشى أن نلتقى وجها لوجه أو سيهرب حتى لا اشتبه به. ولكن لماذا لم يختار من المعلومات التى يمتلكها عنى سوى كتابة الشعر وعلاقتى برباب تاج السر؟ هل يا ترى يريد أن يتلذذ بتضليلى؟ وقد نجح بلا شك، عند هذه النقطة وصلت لتعقيدات أكثر، حاولت أن أتجاهل حماقة كل استنتاجاتى ولكن كان ذلك مستحيلاً. هناك شىء ما جعلنى أشك فى أن هذا المعتوه عامر قنديل كان أحد الكلاب المحسوبة على الحكومة، أولاً تلك الفئة الحقيرة، مصابون بالسعر ولا يتأذون نفسياً أو يخْتلوا عقلياً، ثانياً لم يتعرضوا لدوافع الهجرة لأن وظائفهم كانت متشوقة تنتظرهم بعد التخرج، لا، لا ليس منهم، إضافة لذلك، يستحيل أن يترك أحدهم فرصة لك لتشمت به، هؤلاء طبقة مزيفة من البشر. إنتبهت أثناء الوضعية التى أنا مستلقٍ بها، أنّ الإيقاع الذى تحدثه أقدامى على الأرض كان محفزّاً للتفكير بشكل مذهل. عندئذ أسندتُ قدميّ على كعبيهما ورحت أتذكر أين وضعت قهوتى، نظرت نحو الهاتف لا أثر لها، أكيد تركتها على طاولة المطبخ. اقتلعت جسدى من على السرير بمشقة، شعرت بأننى حركت صخرة، من شدة الإرهاق، فكرت أن أعود لنفس وضعى وأتمدد بالكامل، نزعت أقدامى من قبضة الحذاء بصعوبة، ارتياح وقتى، وافقتُ

ضمنياً على رأى ابن خالتى، لن أُوْجعُ دماغى بهذا المعتوه بعد الآن، ولكن للأسف فى نفس اللحظة خطر على بالى، ربما فعلاً قد أكون تعرّفت عليه عن طريق رباب تاج السر. يا تُرى متى حدث ذلك وأين؟ حينئذ كان بصرى لا شعورياً عالقاً بحقيبتى أعلى الدولاب، تذكرت أن بها صوراً وذكريات. أشعلت إضاءة الغرفة، وجلست على الأرض سانداً ظهرى بالسرير ورحتُ أتصفّح فى ذكريات موثقة، اللقطة الواحدة تستدعى الزمان والمكان، الطقس والحوارات الساذجة فى تلك الأيام، فم عاطف عوض مفتوح على مصراعيه، يصرخ منادياً المتخلفين عن اللقطة. مررت على صور الأسرة بنظرات سريعة خاطفة، أتمعن فى صور الأصدقاء أيام الدراسة بابتسامة ومتعة فائقة، لقطة لى مع عاصم حليق فى الممر الفاصل بين المكتبة والقاعات، صور جماعية ونحن بالسنة الأولى فى رحلة الكلية، حازم جبريل ومنال عتيق داخل الشاطئ والدهشة المتوقعة من مباغتة الكاميرا، عيون جاحظة، أيادٍ التحمت صدفة، لقطة لشلة لعبة الورق، ليس بها ملامح واضحة، الطالبة المهذبة مهجة الطيب مع الراحل أستاذ جعفر النعيم، أتأمل الوجوه بتفحّص، عصام رشاقة الأصلع أذا شاهد هذه الصورة سيتحسر حتماً على ضياع شعره الكثيف، ياسر أبو رأس شكله يستدعى الرأفة. صور جماعية أحدث داخل الكافتيريا التى كنا نطلق عليها اسم السوق الشعبى، دققت بها جيداً، كانت تضم معظم أبناء الدفعة على أمل أن أعثر على هذا المعتوه وسط هذه الشلة، وجدتنى أقف فى الطرف

الأيمن متورطاً فى ضحكة لم أتذكر سببها، كنت أتوسط رأفت القبطى ورباب تاج السر، التى تأملتها بخصوصية مفرطة وبمعزلٍ من عن الوجوه الأخرى، حتى فى اللقطة كانت ملامحها اكْتئابيّة، ولولا أنها داخل صورة لتوقعت انتحابها بعد لحظة. للأسف بعد كل هذا الزخم الهائل من الذكريات لم أعثر على بُغْيتى، وظل هذا المعتوه عالقاً بذهنى، نهضت بتكاسل أخرجت زفرة حادة، ودخلت التواليت حافى القدمين، وقفت أراقب مسار البول حتى لا يخطئ هدفه، وأجاهد لوضع حد لفوضى أفكارى وذكرياتى التى تتدفق، لابد من ترتيب الأمور من الأول، هل عرفنى مباشرة عندما التفت إليه مذعورا وهو يشتهى سيجارة؟ ربما بعد أن تفحصنى وهو جالس يأكل، تذكرت تلك النظرات التى رمقنى بها. دققت فى كل التفاصيل لم أستهن بأى حركة صدرت عنه. فطنت فجأة للتغير فى لون البول صار أقرب إلى لون الشاى، دائماً ما يحدث معى ذلك، وفى هذه الحالة اعرف جيداً أننى مرهق ولم أشرب الماء بصورة كافية، انحنيت على ماسورة الحمام وتجرّعت منها رغم عدم إحساسى بالعطش، رجعتُ إلى المطبخ وأنا أتمتم فى سرى، كل شىء ولا إمراض الكلى، تناولتُ رشفة من قهوتى وفتحت الثلاجة كانت شبه فارغة، قطعة جبنه وثلاث قطع من الطماطم، خياره، علبة بيرة وشرائح خبز، حاولت أن أتذكر ماذا أريد منها بالضبط؟ شعرتُ بها حركة روتينية لا معنى لها، أغلقتها، تناولتُ قهوتى، تمنيتُ إن كان لى تواصل مع رباب تاج السر، ربما كنت هاتفتها الآن وسألتها،

حتماً ذاكرتها المذهلة كانت أفادتنى، فجأةً انتبهت لمصادفة بها مفارقة غريبة، تذكرت الشخص الذى كانت له علاقة حب مع رباب تاج السر قبل أن ارتبط بها كان اسمه الأول عامر، كنت أكرهه وأمقته بشدة، واستمر حقدى عليه يتضخم حتى أثناء علاقتى بها، ولكن السبب الوحيد المقنع الذى خفف من وطأة الضغينة عليه هو موته المفاجئ فى حادث مأساوى مع صديقه قرب سواحل جزيرة مالطا، لولا أنه مات منذ سنوات لما ترددت لحظة وجزمت انه هو بعينه، خاصة أننى لم أره سوى مرة واحدة وعلى مسافة بعيدة، وكنت مرغماً على هذه النظرة لأنه أكثر شخص كرهته على الإطلاق. أعتقد أن هذه لحظة من اللحظات القليلة التى لم أتلذذ فيها بطعم القهوة. سألت نفسى ما سبب إلحاحى وإصرارى على معرفة هذا المعتوه؟ وتذكرت فى الحال حوارى مع عصام رشاقة، لقد اتهمنى بالغيرة على رباب تاج السر، وضمنياً اعترفت بينى وبين نفسى وقلت فى سرى، فعلا يبدو أن كلامه منطقي، لأن اهتمامى به تمحور فى سؤاله عن علاقتى برباب تاج السر، مما يدل على أن غيرتى عليها وشكوكى حولها لا زالت تنبض حتى بعد أن لفظت العلاقة أنفاسها الأخيرة، ولا اعتقد أنه كان سيثير اهتمامى إذا نطق فقط بأسمى ولم أتذكره، كنت ببساطة شديدة سأحاول لفترة وجيزة وبعد ذلك إلى الجحيم هو وضفائره النتنة، لم آتِ إلى هنا من أجل المحافظة على الاجتماعيات، وتبادل أرقام التلفونات، والمجاملات التى لا حدود لها. فجأةً وجدتنى متورّطاً فى ذكرى إحدى حقاراتى،

أنا بطبعى شكاك زيادة عن اللزوم، لذلك اكتشفت أننى كنت أشك فى رباب تاج السر بشكل مرعب، فى غيابها لم أكن اشعر براحة أبدا. إذا ما اختفت للحظات قليلة داخل الجامعة، تبدأ شكوكى تتعاظم، ربما تكون قد ذهبت لاستراحة الطالبات أو مع إحدى صديقاتها، لكن لم أكن من ضمن الذين يفكرون بهذه البراءة، كنت دائماً ما اشطح فى شكى، غضبى يتأجج، أبحث عنها أولا فى الأماكن التى أتوقع أن اقبضها فى حالة حيازة عاطفة غير مشروعة، تتنازعنى مشاعر مختلفة، يداهمنى إحساس أنها لا زالت تعشق حبيبها السابق، الغيرة تتقافز مع خطواتى، ربما ذهبت إليه فى كافتيريا النشاط. أو اختبأت معه فى مكانٍ ما خارج الجامعة، أتخيلها تضحك معه، ماذا قالت له عنى؟ من المؤكد اشتكت من تصرفاتى الوضيعة، لا أستبعد اعترافها بندمها على نهاية علاقتهما، أعض على أسنانى وأَلْفظُ مفردات فاحشة. وعندما أجدها بالقرب من استراحة الطالبات أمسك يدها بقوة وأجرَّها جرَاً خلف المكتبة، أشعر بأن ثمة قوة ما تريد أن تنتزعها منى. أتكلم ضاغطاً على أسنانى:

– نصف ساعة وأنت مختفية، إلى أين ذهبتِ؟ ومع من؟ سريعاً، انطقى؟

تقف متبلدة، مندهشة، أهزها من ساعدها بقوة ليرّتج حتى صدرها، رذاذ غضبى لا يخطى وجهها وأنا منفعل:

– تكلمى. الآن أصبحت بكماء، لا تنكرى، مع من التقيت؟

تصرخ:

– أشرف، ااااخ، حرام عليك، كسرت يدى.

راحت تنظر لى كما لو أنها كانت تتأمل وجهها فى المرآة وفجأة شاهدت بقعة دم على جبينها، صرخت بدورى.

– بحثت عنك فى كل مكان داخل الجامعة وخارجها، أين كنتِ؟

ترد بألم:

– كنت فى استراحة الطالبات مع إيمان صالح، حتى ممكن تتأكد منها.

وصل بى الحال أن أتتبع خطواتها حتى تصل البيت دون أن ترانى، أودعها وأهرول، استغل حافلة سريعة لأصل قبلها الحى الذى تسكنه، أختبئ وأتابعها حتى أتأكد أنها دخلت إلى دارهم ومن ثم أعود. كانت بداخلى رغبة عارمة ودوافع انتقامية تتنامى هرمياً لتصل قمة السادية، كنت أتلذذ فى خيالى كأحد أفراد قوات النظام العام كى أقبض عليها مع أحد الذين لم أعد أطيقهم، أداهمها فى حالة نشوة جنسية أوشكت على صرختها النهائية، لم اخطط مطلقاً لما سأفعله بعد أن أقبض عليها وهى فى هذا الوضع المشين، ربما أبصق على جسدها العارى أو اقتلها لأشفى غليلى. لا أدرى ما الذى جعل غيرتى تقودنى لهذه التخيلات وتعصف بى إلى درك من الانحطاط، ربما لأن لذة الخيانة التى فعلتها ولم ترقَ لتصل لحد المتعة التى توفرها لى رباب تاج السر، جعلت الندم فى داخلى يتحجر مترصداً انتقام، هذا الحدس لم يكن مجرد ظن بل شعرت به بتدبير مسبق، لذا كنتُ ارغب فى استذلالها تدفعنى خساسة مُدكّنة. أحياناً يخيّل لى

أننى كنت أود رؤية نشوتها فى خيالى، وأتأمل تلك الرعشة الأخيرة بمتعة مكبّرة. تذكرتُ أننى سجلتُ لها فى إحدى الأيام شريط كاسيت، بدون علمها طبعاً، حتى أسمع تأوهاتها فيما بعد، لأن تركيزى فى إشباع رغبتى كان يمنعنى من مراقبة انفعالاتها أثناء تطور النشوة من القبلة الأولى حتى النهاية. لقد استمتعتُ بذلك التسجيل، كانت تبدأ بأنفاس متلاحقة وتنهيدات مثيرة إلى أن يصبح صوتها آتٍ من عمق بئر تتوسلنى: أرجوك أكمل ما بدأته لم اعد أتحمل مزيداً من البلل. اذكر أن حتى صديقى خالد بجة اعترف لى أنه استمنى وهو يستمع لهذا الكاسيت المثير. و فيما بعد أخبرتها بأمر التسجيل متعللاً بالاستمتاع به أثناء الليل فى غيابها، لم تغضب بل أخفت ابتسامتها، وعندما استمعت لصوتها فى التسجيل، صرخت صرخة طفولية وغطت وجهها بكلتا يديها من الخجل ولم تقوَ حتى أن تنظر لوجهى، أغلقت المسجل بسرعة وجلست متوترة تقلِّم أظافرها، وعبثاً تنتف الخجل الذى نبت، لفت الطرحة حول وجهها مخفية ملامحها بالكامل، تخيلتُ، أننى أذا نزعتُ عنها الطرحة فى تلك اللحظة بصورة مفاجئة سأجدها مبتسمة. بعد ذلك اعتادت على سماع شريط الكاسيت باستمرار، وتجرأت فى إحدى المرات لتكتب عليه "رباب وعزف منفرد على آلة الكمان". ابتسمتُ وأنا أعيد قراءة خطها الأنيق بيدها اليسرى. للأسف شعرت بغير ما خططت له، داهمنى جفاف فى الريق وإحساس بالجبن، لأننى فى الواقع دمرتها بشكل يتعذّر ترميمه، فعلت ذلك بلا رادع ضميرى، بان

لى وجهها فى تلك اللحظة كأنما الغبار عالق برموشها، كانت دلالة مؤكدة لتقيّم حجم الضرر المادى والمبدئى، يخيّل إلى من الظلم أن اطلب منها مغفرة آنذاك. لقد استمر غيابها أسبوعا كاملاً عن الدراسة، ملأتها شعوراً مشوّهاً، دخلت فى حالة ذهنية يمكن لها أن تصدق اي شيئ. اجحفتُ فى حقها وظلمتها،وهذا ما جعلنى أتخيّل أنها ستنتقم منى مستخدمة نفس السلاح. صديقى رأفت سنيوت أو رأفت القبطى كما نطلق عليه، هو من نبهنى لمغبة أفكارى فى تلك الأيام:

– هل تعتقد يا أشرف أن رباب تاج السر يمكن أن تخونك من أجل رد اعتبار لخيانتك لها؟ أبداً. يا أشرف المرأة لا تفكر بنفس المنطق الذى تفكر به أنت.

كنت أقف متكئاً على الثلاجة داخل مطبخه وهو منهمك فى إعداد فطور، بلا قصد كنت أراقب حركته، قام بتقطيع الفلفل الأخضر لقطع صغيرة وفعل نفس الشيء أيضاً بـ "المارتدلا"، ثم صب عليهما البيض، وضع الخلطة على المقلاة وغطاها ومن ثمّ تفرّغ لى:

– هل تعلم أن الرجل إذا خانته المرأة يقتلها؟ أما المرأة أذا خانها الرجل تقتل عشيقته.

أومأت برأسى موافقاً على رأيه، فتح الثلاجة واخرج منها كأس زبادى ونظر لتاريخ الصلاحية وقال كأنه يخاطب كأس الزبادى:

– المرأة لا تخون حبيبها إلا فى حالة أنها شعرت بعدم جدوى العلاقة به و لم يعد يُحبها وهناك من يعرض لها بضائع تبدو لها مستوردة

وأصلية. رباب تاج السر يا صديقى تعشقك بكل جوارحها، لن تفكر سوى فى الطريقة التى تحافظ بها عليك، مع العلم أن هذا لن ينقص من طعم المرارة التى جرّعتها لها.

شعرتُ بكلامه منطقياً، ولكن تمسكتُ برأى معانداً حتى ذهنى:

– ولكن يا رأفت الذى حدث ليس سوى نزوة عابرة، وأنا ملتزم مع رباب تاج السر.

يطفئ نار الغاز ويلتفت لى وعلت وجهه تجعيدة:

– لا اتفق معك إطلاقا، الخيانة تعنى الخسارة، وبصراحة شديدة رباب تاج السر للأسف مرغمة على أن تسامحك لأنك ممسك بها من عذريتها التى توجعها.

تناولت معه الطعام بلا شهية، ابتلعت حجارة بركان حديث، شعرت أثناء المضغ بالندم يتحرك على كرسى الإعاقة متوقعاً إعانة . من أسوأ الأشياء أن يصيبك ندم متأخر يصُّعب عليك استئصاله. ولكن بعد أن غادرته، طفحت دناءتى مرة أخرى، وحتماً أذا سنحت لى هذه الفرصة مرة أخرى، سأكرر ما فعلته.

هززت رأسى كى أتفادى هذه الذكرى غير الموفقة، لقد أشعرتنى بمدى نتانتى وقبحى آنذاك. فتحت باب البلكونة فى محاولة يائسة لمغادرة إحساسى، وقفتُ أنظر إلى الحديقة التى تحت شقتى مباشرةً، شاهدتُ جارى خيّرت الهولندى وهو يقف على سلم خشبى صغير ويحمل مقصّاً كبيراً يقص به نباتات السور بحرفية عالية المستوى، تابعته لبرهة غير كافية لإضافة أى نوع من الإحساس تجاهه،

نظرتُ تحتى مباشرة وبزاوية عمودية كانت تجلس زوجته على كرسى الحديقة تتابعه وهى تدخن، وقفتى على البلكونة من فوقها لم يسمح لى أن أرى سوء شعر رأسها المصبوغ بلون بنى باهت هذه الرؤية العلوية النادرة مكنتنى حتى من مشاهدة نمو شعرها الرمادى الأصلى وكشف عن فروة رأس حمراء مقززة، كان منظرها شنيعاً، أشحتُ بصرى عنها بسرعة، رغم ذلك ظل المشهد الغثّ فى ذهنى لثوانٍ، لقد ذكرتنى بمؤخرة قرد الشمبانزى. رفعتُ رأسى أتأمل الفضاء ويدى داخل جيب البنطلون تبحث عن علبة السجائر والولاعة. لقد انقشعت السُّحبُ بعد هطول الأمطار الغزيرة، وأفسحت المجال لأشعة الشمس الباردة تهبط مطمئنة فوق البنايات العالية وتنعكس عن بعض النوافذ الزجاجية ليصبح المكان بإضاءة صفراء داكنة كما لو أن مصدرها أنوار أعمدة إنارة كهربائية، شعرتُ بازدياد درجة الرطوبة وأصبح الجو يبرد تدريجياً. واصلت التدخين وأنا منكمش حول نفسى وأعاين فى المكان حولى. الأشجار فى نهاية سبتمبر تصبح كالحرباء تتلون بأشكال غريبة، بعضها لا يزال محافظاً على خضرته والبعض الآخر تحوّل إلى اللون البنفسجى والأصفر، والغالبية أصبحت أغصان فارغة، لم اطرح لنفسى أسئلة عميقة لتفسير هذه الظاهرة: لماذا يتحول لون أوراق الأشجار قبل أن يذبل؟ اكتفيت بأول إجابة ألهمنى بها ذهنى، وأساساً لم أكن مهتماً بهذا الموضوع، كل ما فى الأمر محاولة فاشلة ألهى بها ذاكرتى المُتفسِّخة، فاعتبرتُ ذلك التغير فى اللون شحوب سببه الموت التدريجى لها لتسقط قبل سقوط الجليد

القادم، بيد أنى انتبهت أن هذين اللونين كانت تعشقهما رباب تاج السر فى معظم تفاصيل حياتها وألوان بلوزاتها خير دليل، لقد كانت أنيقة جداً، دائما ما ترتدى فساتين طويلة بلا أكمام وتحتها بلوزة بلون بنفسجى وحتى الطرحة التى تتركها ملعقة على رقبتها كانت بها نفس الألوان، تختار ملابسها بعناية خاصة تأتيها من دولة الإمارات، كانت ترسلها لها شقيقتها الوحيدة والأكبر منها رحاب تاج السر، متزوجة ومقيمة هناك، لقد التقيتها مرة واحدة فى إحدى إجازاتها وأيضا تحدثت معها بالتلفون عدة مرات، هى الأخرى كانت امرأة أنيقة تسرق الأنظار من الرجال والنساء معاً، حفزّتنى كثيرا بأن أجتهد وابحث عن فرصة وظيفة مثل زوجها فى الإمارات، أعتقد لتضمن بقاء شقيقتها الوحيدة بالقرب منها، كانت تتحدث بجدية وإصرار كى أحقق هذا الطموح وعرّفتنى حتى على زوجها. لقد حاولت فى السابق تخيُّل ردة فعلها والرأى الذى كونته عنى عندما علمت بنهاية علاقتى بأختها، لا اعتقد أنها سمعت بالخبر دون أن تعلِّق عليه، فهى من النوعية التى تعتقد أن حياتها المثالية هى المقياس الذى يتقيد به الآخرين، وعادة ما تنتشى عندما تجد من يصغى لها وهى تحكى عن حياتها وكيف يبدأ يومها وينتهى، وتُسهب فى الكلام عن إجازاتها فى ماليزيا، والرفاهية التى ينعم بها أطفالها. فمن خلال معرفتى بشخصيتها القوية، لا أستبعد أنها عنّفتنى وبشدة ولم تبخل على حتى بالإساءات، ومن واجبى كانسان محبط فى تلك الأيام وأجلس على كوم من اللامبالاة، لم اكترث

كثيراً، ففى غيابى لن أحس بلكمات أو صفعات، أما عن الإساءات التى لا أسمعها حتماً ستخطئ أهدفها، حتى ولو كانت لعنات بذيئة وما أكثرها. انتبهت لنفسى أجهد فى ذهنى وأحاول بلا جدوى أن أتذكر اسم زوجها، لا اعتقد انه كان ضالعاً فى تلك الإساءات، للأسف لم أتذكر اسمه إطلاقا، اللعنة على ذاكرة الأسماء هذه، ها هى تعود بى مرة أخرى لمحاولة فاشلة مع المعتوه عامر قنديل. دعستُ فلتر سيجارتى بقوة على ركن أرضية البلكونة حتى بات كحشرة هاربة لتندس داخل جحر اصغر من حجمها، ثم أغلقتُ باب البلكونة ونظرت لساعة الحائط، لا زالت هناك عشرون دقيقة لموعد إغلاق سوبر ماركت "البرتهاين" القريب من شقتى، تناولت سترتى التى لم تجف بعد والمفاتيح بيد وبالأخرى الموبايل ودخلت الغرفة وانتعلت حذائى وخرجت بسرعة. هذه الليلة تحتاج إلى كحول مركز حتى أعبرها بنجاح وأسرعت فى خطواتى، بدت لى طريقة مشيتى الآن مختلفة، شكلى مترهل وخاصة بعد أن تركت عمل الفنادق الشاق. هرولتُ ليس للتأكد من رشاقتى بل لأصل فى توقيت مناسب قبل أن يغلق قسم بيع الكحول داخل السوبر ماركت أبوابه. اشتريتُ زجاجة وسكى كبيرة وخمس علب بيرة هينكن، كيس مُكسرات، شيبس بطاطا، خيار وجبنة بيضاء، لم اشتر شيئاً للعشاء، لأنى لازلت أتنفس رائحة اللحم الذى أكلته اليوم، فكرت بدلاً عن العودة للبيت أن أذهب وأسهر اليوم مع صديقى عصام رشاقة، أكيد سيبتهج بهذا الويسكى، وعندما أخرجت الموبايل لأتصل به، تذكرتُ انه تحصّل

على عمل جديد أيام "الويكيند"، كانت لى رغبة أن يشاركنى احد ذاكرتى التى توهجت فجأة، وأحكى له عن المغامرات التى لا يعلم بها سوى صديقنا رأفت القبطى. وأنا فى طريقى للشقة فتحت علبة بيرة وارتشفت منها أثناء تأملى مؤخرة فتاة يانعة وفاتنة كما تبدو، كانت ترتدى تنورة من الجلد الأسود قصيرة حد الإرهاق، غير عابئة ببرودة الطقس ومؤخرتها الكروية تبدو صلبة مستندة على فخذين مشدودين داخل شراب أسود شفاف زاد من قيمة الإثارة المعنوية، شاركنى ثلاثة شباب نفس الهدف، كانوا يقفون أمام بناية بملابس رياضية حدّقوا فيها ببلاهة وهى تعبر بالقرب منهم، ثم راحوا يضحكون على بعضهم، لم تجفلها تلك الضحكات بقدر ما أربكتنى أنا، من حسن حظى أنها كانت تسير فى نفس اتجاه بنايتى، أسرعتُ فى خطوتى حتى أتجاوزها وأنظر لوجهها، فى نيتى مقارنة جمالها مع هذا الجسد الفاتن وبعد أن سبقتها بثلاث خطوات التفتُ نحوها وبادلتنى نفس النظرة الفارغة، ملامحها طفولية وعدساتها الطبية غير الملائمة مع شكلها هى أول ما يلفت انتباهك لها، كانت بلا مكياج وتبدو مستاءة من البثور التى نبتت على وجهها وجعلت لونه كاللسان، باختصار شديد جمالها لا يرقَ لمستوى جسدها المتناسق. أنا أمارس هذه العادة دون وعى، إذا أعجبنى جسد امرأة من الخلف أصر على أن الحق بها رغم سرعة خطوات بعضهنّ وخاصة صاحبات الأحذية العالية، أهرول خلف أحداهنّ لمشاهدة وجهها وهل يليق فعلاً بجسدها؟ أما فى الأماكن المزدحمة مثل ميدان "الدام" أو

محطة القطار أمارس خيالاً من نوع غريب، لأنى أشعر كما لو أن هناك خللاً فى معيار الجمال، ربما يكون هذا هو العدل الإلهى فى توزيع نسبة الجمال الأنثوى ولكن بطريقة ما ابتكرتُ الجمال الذى ارتضيه لنفسى ويفتننى، لذا أجدنى استعير وجه فتاة جميلة وألصقه عنوةً على أخرى تمتلك جسداً مثيراً، هكذا تكتمل عندى الصورة الممتعة، كأنما أنا المخوّل بإعادة تنسيق الخلق من الأول. لذلك كثيراً ما رسمتُ فى خيالى صورة لحبيبتى الافتراضية، ولكى تصبح زوجتى الاستثنائية خلقتها من أربع فتيات عبرنّ قلبى وكان لهنّ أثر بالغ فى حياتى، أربعتهنّ مختلفات ولكن لعلهن مجتمعات يملأنّ فجوة إحساسى، اخترتُ لها جسد هاجر النورانى المثير ووجه سلافة صديق الجميلة ولابد أن تعشقنى بجنون رباب تاج السر ولها رقة نهلة جمال الدين البرجوازية. وضعت البيرة داخل الثلاجة وباقى الأشياء على طاولة المطبخ ما عدا زجاجة الويسكى ظللتُ ممسكاً بها، دائماً أخاف عليها أكثر من خوفى على نفسى، وضعتها تحت الطاولة برفق مؤقت، ثم استبدلتُ المكان، ربما أرفسها برجلى أثناء جلوسى على الكرسى، إذن أين أضعها؟ فتحتها وهى داخل الكيس وشربت منها جرعتين كأنى ابتلعتُ جمرتين، أغمضتُ عينيى، أحسستُ بملامحى أُستُبدلت، بيدى اليسرى فاتحتُ كيس "الشيبس" وملأت فمى الذى تشنّج ثم غسلت كباية القهوة وملأتُ نصفها ماءً والنصف الآخر وسكى، رحتُ أبحثُ عن مكان أمن لهذه الزجاجة المهمة، وقع اختيارى على زاوية بين الثلاجة وسلة القمامة، هذا

الشارع قطعاً لن أمر به وأنا مخمور. دخلت غرفتى، خلعتُ ملابسى، تحركت بين الغرفة والمطبخ بالبوكسر فقط كأنى أبحث عن فكرة ارتديها. ارتشفتُ من الويسكى، دخلت الحمام لأرتدى البيجامة، شممت رائحة إبطى وبمشقة استطعتُ أن اضبط درجة حرارة الماء، تحت الدش خطرت لى فكرة العودة لمقابلة صاحب الغرفة غداً ودفع الإيجار شهرين مقدماً حسب اتفاقى معه، وبالمرّة تكون فرصة جيدة كى التقى بهذا المعتوه عامر قنديل، وتمسكت بأمل ضئيل فى أن يعرّفنى بنفسه، ربما تكون حالة النفسية استقرت. أبهجنى هذا الاحتمال، لماذا لم أنتبه؟ اللغز يمكن حله بسهولة وحتى أذا لم يتجاوب معى، سأجد هناك معلومات كافية عنه، مسحتُ بيدى الضباب من على مرآة الحمام وابتسمت لنفسى، فكرتُ بصوت مسموع، أن الأفكار الجيدة دائماً ما تأتى تحت الدش. تذكرت ذلك الدش والساعة الثالثة صباحاً فى منزل رأفت القبطى، الذاكرة جلبت لى المكان أولاً بكل تفاصيله، الشباك الصغير الذى يفتح على الحديقة، وشكل الماء المنساب بنعومة، اللمبة الشفافة فوق حلق الباب، رف الخشب به شامبو وصابون، حوض غسيل الوجه وصباع المعجون فى الرمق الأخير، أول الحضور كان نهداها المشدودان بحلمات بنية داكنة. بدأت أمسية عادية، كانت نية رباب تاج السر أن تنام معى تلك الليلة فى منزل صديقى رأفت القبطى، لذلك كان عليها أن تختلق عذراً جيداً لأسرتها وأنها ستقضى الليلة مع ابنة عمتها هاجر النورانى التى تقيم فى القسم الداخلى للجامعة،

والتى كانت قد التحقت هذا العام بالجامعة، جاءت من احدى قرى الشمال كانت فى سنتها الأولى بكلية التجارة، لقد اهتمت بها رباب تاج السر بشكل خاص واحتوتها بعاطفة ليست غريبة على طبعها، وبحكم صلة القرابة عاشت معهم الأيام الأولى فى البيت قبل أن تنتقل وتسكن فى القسم الداخلى التابع للجامعة، وعندما عرفتنى بها كانت تبدو قروية فعلاً وساذجة لأبعد الحدود، بها لمحة جمالية طبيعية ومستترة، لا يتذوقها أصحاب الذاكرة الجمالية المكتسبة بفعل المساحيق. فى بادئ الأمر كانت متوحشة لم تنسجم مع أحد، نفرت حتى من أبناء دفعتها، ظلت ملتصقة بخطواتها مع رباب تاج السر كحقيبة يدها، لذلك كان معظم وقت فراغها أن تظل جالسة معنا دون أن تنبس بكلمة، مما جعلنا نتحدث دون أن نعير وجودها انتباهاً، أحياناً كانت رباب تاج السر تحكى لى عنها فى وجودها، تسرد لى مواقف مضحكة عن سذاجتها، كيف ردت على تلفون البيت دون أن ترفع السماعة، وفى إحدى المرات سخّنت الأيسكريم فى النار لأنه بارد جدا، وفى مرة استخدمت قلم الروج ورسمت به حواجبها، كنا نضحك وتجدها رباب فرصة لتمسك بيدى، أما هى فكانت تنظر إلينا مبتسمة فقط كما لو أننا نضحك على شخص لا يهمها. اجتهدت رباب تاج السر معها وعلّمتها كيف تتعامل مع أدوات المكياج وأن تحاول أن تتخلى عن النطق ببعض المفردات التى تخص الأمهات فقط وتغير لكنة لسانها التى جاءت بها من مسقط رأسها، تبرعت لها ببعض فساتينها الضيقة والتى لم تعد ترتديها،

والغريبة بدت لائقة عليها بشكل غير متوقع وأظهرت مفاتن جسدها لدرجة أننى أصبحتُ أتلصص على مؤخرتها عندما كانت تسير أمامنا، بعد ذلك بدأتُ أُلاحظ نظراتها المريبة تجاهى، كنتُ كلما التفت اليها أجدها تبحلق فى وجهى كأنها تتابع فى فلم جنس، تنظر فى وجهى بعينين متوهجتين وتركيز مذهل، وحتى عندما كنتُ أنظر اليها بالمقابل كى أجبرها تشيح بوجهها أو تطأطئ رأسها منكسفة، إطلاقا لم يكن يحدث شيء من هذا، ولم تصب بأدنى ذرة خجل، بل بالعكس كلما انظر لها تزيد إصراراً على أن تبحلق فى وجهى دون أن ترمش، مما يجعلنى أضطرُّ إلى أن أُنكس رأسى، حاولتُ قدر الإمكان ألا تنتبه رباب تاج السر لهذه النظرات الغريبة، وقلت لنفسى، ربما يكون هذا جزءاً من شخصيتها فهى فعلاً تبدو فتاة غريبة الأطوار. فى تلك الأمسية جاءت مع رباب تاج السر التى كانت تضحك عندما همستُ لها:

– حتى فى الليل يظهر معك هذا الظل؟

تجيبنى:

– حرام عليك، مسكينة تعودت على رفقتى، ولا تنسى يا قلب لولاها، لما تمكنّت أن أنام هذه الليلة معك. استأذننا رأفت سنيوت وذهب لحضور مناسبة زواج مع صديقته، وأنا ورباب تاج السر بدورنا تركنا ابنة عمتها هاجر النورانى فى الحديقة ودخلنا لنمارس الجنس فى غرفة صغيرة كانت مخصصة فى السابق للخادمة، كانت رباب تاج السر تفضل هذه الغرفة لأنها الوحيدة التى ليس بها صور ورسومات

مريم العذراء والقديسين. وبعدها قمنا ثلاثتنا بتجهيز العشاء وانتظرنا رأفت وصديقته، شربنا أنا وهو لترا من العرقى غير الجيد، ولم تبخل رباب تاج السر أن تحكى لنا عن مواقف طريفة عن ابنة عمتها، مما حفز هاجر النورانى نفسها لتواصل الحكى بلكنتها الخاصة، قصص تدمع لها العين من شدة الضحك. فى منتصف الليل جهزت رباب تاج السر لابنة عمتها الغرفة التى كان تسكن بها شقيقة رأفت والتى هاجرت إلى استراليا، ورأفت وصديقته دخلا غرفتهما وأنا ورباب رجعنا لغرفة الخادمة تسبقنا النشوة. فى هذه اللحظة بالضبط استطاعت الذاكرة أن تحضر لى وجهها بالكامل عينيها الواسعتين وشفتيها المكتنزتين، كانت تقف تحت الدش والماء منسكب على شعرها، وبقايا رغوة الصابون كالزبد تجمعت على شعر عانتها. كانت الثلاثة صباحاً عندما أيقظتنى مثانتى ممتلئة، وطرأت فى رأسى فكرة أن أدخن سيجارة فى الحديقة، لحظتها سمعت صوت الدش فى الحمام الخارجى وشاهدتُ الإضاءة الخافتة تنبعث من الشباك الصغير الموارب، توقعت انه رأفت، وعندما أشعلت السيجارة صدرت عنى كحة خفيفة لينفتح الشباك ويطل منه وجه هاجر النورانى وسألتنى بصوتٍ عالٍ لا يشبه التوقيت:

– رباب بت خالى صاحية؟

أجبتها نافياً بيدى، ثم رفعت علبة الشامبو للأعلى وسألتنى:

– كيف يمكن فتحها؟

وفى نفس اللحظة فتحت لى الباب، مددتُ يدى لآخذ الشامبو،

جذبتنى من ساعدى بقوة وأغلقت الباب ثم عادت لتقف تحت الدش غير عابئة بما سيحدث، سقطت السيجارة من يدى لتنطفئ على البلاط، وتشتعل بداخلى رغبة جنونية نحو هذا الجسد البض، بلعت ريقى بمشقة، دمى كله تجمع فى مكان واحد، أنفاسى كبست فى اتجاه واحد وأنا ألهث مشدوداً نحو مفاتن جسدها بقوة مغناطيسية هائلة، لأول مرة اشعر بهذه النوع من الإثارة. أشارت لى أن اخلع ملابسى، بسرعة مذهلة كنت عارياً يتقدمنى ذكرى نحوها، مصصت صدرها بجنون، عانقتها وأنا أزبد كثور مذبوح، كانت عذراء بختان فرعونى، ورغم ذلك قذفتُ بسرعة مذهلة، لم تصدر عنها أصوات تأوهات انهارت مغشيّاً عليها، وأسندتها على صدرى، أجلستها بعد ذلك على كرسى حديد فى ركن الحمام، أفاقت بعد مدة زمنية شعرت بها ساعات، ارتديت ملابسى ونسيت أن أفتح لها الشامبو، رجعت لأتمدد بالقرب من رباب تاج السر. بعد هذه المغامرة جاءت معى إلى هذا المنزل فى أوقات مختلفة، لم أبالِ باستهجان رأفت القبطى، ترجيته أن يحتفظ برأيه لنفسه، يخيّل لى فى تلك اللحظات كان من العبث انصياعى لأى وازعٍ أخلاقى، لقد فتننى جسدها المشدود. لم تكن تعبأ بشيء، تتصرف حسب أوامر رغبتها، كانت مجرد ما أغلق باب الغرفة تخلع ملابسها بسرعة وتقف أمامى عارية، تتأملنى بذات النظرة الغريبة، ومن ثمّ تلقى بجسدها المثير بطريقة مذهلة من الإهمال على السرير، أهجم عليها واصرعها وفى لحظات معدودة كنت انتشى، لم تكن خائفة أو مرتبكة مطلقاً، لا اعتقد أنها كانت

سوف تتصرف بهذه الطريقة المدهشة حتى مع زوجها، فعلاً فتاة غريبة، تتركنى افعل ما أشاء بها، لم يكن لديها أية وازع أخلاقى يلطف بها، أو حتى إحساس بالخطر الذى كان يمكن أن يداهمها، ثَبُت لى أن جسدها هو من كان يتحكم بها، لم تكن تنبس بكلمة، جسدها هو المترجم نيابة عنها، فى بعض اللحظات ينفعل ويثور تدوس بأقدامها على السرير لترفع جسمها إلى أعلى وتساهم بنصيب مضاعف لفض عذريتها. استمرت متعتى معها لفترة من الزمن، متهرباً من لقاءاتى مع رباب تاج السر مستخدماً أعذاراً ساذجة، متنبئاً بأنه عاجلاً أم آجلاً ستكتشف كذبتى. واصلت فى محاولاتى الدنيئة لهدم مزارها المقدس، حتى تلك الظهيرة التى جاءت فيها رباب تاج السر ورنّت على جرس منزل رأفت القبطى وفتح لها الباب، ولم تمهله حتى يرد عليها السلام لتفتح باب غرفتها المفضلة وتجدنى أحضن جسد ابنة عمتها، نهضتُ مفزوعاً، لم تنظر لى مطلقاً، وقفت ترتعش وتحدق بعينين مختلجتين إلى هاجر النورانى التى لازالت ممدة عارية، لم تحرِّك ساكناً ومن ثم بكل قوتها صفعتها على وجهها، صفعة حادة حتى تراجعتُ أنا للوراء، ثم أمرتها بأن ترتدى ملابسها بسرعة وأمسكتها من يدها وغادرت بها، ولم أرها حتى هذه اللحظة.

شربت كأساً آخر، زفرتُ الهواء بفم مغلق لترتطم شفتاى ببعضهما بعضا بصوت "طرررررر". يحدث هذا أيضاً عندما اشعرُ بأننى غير راضٍ عن نفسى، وأحياناً تبدو لى حركة لا مبرر لها، على كلٍ هذه

المرة فعلتها عندما انتبهت لصدفة تنم عن سخرية، لقد تذكرت قبل أيام من هذه الحادثة، كانت رباب تاج السر قد أهدتنى شريط كاسيت للمطرب زيدان إبراهيم كان بعنوان يا خائن.

نهضتُ من الكرسى مثقلاً بالغم، علقتُ المنشفة على باب الحمام، فتحت الثلاجة وتبرعت لى بما تجود، قمتُ بتقطيع الخيار والطماطم والجبنة البيضاء إلى مكعبات صغيرة وضعتها على صحن ثم شعرتُ بأنه كان فعلاً زائدا. ملأتُ كأسى مرة أخرى وجلست امضغ "الشيبس" بلذة بعد أن أفرغت نصف الكأس دفعة واحدة داخل جوفى، انتبهت لنفسى امضغ بطريقة عبيطة وحتى صوت قرقشة البطاطس الناشفة مزعج جداً وأنا اطحنها بأسنانى، كأن الصوت كان يأتى من السقف، أو أن هناك شخص خلفى يمشى داعساً على أوراق الشجر الناشفة، ربما يسمعنى حتى الجيران لذلك أبطأتُ من حركة فمى، تذكرت صوت الأوراق الناشفة التى كان يدوس عليها المعتوه عامر قنديل بحذائه القذر ويكسرها، وانتبهت أنها كانت كثيرة جدا، لقد بدأ تساقطها فى نهاية سبتمبر لكن لماذا تركت هكذا دون أن يزيلها أحد؟ وحتى حديقة النصب التذكارى اختفت حشائشها الخضراء فقد حجبتها الأوراق الذابلة وتساقط عليها المطر لتصبح طبقة متعفنة، فعلا هذه مدينة غريبة.

5

أصبحت المدينة تعانى من عجز وركود تام فى ميزانيتها، ووجد رئيس البلدية "فان ديرك" نفسه فى موقف لا يحسد عليه، انفض من حوله أصحاب الشركات الكبيرة والمصانع، لقد دعموه فى بادى الأمر بسخاء وعندما أصبحت مآربهم الأخرى سراباً تركوه يواجه محنته لوحده، لقد اتضح لهم جلياً أن طبائع الأجانب لن تنسجم مع طموحاتهم. لم يكن بالإمكان إنكار هذه الحقيقية ولم يعد بمقدور موظفى البلدية ورئيسهم تصحيح الأخطاء التى ارتكبوها، لقد صرفوا مبالغ طائلة على تعليم الأجانب اللغة الهولندية وكورسات مكثفة فى مجال التقنية الصناعية الخفيفة والخدمات لتأهيلهم ولكن الأموال ضاعت سدى، لأن الأجانب فى ذلك الوقت كانوا يزاولون أعمالاً بالباطن دون علم البلدية، لذلك تغيّبوا عن دراسة اللغة بأعذار مرضية متكررة مما جعل أحد مستشارى رئيس البلدية يعوِّل على الحزب ليضغطوا على البرلمان لكى يجيز القانون الذى لا زال قيد المناقشة وينص على أن يكون العمل شرطاً أساسيا لاستلام الجنسية الهولندية. لقد اصطدمت البلدية بفشل خطتها فى الاستفادة القصوى من الأجانب ليصبحوا بعد ذلك عالة عليها، وأكتشف مكتب الرعاية المخوّل بدفع الإعانة الشهرية التلاعب الذى يقوم به الأجانب، من خلال مزاولتهم أعمالا مختلفة تابعة لمكتبى خدمات أصحابهما من

الأجانب، والمكتبان مسجلان بصورة رسمية أحدهما يديره كاظم العراقى والآخر شكرى الكواع، ويشتغل معهم عدد قليل بصورة رسمية وغالباً هؤلاء من الذين ليس لديهم أسر، فى هذه الحالة يكون العمل بالنسبة لهم أفضل من الإعانة، ليصبحوا غطاءاً لمكتب شكرى الكواع الذى استقطب الجنسيات الإفريقية المختلفة من أصحاب الأسر ليدفع لهم أجورا اقل وفى نفس اللحظة يحافظون على الإعانة التى كانت تكفل للأسرة إيجار البيت وبعض المنصرفات، لذلك لم يعترض أحد على تدنى الأجرة اليومية لأن الاستفادة مشتركة. وكان شكرى الكواع يقول دائماً عندما يلتقى ببعض عماله وهو خارج من المسجد:

– هؤلاء يهود كفرة، مالهم حلال علينا.

يوافقه آخر:

– نحن نسترد فى القليل من خيراتنا التى نهبوها عندما استعمرونا فى السابق.

– هذا هو الكلام المظبوط.

لم يكن يدفع ضرائب على العمالة غير الشرعية لذلك اغتنى بسرعة لم يتوقعها هو نفسه، كانت له ثلاثة مواقع عمل، مصنع للمشروبات الغازية ومصنع علف إضافة لشركة تخص البريد، فى فترة وجيزة أصبح لديه أكثر من مائة عامل، لذلك اشترى حافلات صغيرة لتوصيل العمال، كان حريصاً جداً، لذلك كان من الصعب على البلدية اكتشافه من خلال مكتب الخدمات التابع له، كان يردد دائما:

ما نخافش من حد كل شيء مظبوط على الورق. فكر أحد موظفى البلدية أن اكتشاف التلاعب لا بد من إثبات حالاته من خلال العمال أنفسهم ثم راحوا يراقبونهم، وبالمقابل كان شكرى الكواع يعلم بالمكايد التى تحاك خلفه لأن لديه أعيناً داخل البلدية، وعندما أصدرت البلدية مكافأة لمن يدل على شخص يعمل بطريقة غير شرعية، خاف العمال على وضعهم لأن عاقبة ذلك وقف الإعانة التى تكفل إيجار السكن والأكل، ولكن استطاع شكرى الكواع أن يهدئ من روعهم والخروج من هذا المأزق بأن طلب من عماله عدم ارتداء الملابس التى بها شعار الشركات التى يعملون بها، وأصدر أوامره لحافلات النقل بالتوقف فى مواقف عامة ويأتى إليها العمال بعيدا عن أعين الهولنديين التى يدفعها الفضول وتترقب المكافأة. يعتقد الكثير من الهولنديين، من الذين عارضوا البلدية وكانوا ضد فكرة دخول الأجانب، بأن ما قامت به البلدية من مراقبة للأجانب والإعلان عن جائزة لمن يبلغ عن شخص يعمل من الباطن، بأن هذه هى القطرة التى جعلت كأس العداء يطفح بين الأجانب والهولنديين، لأن الذى حدث بعد ذلك أصبح الأجانب يشكون فى جيرانهم الهولنديين وظهرت أول بوادر الكراهية، وفعلا بدأت العداوة تأخذ منحى انتقامياً خاصة بعد أن أوقفت البلدية الإعانة من بعض الأجانب الذين تم اكتشاف أمرهم. أول هذا العداوات كانت رسائل تهديد تم وضعها للسكان الأصليين داخل صناديق البريد، وكتابات بقلم الرصاص على الأبواب، تم الإبلاغ عنها لدى الشرطة، التى لم

تصل للفاعل، ثم انتقل الانتقام إلى أشياء ملموسة. سُجِّلت بلاغات عن حالات حرق بعض السيارات، أما الفزع الحقيقى جاء عندما وجد أحد موظفى البلدية كلبه مقتولاً فى الحديقة، وكان هذا الموظف قد قام فى نفس الأسبوع بمداهمة أجنبى يعيش مع زوجته فى منزل واحد بعد ما كان قد ابلغ البلدية فى وقت سابق انه منفصل عنها، التى أصبح لديها إعانة أسرة كاملة لأنها تتكفل بأطفالها، أما هو فقد خصصت له شقة وإعانة منفصلة فقام باستئجار شقته لعمال مصريين وعاد ليقيم مع أسرته التى لم ينفصل عنها أساسا. بعد اكتشاف أمره تمت معاقبته بتهمة الاحتيال على البلدية ومصادرة منزله وأوقفت عنه وعن أسرته الإعانة، ولكن لم تثبت عليه جريمة قتل الكلب. بعدها توالت البلاغات لدى الشرطة حول اغتيال الحيوانات من كلاب وقطط.

أما فى مقهى السنتر الرئيسى فقد كان النقاش محتدماً بين الهولنديين أنفسهم من أنصار دخول الأجانب والمعارضون، كانت اللقاءات شبه يوميه ولم تكن مدبرة، كانت هذه الفئة أغلبهم من كبار السن وأرباب المعاشات، هم أيضا يعيشون على الإعانة ولكن تعتبر هنا إكراما لهم لما قدموه للدولة والمدينة، تبدأ حواراتهم عن زيادة الأسعار وتبادل المعلومات عن المحلات التجارية التى به تخفيضات خلال هذا الأسبوع، ثم يعرجون على الحديث الذى لا يملونه مطلقاً يثرثرون عن الطقس، إلى أن تزفر عجوز زفرة قوية وتنطق بجملتها المعتادة:

– اللعنة عليك يا فان ديرك لقد دمرت كل شيء.

يساندها أحدهم وهو جالس على كرسى متحرك ممسك بقهوته بين يديه:

– أنه شخص فاشل لم تكن لديه أى فكرة عن الذى سيحدث.

تُعقِّب العجوز بعد أن أحست بأول مناصرة لها:

– من أشد أنواع الغباء أن يكون لديك مستشارون ولا تحسن التصرف.

تنشرح أساريرها عندما تسمع همهمات الاستحسان وتشعر بنفسها نطقت برأى عبقرىّ خطر لها الآن دون أن تفكر به من قبل، لذلك رغبت فى محاولة إبداعية أخرى:

– كثيرة هى الطرق التى تجعلنا أغبياء لذلك كان على السيد فان ديرك أن يختار الأقل ضرراً للآخرين. ويؤكد آخر على صحة كلامها:

– كان يجب عليه أن يقدم استقالته بدلاً من أن يستمر فى بعزقة أموال طائلة على أجانب لا رجاء منهم. ضحك عجوز آخر وهو مستند على يد المخلاة التى ينقل بها مشترياته ثم قال:

– كلنا آثمون وبريئون فى آنٍ واحد، يبقى من الضرورى التسليم بأن السيد رئيس البلدية لم تكن نواياه سيئة، ولا احد بمقدوره أن يفلت من الفشل.

وقبل أن يعقَب أحد عليه، قال:

– هناك أشياء إيجابية يجب أن نتأملها.

وراح يحكى عن حفيدته ذات الخمسة عشر ربيعاً، كانت تعيسة بما يكفى لإصابته بعدوى هذه الكآبة، يقول وهو مبتسم:

– ها هى الآن أصبحت مشرقة كالشمس لأن لديها صديقاً اكتسبته من هؤلاء الوافدين الجدد، لقد تعرّفتُ عليه بالأمس، صبى وديع، صحيح أنه يحمل ملامح غريبة ولكن يعشق حفيدتى بصدق وهذا هو الأهم.

ثلاث نساء تحدثنّ فى وقت واحد بعشوائية ولكن فحوى حديثهنّ انصب فى مصلحة السعادة التى تشعر بها الحفيدة، لقد حولنّ الأنظار نحو الملاحظة التى لا تخفى على أحد؛ ففى الشوارع الفتيات المراهقات يتأبطنّ أذرع الشباب الأجانب ويتحركنّ كالفراشات، رد عليهنّ رجل بصوت مبحوح وملامح قاسية ولكن بعد أن تلفت حوله وقال:

– أقسم بأن هؤلاء الأجانب البرابرة سيدمرون هذا الجيل بعاداتهم السيئة.

مُسنٌّ آخر نهض من كرسيه وكأنه قرر المغادرة وتحدث واقفا بلباقة وأكد بأن هذا الجيل هو الذى من حقه أن يقرر بقاء الأجانب من عدمه، أما نحن العجائز فليس من حقنا أن نلصق بهم تهما مسبقة، فمن الأفضل أن نهتم بالبوابات التى سنغادر منها إلى الفردوس قريبا، وأضاف، مستنداً على خبرته فى وظيفته السابقة، بأن الأجانب سينعشون هذه المدينة اقتصادياً. البعض أيّده بهزة رأس وهمهمة استحسان ، ولكن صاحب الملامح القاسية أجابه بعد أن نهض هو

الآخر بانفعال أكثر وأكد بأن هذا الجيل لا يعرف مصلحته فى هذا العمر، وغدا سيستبيح هؤلاء الأجانب المدينة ويتهمنا الأحفاد بأننا نحن الذين سمحنا لهم بدخولها.

6

استيقظتُ بالعطش وانتفاخ فى المثانة، شربت من ماسورة حوض الحمام، رجعت للسرير وأنا أترنح، عنقى لا يتحمل رأسى لثقله، رميت به على المسند كأنه لا يخصنى ومن ثم هويت بعده بجسد متهالك، سقط مهتزّاً. يدى اليمنى تتلّمس الأرض كفصيلة عناكب ضخمة، أناملى عمداً تخطئ علبة السجائر التى أبحث عنها، كما لو كان عن قصد، أشعلت واحدة ولمُتُ نفسى على إفراطى فى الشراب ليلة أمس، لماذا تجرّعت كل هذا الشراب؟ لم يكن هناك أى سببٍ منطقى يجعلنى أسكر حتى وقت متأخر من الليل. وبعد أن تأملتُ دخان سيجارتى المتصاعد سرحتُ فى تفكير مطوّل، تفكير يكفى لاكتشاف شيء مهم، لكن للأسف توصلت إلى نتيجة لا تحتاج لهذا الجهد المبذول، اقتنعتُ أن سبب صداعى هو خلطى فى شراب البيرة والويسكى معاً، ولم أنسَ ذلك المعتوه عامر قنديل الذى هيّج ذكرياتى، استطعتُ بسهوله استرجاع آخر صفحة كانت مفتوحة فى ذكرياتى ليلة أمس قبل أن يتعطّل ذهنى وينقطع الإرسال مع آخر كأس ويسكى لينطفئ كل شيء بعد ذلك. كنت أستعيد لحظة الخذلان التى مارستها مع رباب تاج السر، فبعد تخرّجنا راحت تدفعنى نحو التحرك والجدية من اجل عشقنا، وليس لديها خيارات أخرى سوى طاعتى والاحتماء بوعوداتى المتذبذبة، كانت خائفة أن

تفقدنى للأبد، ليس حرصاً على ما بيننا من عشق بل لأننى من فضّ عذريتها، ولم تجد مفراً سوى أن تتحوّل لجندى مطيع لتنفيذ الأوامر، وفعلاً مثلما قال صديقى رأفت القبطى، أشعرُ آنذاك بأننى كنت اضغط عليها من عذريتها التى توجعها، لم تكن أمامها خيارات وليس فى حساباتها أن تخدع رجلاً آخر إذا فشلت علاقتى بها:

– عارف يا قلب، إطلاقا ما قادرة أتخيل نفسى عايشة مع راجل غيرك.

سحقت السيجارة على المنضدة بغضب وشربت كأساً دفعة واحدة بعد أن رنّت فى ذهنى جملتها الأخيرة وارتبطت عندى بصوت جرس تلفون ليلى، وأنا أسكن فى أحد معسكرات اللجوء فى شمال هولندا داخل غابة والأرض مغطاة بالجليد والمكان موحش، دعوة صريحة من الكآبة للانتحار، فى تلك اللحظة رنّ الموبايل، المتصل كان صديقى خالد بجة، تبادلنا الأشواق بالصراخ، خرجت فى الهواء الطلق حتى لا أزعج الآخرين، بلورات الثلج الناعمة كالفراشات تتساقط على ملابسى منتحرة، أقفز من شدة الفرح، وأنا اسمع صوت أحد الذين افتقدهم:

– ما سامعك كويس، نحن فى حفلة عرس.

– حظك، مستمتع.

– معظم أولاد الدفعة هنا، عرس رباب تاح السر.

أكملت المكالمة مجوّف الذهن، أسير على الجليد وأشعرُ كما لو أن أقدامى تدوس على غائط طرى، إحساس غاية فى النتانة، لا أدرى

لماذا شعرت بالندم فى تلك اللحظة؟ تحوّل البرد فجأةً لغيرة قارسة، ارتعشتُ من الغضب لأننى تخيّلتها ستنام الليلة مع رجل أخر، ستنتشى بين أحضان زوجها، وبسادية مفرطة تمنيت أن يكتشف عذريتها الملفّقة، محاولات بائسة لتهدئة نفسى. دخلتُ صالة البلياردو التى خلف مبنى استقبال معسكر اللجوء، وجدت بها ثلاثة شباب من أفغانستان يتحدثون زعيقاً، توقعت أننى سأرتكب حماقة، خرجت بسرعة، متحسراً بهذا الخبر الصاعقة، لا أرى أمامى غير طشاشاً، كمدُ يدفعنى لمشاهدة سوء حظى داخل منجم من البؤس، لم أكن أتخيل أن رباب تاج السر ستصبح ملكاً لرجلِ آخر، كانت تبدو لى إحدى خصوصياتى التى لن يمسها أحد مهما أهملتها، ولكن أكثر ما آلمنى فى تلك اللحظة إحساسى بفداحة ما اقترفته من جرم فى حقنا سوياً، أنا من فرّط فى هذه العلاقة، أنا من وضع لها نهاية بمزاجٍ معلن وتهاون، وبميول سادية كنت أتخيلها ستظل تستجدينى إلى آخر عمرها، كنتُ واهماً نفسى بأنها ستكون ملكى حتى وإن لم أسعَ إليها، وبمجرد ما امتلكها شخص غيرى، أُضْرِمت النار فى داخلى. انتحبتُ فى غرفتى بشدة وأنا استمع إلى أغنية "الأمانى السندسية". بعدها توصلت لقناعة أذا لم تبادل الشخص الآخر نفس صدق الإحساس منذ البداية، فلا يحق لك أن تشعر بالأسف عندما يختفى من حياتك.

نهضت من السرير وأمسكت التلفون بيدى لمعرفة الوقت كانت الساعة 9:21 صباحا، انتبهت لمكالمة لم أرد عليها وهناك رسالة

صوتية، كانت من "ايمانويل" الشخص الذى ينوى أن يستأجر شقتى لمدة ثلاثة أشهر بعد انتقالى لغرفة فى تلك المدينة الغريبة. تذكرتُ أن على أن اذهب للبنك أولا لسحب مبلغ أدفع به إيجار الغرفة ولكن يبدو لى دوافعى لمعرفة من يكون هذا المعتوه عامر قنديل، كانت أكثر أهمية من الغرفة والمدينة بكاملها. تذكرتُ انه لا يعرف المصير الذى آلت إليه علاقتى برباب تاج السر، وأنا بدورى لن اخبره حتى ولو عرّفنى بشخصيته، أما فيما يخص إحساسى الفظيع، ذلك الإحساس الذى داهمنى لحظة سماعى خبر زواجها فى تلك الليلة الجليدية داخل معسكر لجوء فى شمال هولندا، وظل ينتابنى كلما جاءت سيرتها، حاولت أن اشطبه من قائمة حسراتى، ولكن بلا طائل.

تذّكرت الآن لقائى الأول برباب تاج السر كان به نوع من الصدفة التى تنم على تدبير مُحكم من القدر، أو هكذا تخيّلتُ آنذاك، كان بالضبط فى اليوم الثانى لالتحاقنا بالكلية، فى منتصف الظهيرة، لحظة إنعدام الظل بالكامل، شمس عمودية غياظة، عرق تمتصه الملابس الداخلية، كانت فى تلك اللحظة مع صديقتها إيمان صالح التى بدت لى أجمل منها أو ربما لأننى التفتُّ لها أولاً لأنها سألتنى عن مكتب مسجل الكلية الذى كنت ذاهباً إليه أيضاً بسبب سقوط اسمى سهواً عن قائمة طلاب السنة الأولى، لتخبرنى بأن صديقتها تعانى من نفس المشكلة عندئذ التفت لها وشاهدتُ حبيبات العرق التى كانت تتجمع فوق أنفها كالندى، شعرت بوخزة إبرة فى صدرى،

إرتبكتُ، بلعت ريقى كانت محاولة فاشلة للتماسك. وقفتُ كالأبله أحملق فى وجهها أمام مسجل الكلية، وبعد أن سمح لنا بدخول أول محاضرة، تعمدتُ أن أتركها تجلس أولا مع صديقتها فى المقعد ومن ثم جلستُ خلفها مباشرةً ورحتُ أتأمل شحْمةُ أذنها ورأسى يتمرجح كأنه معلق على طرف قرطها، أتمايل بينها وبين المحاضر، والذى كأنه قرر حسم صراعى فأطفأ الأنوار ليشعل جهاز "البروجكتر" وراح يشرح فى صور غير عابئٍ بالأصوات والتعليقات المضحكة والساذجة التى صدرت عن الأولاد. التفتت نحوى فى هذه اللحظة كاتمة ضحكتها كمعظم الفتيات فى محاولتهنّ الصريحة للتعبير عن متعة مخيفة، وجدتها فرصة مناسبة لتحرير لسانى من بركة لعابه، ولكننى لا أتذكر ماذا قلت لها فى تلك اللحظة بالضبط من تفاهة، ضحكت ورجعت برأسها نحوى لتعقب على كلامى بجملة مهموسة لم أسمعها جيداً، وخجلت أن أقول لها ماذا قلتِ؟ فضحكت معها، وظلت ابتسامتى البلهاء عالقة أثناء تأملى لوجهها، كانت الإضاءة الزرقاء منعكسة على خدها تعمقتُ فى وجنتها وتابعتُ حركة شفتيها، فكها ليّن مضغوط من الوسط كأنها داست عليه بسبابتها، حركة رموشها ضاجة. عندما عادت الإضاءة تحمل تياراً من الأسئلة، انتبهت أننى لم أشاهد ما تم عرضه من صور. تعرّفت عليها بعد تلك المحاضرة متحججا بصدفة عدم إدراج أسمائنا ضمن قوائم الطلاب الجدد. أمطرتها بأسئلة كانت تبدو أقرب إلى الاستجواب الرسمى، وخيّل لى أن إجاباتها كمن ينفى فى تهمة، ولكن العقبة

الكبرى عجز لسانى أن يتقدم خطوة للأمام ليتجاوز بى التعارف التقليدى، وجدتنى أبكماً ومحرجاً من وقفتى معها دون حوار، تنبعث منى رائحة المدرسة الثانوية العليا، لا أدرى ماذا أقول بعد التعارف؟ كيف أواصل الحديث؟ أين لسانى. العرق ينزّ من كل أنحاء جسدى، كنت أشعر بكفى يتفسّخ، ما هذا الأبله الأخرس؟ تخيّلت أنها تتساءل الآن فى سرها. وأنا بدورى أتساءل كيف يستطيع زملائى الملاعين اعتراض الفتيات دون سابق معرفة؟ والقيام بأحاديث مطوّلة ويتبادلون معهنّ الضحكات والمواعيد، جرأة تصل إلى حد طلب المغامرة أحياناً، أعترف أننى كنت أحسدهم، جميعهم كانوا يجيدون فن التحدّث مع الفتيات.

كنت بطبعى خجولا، علاقتى بالأنثى حالة مبهمة لم أتخذ إزاءها أيّ إحساس محدد، أحياناً أشمئز منها، وغالباً ما أشتهى أن أمتلكها بالقوة، لذا كانت علاقتى متوترة ومشوشة. لم أتعامل مع الفتيات مطلقاً، أتحاشى الاحتكاك بهنّ. شقيقاتى ثلاثتهنّ تزوجنّ وأنا صغير، لذلك نشأت فى بيت نادراً ما كان يجذب فتيات الحى اللّاتى يقمنّ بزيارات ودية، أذكر فى مراهقتى أننى أعجبتُ بفتاة تسكن معى فى نفس الحى، لم تكن جميلة بالشكل الذى يجعلنى أتفاخر بها أمام أصدقائى، رغم ذلك أرسلت لها ثلاثة خطابات مع سناء جارتنا ولكن لم ترد على أى منها، وقتها شعرت بالإحباط، اتخذت قراراً كئيباً جداً، أن أصرف التفكير بها نهائياً، تركتها فى حالها. وبمحض صدفة التقيتها فى مناسبة حفل زواج وفاجأتنى عندما طلبت منى

مرافقتها إلى شارع بيتهم المظلم لأنها كانت خائفة من العودة لوحدها. وافقتُ مضطرباً، وبينما كنت أسير معها بصمت مطبق فى ذلك الزقاق المظلم، نبح كلب بقوة، جفلت مسعورة وأمسكت بيدى لعدة ثوانى لكنى أحسستُ بها عدة ساعات، وبعد أن أفلتت يدها شعرتُ بأننى سأضل طريق العودة إلى البيت، أعتقد أنها كانت أجمل لحظة فى حياتى فى تلك الأيام، وظل إحساسى بيدها عالقا بى مده من الزمن، أناملها الرقيقة ترتعش كالعصفور داخل كفى، واندهشتُ عندما اكتشفت أنها لم تستلم تلك الرسائل.

أما رباب تاج السر كان إحساسى بها مختلفاً، فى أحلام اليقظة كنت أتخيل أنها ستصبح زوجتى، ولكن لم تسعفنى الجرأة حتى أبوح بإحساسى، كنت أخشى أن تحرجنى، ففضّلتُ أن أبقى أقرب ما يمكن منها حتى تأتى الفرصة المناسبة، كنت يومياً فى المساء أجهز مع واجباتى ما سأقوله لها غداً، أكتبه على الورق، وبعد أن أصل لصياغة مرضية أحفظ ما كتبته، أردده عدة مرات وأتأكد من حفظه، أقوم بإعادته وأنا جالس على مقعد الحافلة مفترضاً أنها أمامى، أكثر شخص كرهته فى تلك الفترة كان كمسارى الحافلة الذى يشتت ذهنى بيده الممدودة محدثة صوت "طقطقة" فى أذنى . أقف أمام بوابة الكلية من أجل الإعادة الأخيرة، أحد أفراد الحرس الجامعى خصّنى بأدب غير متوقع ربما اعتقد أننى اقرأ المعوذتين. وعندما التقيها أمام القاعة أتنفس بصعوبة ناهيك عن الكلام، أشعر بأننى مخلوق بلا لسان، فى نهاية المحاضرات أسلمها دفترى لأنها لا تدوِّن

المحاضرات، تكتفى بالنقل من دفترى، وكنت فى غاية السعادة ودفتر محاضراتى ينام معها، أتخيله مستلقاً على وسادتها وأحياناً متكئاً على صدرها. وعندما تعيده لى أشم رائحته، أحضنه، وازداد ولعاً بها. فكرتُ أن أدوِّن إحساسى على ورقة واضعها فى وسط الدفتر، ولكن تراجعت عن قرارى شعرت بها فكرة ساذجة. أصبحت مهتماً بها بصورة جادة متستراً بمراجعة المحاضرات، نجلس ثلاثتنا أنا وهى وإيمان صالح نقضى وقتاً طويلا بعد المحاضرات، أقف معها حتى تركب الحافلة وأدفع الأجرة نيابة عنها. كانت لقاءاتى بها تبدو لى مذهلة، استمتع بشرحى لها عن المحاضرات السابقة، أجيب على استفساراتها الساذجة آنذاك، ولكن بعد عودتى للبيت اكتشف أننى لم أحرز أى تقدم نحو العاطفة، تنتابنى مرارة وألوم بلاهتى ورعونتى، اغتاظ من نفسى، أنا أضيِّع فى فرص لن تتكرر. لا تكن جبان يا اشرف، بإمكانك أقامة علاقة معها. أتذكر أقصى جملة خرجت منى مصحوبة بعرق عندما كنا تحت شجرة "نيم" لوحدنا قلت لها، لم أعد أحتمل غيابك. لم تعقِّب، ظلت تنظر إلى الأرض، ثم أخرجت منديلاً من حقيبة يدها ومسحت أجمل حبات عرق من على أنفها. وأثناء هذه الجرأة التى استهلكت سرعة فائقة فى ضربات قلبى، كنت أفاضل بين عدة احتمالات، فأنا اعرف نفسى بشكل جيد، المباغتة تفقدنى رشدى، تنمو لى وجنة من شدة الخجل، أشعر بيديّ تصبحان أعضاءً زائدة عن حاجتى لا أعرف أين أضعهما؟ فكرت أن اعتذر عن ما تفوهت به، وعندما طال الصمت بيننا تداركت الموقف

وأخرجت صوراً لأسرتها وراحت تعرّفنى على أقرب الناس لها:

- ديل ماما وبابا فى الحج، عمار خالى فى اليونان، ديل انا ورحاب أختى فى عرس خالى أيمن، رحاب أختى وزوجها.

لم أكن افهم الطريقة التى تفكر بها الفتيات، لذلك أخطأتُ فى تفسير إحساسها بالجملة التى نطقت بها تخيلت أنها لا ترغب فى هذه الطريقة من الكلام، بغباء شديد لم اكرر ما بدأته، خفتُ أن أفتقدها ورحت أفكر فى طرق أخرى استميل بها قلبها. فيما بعد فهمت بأن الفتاة التى تعرّفك على أسرتها من خلال الصور تؤسس لبرواز مشترك بينها وبينك وتنتظر منك اللقطة المناسبة. فضّلت أن أظل بالقرب منها وأترك الصدفة وحدها تقدم لى عملاً جليلاً أو أدهشها بتفوقى الأكاديمى. كلما استطعت فعله هو إبلاغ شلّة أصدقائى بأنها تخصنى. قلت لهم:

- تحذير يا شباب، رباب تاج السر منطقة عسكرية خاصة ممنوع الاقتراب والتصوير.

كنا لحظتها فى قاعة خالية من الفتيات، وكنت أنقل لها فى دفترها المحاضرة السابقة. قال خالد بجة وهو يضحك:

- معقول بهذه السرعة عملت معاها علاقة.

أجيبه وأنا مستمتع بتهمة لا تتوافق مع إمكانياتى:

- لم أصارحها بعد، لأننى متيقن بأن العلاقة لابد أن تنهض على أساس جيد.

ياسر أبو رأس يدس داخل فمه سفة (تنباك) مزاحماً ضرس العقل

وينطق ساخراً:

– يا مان دا من راسك ولا كراسك؟

ليضحك الجميع، وأدافع عن غضبى:

– أنا لا أحبذ طريقة الطرح التقليدية فى علاقات الحب، أنا اخطط بهدوء يجب أن نفهم بعضنا أولا ومن ثم يأتى الحب.

ينفعل عاصم حليق الصعلوك:

– يا أشرف، أسمع، أفهمنى يا وهم، الكلام النظرى ما بنفع هنا، الخلاصة كالآتى، البنت تحتقرها وتدوس على رأسها تحبك، تحبها وتعطف عليها تحتقرك وتركب راسك.

يضيف خالد بجة:

– كلام حليق سليم جداً، مظبوط صحن فول بالجبنة والسلطة. قلت بنبرة غاضبة:

– لا يمكن لإنسان واعٍ أن يتعامل مع حبيبته كأنها حيوان. لا بد للشخص أن يفهم حبيبته أولاً ليسّهل على نفسه كيفية التعامل معها وهى بالمقابل ستفعل نفس الشىء.

لا أدرى وقتها إن كنت أأدافع عن المرأة أم على حيائى وعجزى عن مصارحة رباب تاج السر. ينفعل عاصم حليق:

– يا سيد، لو عايز تفهم امرأة عليك باستيعاب العالم أولاً.

تأتى مداخلة متوقعة من ياسر أبو راس:

– لو عايز رباب تاج السر تحبك وتبرك ليك فى البلاط، أسمع كلام حليق، قالوا ليك اسمع كلام مجرّب. يواصل عاصم حليق فى فلسفته

التى أخجلتنى آنذاك:

- اسمعنى يا أشرف، أولاً، حبيبتك لا بد لها أن تفهم أنك صعلوك، بمعنى أنك تحسسها بأنوثتها، كلما تجلس معها فى مكان هادئ، أمسك يدها، حاول أن تلمس ساقيها، علِّق على مؤخرتها وصدرها، ولا شنو الفهم يا شباب؟

يضحك معه الجميع ويجد التأييد التام من الشلة على فلسفته العجيبة، كان ذلك يبدو لى منتهى الانحطاط، واعتبرتها أفكاراً طائشة لم أتخيل أن يأتى على وقت وأن أتبناها أيضا. دافعت عن وجهة نظرى الخجولة ممّا أدى لتفجير مزيداً من السخرية، يهتف ياسر أبو راس:

- اسمع يا عاصم حليق، أشرف ما عندو وقت للصعلكة، اليوم كله ينسخ ليها المحاضرات فى دفترها بخط جميل وهى من كافتيريا إلى ركن نقاش، قال شنو؟ متفرغة للكتابة على الجرائد الحائطية.

أعض أسنانى أثناء الضحكة المجلجلة، اشعر بأننى وقعتُ فى مصيدة سخرية، ينتقدنى عاصم حليق بجدية:

- هذه أول غلطة ترتكبها يا اشرف، بهذه الطريقة أنت الذى تمهّد لها الطريق لتركب على رأسك، أنا بقول ليك نصيحة صديق.

أجاوب منفعلاً:

- يعنى أمشى أقول ليها اكتبى لوحدك، أنا ما شغال كاتب!

يتدخل خالد بجة بخساسة موروثة:

- أنا لو فى مكانك يا اشرف أرسم ليها فى صفحة كاملة الذكر

بتاعى بالحجم الطبيعى لمَن تآمن.

الضحكة العاهرة تسرق انتباه المتواجدين فى ممر القاعات.

انفعلت وتصرّفت معهم بحزم، عمّمت عليهم تهمة التفاهة والانحطاط، شنفت آراءهم الساذجة حول الأنثى. حاول عاصم حليق أن يفرض فكرته على ولكن عندما استتشف أننى رومانسى ميؤوس منه تركنى اكتشف أخطائى بنفسى. لقد سبب لى أصدقائى خيبة امل عظيمة، مما جعلنى أفضل الانطواء على نفسى.

نهضت من السرير وأشعلت سيجارة أخرى ودخلت بها التواليت، وأثناء تأملى النقوش العشوائية على البلاط والتى كعادتى أنتج منها أشكالاً معينة، وجه رجل عجوز، كلب بلا أرجل، نصف سمكة، خريطة لدولة غير معروفة، امرأة فى شكل شجرة، تذكرت بصعوبة جزءاً من حلم ليلة أمس، رأيتُ نفسى داخل قطار وقد فقدت محفظة نقودى ورحت ابحث عنها دون جدوى، صديقى رأفت القبطى، لا أدرى ما الذى جاء به من استراليا كان جالساً معى فى نفس المقعد ويردد في جملة واحدة بطريقته المعهودة مخرجاً طرف لسانه وناطقاً حرف السين ثاءاً:

- لا يوجد حل "ثوى" أن نبلغ الشرطة.

اغتظتُ منه وقذفت الموبايل من النافذة فاصطدم بالزجاج وعاد إلى مرة أخرى مهشماً، جمعت أشلاءه ونزلت من القطار، لأجد نفسى فى تلك المدينة الغريبة أحمل على ظهرى شوّال المعتوه عامر قنديل، أشاهد شخصاً ما، لا أعرفه ثم فجأة انتبه إلى أنه يحمل نفس

ملامح خالد بجة ويرتدى ملابس كمسارى القطار، نبّهنى بصرخة إن المجنون الذى أحمل شواله القذر هو من سرق المحفظة، تلفتُ بسرعة ابحث عنه، لمحته يهرب باتجاه الرصيف، جريتُ خلفه، وعندما أوشكتُ أن أمسك به، قفز قفزة عالية حتى الرصيف المقابل، فى هذه اللحظة مرّ قطار بسرعة جنونية ليحجبه عن نظرى وبعدها اختفى نهائياً. ثم رأيتُ نفسى مع رباب تاج السر وبعض الأصدقاء فى مطار "شارل ديغول" ونسير فى اتجاه معاكس لحركة السير لنجد الطريق يؤدى إلى صالة كاترينا. بعدها لم أتذكر شيئاً عن هذا الحلم المزعج، لم أحاول التدقيق فى أحداثه للوصول إلى تفسيرات منطقية، وقلت لنفسى، لا عليك، أنها هواجس ليلية بسبب ما كنت أفكر فيه يوم أمس. واصلت إكمال حلاقة لحيتى وأنا انظر لوجهى فى المرآة الملعقة فوق حوض غسيل الوجه، استئثُ من جفونى المتورمة، تحت الدش فكرتُ فى الحلم وبالتحديد الجزء الخاص بالمعتوه عامر قنديل، وفسّرتُ محاولة اللحاق به واختفائه خلف القطار يدل على أنه لن يكشف عن شخصيته عندما ألتقيه مرة أخرى .

صنعت قهوتى وأكلت معها شريحة خبز بالجبن، كانت بطنى خاوية وأعلنت عن نفسها بأصوات مزعجة، بعدها ارتديت ملابسى وقمت بالجرد اليومى للأشياء، تأكدتُ من أن تأمين الغاز مغلق، الموبايل فى جيبى، محفظة النقود فى مكانها المعتاد، تذكرت ضياعها فى الحلم، قمتُ باستبدال مكانها ووضعتها داخل جيب المعطف الداخلى، أخذت المفاتيح بيدى، أطفأتُ الأنوار. فى الشارع كان الجو

معتدلاً، الشمس ساطعة ولكن بلا حرارة تذكر، قررتُ بمناسبة هذا الطقس الجميل أن أتناسى يوم أمس والمعتوه والذكريات التى تداعت، فلدىّ أشياء مهمة يجب أن أقوم بها، سأذهب إلى البلدية استخرج شهادة الدعم المادى للكورس الذى منحتنى له البلدية نفسها، ومن ثمّ اذهب لدفع إيجار الغرفة فى تلك المدينة، تذكرت بأن على الاتصال بـ "إيمانويل" لكى أحدد معه موعداً لاستلام مفاتيح شقتى.

7

عندما وصلت محطة أمستردام، التقيت فى إحدى البوابات بأحد مدمنى المخدرات ومن النوعية التى لا تتمتع بالحياء مطلقاً، رمقنى بنظرة كما لو أننى مديناً له بإنقاذ حياتى. تذكرت عامر قنديل وتخاذلت عن قرارى بعدم التفكير فيه، قمتُ بإجراءات روتينية أصرف بها ذهنى، سحبت مبلغ الإيجار من ماكينة الصرف الآلى، اشتريت تذكرة ذهاب وعودة لتك المدينة، دخلت مقهى "كوستا" وطلبت قهوة بالحليب، ولا شعورياً قمت بشراء علبتى سجائر وبررت ذلك لنفسى بأننى إن التقيته مصادفة أثناء نزولى من القطار، فمن المؤكد أنه سيطلب منى سيجارة، لذا سأعطيه علبة كاملة. وقفت فى الرصيف فى المكان الذى أتوقع أن يصادف باب عربة الدرجة الثانية، كان حظى منحرفاً قليلاً نحو اليمين، قلت لنفسى، لا بأس سيحالفنى التوفيق نوعاً ما فى هذا اليوم، ورحت أبحث عن العربة الخاصة بالتدخين. هذه المرة لم أكن وحدى الذى نزل فى محطة الأشباح، صادفت معى رجلاً أسمر اللون طويل القامة، راح ينظر لى نظرة لا تخدم تفكيره وعندما لم أعرِه انتباهاً واصل سيره خارج المحطة، لم أقصد أن أتجاهله ولكنى كنت مرتبكاً من لقائى بالمعتوه عامر قنديل، فكرت أن أخرج الموبايل متظاهراً بأننى أتحدث مع شخص ما حتى أعبر منطقته، لكن عدّلت عن فكرتى، يجب أن التقيه أولا، ربما يكون لعلبة السجائر وقع خاص فى نفسه ويخبرنى

أين التقينا؟ لكن للأسف لم يكن موجوداً فى مكانه، وقفت بالقرب من الشجرة، اقتربت من شواله القذر تذكرت الحلم وأنا أحمله فوق ظهرى، تقززت من منظره، فحصت المكان جيداً لكن لا أثر له، واصلت سيرى وأنا بين الفينة والأخرى التفت إلى الخلف. عندما اقتربت من الشقة التى بها غرفتى اتصلت بصاحبها الذى استقبلنى بمعانقة تنم عن فائدة اقتصادية بحْته، دفعت له المبلغ المقدم وتفقدت الغرفة مرة أخرى بتمعّن، كان بها سرير ومرتبة واحتاج فقط لبطانية، تحتوى أيضا على دولاب مثبت داخل الحائط، تفقدته، يكفى لوضع ملابسى، وجدت به بعض الصحف القديمة أخذتها بغرض رميها داخل سلة القمامة ولكن أثناء انتظار القهوة التى كان يُعِدَّها صاحب الشقة بنفسه، تصفحتها بعد أن نفضت عنها غبار مُتراكم. كانت صحيفة أسبوعية تخص هذه المدينة قرأت فيها:

لا زال اختفاء المراهقة "هيلين" لُغْزاً: ناشدت والدة الطفلة هيلين أهالى المدينة الخروج معها السبت القادم للبحث عن جثة ابنتها فى الغابة لأن إحساسها كأم يقول لها: هيلين ليست على قيد الحياة بعد أسبوع من اختفائها، تود فقط العثور على جثتها ودفنها.

عنوان بارز:

الشرطة لازالت تحتجز صديق هيلين.

عنوان كبير:

لقاء مع والد المراهقة هيلين يحكى عن آخر لحظاتها قبل أن تغادر المنزل وتختفى.

عنوان آخر:

رئيس البلدية يدعم الجهود المبْذولة لتفعيل خطة البلدية بخصوص الوافدين.

فى عدد آخر من هذه الصحيفة:

ثلاثة مواطنون يبلغون الشرطة عن اختفاء كلابهم.

اعترف السيد أ.ف. أنه أطلق النار على ثلاثة مراهقين من الوافدين الجدد، بعد أن تسلقوا سور حديقته، لاسترجاع كرة القدم التى كان يلعبون بها بعد أن سقطت داخلها، ولحسن حظه لم يصب احد.

رئيس الشرطة يحذر السكان من استخدام ماكينات الصرف الآلى أثناء الليل وعدم التجول فى وسط المدينة فى توقيت متأخر.

سيدة تعثر على قطتها مشنوقة على باب الحديقة.

كنت أقرأ وأنا مندمج تماماً فى القراءة، لذلك لم ألحظ صاحب الشقة عندما وضع أمامى القهوة، التفتُ نحوه عندما نطق معلِّقاً:

- إنها أعداد قديمة من الصحيفة الأسبوعية التى كانت تصدرها المدينة.

شكرته على القهوة ثم سألته:

- هل هذه الأخبار صحيحة؟

- للأسف نعم، فى أعداد أخرى ستجد أسوأ من ذلك

- لماذا لم نسمع بهذه الأخبار فى أمستردام؟

قال بشكل قاطع:

- لقد تم التعتيم عليها خوفاً من انتشار العدوى.

أخذت رشفة من القهوة، كان طعمها رائعاً، ورحت أتصفح أعداداً أخرى من الصحيفة دون تركيز لأننى كنت مجبراً على مجاملة صاحب الشقة الذى جلس فى مواجهتى، أتابع حديثه ولكنى ألقى بنظرات خاطفة على العناوين البارزة:

شهدت الشهور الأربعة الأولى من هذه السنة ست حالات قتل لموظفات بالبلدية.

اكتشفت الشرطة قتيلاً فى أحد المنازل.

شباب هولنديون ملثمون يكونون عصابة ليلية ويثيرون الفزع بين الوافدين.

أحد أعضاء البرلمان الهولندى يتهم رئيس البلدية بأنه سبب التدهور الامنى فى المدينة.

تشير التقارير أن أسباب تفشى الجريمة ظهر عقب افلاس المدينة.

الشرطة تلقى القبض على عصابة قامت بسرقة ثلاثة مليون يورو من مصرف المدينة الرئيسى واختفاء المبلغ فى ظروف غامضة.

إمراة هولندية تسقط من الطابق العاشر، لم تتوصل الشرطة لقرار، ربما انتحرت.

التمعت فى ذهنى فكرة ربما هى زوجة المعتوه عامر قنديل.

بدأت المشكلة تأخذ أبعادا مرّعبة بعد حادثة اختفاء المراهقة هيلين خاصة بعد أن اتضح أن صديقها مغربيّ، وقد نفى فى التحقيق بشكل قاطع أن يكون له صِلة باختفاءها، وأكد أنه لم يرها منذ اليوم السابق وأخرج تلفونه ليدعم مصداقيته ويبرهن أنه اتصل بها ثلاث

مرات ولم ترد عليه، رغم ذلك لم يطلق سراحه. فتجمّعت عائلته وأصدقاءه أمام مبنى الشرطة مما جعلهم يستنجدون بقوة من مدن مختلفة لتساندهم، وخاصة بعد التهديدات التى أطلقها محمد الحاشى شقيق المتهم وأقسم إن لم يطلقوا صراح شقيقة سيحرق مبنى الشرطة. وقبل أن تنتهى هذه الحادثة فوجئ الهولنديون بمقتل موظفة "كاشير" كانت تعمل فى سوبر ماركت "البرتهاين" بطعنات مميتة داخل سيارتها، اعتبر الهولنديون هذا الحادثة إهانة بالغة وتهديداً مستفزاً من قبل الأجانب الوافدين، وأدانوا البشاعة التى تمت بها الحادثة. احتشدوا عقب مراسم الدفن أمام الكنيسة، بعد أن عبّروا عن سخطهم بهتافات مناهضة لوجود الأجانب بالمدينة، بعدها تحركوا فى موكب مهيب إلى أن وصلوا الساحة التى تمت فيها الحادثة، البعض وضعوا زهور أمام سيارتها، ومن ثم راحوا يرددون هتافات معادية للأجانب الوافدين، وطالبوا بحناجر صارخة طردهم من المدينة فوراً. جال الحشد فى وسط المدينة يدفعهم غضب كاسح، كانت تتقدمهم مجموعة من المراهقون أصحاب الملابس السوداء، إنهم حركة شبابية مناهضة للأجانب يقال أنها تكونّت بعد مقتل المراهقة هيلين. كانوا هم من يتحكمون فى حركة الحشد وإنتاج الهتافات طافوا حول الساحة الرئيسية وكانت أعدادهم فى ازدياد انضم لهم حتى أصحاب الإعاقات وكبار السن ومن ثم توجهوا لمحاصرة العمارات التى يسكنها الأجانب. فى هذه الأثناء أغلق الأجانب محلاتهم التجارية ولاذوا بالفرار بعد أن تسرّبت لهم أخبار

بأن معظم أعضاء حركة الشباب الهولنديين يحملون مسدسات مرخصة. حاصروا العمارات مواصلون هتافهم بحناجر غاضبة، حاول رجال الشرطة التدخل ووضعوا حواجز ومتاريس حتى لا يتقدم الحشد ويشتبك بالأجانب الذين شعروا بالخوف وظلوا يتابعون المشهد من النوافذ والبلكونات، ولكن بلا توقع تجاوز الحشد المتاريس بعد أن انضمت إليه مجموعة من الفتيات المراهقات وحفزنّ الشباب بهتافهنّ الصارخ، كانت خدودهنّ مُحمّرة، سخّنتها رغبة الانتقام، ليتراجع أفراد الشرطة إلى مواقعهم السابقة ويتابعون الموقف من على بعد دون أن يتدخلوا. وقف كبار السن من النساء والرجال فى مؤخرة المسيرة ولكنهم لم يبخلوا بهتافهم النشاز. شعر الأجانب برعبٍ من هذه المحاصرة وخاصة بعد أن شاهدوا انسحاب قوات الشرطة كأنه تواطؤ مُتعمد. وتخيّلوا أنهم سيُحبسون داخل منازلهم للأبد. أما أولئك الذين كانوا بالصدفة خارج المنازل وقفوا مذعورين من المشهد ومن ثم بدأوا يبحثون عن طرق آمنة تعيدهم إلى منازلهم. ودبّ الهلع فى أوساط أسرهم. حاول ثلاثة أشقاء أجانب اختراق الحشد للدخول إلى حى العمارات المحاصر، تقدّم ثلاثتهم بثقة لا تخلو من الخوف ليعبروا الحاجز البشرى، اجتازوا منطقة كبار السن دون مشاكل وفتح لهم معبرٌ للدخول بين أصحاب الملابس الأنيقة، وفى الوسط نالوا بعض الشتائم ولكن عندما وصلوا المقدمة حيث الشباب الملثمون تعرّض الشقيق الذى كان متأخراً فى خطواته لطعنة حادة فى ظهره، إنحنى يتلّمس الأرض وهو يصرخ بألم، عندئذٍ التفت إليه شقيقيه لنجدته

وفى الحال تلّقى كلاهما ضربة على الرأس لتتصاعد صرخات مختلفة، البعض طالب بعدم العنف والبعض الآخر يريد مزيداً من الانتقام. أصبح الأشقاء الثلاثة يتمرّغون على الأرض فى محاولة يائسة لتفادى الضربات والركلات المتتالية، اندلعت صرخاتهم عالية أفزعت الحشد مناشدة لهم ببعضٍ من الشهامة، انفتحت لا شعورياً ثغرة ليهرب من خلالها ثلاثتهم كل منهم فى اتجاه، اندفع خلفهم أصحاب الملابس السوداء الملثمون بالعُصِى والهراوات، تدفعهم نشوة الانتقام، سقط أحد الأشقاء، كانت تنقصه السرعة، فانهالت عليه الضربات بصورة هستيرية، دون مراعاة لأى مكان فى جسده. أما الشقيقان الآخران فواصلا ركضهما المجنون وسط صخب وصيحات الحشد. واصل رجال الشرطة وقفتهم متفرجين على الحدث كما لو أنهم يتابعون كرنفال. خرج شاب أجنبى من إحدى العمارات يحمل عصاه، وبشجاعة غير متوقعة هرع لنجدة صديقة ولكن قبل أن يتمكن من رفع يده إلى أعلى تلقى ضربة ليسقط بلا حراك ودمه يغير لون القميص. بعد هذه المحاولة تجرأ عدداً من الأجانب واصطفوا أمام أبواب عماراتهم بعد أن تسلّحوا بأشياء مختلفة، دون أدنى انشغال بأحد الجرحى الذى ظل يحتضر بالقرب منهم وكان يسمع أنينه، حتى جاءتهم لحظة لملموا شجاعتهم وهجموا على الحشد الذى تشتت إلى مجموعات، وراحوا يطاردون الملثمون أصحاب الملابس السوداء، لتندلع معركة حامية، على إثرها أطلق أفراد الشرطة رصاص فى الهواء.

• • •

عندما جاءت سيارات الإسعاف كانت هناك ثلاث جثث لشباب أجانب أحدهم مهشم الرأس، وجثة لامرأة هولندية، يقال إنها سقطت أثناء التدافع ودُهست بالأقدام. تفرّق بعد ذلك الحشد ولكن الملثمين أصحاب الملابس السوداء ظلوا يقفون أمام الساحة الرئيسية ليمنعوا الأجانب من دخول الأسواق وقاموا بإحراق محل "إنترنيت" وألقوا القبض على صاحبه الأسمر وربطوه بحبل وسحبوه على الأسفلت كأنه دُمْية أو كما لو أنهم قرروا فجأة الأخذ بثأر الجندى الأمريكى فى الصومال، لقد كبّلوا جسده الدامى وربطوه على عمود وراحت تصفعه الأيدى بلا حساب. كان يبكى بصوت أجش كأنه قد بدأ يشعر بنهايته المأساوية القادمة، حتى سقط مغشيّاً عليه. وفى فجر اليوم الثانى، وتحديداً بعد صلاة الفجر، تجمّع عدد من الأجانب أمام مسجد المغاربة وقرروا الحرب ضد الهولنديون، وأول شخص صادفهم كانت إمراة قادها كلبها إلى نهاية درامية، أجبرها بعض الشباب على الركوع، حاول كلبها الدفاع عنها فقُتِل بضربة قاضية، صرخت مدافعة عن صديقها لتنال ضربة على عنقها وتسقط مترنحة، حاولت أن تنهض من جديد فنالت المزيد. وفى تمام العاشرة صباحاً سقط رجل هولندى بعد أن دهسته سيارة أمام إشارة المرور.

رفعت فنجان قهوتى وأنا اتابع حركة شفتى صاحب الشقة ولا أسمعه، ذهنى معلق فى مكانٍ آخر، انتظرته حتى شعرت به يرتشف آخر قهوته، ثم نهضتُ ممسكاً بيده كما لو أننى أريد أن أعينه على النهوض، شكرته على كرمه، نزل معى درجات السلم ووقف خلف

الباب يتابعنى أغادر، ترددت فى الاتصال بعثمان فخة، شعرت به لن يفيدنى كثيراً، سأدخل معه فى دوامة السوق وعلاقاته المشبوه، فضلت أن أغادر نحو المحطة.

8

وجدت أقدامى تجرّنى جرّاً نحو الشجرة، أبحثُ عن عامر قنديل، خطر ببالى أنه ربما يتذمر من لقائى مرة أخرى، مرجّحا كفة رفضه للقائى ومن الممكن جداً ألا يتقبل وجودى، لابد لى أن أضع ذلك فى الحسبان ولا اندهش إذا صرخ فى وجهى مرة أخرى، سأتقبّل ذلك، رغم أننى سأصبح فى موقف محرج، شعرتُ بالارتباك القادم والناجم عن وقوعى فى مصيدة التّذمر والهمز واللمز وجمهرة الناس حولى للتباهى بسلوكياتهم المفتعلة وتقديسهم لأصحاب العاهات الذهنية، وقتها ستنعكس الشماتة على المرآة، انحياز كامل نحو التعاطف، أدافع عن نفسى بإصرار وعزيمة، لقد اشتريت له علبة سجائر يجب أن أسلّمها له وأنصرف، اضْطربت قليلاً عندما رأيته هذه المرة جالساً على مصطبة النصب التذكارى، يحرك أقدامه فى قلق يبدو أنه نابع من اختلاج وتشوش، أقدامه تصطك كأنه يعمل على ماكينة حياكة قديمة، عندما شاهدنى، أخفى ابتسامته بفشل واضح مستفيدا من حالة الجنون. ظل جالساً على المصطبة دون أى ردة فعل حركية، وقفت أمامه ورغبتى تنحصر فى معرفة من هو؟ ومن ثم أغادره. رفع رأسه نحوى بيأس كأنه طلب عطلة مرضية ورفضت، وقال لى بصوتٍ جهورى:

– كنت أعلم أنك ستأتى.

– أنا لم آتِ من أجلك، سأسكن فى هذه المدينة بشكلٍ مؤقت.

– حذار من هذه المدينة اللعينة.

– دعنا من لعنة هذه المدينة، من أنت؟

استرسل متجاهلاً سؤالى:

– لقد جئتها بدافع حبٍ حقيقى وفى نهاية الأمر فقدت بها أعظم ما أملك وبغباء منى.

شعرت به متوازناً بعض الشيء، ويتحدث ببطء شديد أو سرعة لهفتى لمعرفة حقيقته جعلتنى أحسه متمهلاً ويفتعل هذا الكسل المقصود فسألته:

– هل تتلذذ بتضليلى؟

لم يصدر عنه أى تعبير، طلب منى سيجارة وبعد أن أشعلتها له، أخذ نفساً عميقاً وأخرج الدخان ببطء قائلا:

– دعنى أمهد لك حتى تستوعب من أنا.

ثم أضاف قبل أن يسمع ردى:

– أحتاج أن أزيل ركاماً من على صدرى وأنفض الغبار لتتبين ملامحى.

عرفت الآن أنه أحد مثقفى جيلنا، ولكن من هو؟ فضّلت أن أتركه يسترسل، أشار بيده نحو مبنى وسألنى:

– هل ترى تلك اللافتة؟

وجهت نظرى نحو أظافره الطويلة القذرة قبل أن أنظر إلى اللافتة، سمح لى بفترة زمنية لقراءة العنوان ثم أضاف:

– هؤلاء هم الذين سحقوا قلبى بأقدامهم، سلبوا منى سامى ابنى.

كانت يده تهتزّ منفعلة عاجزة عن تنفيس غضبه، وقبل أن يسمح لى بلحظة التعاطف بيده الأخرى ونسى يده الأولى فى نفس مكان إشارتها، وجه بصرى نحو مبنى معاكس، عبارة عن عمارة مواجهة لجالسته، ثم واصل وعيناه ممتلئتان بدموع بارزة سيّطر عليها بإتقان تام حتى لا تتدحرج:

– فى تلك الشقة رقم 7 كان يسكن ابنى سامى مع أسرة أعطتها المحكمة حق التبنى.

ثم التفت لى بكامل وجهه، وكانت إحدى عينيه قد عجزت عن حمولتها وسالت نحو لحيته الكثيفة وقال لى بصورة تقريرية محايدة:

– الندم يفتك بى يومياً، آه .. لو كانت الأحداث حصلت بطريقة أخرى أو لو كنت فى تلك اللحظة تخلّيت عن واجبى الدفاعى وتملصت عن هذه الحياة و...

هززت رأسى بلا معنى لم تكن لدى فكرة عن ما يتحدث أو ما ينبغى على فعله، حاولت كل ما بوسعى البقاء هادئاً وتركته يواصل الذى كنت أعتقده هذيانا. انتظرته يعترض مجرى الدمع بمسحة من يده اليسرى، وضح لى بأنه من طائفة لا تلتمس العون من الآخرين، ابتسم باستياء، وقال مستدركاً:

– لقد أطلقت عليه اسم سامى ليعوّضنى عن فقدى لصديقى سامى قنديل.

التقط عقلى بسرعة فائقة معلومة جديدة، حاولتُ أن أتذكر هذا الاسم الذى سمعته كثيراً وأحاول إنقاذ صورة صاحبه من النسيان، عسى أن

افهم شيًئاً، لم يكن يهمّه رماد سيجارته الذى سقط على ملابسه، ناولته سيجارة أخرى عندما اشتممت رائحة الفلتر المحترق، شكرنى بلمسة من أصابعه الخشنة أثناء ما كنت أخفى شعلة النار بين كفى، حبس الدخان داخل صدره، سقطت على حجره ورقة شجرة جافة أمسكها من طرفها بأصبعيه حتى لا تتكسر، وكان يعلم جيداً بأنى اتابع حركته فثقبها بجمرة سيجارته ثم قال:

- أحس بهذا يحدث فى قلبى يومياً.

ثم التفت نحوى وأضاف:

- من المحتمل لم ترني من قبل، هذا وارد ولكن أنا شاهدتك كثيراً، أنا عامر درويش، إن كنت تذكر هذا الاسم جيداً.

ضحكت بسخرية وقلت له:

- لا تكن سخيفاً، عامر درويش توفى قبل سنوات.

طأطأ رأسه وقال:

- كنت أعلم انك لن تصدق، أنا نفسى لم أصدق الذى حدث، ولكنه القدر، فمن تصرفات القدر القاسى أن أكون أنا الوحيد الذى نجا من حادث الزورق، كانت مأساة حقيقية، لقد أنقذتنى عبّارة كانت تحمل مهاجرين غير شرعيين أيضاً، الصدفة وحدها جعلتها تمر بالقرب منى، وجدونى فى غيبوبة وجسدى متصلِّب حول أنبوبة الزورق، نقلونى معهم فى حالة يرثى لها إلى الشواطئ الايطالية، تعافيت بعد عدة شهور لأكتشف بالصدفة أننى فى نظر أهلى وأصدقائى ميت، فكرتُ أن أتصل بالجميع وأعلن لهم أننى لازلت حيّا ولكنى عجزتُ

أن افعل ذلك، منعنى غياب صديقى سامى قنديل، موته جعلنى أتحول إلى كتلة من الكآبة، شعرتُ بأن الاستمرار فى الحياة بمثابة خيانة لروحه. حقيقة موته أربكتنى، جعلنى أتردد فى الإعلان عن نفسى، وقفت مكتوف القرار، لقد تعاهدنا أن نعيش سوياً مهما حدث، لذلك فضلتُ أن أواصل موتى معه إلى الأبد، لم يكن صديقاً عادياً، كان بمثابة الوقود الذى يحركنى، قيمته الحقيقية لم أكتشفها إلا بعد موته، تستطيع أن تقول عنه هو نقطة ضعفى الوحيدة، كنتُ إن لم أره خلال اليوم أشعر حتى بنكهة السجائر مختلفة، ونفسى مكتوم، أعتقد أننا كنا وجهين لشخصية واحدة.

صعقتنى المفاجأة راحت ذاكرتى تتزعم الموقف، أقوم بتركيب الأحداث، كمن يغطس فى الماضى ويعاود الانبثاق إلى الحاضر، من الذكرى للواقع، تصنّعت التفكير، تفحصت المزيج العجيب لهذه الصدفة وهذا النقيض. أتعاطف مع أكثر شخصية كرهتها فى حياتى، كرهته لأن رباب تاج السر عشقته، أدركت الآن أنه كسب الرهان بكفاءة، شعرت بانكسار، ساد صمت سرى وعويص، كأنه شعر بأننى لم أصدقه، فأضاف وهو يدخن باستغراق:

– قد يكون من الصعب على المرء أن يصبح شخصاً آخر، أما أن يبدّل اسمه فغاية فى السهولة.

والتفت لى بنظرة حادة عجزت عيناى فى مواجهتها فأشحتُ ببصرى نحو اللاشىء متوقعاً أن يخدشنى الحوار القادم، ثم واصل بنبرة حزن مستحق:

– تخيل معى، تفقد صديقاً بهذه المواصفات وفى توقيت غير مناسب إطلاقا، يجعلك تواصل الحياة لوحدك مرغماً، واصلتها بسخرية ويأسٍ متزايد، حتى وصلت مرحلة الانسحاب التكتيكى، لقد وجدتُ استحالة أن يستمر عامر درويش من دون رفيقه. لذلك لم أشعر بالندم مطلقاً وأنا أواصل حياتى بشخصية أخرى وأطلقت على نفسى اسم عامر قنديل. لقد كان اختيارى لهذا الاسم محض صدفة، خطر لى فى اللحظة التى سألنى فيها محقق وزارة العدل الهولندية أثناء تحقيق اللجوء عن اسم العائلة أو الاسم الثالث دون تردد إخترتُ اسم قنديل كى أحقق له رغبته وتخوض أسماؤنا تجربة كنا نتلهف لها وغامرنا من أجلها، مغامرة دفع هو حياته ثمناً لها، من أجله طلبت هذا اللجوء مناصفة بيننا. ولما بدأت تصلنى رسائل فى عنوانى بمعسكر اللجوء، رسائل من وزارة العدل الهولندية أو من المحامى، معنونة بالأحرف الأولى من اسمى واسم قنديل كاملا، كنتَ أتأمل الاسم بمتعة خرافية، لم يكن محتوى الرسالة يهمنى مثل اسم قنديل الذى كتب بخط بارز، وكنت أخاطبه فى سرى، ها قد وصلتنا رسالة يا صديقى، وأنا اعلم إنك ملك الصبر كما عهدتُكَ، لن تتبرم أو تتلفظ ألفاظاً مشينة مثلى إن رفضوا لنا طلب لجوئنا. وبعد ذلك خطر ببالى إذا أنجبتُ طفلاً فى المستقبل حتماً سأطلق عليه اسم سامى، ليصبح سامى قنديل، وللأسف حتى هذا الابن الأُمنية فقدته الآن ببلادتى ورعونتى.

فى هذه اللحظة سمعت نحيبه كما لو كان يأتِ من مكان آخر. كان

الإحساس معقّداً، رأيت شكوكى تتعذر ومن الحماقة أن أتساءل فى هذه اللحظة التى انهالت عليه كآبة العالم أجمع . ظل هو ينظر لشيء ما فى إتجاهٍ أفقى دون تحديد ويستدعى صور الذاكرة أمامه. وأنا متقاعس فى ذهولى، لقد جعلنى فى متاهة، مشدوداً ولا أقوى على تحريك لسانى، فعلا هو عامر درويش نفسه، أول مره أشتم رائحة حقارتى، ليتنى لم أطلب منه أن يكشف عن شخصيته، إنه أكثر شخص كنت أمقته فى حياتى وبأنانيتى تصوّرت إنه هو من خطف حبيبتى رباب تاج السر وأنا كنت أحق بها منه، أولا هى دفعتى فى الكلية، وثانياً، أنا من ساعدها فى إتمام الإجراءات ودوّنت لها حتى المحاضرات، كنتُ أدفع لها يومياً تذكرة المواصلات، لقد سرقت ذهنى وظللتُ أخطط كيف ارتبط بها ونبنى علاقة حب منذ السنة الأولى، ولكنها للأسف شهقت عندما رأته وتعلّقت به واختزلت إحساسى فى صداقة رفيعة المستوى، ما أبشع أن تكون مرغماً لتستمع لحكاوٍ عن إحساس يستنفزك، ظللتُ أحقد عليه حتى بعد أن استرددتها إلى قلبى في ما بعد. لمع فى ذهنى ذلك المشهد يوم تخليد ذكرى رحيلهما تذكرتُ ذلك الانحطاط الذى لا مفر منه لأن الذاكرة عندما تتدفق يصعب السيطرة عليها، تندفع حاملة ماضياً مخجلاً أحياناً، قلت لنفسى، ما كان يجب أن اشمت عليه يوم تأبينه، لا، أنا لم أفعل ذلك بالمعنى الحرفى للكلمة، لقد منعت رباب تاج السر من المشاركة فى حفل التأبين، وهذا من حقى آنذاك لقد كانت حبيبتى وكان يجب على أن امنعها، خاصةً أننى لم أجد أى ضرورة

لمشاركتها، لم يكن ضميرى الآن فى حالة تؤهله للوصول إلى تسوية مرضية. لم يسألنِ كما كنت أتوقع ويتهمنى بأننى قمت باستغلال القطيعة التى حدثت بينه وبين رباب تاج السر ودخلت كصديق من باب الحديقة الموارب وإستغللتُ الفراغ العاطفى ودستُ على الورود الذابلة بأقدامى ثم قدمت لها باقة زهوراً اصطناعية ومن ثم تحرك كحبيب منتصر، لم يسألنِ تلك الأسئلة التى كنت أتوقعها وتهيأت لها. عدت أتأمله بعينٍ فاحصة، بدا لى كأنه شارد الذهن بيد أنه كان يتحدث اقرب إلى الهمس، يخفى فى ملامحه معاناة وتشرد، آثار تربية قاسية، يبدو فى هذه اللحظة فرض نفسه كبديهية مباغته، ضارباً بعرض الحائط كل قناعاته واعتقاداته ومبادئه. قال بنبرة تيّه:

– أشعر فى وسطى بتجويف ناجم عن عجزى عن الإيمان أو الكفر بالله، علاوة على ذلك أحس بالتفسّخ داخلى، قشورى تتساقط مثل أوراق هذه الشجرة، لكن لن أنتظر حتى أتحلل بسبب العوامل الجوية، يبدو أننى قد توصلت بالفعل إلى الإحساس الذى كان يجب على بلوغه منذ فترة.

تحدّث عن أمه المطيعة، المريضة، وهى تبتسم لأكاذيبه، غيابه المستمر عن البيت. أسرته التى بعثرها العوز. كانت هناك غيمة حزن تجثم على صدره وكأنه استنشقها بمنخريه وراحت تكتم على أنفاسه، لم يستطع أن يغالب دمعتين طفرتا من عينيه، مسحهما براحة يده الخشنة، شعرتُ بالعبرة تسدُ حلقى، هناك أشياء صغيرة ولكنها كافية لتحقيق انفجار عظيم، داريتُ اضطرابى، لمتُ نفسى،

لماذا لم أتعامل معه بنزاهة آنذاك؟ كنت على وشك أن أتكلم، ولكن فضلتُ أن أحتفظ بسذاجة الآن، ونحن فى لحظة لا يفيد فيها الكلام، كان كل شيء يحدث ببطء مريع، حركتنا، أجسامنا شبه المخدرة، كسل بنكهة خراب، استمع لخشخشة الشجر من حولنا، أحس بطعم الحضيض فى لسانى، كان بمقدورى أن أسمع حتى صوت أنفاسى، وقلبى خامل. لقد أدهشنى، أصبح فى نظرى أهم إنسان يمكننى أن أتعاطف معه، وخاصة فى ما قام به من اجل صديقه. نهض ومسح وجهه براحة يده القذرة كما لو أنه يريد تعديل ملامحه، ثم صعد على المصطبة التى كنا نجلس عليها واتجه نحو النصب التذكارى، تابعته وعندما وقف يتبول عرفتُ أنها مجرد هدنه وسيعود لمواصلة الحديث، أشعلتُ سيجارة، ورحتُ أتساءل أين يفرغ أمعاءه؟ وفكرتُ فى أن اطلب منه الذهاب معى إلى شقتى فى أمستردام، وعدّلت عن رأيى، من الأفضل أن أستضيفه فى غرفتى التى استأجرتها هنا ليقيم بها حتى أكمل أجراءاتى فى أمستردام وبعدها أفكر كيف يمكن أن أساعده. جلس هذه المرة بالقرب مني تماماً كما لو أنه كان يبحث عن استجارة ودون أن ينظر لى سألنى وكأنه يقول لى عن ماذا كنا نتحدث؟

- هل لا زالت علاقتك برباب تاج السر مستمرة؟

أجبته نافياً بإيماءة من رأسى ولا ادرى هل شاهدنى أم لا؟ واصل فى تداعياته:

- أعتقد أن الشىء الوحيد الذى فعلته وكنتُ فيه على صواب هو

عشقى لرباب تاج السر، لكنها ضاعت منى بسبب إهمالى وحماقتى، اعتقد أن عدم جديتى هو ما أضاع منى كل شىء، حتى ابنى سامى أنا من يتحمل مسئولية ضياعه.

تذكرت وجه رباب تاج السر الباكى آنذاك لحظة أن سمعنا بخبر موته هو وصديقه سامى قنديل، كان الملمح العام حزيناً للغاية، لقد تحوّلت الكلية فى لحظة إلى مأتم، انتبهتُ لصدفة غريبة لاحظتها الآن، كنت على وشك أن اخبره بها، ولكن لم تعد مهمة ولا أعتقد أنها ستثير فضوله، لقد صادف لحظة سماعنا خبر موتهما، أن بثّ التلفزيون القومى خبر موت نائب رئيس الجمهورية فى حادث سقوط طائرة، فالحزن الذى داهم شلة أصدقائهما أجهض علينا شماتة من الطراز السياسى، تذكرت حتى حرس بوابة الجامعة اعتقدوا أن البكاء الهستيرى للطالبات كان بسبب حزنهنّ على النائب الأول. قطع استرسال ذاكرتى وسألنى:

– هل لا زلت على تواصل معها؟

قلت كأننى أنفى تهمة ما:

– أبداً، انقطعت أخبارها بعد أن تزوجت، ولكنى رأيتها منذ سنة تقريباً، صدفةً فى مطار دبى كان معها طفلها، لم تشاهدنى وبدورى لم أتجرأ وأصافحها:

انبعث فى ذهنى سؤال مفاجئ كما الجلطة، هل يا ترى أطلقت على ابنها البكر اسم عامر؟ ربما فعلت ذلك فعلاً، ومن المؤكد بأن زوجها لن يعترض عندما يعلم أنها ترغب فى تخليد زميلها الذى توفى فى

حادث مأساوى. كأنه تعمّد عرقلة استرسالى عن قصد، وقال بطريقة محايدة:

- هل تعلم أننى كنت أراقب تحركاتك معها عن بعد؟ والمدهش فى الأمر أنك كنت تجلس معها فى نفس الأماكن التى نرتادها أنا وهى سابقاً.

قلت بلا تفكير:

- كانت هى التى تختار هذه الأماكن، أنت من حبّبها فيها.

سَحبَ نفساً عميقاً من سيجارته حتى توهّج وجهه وقال:

- لم أستطع نسيانها أبدا، كنت فى بعض الأحيان أتخيلها مكان زوجتى.

تجرّأتُ وقلت له:

- يؤلمنى أن اعترف لك أننى كنت أمقتك بشدة آنذاك ، ولم أكن فى وعى يسعفنى لمعرفة سبب هذه الكراهية، ولكنى الآن استطيع إنقاذ سذاجتى وتفسيرها. باختصار شعرت بالخسّة، لم تترك لى المجال أن أصبح أول رجل فى حياتها.

أجابنى كما لو أنه يريد أن يتفق معى ولكن من وجهة نظره:

- أعتقد استجابة الأحاسيس لنداء العشق لا تتقيد بأرشيف، ألاّ تتفق معى؟

حدّقت فى اللاشىء وفقدت الرغبة فى فكرتى قلت له:

- هل تود أن أحكى لك ما حدث بينى وبينها فى غيابك؟

الكلمة الأخيرة نطقتها بمشقة؛ فقد كنت على وشك أن أقول له بعد

موتك. قال لى:

- لا يهم إن وددت ذلك أم لا، فالأمران سيًان.

سردتُ له تفاصيل متفرقة فى علاقتى برباب تاج السر، حاولت قدر المستطاع ألا أخدش صورتها العالقة فى خياله، شعرتُ به وكأنه يشاهد فى فيلم وثائقى سيئ المونتاج، سألنى:

- هل تعتقد لو أنك لم ترتبط بها كانت ستعود لى مرة أخرى؟

ولكن قبل أن أفكر فى سؤاله، أردف قائلاً:

- يا للحماقة، ما جدوى سؤالى الآن بعد كل هذه المدة الزمنية؟

عندما جلستُ معه كان فى نيتى أن أعرف أين التقينا؟ ومن ثم أغادر بأول قطار يصادفنى، لم أكن أتوقع أن تشرق شمس اليوم التالى وأنا استمع له وهو يحكى عن كل شيء، يسرد فى أزماته بالتفاصيل. نكباته المتتالية، عُسْرٌ بعد عُسْر. فى اعتقادي أنا من ألمح له لينتقد ثقافتى السياسية، فتّح ذهنى نحو زقاق متعرّجِ، نحو وعى ثقافى مغلوط، فتحت له شهية السرد قال لى:

- منذ دخولنا الكلية، وتحديداً بعد أن أنشأنا المنبر الثقافى، شعرنا بمؤامرة تحاك حولنا، للأسف من زملائنا نفسهم، اكتشفنا بالفطرة أن السياسيين بمختلف اتجاهاتهم كانوا يتآمرون من أجل الهيمنة، وبقيت سلطة الحكومة متجذرة داخل الكلية، تعبِّر عن نفسها بطلاب موعودين بوظائف غير شاغرة، والأدهى من ذلك اكتشفنا بعد التخرج أن مصلحة البعض والبعض الآخر تصب فى مصلحة واحدة. بقدر ما كنا نتقدم فى مشروعنا الثقافى، كان همس المؤامرة حولنا يرتفع،

يصُعب أن تصدق أننا نعتقل بتهمة نشر الوعى، حتى محقق وزارة العدل الهولندية لم يصدقنِ فى التحقيق عندما أخبرته بسبب اعتقالى. لم نكن ندرى أننا اشد خطراً من أصحاب الأركان السياسية، كنا نتصدى للأوهام السياسية، مقالات أشبه بإغراء الشعب على قبول الواقع بعلاته، وعود تطلقها الصحف اليومية بحلول قدرية، توالت المؤتمرات والندوات ووُقّعت معاهدات، لتصبح الأحزاب المندهشة والحركات المتواطئة عبارة عن خلايا تنقسم من تلقاء نفسها كالأميبا. زملاؤنا البسطاء تمّ وعدهم بالوظائف والغنائم فانضموا لجيش الفتوحات الإسلامية، لتعلق بعد ذلك بكل بساطة "بورتريهاتهم" على سور الجامعة كشهداء ويصبح نصيب أمهاتهم الثكلى تعويضات شهرية تعيد ذكرى الأحزان ولا أكثر. استمر زمن البطالة يتعاظم وتضاف إليه الإهانات والبؤس والظلم، حتى أننى بدأت أشك فى أن من يحكمننا ليسوا هم من أبناء وطننا. عندما خرجنا للشوارع صوّبوا نحو صدورنا البنادق، تقذف حجراً يرتد إليك الصدى رصاصة، هل من تفاؤل؟ أصبحنا فى نظر الحكومة كالكلاب الضالة، ننبح وتعابير الغضب منكسة على سطح السحاب. ما أرخص حياة أبناء الفقراء، دفعونا نحو صالة المغادرة فى مقارنة غير عادلة مع أصحاب الإجازات الصيفية المدفوعة، بتروا علاقتنا بالوطن كما لو كنا أجسام سرطانية يجب التخلص منها نهائياً، أصبح عدم الحظ يندس لنا بين تشققات الأمل.

توقف عن الكلام فجأة كما لو أنه يقدِّر الزمن الذى سأستغرقه فى

تحليل رأيه. أخبرته أننى مدين له بمعرفتى وثقافتى، اعترفت له أننى اجتهدتُ فى البحث عن المعرفة كى أثبت لرباب تاج السر بأننى مثقف مثلك وأستطيع كتابة الشعر أيضاً. لاحظتُ لابتسامته الساخرة رغم الإضاءة الشاحبة، جعلنى أحتقر سذاجتى، فأخفيتُ إحساسى داخل علبة السجائر الفارغة واستأذنته ثم ذهبت إلى مطعم مغربى صغير كان تنبعث منه أصوات موسيقى عربية، اشتريت سجائر وسندوتشات. عند منتصف الليل كان المشهد يبدو خارج الواقع، شخصان يتداعيان بصورة رتيبة، الشىء الذى يجمعهما عشقهما لامرأة واحدة التقيا فى صدفة غير وارد تكرارها، ربما يكون الذى جمعهما قدر أو هو إحساسهما المتبادل بعزلة الغياب. كان مشهداً غريباً فى مدينة غريبة، شخصيتان عبثيتان محكومتان بنص كتب منذ فترة قديمة، وأنسجم بشكلٍ مثاليّ مع الديكور الذى يعود لفترة الحرب العالمية الثانية، هذا النصب التذكارى الذى لم يعد يهم أحد، مهملاً بشكل مُروّع، لم يعد ذلك المكان الذى كانت تجتمع فيه أسر الضحايا وأحفادهم وقليلا من شهود المجزرة من كل عام، ليضعوا أكاليل الزهور. الآن يؤدى فى دوره الإيجابى بإخلاص تام ويعبِّر عما يحتويه هذا اللقاء الدرامى . ألواح الرخام السوداء اللامعة، التى نُقِشت عليها أسماء الموتى، صارت كما لو أنها كواليس ومن بين فلجاتها تتسرب إنارة أعمدة الشارع الصفراء الباهتة. بالكاد كنتُ أتبين ملامحه والصمت الكئيب فرض علينا التحدث همساً، لا أدرى، لقد اختلط على الأمر، لم أعد أميّز هل كنت أتكلم معه أم مجرد تفكير

بصوتٍ مسموع؟ نتبادل الصمت بالتناوب ويصدف أحياناً أن تسقط ورقة شجرة جافة فى منتصف حاسة الصمت وتهب نسمة مُصدرة صوت وشوشة، مؤثرات مختلفة. خيّل لى، كأننا كنا نؤدى فى فصل من مسرحية "فى انتظار غودو" لـ صمويل بيكيت. أحيانا كنا نبكى فى صمت، وندر ما أن بدت أسناننا فى الظلام لتورطنا فى ابتسامة، حتى هبط علينا برد فى الهزيع الأخير، برد لا يعرف الرّهفة، جعلنى أنكمش داخل نفسى، أقدامى نمّلت، ركبتاى تيّبستا، أسنانى إصطكت بطريقة مزعجة، اقترحت عليه مواصلة الحوار داخل صالة المحطة أو نجلس فى الممر المسقوف، عندئذٍ أخرج من شواله القذر بطانية رائحتها كريهة ولكنها من النوع الذى يمتلكه الهولنديون فقط، بطانية خشنة من الصوف الخالص تدثرنا بها سويا، وقلّدته فى نفس الحركة، هبط من المصطبة حتى لامس عجيزته كوم أوراق الشجر الجافة، وسحبت ركبتاى لأضمهما نحو صدرى فشعرت بها وضعية مثالية للجلوس وأحدثت البطانية النتنة فى جسدى دفئاً لم اشعر به من قبل. تذكرتُ فى الحال رباب تاج السر كانت تستخدم هذه الوضعية دائماً، تحتضن ركبتيها عندما تكون مستاءةً من نفسها .

9

مع بدايات الصباح تركته دون وداع واستقللت القطار إلى أمستردام، كانت الساعة تشير إلى 6:21 صباحا، لا أثر للشمس، سحب كثيفة تغطى الفضاء بالكامل تجعل الإضاءة خافتة وتوحى بأن التوقيت ينطبق على احتمالين، إما شروق أو غروب، طقسُ يستدعى الكآبة، دائماً ما كنت أبدد هذا الوقت بالنوم ولكن الغريب فى الأمر لم أكن اشعر بالنعاس مطلقاً، لقد تفتت خلايا ذهنى وتحوّلت إلى شظايا مشتعلة، كانت ليلة عجيبة لم تكن مدرجة فى أجندة حياتى بتاتاً ولا أعتقد أن الذى حدث يمكن أن يكون حقيقة، ذهنى مشوش، يبدو لى أنها مجرد أحلام، تهيؤات ليس إلا، لم يحدث هذا اللقاء إلا فى ذهنى وبسبب الإرهاق فقط، تخيلتُ أننى التقيت بـ عامر درويش، وأساسا ليست هناك مدينة بهذه المواصفات الغريبة، أقتنعتُ أن هذا اللقاء ابتدعه خيالى وبدأت فكرة الأكذوبة تفرض نفسها بقوة، كان الأمر برمته خارج السيطرة و لكن الشىء الذى كان لا يمكن إنكاره هو حاسة الشم القوية التى امتلكها، فرائحة بطانيته القذرة لازالت عالقة بى، وهذه الحاسة بالنسبة لى أكثر الحواس استدعاءاً للصور، فأصبح بوسعى الآن أن أتخيل المرارة التى كان يأكل بها السندوتش، كان يمضغ ببطء، فى الغالب لم يتذوق أى طعم بهذه الحالة المزرية كما لو كان يمضغ فى قطعة إسفنج. كان الأمر برمته خارج متناول يده، لقد ألمّت به ظروف قاهرة، زوجة ماتت بطريقة غامضة وأبن

أُخذ منه عنوة ويختفى. أسأل نفسى كيف تسنى له أن يعيش كل هذه المدة بشخصية أخرى وهو يعلم أنه ميت فى نظر الآخرين؟ ولماذا أخصنى أنا بالذات بهذا الاعتراف من دون الآخرين؟ شعرتُ بأننى أحمل سراً عظيماً بين ضلوعى، شعور جعلنى أدرك أهميتى فى هذه اللحظة. ولكن رغماً عن ذلك عدت أتساءل، هل يا ترى قرر أن يورطنى فى نشر هذا الخبر نيابة عنه بعد أن عجز هو عن ذلك؟ هل لأنه لا يريد أن يخذل صديقة سامى قنديل بعد أن تعهّد وأقسم بأن يظل ميتاً معه؟ بدا لى كأنما الأسرار لها مدة صلاحية ومن العبث الاحتفاظ بها للأبد ويجب البوح بها قبل فوات الأوان، والمعضلة تكمن فى الشخص الذى يمكنك أن تفشى له سرك. بدت لى الفكرة منطقية، أو ربما لم أجد أفضل منها. قلت لنفسى، كأننى قرأت عن هذا اللقاء فى رواية منذ فترة طويلة، يستحيل، لا يمكن لأحد أن يتخيل أن عامر درويش حى يرزق. امسك بهذا السر المذهل بيدى وأقلِّبه من كل الجهات، لدى رغبة فى الإفشاء به ونشره وفى نفس اللحظة أود الاحتفاظ به لنفسى. الغريب فى الأمر، إننى بالأمس عندما كنت أحاول أن أتذكر هذا المعتوه وأين التقيته، خطر بذهنى اسم عامر درويش ولكن لقناعتى التامة بأنه ميت، لم اجتهد قليل وأتخيل هذا السيناريو الذى ابتدعه بمهارة فائقة، أو ربما لأننى أساساً لم أكن راغباً فى إحيائه فى ذهنى، تذكرتُ إحساسى بالشماتة لحظة سماعى خبر وفاته، نفس الإحساس الذى داهمنى يوم أن سمعت خبر نهاية علاقته برباب تاج السر، ذلك اليوم جاءت إلى

مكسورة، لم أشمت فى حياتى لحالة شخص يذرف دموعاً وينطق مرارة كما فعلتُ معها وهى تحكى لى عن علاقة حبها التى انتهت لتوها، كانت الشماتة تتعظّم بداخلى ولكن عطّلت كل المصادر بانضباط ذاتى، استقبلتها كصديق قديم التجأت إليه، خبأتُ نيّتى السيئة فى مكان ظاهر بلا خوف، وافقت على مضض كى نصبح مرة أخرى أصدقاء من الدرجة الرفيعة. وبالرغم من أننى كنت على علم بتطور مقدراتى واستطيع أن أدخل إلى قلبها من نفس الباب الذى خرج منه حبيبها، ولكنى فضلتُ الانتظار حتى يأتى التوقيت المناسب، أمشى بحذر تحت الأنقاض، أزيل عنها آثار الحطام، أنفض الغبار العالق برموشها، أجلس على الحجارة المهشمة أستمع إليها تحكى عن تفاصيل علاقتها بعامر درويش. سردت لى أشياء عامة عن الخلافات التى كانت تحدث بينهما ودمّرت العلاقة نهائيا، تعاطفتُ معها وصببت مقادير مناسبة من الوقود تكفى لإشعال غابة بكاملها، أنصفتها، وكانت هى من النوعية التى تحب الاستنتاجات وتؤمن بالأمثلة كما لو أنها أحاديث قدسية، فاستخدمت لها نفس السلاح، ركزّتُ فى بعض انتقاداتها له وحشوتها أمثلة محرفة من ذهنى، قلت لها إن الشخص الذى يعامل والدته بجفاء ينظر لحبيبته كدمية، "الريد الكثير فى النهاية بتصبح عداوة" و"لو ما بتعرف البحر تندهش من الترعة". كنتُ فى تلك اللحظة أعبِّد الطريق لإحساسى الزفت. كانت علاقتهما قد انتهت فى توقيت مثاليّ بالنسبة لى، كان عامر درويش قد تخرّج فى نهاية السنة التى دخلنا فيها الكلية وصار

يداوم على عطالته. وفى نفس الوقت كنت قد أصبحت أمتلك خبرةً فى التعامل مع المرأة، عكس الأيام الأولى التى دخلت فيها الكلية، كنتُ فى تلك المرحلة منزوٍ داخل قوقعة أكاديمية، أفكر فى جذب انتباهها من خلال تفوّق درجاتى وإشادات الأساتذة، ولم أبخل فى مساعدتها أكاديميا، أدوِّن لها المحاضرات وأشرح لها الدروس المستعصية، كانت هى على العكس منى تماماً اهتمت بالنشاط، أظهرت موهبتها فى الرسم والمشاركة فى الجرائد الحائطية بخطٍ أنيق من يدها اليسرى لتصبح مشهورة داخل الجامعة وأطلقوا عليها رباب آداب، ولكن أعتقد إن الذى أطلق هذا اللقب كان يعنى إبداعها فى هزّ مؤخرتها المكورة بعناية أثناء خطواتها بين شجرة النشاط كافتيريا مكتبات. فى ذاك الوقت كان عامر درويش فى قمة شهرته الشعرية، شاهدته أول مرة وهو يتحدث فى المنتدى الثقافى بمفرداتٍ طلسمية، حسب تعبيرها آنذاك، أدهشتها طريقة كلامه، شعرت بقشعريرة تسرى فى جسدها لحظة أن صفّق له الجميع معجبين بأسلوبه الخطابى، أحسّت بانجذاب مغنطيسى نحوه، ولم تصدِّق هى نفسها لحظة إشادته بلوحاتها وإصراره على عرضها فى المنتدى الثقافى، الذى كوّنه مع أصدقائه، استطاع تطويقها بمعونة المجاز وتعدّد المعنى، بهرج لها معاييره اللغوية الصارمة، أذهلها بمقدرته فى إعادة تركيب المعانى وتكرار الملاحظات والحواشى، غربلها لتطفح سذاجتها وتغطس مرةً واحدة فى لذّة عشقه وتُصبح شعلة حبّه اللاّهبة. تزامن لقاءها مع عامر درويش بموعدها معى لمراجعة وتلخيص محاضرة

سابقة، اختزلتنى باعتذار موجز وكانت متوهجةً حد الاحتراق غير عادتها. فى اليوم الثانى حكت لى عن عاطفتها الملتهبة تجاه شاعر باهظ الإحساس، التقته ذات ظهيرة قائظة، كان واضحاً إنه سلبها حتى مفرداتها البسيطة، وبعزق كيانها، شعرتُ بسخط، ولكن كظمتُ غيظى، حتى قلبى الذى تدحرج تحت الطاولة دُستُ عليه بقدمى، نار اضطرمت فى داخلى. أذكر أنه آنذاك كانت بداياتى للتلفظ بالمفردات البذيئة، تمتمت فى سرى "خطفها هذا الخول المعفن" ومنذ تلك اللحظة وأنا بين الضغينة والكمد. أصبحت لقاءاتى بها صدفةً أبتكرها بدافع الأزمة النفسية. بإيجاز العبارة، كنت أتعمّد أن ترى الحزن الذى فجّرته بداخلى، لا أدرى هل كان دافعى أن تتحقق بنفسها من وزرها؟ أم لترى بعينها أن الخسارة مختصرة على وحدى؟ فى تلك الفترة التى كنت أعيش أسوأ أيام حياتى والكآبة تلتف حولى كالأفعى. كانت علاقتها مع عامر درويش مستمرة خارج حدود الكلية مما جعلنى لا أشاهدهما سوياً، وتعمّدت أن لا أصطدم به نهائياً، ويبدو أنه بعد تخرجه من الكلية، اصطدم بالعطالة الناجزة، وفقد الهالة التى كانت حوله داخل كيان المنتدى الثقافى، فشل فى مجابهة الواقع المتهتك، أصبح يخسر فى عمره من جميع الجهات، يزور حبيبته رباب تاج السر يوميا عند نهاية المحاضرات، يلتقيها متأبطاً عطالته وتنبعث منه رائحة عرقى منتصف الليل، بدأ ينحرف عن طبيعته لنزقٍ فرضته عليه الظروف، وصل به الحال ليتعاطى تركيب "الاسبرت" الكيميائى عديم الرائحة فى منتصف الظهيرة، ابتكر فى

تلك الأيام مقولات تردد صداها وسط المثقفين:
إن الطبائع المحتشمة لها نقاط سلبية.
فرصتنا كخريجين معلّقة على الرياح ونحن نقتنصها بشبكة.
الوعى فى هذا البلد، هو شرط أساسى يؤدى إلى العطالة.
كان واضحاً تفسير غموض المعاناة، وما تنتجه العطالة من حماقات، كانت تبدو له أفعاله ناقصة، شىء ما لم يكتمل، أو بمقدوره أن يتصرّف بطريقة أخرى، ولكن يظل احتجاجه صامتاً، مكتوف الشفتين، يتأمل الواقع بحسرة وخاصة بعد حادثة اصطياده مع أصدقائه من قبل شرطة النظام العام فى حالة سُكر، انتشر الخبر داخل الكلية كما لو أنه حريق فى إحدى قاعات المحاضرات. بمشقة سيطّرتُ على شماتتى. همز وغمز بين شلة رباب تاج السر، البعض كانوا فخورين به وبتمرده ومغامراته، والبعض الآخر اعتبرها عدم جدية وفرعنة ليس إلا، اغلب أصحاب هذا الرأى كان من الفتيات، وكالعادة رباب تاج السر كانت آخر من علم بأمر محاكمة النظام العام. لقد استاءت منه وعنّفته ولكن لم يكترث حتى لتوسلاتها، لم يعبأ حتى بدموعها. أصبح يأتى الجامعة وهو فى حالة سكر ويفتعل المشاكل، تطاول حتى على أفراد حرس الجامعة، فمنعوه من الدخول، أصبح ينتظر رباب تاج السر تحت ظل شجرة "النيم" المقابلة لبوابة الكلية الرئيسة ولم يكن يبخل بتوزيع لعنات فى الفضاء. فى بادئ الأمر حاولت أن تهدئ من غضبه غير المبرر وتترجاه أن يكف عن الشراب نهاراً، فشعر بمؤامرة الوعظ لذلك راح

يعاندها، ويتفرعن، تغضب، تشتمه وهو مخمور لا يبالِ، تلعن الحب الذى جمعها به، تتركه تحت شجرة "النيم" وتقسم ألا تعود إليه مره أخرى، ولكن قبل أن يمضى الأسبوع حتى ترجع إليه يدفعها شوق جارف، ولكن سرعان ما تجادله:

– أنت تفكر دون أن تفعل أى شىء، بصراحة لأن الفعل لا يهمك.

يغتاظ منها ينفجر فى وجهها:

– أنا انطلق من مبدأ الفكرة أولاً ثم يأتى الفعل بعد ذلك.

وصل به الحال فى أن يسير معها فى طريق عشق دون أن يتقيّد بإشارات المرور، تصاب بالغثيان من رائحة العرقى، فتتقى حماقاتها:

– شوف يا عامر، يا أنا يا السم الهارى البتشرب فيهو ده؟

يضحك حتى تسقط السيجارة من فمه، وبكفه يمسح آثار اللعاب، بمشقة يحرِّك لسانه لينطق آخر كلمات بينهما:

– أقول ليك حاجة مفيدة يا رباب، العرقى ده عندو نكهة أحسن منك.

لحظتها غادرته للأبد، اعترفت فيما بعد أنها شعرت بأن الروح هى التى غادرتها، لم تتذكر كيف وصلت البيت؟ دخلت غرفتها ومزّقت كل لوحاتها وبدأت من "بورتريه" بقلم رصاص لعامر درويش نفسه، ومن ثمّ انتحبت حتى الإعياء.

لم أتعاطف معه مطلقاً، بل نشأت بينى وبينه عداوة رغم أننى لا أعرفه ولم أره سوى مرة واحدة، ولكنى كنت أمقته كأننى أصادفه يومياً. هل يا ترى هو ناقم على لأننى ورثت عنه رباب تاج السر؟

• • •

وخاصة أنه لا زال نادماً على ضياعها، هل كانت ستعود إليه إن لم أكن قد فرضتُ عليها حصاراً وسوّرتها بحنان مترف؟ جعلتها تنسى عامر درويش، وتسخر من تلك القصائد التى كُتِبت فى عينيها، فعلا هى ملهمة، مفاتنها كفيلة بزعزعة المفردات، وجنتاها فقط حين تبتسم تجعلانك تغوص فى عمق الكلمات وكيف تنتقى جملة وصفية ذات إيقاع مدوزن مع ضحكتها.

محاولاتى كلها كانت فاشلة لكى أهرب من التفكير فى عامر درويش، أحاول أن أقنع نفسى وأرمى باللوم على القدر الذى دبّر هذا اللقاء كمكايده ليس إلا. أحاول أن أجد مبرراً لنفسى، لست أنا من تسبّب فى انهيار علاقته بها، حتى أشعر بتأنيب الضمير، كانت فى حاجة لإنسان يقف معها وصادف أننى كنتُ مُتاحاً فى تلك اللحظة تحديداً، كانت تبحث عن شخص ليس لديه علاقة معرفة مسبقة بحبيبها عامر درويش. أولاً حتى ينحاز إلى صفها بالكامل، ثانيا لأنها أحست بنوايا أصدقاء حبيبها بعد القطيعة، بعضهم جاءها مدعيّاً التفاوض من أجل الصداقة وبيده اليسرى يخفى النوايا الشريرة وبعضهم قدّم نفسه كبديلٍ مقنع، وخاصة أولئك الذين كانوا شهوداً على المغامرات المسائية. لم تكن تخجل منهم، هم أصدقاء حبيبها، كان يحدث أحياناً عندما تسافر أسرة أحدهم أو يذهبوا لمناسبة فى مدينة أخرى، يعلن هذا الصديق اليتيم بفرح هتافى أن بيته اليوم مستباح للأصدقاء. لقد اعترفت لى أنها كانت تبتهج معهم لهذا الخبر السار، لأنها حتما سترافق حبيبها فى هذه الأمسية وحتماً

سيقبّلِها فى غرفة مغلقة، دون خوف، لم تكن تعلم أن تأوهاتها وأنفاسها المتلاحقة كانت تُسمع فى الصالة، كانت عبارة عن مؤثر صوتى مصاحب لفلم الجنس الذى يتابعه الأصدقاء فى الصالة بلا صوت، لذلك معظمهم اعتقد أنها فريسة سهلة بعد نهاية علاقتها بعامر درويش، إضافة لذلك كانت تمتلك جسداً مثيراً يدعو للعطش، حتى أنا نفسى الذى وقّع القدر إمضاءه لمرافقتها، كان دافعى جنسياً ولكننى غلّفته بحس إنسانى، خاصة عندما اعترفت لى أنها شبقة وغير مختونة، جف ريقى وعبثاً ابتلعت الهواء على إيقاع قلبى. أيامها كنا قد أصبحنا عشاقاً من ذوى الأماكن العامة، لم تعد المشاعر محتكرة، ينقصنا فقط الاعتراف بكلمة الحب. كانت هى صاحبة المبادرة، أمسكت بيدى لنعبر شارع الجامعة مستغلة تفادى سرعة السيارات، كانت لحظة أخّاذة، ساحرة، لم أتوقع أن بيدها تلك الإثارة التى استمرّت معى طوال اليوم، وظللت أشعر أن يدها لازالت داخل كفى، ومنذ تلك اللحظة تورطنا فى علاقة عشق فاتنة. لكن الغريب فى الأمر، حجم الإحساس الذى كان بداخلى فى السابق، أو بمعنى أصح الإحساس الافتراضى الذى تخيّلته فى السابق أثناء تمهيدى المتعثّر من أجل إقامة علاقة حب معها، خيّل لى أننى سأبتهج بشكل خرافى، بأننى سوف أجرى فى الشوارع هاتفاً بعشقها، ألعب مع الأطفال، أتضامن مع الفقراء، أحفظ كل الأغانى العاطفية. لم يحدث الذى تخيّلته مطلقاً، شكوكى فسّرت لى الأمر على مزاجها، ظننت أن علاقتها السابقة مع عامر درويش هى التى ألقت بظلال

بؤسها على مشاعرى. هذا السبب خصم من احتفائى، لم اقوَ مطلقاً على تجاوز فكرة أننى لست أول رجل فى حياتها، هذا الوسواس تابعنى كظلى، جعلنى دائما منفعلاً، أجرّها من ساعدها بقوة وأهزها بعنف، أكاد أمزّق أكتافها، حتى تجيب على أسئلتى، للحد الذى جعل شكوكى تعصف بكل شىء.

أذكر أننا فى اليوم الذى اعترفنا فيه بالعشق، كانت أمسية ملتهبة. قبّلتها خلف استراحة الطالبات كان المكان مظلماً، تآمر يحسب لصالح الشمس التى غابت بسرعة فى ذلك اليوم. بكت على صدرى واحتضنتنى بقوة، إعترفت بعد ذلك بإحساسها دون شروط، والأكثر روعة من ذلك عبّرت عن ندمها على علاقتها بعامر درويش، ومحت أثار قبله من شفتيها، إحتقرته عن قصد. حكت لى بعد ذلك عن محاولاته الجاسرة فى النيل من عذريتها، إتضح لى أن مبادرتها كانت مبهمة، لا يفهم سرها إلا أصحاب النوايا الخبيثة، وعندما شعرت بغبائى إعترفت بمُكرٍ أنثوى أنه، فى إحدى لحظات سُكره ونشوته المزدوجة حاول أن يخترقها، قاومته بكل نسائية، صوّرت لى ذلك المشهد كأنه محاولة اغتصاب عنيف وفى لحظة ما أوشكت رجولته أن تنتصر، فاستخدمت سلاحاً نسائياً له مفعول جيد حسب تعبيرها آنذاك، صرخت ورفسته بقدميها على صدره، بعدها لم يحاول تكرار التجربة مرة أخرى، إكتفى بتقبيلها غصباً عنها. وعندما شعرت بأننى سرحت بفكرى بعيدا عنها، توقعت أنها أخطأت فى سردها لهذه الحادثة، وحتماً ستصبح خصماً على علاقتنا منذ بدايتها، أو ربما

خطر ببالها قد أكون أصدرت حكماً أخلاقياً لحظة صمتى، مهما إجتهدت لن يخطر على بالها ما يدور فى ذهنى مطلقاً. كنتُ لحظتها أخطط لكى أكمل ما عجز عنه عامر درويش. لقد تخيّلتنى أغرق فى شكوكى فوقعت فى مصيدة الارتباك الناجم عن زلة لسانها، أقسمت لى بكل مقدساتها أنها لازالت عذراء، وحتى أتأكد من صدقها، طلبت منى ان نزور سوياً طبيب نساء وتوليد، مفتعلةً انها مصابة بالتهابات وأقوم أنا بدورى وأتأكد من الطبيب واسأله عن عذريتها، لا أدرى ما الذى جعلني متحمساً لهذه الفكرة الساذجة وأوافقها عليها. أعتقد دفعتنى آنذاك رغبة مثيرة، كأننى سأفحصها بنفسى، ورحتُ أتخيل أصابع يدى تزحف بمكر نحو الهدف المحرّم، اجتاحتنى لذة سريعة، رفعتُ يدى وتأملتها كأنى سأجد بها لزوجة، ومن حيث لا أدرى شعرتُ بنّيه سيئة مخبّأة فى الخلف، قلت لنفسى، لابد أنها تريد أن تمتحن ثقتى بها، لذلك على أن أرفض هذه الفكرة حتى لا أرسب فى امتحان سخيف، سحقتُ الإثارة التى داهمتنى وقمت بتعديل هندام تعابير وجهى ثم رفضت الاقتراح بجدية مفتعلة، ولكن حكايتها عن المحاولة التى قام بها عامر درويش أججت غيرتى وفتحت فى داخلى نافذة شكوك ستائرها تتموّج وتتراقص فى ذهنى، هل فعلا كان هو فى حالة سكر وهى منعته بكل حزم وقوة من دكّ قلعتها المقدسة؟ أم هى التى دعته للدخول ثم خافت بعد ذلك وتراجعت؟ ربما يكون كل شيء قد تم بالتراضى، ولكن لماذا تعرِّض نفسها للمخاطرة وتطلب منى أرافقها للطبيب حتى أتأكد؟ عندما

أحست أننى أسايرها صامتاً، جذبتنى من يدى وأوقفتنى أمامها وراحت تتأملنى بعينين مشبعتين بالحب وبشفتين مثيرتين نطقت:

– يا قلب، عشان ما تسرح كثير، أنا مصرة نمشى نقابل طبيب.

تبيّن لى في ما بعد أنها كانت على نفس القدر من الخبث الذى كنت أتمتع به لاكتشاف النشوة، وربما كانت تفوقنى حتى فى الجرأة .

عندما وصلنا مجمع العيادات الطبية الخاصة، رحنا نقرأ فى اللافتات المضيئة، فكرة اختيار الطبيب عشوائياً من شكل اللافتة كانت حركة مثيرة وتحوّلت إلى لعبة مسلية كأنها حقنة انغرست فى جسمى وسحبت كرويات التوتر، أقوم أنا باقتراح اسم طبيب من خلال اللافتة المضيئة، تعترض هى على الجامعة التى درس بها أو لا يعجبها المكان الذى أكمل فيه دراساته العليا، وعندما تختار هى، أنا بالمثل، أبخِّس لها الاسم الموسيقى الذى وقع عليه الاختيار,

– عارفة يا قلب، دا بكون درس الطب بقروش.

أخيرا اتفقنا على اختيار لافتة صغيرة جداً وإضاءتها كانت سيئة، إحدى لمباتها الرئيسة بها عطب تضيء للحظة ثم تنطفئ، بالكاد يلاحظها مرافقو المريض وسط زحمة الأسماء العريضة، اختيارنا لهذا الطبيب صاحب هذا الإعلان الفقير، جاء بدافع إنسانى وبالمقابل، سيكون متواضعاً فى سعر مقابلته واستشارته. جلستُ أتصبب عرقا، أردد فى سرى الجملة التى تحمل سؤالى، أعدِّل فيها وأحذف، تذكرت نكتة صعلوكة نتداولها نحن الشباب أشبه بوضعنا الآن، أنا وهى والطبيب، لكنها فى تلك اللحظة لم تستحق الابتسامة،

الانتظار جعلنى أحصى عدد أزرار بدلة الطبيب الملعقة أمامى وأتأمل بلا معنى الغبار العالق بالمروحة التى كانت تدور محدثة صوت "كك.. كك" توقعت أنها ستسقط فى أى لحظة، استبدلت مكان جلوسى محافظاً على فرصة نجاتى، شاهدت على الحائط الذى قابلنى برواز معلق، حاولت أن أقلِّد فى ذهنى الخط الكوفى الذى كتبت به عبارة هذا من فضل ربى. طبيعتى المحتشمة منعتنى أن أتخيل الذى يحدث خلف الستار.

عندما أنهى الطبيب مهمته وألقى بقفازاته الشفافة داخل سلة القمامة، وجلس يكتب توصياته، انتظرتها تخرج من خلف الستار وتتجه نحو الباب لتنتظرنى فى الخارج ومن ثم أكمل باقى المشهد، تابعته بدقات قلب بنفس إيقاع صرير المروحة حتى يكمل كتابة الوصفة الطبية، مرفقة بوصفة شفهية لم أنتبه لها جيدا، كان تفكيرى كله منصباً على الحوار الذى يعقب صمته:

– معليش يا دكتور، عايز أتاكد هى عذراء؟

نظر لى من فوق عدساته الطبية السميكة:

– هى تقرب ليك شنو؟

– خطيبتى.

– اطمئن هى عذراء.

لقد اخترقتها فى نفس الليلة فى منزل صديقى رأفت القبطى، كانت ليلة صافية، نفذتُ كل أحلام اليقظة معها، انتشت وغرزت أسنانها على كتفى للذكرى، ولكن منتصف الليل أجهشت فى بكاء مرير،

انتحبت غياب عذريتها، رغم أنها هى التى طلبت منى أن أخلع عنها ملابسها الداخلية عندما لم يجدِ الصبر نفعاً وكاد الشبق يفتك بها، لفّت ساقيها المكتنزين حولى بقوة لم أتوقع أن تصدر عنها، ساهمت معى مناصفة بدك قلعتها المصون. كنت فى غاية سعادتى لأن النشوة كانت مزدوجة، لقد شعرتُ فى اللحظة التى اخترقتها كما لو أن عامر درويش خرج مع قليل من الدم، وجدتنى مبتسماً وأنا أغسل ملاءة سرير صديقى من آثار المعركة وبقعة الدم التى كانت أكثر عصياناً من بكارتها. عندما عدت إليها فى الغرفة كانت قد ارتدت ملابسها وجلست فى منتصف السرير ضامّة ركبتيها على صدرها بقوة ورأسها منحنياً على جانب، كأنها تحتضن صديقة عزيزة عليها لتواسيها لحظة افتقاد شيء عزيز، شاهدتُ دموعها تسيل بلا انقطاع، رجعتُ من الحمام وفى نيتى ممارسة متعة أخرى، لقد كانت مثيرة حتى بهذه الدموع، كان لابد أن أعبر بها أولا مجرى هذه التعاسة، انتشلها من قاع الندم، جلست بالقرب منها، شربتُ من منبع الدموع قبله طويلة، ضممتها إلى صدرى، فكت اشتباكها بصديقتها الركبتين وتعلّقت بعنقى وبكت بصوت أجش مدركة خطورة الموقف، إنتحبت كأنها فقدت والدتها الآن، بمشقة استطعتُ أن أهدئ من روعها، استخدمت معها كل المهدئات:

– سنتزوج بعد التخرج، صاح؟

– ....

– كنت محتفظة بعذريتك لزوجك، وأنا زوجك. ولعلمك أنا لستُ

مؤمناً بأن غشاء البكارة له علاقة بالشرف، كنت سأتزوجك حتى لو كانت لديك تجارب سابقة.

شعرتُ أن الشخص الذى قال ذلك الكلام المطمئن، كان الشخص الخطأ، لقد كنت أكذب عليها، كنت آخر شخص تهمه الأخلاق فى تلك اللحظة، وقبل أن تتوغل فى شكوكها قبلتها خلف أذنها لتنهار مصدرة حشرجة.

بعدها أصبحنا مدمنين، اتضح جلياً أن غرائزنا هى التى أصبحت تتحكم فى أفكارنا التى تدور حول الأماكن الآمنة لننتشى فيها بلا خوف. أصبحت رباب تاج السر منجرفة وراء نشوتها بصورة مخيفة دون اعتبار لأى وازع. عندما نتجول سويا ويدخل علينا المساء وأمسك بيدها، عندئذٍ أشعر بفخذيها يرتجفان من الشبق، تحرن فى مكانها، تخبرنى دون خجل أنها مبتلة من تحت. فى إحدى الأمسيات طرقنا بأنفاس متسارعة منزل صديقى رأفت القبطى ولسوء حظنا لم يكن موجوداً بالمنزل، كانت ليلة كاحلة، طفنا حول البيت الذى كانت خلفه تقع مقابر النصارى، طاوعتنى بلا خوف، كانت فى حالة رغبة لا رجعة فيها، مارسنا الجنس على مصطبة قبر ذو شواهد عريضة، لا أنكر أننى كنتُ مرّعوباً فى تلك اللحظة، ولكن رغماً عن ذلك أسعدتها لتكتم صرختها بفرفرة خروج روح، ولم ينجُ ظهرى من خربشتها لحظة أصبحنا فى لحد واحد. غادرنا المكان بسرعة نتلفح القشعريرة، لقد شعرت رباب تاج السر بوقاحتها عندما تذكرت أنها عجنت الزهور التى كانت قرب رأسها فى لحظة هيجان.

لقد مارسنا نشوتنا فى أماكن مختلفة، تدفعنا رغبة عارمة، انتشينا داخل الصندوق الحديدى لسيارة والدى فى ليلة خريفية، وفى حمامات الكلية، احتمينا بنبات العُشر تحت كبرى النيل الأزرق ولم تسلم من مغامراتنا حتى مراكب الصيد الراسية فى حى أبو روف وعربات السكة الحديد المهجورة.

شعرتُ بالندم يتثاءب نيابة عنى ويحتل مكان النعاس، داهمتنى رغبة عارمة فى أن أفك أعضاء جسدى وأرمى بها من النافذة. من تجربتى الحياتية فهمتُ كم كنت مخطئاً وحقيراً، تناقضى البائن هو الذى سهّل لى معرفة نفسى بشكلٍ أفضل، لا أدرى هل أنا ابتعدتُ عن الوطن أم عن نفسى؟ ربما هى سانحة تأمل لسلوكى السابق. تنهدت مع حركة غبية لمشاهدة شفتى السفلى، كان وجهى كئيباً وهو منعكس على زجاج النافذة، لم أعد أشبهنى. شعرتُ أنا المسافر الوحيد الذى يتأمل المشهد الخارجى، لم أسافر بالقطار فى هذا التوقيت من قبل، كانت الروائح داخل القطار منعشة، أشمها جميعاً كقائد اوركسترا، رائحة العطور النسائية هى الأكثر قرباً إلى أنفى، "صولو" منفرد من عطر "تريزور"، لدرجة أننى شعرت برائحة نتانتى، وبما أننى لاحظتُ بأن لا احد جازف للجلوس بقربى، لذلك لا شعوريا رحت بأنفى أتعقّب الروائح فى ملابسى، ولكنى توصلت سريعا إلى نتيجة مفادها، بأن أصحاب الروائح الكريهة لا يستنشقونها مطلقاً، مددت أقدامى وأغمضت عينى، أشعر بأننى مجوفاً من الداخل، لقد أفرغت ما بداخلى كله دفعة واحدة. عندما كان عامر

درويش يتوقف عن سرده فى نقطة ما، أستلم دورى فى الحكى، كأنه نص محفوظ وما علينا سوى أدائه بتلقائية مدهشة، كنتُ أنطلق تقريبا من نفس النقطة التى توقف فيها هو، كأننا نمارس فى لعبة أو مطارحة قصصية. وبدون إرهاصات أمطرت سماء هولندا كعادتها لتعكِّرِ مزاجى، إلتفت إلى الناحية الأخرى متأملاً فتاة تجاوزت مراهقتها بجدارة، تجلس أمامى ولكن بزاوية منحرفة، أستطيع تأملها دون أن تلحظنى، حتى وإن كانت تجلس أمامى مباشرة لن تهمها نظراتى الجاسرة، لأنها أساساً مركزة بكل حواسها لحوار هاتفى، كانت تتحدث فى هاتفها مع صديقها على ما يبدو لى، بدت منتشيةً بما تسمعه على أذنها، ومن عينيها الخضراوين يتدفق شبق ناعم، أتاحت لى فرصة أتمعّن وجهها بإعجاب، تضع مكياج أنيق وغير صارخ، على أنفها فاروزة فضية. بلعت ريقى بمشقة والتفت إلى الناحية الأخرى، كانت، ولا تزال، إحدى أمنياتى التى لم تتحقق بعد أن تكون لى علاقة مع فتاة هولندية شابة، لم يحالفنى الحظ مثل عامر درويش الذى تزوج "انكا فان درماين" الشابة الجميلة، عندما رآها أول مرة كانت تقف خلف زجاج غرفتها فى حى "الريد لايت"، مثل سمكة زينة داخل حوض زجاجى، تعرض جسدها للزبائن، وقف أمامها منبهراً بجمالها، لم يخطر على باله مطلقاً أن تعيره أدنى انتباه، كانت أجمل فتيات "الريد لايت" وسعرها يصل إلى مائة يورو ولم تكن تهاود أحداً مطلقاً، تعرف قيمة جمالها وجاذبيتها جيداً، كانت متميزة عن كل العاهرات فى حى أمستردام، أولاً ملامحها لم تكن

تشبه العاهرات المبتذلات بوجههنّ التى شوهتها اللذة المفرطة، ثانياً لم تقلدهنّ وترتدى الملابس الداخلية الشفافة التى تشع تحت الإضاءة الفسفورية، لقد ابتكرت لنفسها عرض إغراء خاص بها وحدها، وقفت خلف باب غرفتها الزجاجية ببنطلون جينز ممزق عنوة مكان الأفخاذ وتركت أزراره مفتوحة ليظهر جزء من لباسها الداخلى الأبيض ويكثِّف من شدة الإثارة المرتقبة، وفى الجزءِ الأعلى من جسدها كانت ترتدى قميصاً أبيض عقدته على خصرها جعلت نهديها على مرمى الأهداف ويا لهما من نهدين، كان عامر درويش يبتلع ريقه مع كل شهيق، كان يضاجعها يوميا فى خياله، يقف بالساعات يراقبها.

رجعتُ أراقب السهول الهولندية وماء المطر يرتعش على الزجاج كالعادة ويسيل على زجاج النافذة كالدموع. تذكرتُ دموع عامر درويش كانت تسيل بلا توقف وهو يحكى عن لهفته لابنه سامى وظل حزنه يتعاظم، شاهدتُ فى عينيه بؤساً لا يحتمل، حتما لن يكسب المرءِ قضية استئناف ضد القدر. لن ينسى ذلك اليوم أبداً عندما أخذوا منه ابنه، جرّدوه من رتبة الأبوية بلا وجه استحقاق، كانت صدمة قاسية، حضر جلسة المحكمة وهو فى حالة سكر، وقف ينتحب أمام القاضى الذى أصدر حكمه القاسى وسحب منه الحضانة وللأبد، فقد آخر حلم كان متشبثا به، أطلق عليه سامى قنديل ليصبح يوماً ما صديقه، لقد أجحفت المحكمة الهولندية فى حقه. خرج من قاعة المحكمة بكتلة من الكراهية، لقد دمروا حياته

نهائياً، الذى حدث أشبه بتجارة خلايا الإحساس، ليس هناك أفظع من أن ترى ابنك يُسلب منك عنوة لتتبناه أسرة أخرى ويفترض بها أن تكون أجدر منك عطفاً عليه، يا للبشاعة. شعرت بالعبرة تتجمع كسحب لتمطر، لعنت الشعب الهولندى كله فى سرى، رغم اننى كنتُ معجباً بهم، لقد أكرمونى ومنحونى جنسيتهم. أبديتُ اعتراضى على النحس الذى يتعقّب عامر درويش فى كل خطواته، بدايةً من فقدان صديقه سامى قنديل والذى تعرّف عليه أيام المدرسة الثانوية فى صدفة تبدو عادية لكن عامر درويش في ما بعد اعتبرها مدبرة، التقيا داخل مستشفى الحوادث، مراهقان على قدر لا بأس به من الإحساس المتراكم بسبب الظروف المعاكسة، عامر درويش يرافق والدته التى كانت بحاجة ماسة لجرعة وريدية، وسامى قنديل ممدّدٌ على نقالة مرتجلة كركام من الأسف. تبادلا اسميهما أثناء مراقبتهما لقطرات الدم الذى تبرّع به عامر درويش وهو ينزلق برشاقة داخل أنبوب شفاف، ليختفى داخل شرايين سامى قنديل، كانا مراهقين مندفعين نحو بعضهما بإعجاب متوقع. ومنذ تلك القطرات الحمراء استمرت علاقتهما تتعظّم ودخلا نفس الكلية برغبة مختلفة، فعامر درويش كان يشعر بكلية الاقتصاد عسيرة الهضم ورغم ذلك فضّلها حتى لا يفترق عن صديقه، سذاجة رباب تاج السر منعتها من فهم هذه الصداقة، كانت تغير من علاقته بسامى قنديل وتتذمر، كما لو كان ضرة لها و لم يعدل بينهما. فعامر درويش لم يكن يتهاون مطلقاً فى مرافقة صديقه إلى المستشفى، وعلى استعداد تام أن يلغى حتى

مواعيده معها، من أجل موعد طارئٍ لصديقه فى المستشفى التى تردد عليها كثيرا منذ صغره بسبب مرض بلهارسيا مزمنة أتلفت له حتى البنكرياس ولم يكن يتذمر من مرضه نهائياً بل تعلّم منه الصبر وراح يسخر حتى من نفسه، فعندما كان يشعر بأن عامر درويش فى حالة كآبة بسبب فشل الأطباء فى تشخيص متفق عليه لهذا المرض، كانت تهمه فى تلك اللحظة نفسيات صديقه فيلتفت إليه مبتسماً بسخرية:

– هل تعلم يا عامر هذا النوع من الأمراض انقرض فى العالم، وأصبح جزءاً من تاريخ الطب، لذلك لا يصيب إلا الفقراء الذين يخوضون فى بركة أفكار راكدة مثلنا.

وعندما يحس بأنه استلم زمام الأمر ويستطيع أن يعدل مزاج صديقه يضيف:

– ولكن لا يفوتك يا عامر هذا المرض متخصص لا يصيب إلا المشاهير مثلى.

– يرد عليه عامر درويش بضحكة:

– بدليل أنه قتل العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ.

وبعدها يتحول مزاجهما نحو خطة محكمة يستلفان بها زجاجة عرقى، أعتقد أن علاقتهما كانت محكمة بسرية وهذا ما دفعهما لتخطى العادية وسامى قنديل هو من كان يتحكم فى مزاجها، المرض جعله يكره حياة النكد والغم، لذلك كان يبحث باستمرار عن المتعة كما لو أنه يعلم بنهايته الوشيكة وحتى خلافات عامر درويش

مع رباب تاج السر كان متكفلاً بمحو آثارها على الأقل عن صديقه، كان باستطاعته أن يبسط المشكلة الكارثية ويجعلها تبدو تافهة لا تسوى حتى ذرة غضب، والغريب فى الأمر أن رباب تاج السر كانت تصوراتها عنه مغلوطة، لم تستوعب عمق هذه العلاقة التى بين حبيبها وصديقه، واعتمدت فى تحليلاتها عن أسباب انهيار علاقتها بعامر درويش لالتصاقه الشديد وغير المبرر من وجهة نظرها بسامى قنديل الذى لا يهتم بالمرأة ويحتقر العلاقات العشقية أثناء الدراسة حسب فهمها لشخصيته، فعلاً من لا يعرفه يعتقد ذلك، لقد أكمل الجامعة بدون علاقة حب وكان بطبعه لا يهتم بالفتيات نهائياً لذلك أكلتها الغيرة وتخيّلت أن عامر درويش تأثر بأفكار صديقه ولم يعد يوليها أى اهتمام، ولو اجتهدت قليلا لكانت استوعبت أن هذا الصديق النادر سامى قنديل هو من كان يدافع عنها وهى غياب. كان يمكن لها أن تفهم أنه عاند أحاسيسه حتى لا تتأزم امرأة بسبب أمراضه المستعصية. بدأتُ استرجع الآن تلك اللحظات المفجعة وصرخة رباب تاج السر وبكاءها الهستيرى لحظة سماعنا خبر وفاتهما، كنا وقتئذ داخل مكتبة الكلية فى صمت مهيب من رعب الامتحانات القادمة. أتذكر بالتحديد فى تلك اللحظة إننى كنتُ جالساً أراجع تاريخ الأدب الفرنسى مع خالد بجة، عندما دخلت علينا خديجة أركويت وهى تبكى وتولول بأعلى صوتها وانشغلت لثوانٍ معدودة وهى تحاول أن تفك طرحتها التى علقت بترباس باب المكتبة، وفيما بعد سنضحك على طريقة اهتمامها بطرحتها الجديدة

التى أفقدتها هيبة الحزن آنذاك، وأعلنت الخبر بصوتٍ مسموع، لم تكن تعلم أن شقيقة سامى قنديل موجودة داخل المكتبة فانطلقت صرخات من كل الاتجاهات أفزعت المراجع القديمة، المذكرات تبعثرت على البلاط، عبثا كنتُ أحاول السيطرة، الطلاب وقفوا متجهمين، بعضهم ظل على مقعدة ومارسوا أفخم حزن ممكن أن يتخيله الرجل، انحنوا بجباههم و داسوا بها على سواعدهم المنبسطة على سطح الطاولات وقليل منهم ذهنه ظل داخل المكتبة التى تحوّلت لصالون عزاء نسائى، داهمتنى غيرة دفينة وأنا أشاهد رباب تاج السر وهى تصرخ مفجوعة وعبثاً حاولت أن أخفى تذمرى ولم يفُتني أن أتلصص على مختار الأحوص أمين المكتبة الذى خرج مباشرة وكأن الأمر لا يخصه البتة، غادر طاولته مستاءاً كأنه قرر أن يرفع شكواه لعميد الكلية، أو ربما ذهب يستدعى حرس الكلية، وبعد أسبوع من الحدث التقيته فى ركن المكتبة ينتحب بخجلٍ مخفياً عينيه خلف مجلد ضخم وقبل أن اسأله تفادى المماحكة واعترف:

- كنت دائماً أجد عامر درويش عليه الرحمة يجلس فى هذه الركن ويقرأ فى هذا الكتاب.

وبعد خروج أمين المكتبة حاولتُ أن أهدئ الموقف وفى نفس الوقت أتابع عن كثب انفعالات رباب تاج السر وعندما شاهدتها تعانق الطالبة إشراقة قنديل ويرتفع الصراخ إلى أقصى مدى للحناجر، أقنعتُ نفسى بأن حزنها يخص سامى قنديل وحده، ظل وجهها متورماً وعيناها منتفخين على مدى أسبوع كامل. لقد كان خبر

وفاتهما كارثة على الكلية بكاملها، خصوصاً لم تكن هناك مقدمات أو إرهاصات لهذا الموت الفاجع، لا أحد كان يعلم بالمغامرة التى قاما بها، الجميع كان يعتقد أنهما سافرا إلى ليبيا بعد أن شبعت منهما العطالة نفسها وانطبق عليهما قانون القمع والتصدير. فكرة قرار سفرهما ابتكره سامى قنديل بعد أن شعر بصديقه عامر درويش ينهار رويدا رويداً ويفقد حتى شهية الكلام، وصار كئيباً، جسده انتحل بصورة مزرية، نادراً ما يأكل، يكتفى بجرعات العرقى اليومى فقط، يشرب فى كل الأوقات، راح يتوسل غريزة البقاء أن تحد من اندفاعاته الخلاقة، وصل لقناعة الامتناع عن إنتاج أى فعل إيجابى، حتى أنه ترك تكوين الألفاظ والجمل المدهشة، كان ذلك أشبه بالتعبير عن خيبة الأمل، صار مستهزئاً بالجميع، يرى كل شىء عبارة عن ضياع، حتى مرور الزمن مجرد تعقيدات تتدحرج نحو التقنية الحديثة ليس إلا. كان المشهد العام فى تلك الأيام يشبه مشهد انقلاب عربة إطفاء حريق على بعد خطوات من مكان اشتعال النار، يستغل أى فرصة من أجل أن يشرب الخمر، لا يهتم لأحد، ينتج الغضب من العدم، ولا يتوارى ويبعزق لعناته بسخرية، الغريب فى الأمر أنه لم يجادل صديقة سامى قنديل بل وافق مباشرة على فكرة السفر إلى ليبيا، والتى تكفّل بها سامى قنديل نفسه وكانت طموحاته عبور البحر المتوسط ولم يصرِّح لصديقة إلا بعد عدة شهور من دخولهما ليبيا وإقامتهما المجانية مع عم سامى قنديل، وبعد أن جمعا معلومات كافية عن الهجرة غير الشرعية إلى ايطاليا والمبلغ

المطلوب سافرا على متن باخرة كبيرة إلى جزيرة مالطا. عندما وصلا كان الوقت بدايات الصيف والأزياء مختصرة على الأماكن الحساسة، أصابتهما حالة دهشة فقال عامر درويش:

– هذه مقدمة مختصرة عن أوروبا.

وكانت محاولة دفاع فاشلة ليدارى بها خجل الفرح الذى اعتراه. أما سامى قنديل فقد عبّر عن دهشته مباشرة لحظة مغادرته الباخرة وشاهد منظر الجزيرة الأخّاذ ولفحه الطقس المحسن:

– حتى الطقس رائحته خواجات.

– لعلمك يا صديقى هذه هى الشعوب التى رضى الله عنها.

هكذا علّق عامر درويش وعقّب سامى قنديل وهو مبتهج:

– لقد انتشلنا من بركة العوز، وداعاً لأمراض التخلف.

لم تكن لديه أى فكرة عن المصير الذى ينتظره. أمام إحدى البارات تعرّفا على امرأة تونسية وجدتهما متوجسين، طلبت لهما بيرة مع فستق على حسابها، وجلست معهما على طاولة واحدة، بمشقة استطاعا فهم اللغة العربية بالطريقة التونسية. نصحتهما بترك الفندق فوراً، انتقلا بمساعدتها إلى السكن فى غرفة مشتركة بمنزل مبنى على طراز عربى قديم، والغرف الأخرى مكدّسة ببعض الأشقاء العرب والأفارقة، وعرفا بعد ذلك بأن تلك المرأة التونسية تعمل سمسارة فى مجال تهريب البشر تعمل مع مجموعة من المهربين ولم يكن اللقاء بها محض صدفة كما بدا لهما ذلك، فهى التى تتبعت خطواتهما وعرفت من خبرتها أنهما يحلمان بالعبور إلى الشواطئ

الايطالية، وحتى البيت الذى أخذتهما إليه تابع لشريكها. دفعا كل المبلغ الذى بحوزتهما شمل قيمة التهريب والإيجار، ليواجها بعد ذلك بلداً سياحياً بجيوب فارغة. فى اليوم الأول تمت استضافتهما من قبل الذين كانوا ينتظرون دورهم فى التهريب، ولكن اليوم الثانى والأيام التى تلته، كانت عبارة عن صيام إجبارى. خرج سامى قنديل إلى الشارع لأن رائحة الأكل المنبعثة من المطاعم كانت كابوساً على المعدة، عرض خدماته للمطاعم: العرق مقابل الغذاء، كل رؤوس أصحاب المطاعم كانت متفقة فى إيماءة من الرأس بالنفى، ورغم الجوع انتبه لملاحظة لم تكن مهمة، أن كل الرؤوس التى اشتركت فى حركة واحدة، كانت متشابهة، حتى إنه شك فى نفسه وتخيّل أنه يدور ثم يأتى لنفس المطعم مرة أخرى. لم يكن يعرف اليأس مطلقاً، وهذه إحدى طباعه، راح يدور بلا كلل أو ملل وكان على استعداد أن يدور حول كل هذه الجزيرة الصغيرة على أقدامه ولا يعود إلى صديقه خالى الوفاض. إحساس الجوع كان طاغياً على كل شىء، كانت نظراته مثبتة على الأفواه التى تمضغ الطعام، لم يتأمل حتى أفخاذ الفتيات اللاتى تمددنّ على مقاعد الحديقة، لم تثره الصدور النافرة، ولا حتى القُبل التى كان يسمع صوتها من حوله، كان يتخيلها أصوات تتجشأ من شدة الشبع، حوّل بصره غريزياً نحو الهدف الذى خرج من أجله، أصبح فى نظر الناس كلها عبارة عن بطون منتفخة تكاد تنفجر من التخمة، عدا هو وصديقه الذى تركه يصارع جوعه داخل منزل قديم يبدو وكأنه من عصر الفتوحات

الإسلامية، تركه وحيداً وكان يخشى عليه أن يلتهم دفتر أشعاره. انسحب عنه حتى يترك له مساحة خلوة للوحى الذى لن يتجرأ ويهبط فى هذا التوقيت لكى يختزل المعنى فى دلالة حاسمة وتأويل اللغة عبر غربلة المعانى النقية حتى اشتعال المفردة. تركه غاطس داخل صرامة يبحث عن مفاتيح النص. لم يشعر عامر درويش إطلاقا بانسحاب صديقه التكتيكى ظل محتضن دفتره ويقلم فى أظافر إيقاع القصيدة، لقد سلّم نفسه للمتاهة وراح يكتب بجدية محكمة ويعاود تلاوة ما كتب بصوتٍ عالٍ ولكن لا صوت يعلو على صوت الأمعاء، خطر لذهنه أن المعاناة فعلاً معقل الإبداع.

عندما اختفت السهول الخضراء ودخل القطار فى نفق طويل ومظلم، وظهرت لافتات متعددة مرّت بسرعة فائقة عكس حركة القطار، أعلنت عن دخوله محطة "اشخيبول" أو محطة مطار أمستردام، وفى اللحظة التى توقف فيها القطار تماماً التفتُ أبحث عن الرصيف رقم (10) كأننى سأشاهد عامر درويش فى ذلك الصباح عندما صعد القطار من هذا الرصيف متوجهاً إلى مركز تقديم اللجوء بشخصية عامر عباس. كان متردداً فى خوض هذه التجربة وهو يعلم أنها السبيل الوحيد لبقائه فى أوروبا، بدأ فى تأجيل الموعد من يوم لآخر، مبرراً لامبالاته بمليون سبب، بذل جهداً مضاعفاً حتى لا يتحوّل إلى هدف لتعليمات أصحابه الجدد، يقارعهم بالحجة، يدّعى إنه فى حالة اكتئاب طارئ وليس بمقدوره الاهتمام بنفسه. وبالمقابل كان يهمس لنفسه، لو كانت الأمور سارت على ما يرام؟ لو الذى حدث تغير

بمعجزة؟ كان يحلم يقظاً بنجاة الزورق ولولا جسارة البحر الذى غدر بصديقه، كان بالإمكان أن يقدِّما على طلب اللجوء بقضية مشتركة، ومن أول يوم وطأت فيه أقدامهما أرض هولندا، ولكن الآن بدا له الأمر بلا جدوى، لم تعد لديه رغبه حقيقية ليفعل أى شيء، إن كان بمقدوره أن يصبح متشرداً داخل محطة أمستردام مع المدمنين الذين شاهدهم يتوسلون المسافرون ثمن سيجارة، لن يتردد مطلقاً فى الانضمام إليهم، لا ينقصه ذاك الضياع، حياته خاوية كالبالونة، يعيش بشخصية نكرة، أكذوبة ابتكرها وصدّقها بمعاونة الأصدقاء الجدد من أبناء وطنه، الذين احتفوا به بإعجاب مفرط، لم ينتبه احد للشخصية الملفّقة، اسم جديد وضفائر شعر تتدلى على ظهره بالطريقة الجامايكية، شخصية متمرده. كان معتزّاَ بنفسه لأبعد الحدود، مزدرياً. من الداخل كان عامر درويش الأصلى يغذى الشخصية بالأفكار التى تناسبها وأحياناً يستلف من ذاكرته ويضيف إليها إبداعاً، والشكل الخارجى عامر عباس بسلوك مضطرب لا يشبه إطلاقا، كان حريصاً جداً ألا يصير ثملاً للغاية حتى لا يكتشف أحد شخصيته الحقيقية. تعتريه استيقاظات ليلية فجائية ملغومة، لا يعرف أين هو؟ وفى أى دولة؟ البرد وحده يؤكد ماهية المكان، رويداً رويداً اعتاد على هذا التناقض وراح يتأقلم مع الحاضر المعقّد، يمارس فى بعض الأحيان هوايته فى التلذذ بتضليل الآخرين. لقد اندهش أصدقاء أمستردام الجدد، كما كان يطلق عليهم، حول شخصيته، فأصحاب المزاجات والديسكو والحشيش

صنّفوه واحداً منهم بمجرد ما أن شاهدوا ضفائر شعره الطويلة (راستا)، أما المثقفون فقد اعتبروه إضافة حقيقية لهم ونموذجاً للمثقف الواعى لقضايا بلده، ولكن اليساريين كان لهم رأى قاطع فى أنه صاحب قضية يجب استقطابه وخاصة أن الذى استضافه فى شقته كان مأمون بشير الشيوعى وهو من كان وراء إقناعه ليتقدم بطلب اللجوء، و جاء معه حتى إلى مطار أمستردام منذ الصباح بعد غفوة قليلة من نهاية الجلسة المسائية التى أقاموها له بمناسبة وداعه لفترة غيابه المؤقت أثناء إجراءات اللجوء. لقد استمرت السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل، آثار العشاء لا زالت منطبعة على معدته ومفعول الويسكى يعشعش فى ذهنه. أجلسه مأمون بشير على كرسى فى مقهى مقابل مكتب شرطة المطار وذهب نحو النادلة الحسناء وطلب قهوة من الحجم الكبير تساعدهما على الاستيقاظ، ثم رجع وجلس فى مواجهته وابتسم بعد أن فرك كفيه ببعضهما بعضا، لقد كانت حركة لها معنى محدداً فى ذهن عامر درويش أن صديقه الجديد منتشٍ وراضٍ عن نفسه بتقديم المساعدة، رد عليه عامر درويش فى سره، لو تركتنى أواصل نومى، كنتُ اعتبرتها أفضل خدمة تقوم بها من اجلى. التقت عيناهما فى لحظة غير مقصودة ونادراً ما تحدث هذه الصدفة، فزاغ مأمون بشير بنظره ومسح على لحيته كأنه تذكر أنه لم يحلقها من الاستعجال، ثم وجه لعامر درويش سؤالاً فى واقع الأمر كان من المفترض أن يخص به نفسه أولا:

- هل أنت متوتر؟

أجاب عامر درويش وكان متأخراً بسبب التثاؤب الذى كاد أن يفتك بفكه مما جعل شكله يبدو مضحكاً:

– أبدا، إطلاقا، هل أبدو متوتراً فعلا؟

أطلقا ضحكة مشتركة أربكت القهوة التى حضرت بغنج واستبدلت المزاج بعد عدة نفحات من أنفاس مخمورة ليتصاعد بخار سهّل على لسان الرشفة الأولى وبعدها يحدث صمت، صمت وجد فيه مأمون بشير ضالته:

– إنها مغامرة بسيطة وأنت مؤهل لاجتيازها بجدارة.

راح يهوَّن عليه التجربة التى سيقوم بها بعد قليل، ويحاول أن يذكره ببعض التفاصيل الهامة ويعيد عليه القصة التى سيرويها بالتواريخ والأماكن، والإجابات المنطقية فى حالة فرّخت القصة أسئلة أخرى وطرحها عليه المحقق، تابعه عامر درويش بملل وشعر بأن القصة التى حفظها أساسا لا تستحق اللجوء، وقال لنفسه، لو كفى عن هذه الثرثرة أكون شاكراً له، قام فى سره بإحصاء عدد المرات التى سمع فيها هذه القصة الركيكة المملة، قصة معاناته التى سيرويها للمحقق الهولندى وقد شارك فى تأليفها عددٌ من الأصدقاء الجدد. فكر فى تلك اللحظة أن يستبدلها بقصة أخرى، سيرتجلها أمام المحقق، ارتشف من قهوته ولاحظ أن مأمون بشير قام بنفس الفعل أيضاً وفى نفس التوقيت، كأنه جالس امام مرآة، بعدها شاهد الصورة التى أمامه تميل نحوه ويهمس مأمون بشير بآخر الوصايا:

– إذا شعرت أن المترجم عنصريّ أو لم يصدق القصة، طالب

بمترجم آخر، هذا من حقك كلاجئ.

ثم أضاف ليؤكد خبرته:

– حاول أن تذرف بعض الدموع أمام المحقق، ستفيد القضية.

وأيضاً حذّره من عدم الاستعجال فى الرد على الأسئلة وبعد ذلك أمسك القهوة بيده، وقال له سأضمن لك الإقامة الدائمة فى هولندا خلال شهور. ثم شرب قهوته كلها دفعة واحدة وانحنى نحو شنطة عامر درويش "الهاندباك" الصغيرة وفتشها للمرة الثالثة حتى يطمئن أن ليس بها شىء متعلق بهولندا قد يفشل قضية اللجوء من أساسها، ثم نهض وعانق عامر درويش بحب وغادر. تابعه عامر درويش وقبل أن يشرع فى التعليق مع نفسه عن طيبة هذا الصديق الجديد، انتبه لمشيته، كانت غريبة بها أنوثة طاغية لم يجتهد فى إدانتها قال لنفسه، انه شخص طيب وبسيط انتماؤه السياسى غلطة ارتكبها فى حق نفسه. تابع بنظره فتاة تبكى وهى تعانق صديقها فى لحظة الوداع، لكن لم يفهم من منهما المسافر، حاول أن يتذكر الفكرة التى كان مستلذاً بتعقبها قبل ثوانٍ وبدون مشقة قبض عليها وقال لنفسه، مسكين مأمون بشير لقد كلفوه بمهمة تجنيدى، ولكن أنا من سيجعله يترك التنظيم. وبان له التناقض ظاهراً فى تركيبة هذه الشخصية الطيبة، بأن انتماءه اليسارى ليس أكثر من موضة شبابية ارتداها مع أصحابه بمتعة، كان واضحاً انه مشدودٌ لبيئته التربوية التى تقدِّس التقاليد، فمن العبث أن تترعرع الأفكار التقدمية فى ذهنه، لقد لاحظ للتباهى المفرط والسلوك الملفّق وادعاءات هؤلاء الأصحاب بلا

مناسبة بإعلان أفكارهم التقدمية بالتقليد المستهلك، يا الله على هذا الوطن الجريح، فعلاً من أين أتى هؤلاء؟ الكل يتهم الجميع بالمؤامرة، نفس لغة الأمس واليوم والغد، ثم همس لنفسه، أقسم أن لا أحدا فيهم قرأ رأس المال. ابتسم بسخرية ونظر فى اتجاه مبنى الشرطة وحاول أن يتهجى كلمة "بوليتسى" المكتوبة باللغة الهولندية وتذكر الرعب الذى تحدثه كلمة الشرطة فى ذهنه، واستعاد آلام تلك النهارات، لحظات الجلد الأسبوعى على ظهره من قبل شرطة النظام العام. كان قبل أن يتخثّر دمه يكون جالسا على "بنبر" يترجى بائعة العرقى لتسعفه بزجاجة كاملة ويسجل ثمنها على الحائط كتابةً بالفحم، بعد أن يجمع الديون السابقة ويكتب مجموع الحساب وتحته خطين ويقول لها، سأدفع لك يوماً ما على داير المليم. كانت تتابعه بشغف وتشعر بأن المبلغ قد أصبح ثروة، لا شعوريا تبتسم وتناوله الفرح، يضحك كالطفل ويكشف لها عن جروح ظهره:

– انظرى، تحمّلينى مثل ما أنا أتحمل هذه القسوة.

– يا خوى .. البلد خاوية من الأخلاق، اللص يحاكم السكير.

تلك الأيام كانت علاقته برباب تاج السر تزحف نحو انعدام الجاذبية، بمعونة هشاشة الإحساس، تفاجئه الحسرة منذ الصباح، يتجرع الحزن بالتقسيط، يهون على نفسه بالتمسك ببقايا السُكر، بالهموم مثقل ذهنه.

رجع يتأمل حركة الناس داخل المطار، عبارة عن خلية نحل داهمها مكروه، البعض يركض رغم ثقل الحقائب، وداع فى منتهى العشق،

موظفون وموظفات يسابقون الزمن بأحذية لامعة، عمال النظافة عبثاً يبحثون عن أوساخ، لم يتأمل المشهد كما ينبغى، ارتشف آخر رشفات من قهوته التى لا تنوى أن تنتهى، ثم تابع الرجل المسن الذى جلس على طاولة قربه وعندما التقت الأعين بادره العجوز بتحية مستخدماً الصحيفة المطوية فى يده ومن ثم استرخى فى جلسته، كما لو أنه أنجز مهمة شاقة. فى هذه الأثناء جاءت عاملة المقهى وانحنت أمام عامر درويش لتأخذ الأكواب الفارغة، فأخرجته من طقس المراقبة، كانت جميلة وفاتنة، ترتدى تنورة حمراء قصير وبلوزة سوداء ضيقة بفتحة صدر واسعة، ابتلع ريقه بصعوبة أحس أنها على وشك أن ترمى بنهديها دفعة واحدة، وَدَعات تستقرئ حظه القادم، تسمّرت نظراته على هاتين القنبلتين، وأحسّ بشىء قابل للانفجار، وعندما شعرت بجوعه انتصبت برشاقة وتحدثت بلغة هولندية مبتسمة عن جدارة، كأنها صديقته، لم يفهم ما قالته بالتحديد، ولكنه خمّن وتاه بتخيلاته داخل المخبأ المظلم بين نهديها، توقع أنها تنتظر منه تلبية طلبات أخرى، شكرها وحمل شنطته وغادر، توجه نحو مكتب الشرطة، يردد فى سره الكلمات التى سينطق بها: إنه جاء الآن بالطائرة ويطالب بحق اللجوء، ربما فى التحقيق سيكتشفون انه جاء من ايطاليا وله أكثر من شهر داخل أمستردام، أبعد الفكرة سريعا، وقف يقرأ فى اللافتات وتوجه نحو المكتب من حيث لا يدرى ظهر له أمامه وجه صديقة سامى قنديل تحت الماء، أغمض عينيه ودلف إلى مكتب الشرطة، فى قسم

الاستقبال كان هناك شرطيٌ ضخم الجثة يجلس خلف الكمبيوتر ويأكل شيئا ما بنهم مبالغ فيه، وشرطية أخرى أنيقة بهذا الزى الذى كان يمقته، تتحدث مع شخص ما، ومن ملابسه يبدو من أفغانستان، وقف عامر درويش ينتظر دوره خلف هذا الشخص الأفغانى الذى اجتهدت معه الشرطية وشرحت له بدون ملل، استخدمت حتى لغة الإشارة، بعد ذلك سلمّته أوراقا ورسمت له رسومات على الخريطة، غادرها يملأه شعور بالضياع، ومن ثم أشارت بيدها لعامر درويش ليقترب وبادرت وسألته:

– لجوء؟

أومأ برأسه موافقاً واقترب منها، كأنها بائعة فى احدى المحلات، سلّمته أوراقاً وخريطة وتذكرة سفر أخرجتها من حزمة تذاكر وبالقلم أشارت إلى الرصيف الذى يتحرك منه القطار، فعلت كل ذلك بطريقة روتينية وهى تتحدث مع زميلها الشرطى الضخم، شكرها وخرج، كان يتوقع أن تحقق معه، على الأقل تسأله من أين أتى؟ أو حتى اسمه؟ وتحرّك نحو اللوحة الرقمية لموعد القطارات، نصف ساعة ولم يفهم شيئاً، أوقف شاب هولندى وناوله الخريطة، راح يتأمل فيها دون أن يجرؤ على لمسها كأنما بها ميكروبات، وأشار إليه نحو البوابة التى خلفه مباشرة الرصيف رقم 10، نزل بالسلم الكهربائى إلى النفق الخاص بالقطارات، حيث الرصيف رقم 10 و11، وجد القطار متوقفاً وكما لو كان ينتظره، ناول الخريطة إلى مراقبة التذاكر، وهى امرأة سمراء مترهلة وبملامح طفولية لم تلمس

الورقة، لمحتها فقط وأشارت له أن يصعد إلى القطار كانت تضع الصفارة على فمها وحابسة أنفاسها .

فى هذه اللحظة تحرّك بى القطار من محطة اشخيبول إلى أمستردام جلست أمامى صبية من إحدى دول آسيا تحمل حقيبة أكبر منها فى الموديل والحجم، والدها وقف بالقرب منها يلتقط لها بعض الصور، تابعتهم مُبتسماً حتى خرج القطار من النفق. يا سلام، أخيراً الأمطار توقفت، هذا ما قلته لنفسى، ولكن الطقس ما زال كئيباً، لون رمادى يجعل المرء يحس بالإهمال، التفتُ إلى النافذة أراقب بيوت متفرقة يتصاعد منها دخان أبيض كأنها هى التى تغذى السماء بالسحب. بدأتُ استرخى قليلاً، واكتشفتُ أننى كلما أصل أمستردام، أو اقترب منها أشعر بالهدوء، كأنها مسقط رأسى، للأمانة، يجب أن اعترف أننى أعشق هذه المدينة بلا حدود واشتاق لها كلما غادرتها. الغريب فى الأمر، حتى عامر درويش شعر أنها المدينة التى تخصه لحظة وصوله إليها قادماً من إيطاليا، كأن له بها ذكريات. لا أدرى لماذا يخيّل لى أننى أحاول أن أقارن نفسى به؟ ربما كانت صدفة ليس إلا، أنا لا أنكر إننى كنت أكره ورغم ذلك حاولت أن أصبح مثله، وقلّدته معتمداً على حكاوى رباب تاج السر عنه. كتبت الشعر وثقفت نفسى لأثبت لها إننى لا أقل عنه شيئاً، كنت مغتاظاً منه، وبأى حق تفضّله عليّ. لذلك عندما انتهت علاقتهما وعادت لى كصديقة أولا ثم حبيبة، وجدتنى مختلفاً، أصبحت أدهش الفتيات مثله، لم أنسَ ما قالته لى رباب تاج السر أثناء احدى مشاجراتنا قبل

سفرى بأيام، عندما عيّرتها بعلاقتها السابقة بعامر درويش، انفجرت فى وجهى:

- أنت لا ترقى أن تصل أخمص أقدام عامر درويش.

كنت على وشك أن أصفعها فى تلك اللحظة، أعتقد أن المرأة تظل أسيرة العشق الأول للأبد.

10

نزلت من القطار وروحى تنافس الطقس بكل ندية، غُيوم مُتلبدة على الذهن، دموع على حافة الانتحار، جهل تام بالخطوة القادمة، سرتُ خلف حشد الركاب نحو مخرج المحطة متناسيا عادتى فى التمتع بمراقبة الفتيات الجميلات فى هذا الزحام ومحاولاً الاحتكاك العفوى بأجسادهنّ، أشعر بلذة وركبتى تحّتكُ بفخذٍ طرّى، يدى تلامس صدراً بارزاً وأقدم اعتذاراتى من الدرجة الأولى، أتابع إحساسهن بالزهو داخل كاميرات المراقبة الرجالية. هرولتُ بعد خروجى من مبنى المحطة، متفاديا حبات المطر التى فاجأتنا و لم تخطئ هدفها وبللتنى بلا رحمة وجعلتنى أدرك ترام رقم 7 فى توقيت مثالى، ولحسن حظى وجدت مقعداً خالياً جوار عجوز، ابتسمت لى وعاتبت هذا الطقس والأمطار التى تتساقط، كأنها تحاول أن تعتذر لى عن رعونة سماء بلادها المتكررة، ردت لها نفس الابتسامة، ابتلع تثاؤباتى التى كادت أن تفتك بفكى الأسفل. لا أعتقد إننى أستطيع أن أغمض عينى ما دام ذهنى مشتعلاً بسبب عامر درويش. لقد كان يستقل هذا الترام نفسه مرات عديدة متهربا من دفع قيمة التذكرة، كان يتنقل به عادة لزيارة أصدقاءه الجدد يحمل أرخص أنواع الخمور داخل حقيبة يحملها على ظهره، واعترف لى أن المرة الوحيدة التى دفع فيها أجرة هذا الترام كان يوم لقائه مع "انكا فان درماين" وهما ذاهبان إلى شقتها. لحظتها كان الترام قد توقف بصدفة غريبة فى

محطة "الدام"، نفس المحطة التى استقلا فيها الترام، لا شعوريا وجدتنى أترجّل واتجه نحو أحد مقاهى الدام وطلبت "كابتشينو" وجلستُ على مقعد يتيح لى النظر إلى الدام من خلف الزجاج، كان هناك صف طويل من السياح أمام متحف الشمع غير عابئين بالرذاذ، سياح أسيويون يلتقطون صوراً لبعضهم البعض، الحمام يثق بالأطفال أكثر، يتزاحم حول طفلة ويحط على رأسها، الموسيقى داخل المقهى كانت هادئة جعلت أناملى تنقر الإيقاع على الطاولة بصورة عفوية، فمى تمطّى بإحدى التثاؤبات حتى رأيت رغوة الكابتشينو على شاربى فمسحتها بيدى ثم بعد ذلك اكتشفت أمامى منديلاً ورقياً، انتبهتُ أننى منذ فترة طويلة لم أتسكع فى الدام أو اجلس فى مقهى أو بار، انشغالى بالعمل لم يترك لى فرصة الترفيه عن نفسى حتى "الويكند" أستغله فى غسيل الملابس وتنظيف الشقة لذلك اشعر بالزمن يجرى فى هذه الغربة بسرعة مرعبة. لقد مرّت السنوات سريعاً حتى على عامر درويش وهو يتنقل بين معسكرات اللجوء المختلفة من أقصى شمال هولندا إلى جنوبها وأخيرا كان معسكر "امستيلفين" القريب من أمستردام، ظل به فترة حتى أُغلِق ملف اللجوء الخاص به وكان عليه أن يغادر غرفته بالمعسكر فوراً لتضيع من عمره ثلاث سنوات سُدىً، ثلاث سنوات فى انتظار قرار وزارة العدل الهولندية. أخبرنى أنه عندما طلبوا منه مغادرة معسكر اللجوء، فمن شدة الغضب استطاع خلال نصف ساعة جمع أغراضه القليلة داخل حقيبة صغيرة وعلّقها على كتفه، ثم غادر، وليخفف من

وطأة الحزن خاطب نفسه، الفقر يتيح للمرء مغادرة المكان بكل يُسر، فى تلك الأيام تعرّف على أمستردام بشكل جيد مستقلاً المترو رقم 5 للمحطة الرئيسية، وبعدها يستبدل الترامات متهربا من دفع القيمة التى أساسا لا يملكها، أصبح يعيش متطفلاً بين الأصدقاء وخاصة الذين تجمعه بهم رفقة الكأس وهو مدين لبعضهم، لم يكن بخيلاً مطلقاً، كان عندما يستلم مصاريف اللجوء الأسبوعية يشترى بها أرخص أنواع الخمور ويذهب بها إلى أصدقائه الجدد، ولا ينسى أن يشترى كيس تبغ ماركة "دروم" يظل يدخنه لمدة أسبوع حتى موعد الإعانة القادم. أما بعد طرده من المعسكر وتوقفت عنه الإعانة، وضع حقيبته مع صديقه مأمون بشير وراح يأكل وجبات متفرقة مع الأصدقاء، يدخِّن أعقاب السجائر وأحيانا بقايا مارجوانا كان يعثر عليها فى أحياء أمستردام القديمة، أثناء تسكعه داخل أزقة حى "الريد لايت" حيث الجميلات ينتصبنّ بأجساد ممشوقة تسترها فقط الملابس الداخلية، الأجساد لها بريق أخاذ تعكسه الإضاءة الفسفورية وتجعله شهياً، يرقصنّ داخل غرفهنّ الأنيقة خلف أبواب الزجاج، عاهرات يمثلنّ الأمم المتحدة، أسيويات، إفريقيات، أوروبيات، وقليل هنّ العربيات. كل واحدة تقف بجسدها شبه العاري على حذاء عالى وتهز جسدها حسب الإيقاع الداخلى، المكان مكتظ بالسياح والسكارى، أبواب الزجاج تفتح أحيانا للمفاوضات وكثيرا ما تغلق الستائر على زبون للإمضاء على نشوة عابرة، غالباً لا تحمل أى ذكرى. أصبح عامر درويش من معجبى هذا المكان وخاصة بعد أن

شاهد "انكا فان درماين" ببنطلون الجينز ذي الأزرار المفتوحة عنوةً، عاقدة قميصها الأبيض الحريرى الشفاف على خصرها بإحكام مما يتيح لنهديها أن تصبحا فاكهة مُحرمة، على سرّتها مثبتةً فاروزة فضية لامعة، لا تخطئها العين، مثيرة حد الإحساس بالعطش، جسدها بض وناعم وجهها دائرى مع بروز قليل للجبهة، مما يجعلها تبدو عدوانية، شعرها صبيانى قصير بلون بنى داكن، عيناها واسعتان ورموشها تجلب الحسد، لها وجنة على خدها الأيسر لا يمحوها حتى الغضب.

كان عامر درويش يأتى يوميا، يقف فى مواجهة غرفتها ويتأملها بنهم وجوع، يتحسر حتى على الثوانى التى رمشت فيها عيناه، يظل واقفاً ساعات دون ملل، يلعن فى سره كل زبون يقترب منها للتفاوض، لم تكن تهاود أحداً، وحتى عندما كانت تستقبل زبوناً وتغلق الباب والستائر الحمراء الداكنة، يظل عامر درويش فى مكانه يكيل فى أنواع الحسد لهذا الزبون، يحلم يقظاً أن له قدرة خارقة تجعله يشاهد ما يحدث خلف الستار العاتم، يتخيلها تنزع بنطلون الجينز الضيّق بنفسها وهى مستلقية على ظهرها على السرير، رافعة ساقيها الرهيبتين للأعلى، وتاركة المهمة الأسهل لهذا الأصلع البدين كى يفك عقدة القميص ويعريها بالكامل. لا شعوريا يجد نفسه ملتصقاً ببابها مفتعلاً محاولة إشعال سيجارة ليتصنّت على حشرجتها والأنين، ولكنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً، نسبة لسماكة زجاج الأبواب. وعندما تفتح ستائرها مرة أخرى وتودع الزبون الذى يتابعها

بنظرات إعجاب كما لو أنه يتأكد من عدم ضياع المبلغ هباءً، عند هذه اللحظة بالضبط يكون عامر درويش قد رجع لحجز مكانه المفضل مواصلاً هوايته، دون أن يهمل حقارته للزبون، يرجمه بلعنات وقحة، ثم يعود ليعبئ ذهنه بجسدها ويغادر إلى شقة صديقه ليستدعى صورتها معتمداً على بنطلون الجينز ذي الأزرار المفتوحة وصدرها المكوّر الصلب،. وصل به الإدمان مرحلة ما قبل الظهيرة، كان ينتظرها حتى فى دوامها الصباحى غير المربح. رغم شُح الزباين فى هذا التوقيت، إلا أنها ظلت تداوم على وظيفتها لدفع الإيجارات والضرائب، غرفتها فى "الريد لايت" كانت مشتركة مع فتاة فلبينية تستأجرنها بالتناوب كل واحدة ثلاثة أيام وكان يحفظ هذا الجدول كأنه صاحب العقار، لم يخطى أبداً فى الأيام التى تخصها.

وقف فى هذا النهار البارد متكئاً على عمود أمام محل لبيع مستلزمات الجنس، من فيديوهات حتى أقراص الإثارة. الأزقة بذات النكهة، تحتفظ برطوبتها المعتادة، المبانى العالية كانت قد مدّت بظلها فى كل مكان ليصبح الطقس بارداً. وقف عامر درويش تحت رحمة دخان تبغه الرخيص يتأملها وهى خلف الزجاج العازل للضجيج، تتحرك بخفة ورشاقة، تبدأ يومها بحيوية، كانت ترتدى فى هذا النهار ملابس تختلف عن أزياء الإغراء المسائية، فستان أسود قصير جدا من الكتان جعلها شهية، من الواضح أنها لا ترتدى تحته أى مُعيقات، فعندما شاهدها وهى تفتح الستار لتبدأ العرض بلع ريقه عدة مرات وهاج الدم فى عروقه، خيّل إليه انه يشاهد كل شيء

خلف الكتان الأسود. كانت حركة الشارع محدودة، أزواج من السياح متخاصرين، يتأملون الأبواب الزجاجية بإحساس مزدوج؛ إعجاب مغلف بالازدراء، شقراء تتسلق ساعد زوجها وتتشبث بعنقه فى محاولة يائسة لتنهى زمن التأمل المتفق عليه، أفراد يمرون على عجلة من أمرهم، الصدفة وحدها أدخلتهم هذا المكان، رجال شرطة بمواصفات قطاع طرق يطوفون بالمكان المقدس ويحرسون العاهرات، صبيان تجاوزوا المراهقة بجدارة يدخنون الماريجوانا ويرسلون إشارات بذيئة نحو أبواب الزجاج.

ظل عامر درويش يراقب حركتها ويتأمل عينيها الواسعتين وأنفها الصغير الذى كاد أن يسقط لولا شفتها العليا البارزة نوعا ما، ثم يهبط ببصره نحو عنقها الطويل ويتمهل فى العناصر الأساسية للصدر، يتابع فى خياله بكل مغبة أمنيات وتداعيات غير قابلة للتحقيق على أرض الواقع ورغم ذلك أطلق العنان لأحلام اليقظة: تخيّل أنها تفتح باب الزجاج وتطل من الفتحة، تتراقص على فمها سيجارة وتطلب منه إشعالها، يقترب منها على مهل ثم يمد راحتيه نحوها ليشعل الرغبة بين كفيه وبلا تحذيرٍ مبدئى، يعتقله عطرها للأبد فتنحنى اتجاه صدره لتحمى النار، عندئذ تستنشق رائحة الخمر المنبعثة من جسده وتعجبها، ولكن البروتوكول يجعلها تسحب دخاناً عميقاً ومن بين شفتيها الأورجوانيتين يخرج المارد "شبيك لبيك" يغوص به داخل المنجم المظلم الذى يؤدى إلى نهديها، كفاه المنسيتان على وضعهما السابق قاب قوسين أو هجمة على أضخم

جوهرتين غير عابئ بانهيار المنجم فوق رأسه، وعندما تشعر هى بحجم الكارثة القادمة تقوم بتحويل أنظاره من مرتفعات صدرها إلى الغيوم التى عقدت اجتماعا طارئاً:

– يبدو أنها ستمطر بعد قليل.

– هذا هو طقس هولندا.

تدهشها براعته فى نطق اللغة الهولندية كأجنبى، فتزيد من تعميق وجنتها أكثر، وفى اللحظة التى تهمُ بالدخول إلى غرفتها تبصق بآخر لعاب أنثوى يحفظ لها كرامتها، إغراء ينزلق على بلاطه أشد الرجال كبرياءا. فتشكو له من الإرهاق والأرق وجسدها المتصلب من رعونة العمل، ليجد فرصته ويدّعى أنه يمتلك مهارات عالية فى فن المسّاج ليعبر بهذه الخطة الساذجة حاجز باب الزجاج، لقد صدّقته لأنها مهّدت لهذا السيناريو وكسمكة ضئيلة الذاكرة ابتلعت الطعم برغبتها، تدخله غرفتها وتغلق الستار، يحتك بجسدها فترتعش كأنها غادرت المياه، تقف تنتظر أوامره، يشير إلى سريرها الوثير، تسلّمه ظهرها وبرشاقة فائقة يختفى الفستان لتصبح وليمة للتشريح، عظام بارزة وتدعو للنهم، مؤخرة معنية بقوانين الدائرة ترسم خطوط الشفقة على اللهاة، أفخاذ ملساء ينزلق منها سوء الظن بكل الصنوف، أمشاط تتشنج كمقدمة للشبق، أنامله تفتح المزاد وتتحسس العناوين البارزة. وقبل أن يرثى عليه النصيب بلا مزايدات، فتحت الباب حقيقة وخرجت بفستانها الأسود القصير واختارت أسوأ مفردات اللغة الهولندية وصرخت بها فى اتجاهه، أفاق من أحلام اليقظة عندما

شاهدها تصوِّب لعناتها نحوه، للوهلة الأولى أعتقد أنها تخص شخصاً آخر، فالتفت للوراء لم يكن هناك غيره، طلبت منه بصورة حاسمة مغادرة المكان قبل أن تخبر رجال الشرطة، لقد انتبهت إلى وقفته المتكررة ومراقبته لها يومياً دون أن يرمش له جفن. ارتبك، فى الحقيقة لم يكن بمقدوره اتخاذ أى قرار سوى أن يهرب من المكان وبسرعة. وقف وهو يرتجف من الخوف، شعر بأنه لم يخف فى حياته السابقة مثل ما كان فى هذه اللحظة، لم يتوقع إطلاقا أن تهاجمه بهذه الفظاعة، زاغ عن بصرها بين الأزقة وراح يدخن بشراهة، سحب أنفاس قوية متتالية جعلت السيجارة تبدو جمرة متوقدة، ثم بدأ يلوم فى نفسه، ما كان يجب على أن أضع نفسى فى هذا الموقف السخيف، لقد جعلتنى أبدو مُبعثراً ممزّقاً ككلب ضال. دمدم مغتاظاً، هذا ما كان ينقصنى! تشتمنى أنا عاهرة؟ لعن نفسه بصوت مسموع واعترف إنه يستحق هذه الإهانات لأنه بعزق وقته فى مراقبتها، وأنتج لها قيمة إنسانية. فى نفس اللحظة انتبه أنه مجرد شخص ضائع ومنبوذ، وضياع الوقت يعتبر نعمة بالنسبة لما أنا عليه. أكيد كان يبحث عن تبريرات لنفسه. رد فعله كان يعلن عن تناقض واضح فى شخصيته، سرعان ما أدرك حماقته وسحق السيجارة بغضب ثم تدرّع بحصانة كبريائه، خاطب العمود الذى أمامه، كأنها تجسّدت فى مادة الألمونيوم الباردة، ليس من حقك أن تمنعينى من الوقوف فى هذا الزقاق، أنا من يجب عليه إبلاغ الشرطة عنكِ، لأنكِ تحملين فى داخلك جرثومة العنصرية. وحتى لا

يدينه أحد، رد عليها فى سره كل اللعنات التى تلفظت بها قبل قليل، تأسّف على تأخر ردة فعله، كان من المفروض أن يفعل ذلك فى لحظتها. همس لنفسه معترفاً بصورة ضمنية، نحن عقدتنا تكمن فى هذه البشرة البيضاء، استعمارنا لم يكن محض صدفة. ثم قرر أن يعود مره أخرى ليشتمها من خلف الزجاج، لن يهابها حتى لو استدعت له الشرطة، ماذا سيفعلون بى؟ تذكر أن بطاقة إقامته منتهية الصلاحية وعليه مغادرة هولندا، تردد قليلاً، توقع ربما يتم حبسه فى سجن الترحيل وقبل أن يبطئ فى خطواته قال لنفسه، أنا لم أقدم وثيقة تثبت جنسيتى لذلك لن يستطيعوا ترحيلى إلى أى بلد. تشجّع بعد وصوله لهذه الفرضية المطمئنة، تحرك بخطوات تدوس على الإصرار لرد اعتباره وإهانته، تمنى فى تلك اللحظة لو أنه عثر فى الأرض على مبلغ مالى ضخم، سيعود إليها ويدفع لها أجرها بالكامل ومن ثم يبصق على جسدها العارى دون أن يلمسها ويخرج.

11

ارتشفتُ الكابتشينو على ثلاث دفعات وسدّدتُ الثمن. شعرتُ أننى بذلك طردتُ النوم نهائياً، وقفت أنظر لميدان "الدام" الذى بدا مزدحماً بعد توقف الأمطار دون توقع، تأملت المحلات المجاورة للمقهى وتدحرجتُ ببطء، لا أنوى على خطة محددة، أقدامى تقودنى نحو موقع تلك الحادثة حيث حى "الريد لايت"، الطقس كان مختلفاً عن ذلك اليوم وحتى التوقيت مبكرٌ، السياح يؤدون مناسك المتعة اليومية والسعى بين المحطة وميدان الدام، رائحة البطاطس المحمّرة شهية انتصرَت على كل العطور النسائية ودعت الأمعاء إلى مظاهرة غير سلمية، بصعوبة بالغة تجاوزتُ طريق الدراجات وخط الترامات متوجها نحو المكان الذى وصفه لى عامر درويش، وحدثت فيه الأحداث قبل سنوات، فعلا رائحة مارجوانا وحشيش تعبق بالمكان ممزوجة برائحة الرطوبة، الطقس بارد فى الظل، الوقت مبكر على الرغبات الجسدية، لا زالت أبواب الزجاج معتمة بالستائر الداكنة، وقفتُ مسنداً ظهرى على جدار عتيق ورطب أقترحُ على خيالى أى الغرف كانت تستأجرها أنكا فان درماين، ورحتُ أجتهد فى اصطياد ملامحها. لقد ضربت بابها الزجاجى بعنف وأغلقت الستائر ثم أشعلت سيجارة وراحت تنفخ الدخان وهى تواجه صورتها على المرآة، لأول مرة تشعر بأنها جميلة بقناع الغضب، تأملت وجنتها بإعجاب، رأت أن غضبها لم يكن مبرراً إطلاقا، ربما تراكم دفعات الإيجار أو

سلوك والدها غير السويّ، ومن المحتمل ذكرى خذلان صديقها جعلها عصبية وحادة. لأول مرة تلعن شخصاً بهذا الغضب وبهذه البشاعة، ليس من عادتها المبادرة بالسوء، لم تجد أى مبرر لفعلتها وشعرت بندم يتصاعد فسحقته بسيجارتها وراحت تعدل مزاجها بالمكياج. أما عامر درويش فى تلك اللحظة فقد كان فى قمة غضبه، تجوّل فى المكان وصب عليها كل الشتائم، وجد أقدام الثأر تعيده إلى نفس الزقاق، ولكنه تنفّس الصُّعداء عندما وجد ستائرها مغلقة، لا شعوريا تمهّل قرب بابها الزجاجى وحاول أن يسترق السمع، ربما يشفى غليله إذا سماع صهيلها، وكأنما كانت تنتظر هذه المؤامرة أزاحت الستارة بقوة ليلتقى الوجهان بلا جفلة مرتقبة، تسمّر عامر درويش مكانه وهو يحملق فيها، حتى انفجرت هى فى ضحكة عالية ومن ثم فتحت الباب، توقع أنها خرجت لتستدعى له رجال الشرطة ولكنها بدت أكثر لطفاً، اعتذرت له:

– كم المبلغ الذى معك؟

– أنا هنا من أجل التأمل فقط.

لا شعورياً بدأ ينبش فى جيوبه، أفرغ لها محتوياتها، ورقه وحيدة فئة خمسة "قلدر" ومعجون أسنان وبقايا ورق لف التبغ، وفئات من العملة الحديدية التى إذا سقطت من أحد فلن يلتقطها. رفعت رأسها للأعلى لأنه كان أطول منها ولا زالت محتفظة ببقايا الضحكة، شاهدت الحزن والإحباط فى عينيه، فجذبته داخل الغرفة وأغلقت كل شىء، جلست على سريرها وأشعلت سيجارة ثم وضعتها على

المنفضة والتفت إليه وهو لازال يقف فى مكانه ينز عرقاً:

- لماذا لا تبحث عن عمل بدل التسكع فى هذا المكان القذر؟
- أنا لاجئ وتم إغلاق الملف ويجب على مغادرة هولندا.
- إذن ماذا تنتظر؟
- ليس لدىّ مكان أذهب إليه.

مرّت فترت صمت أكثر من اللازم، دخنّت فيها نصف سيجارتها، تسمّر فى مكانه ينتظر، أن تقرر مصير إقامته فى هولندا. نهضت بكامل رشاقتها كما لو أن هناك فكرة جهنمية لمعت فى ذهنها استلمت من يده الورقة النقدية ومن ثم وبيسراها خلعت فستانها الأسود لتصبح أمامه عارية تماما، جسد بض تتخلله شرايين خضراء، اقتربت منه خطوة ونهداها بالمرصاد ولكنه لم يحرِّك ساكناً، وقف متبلداً، أشارت له أن يخلع ملابسه. وقع بصره على تلك الحلمتين البنيتين، شعر بالدم ينفذ من عينيه، سمع بمكبر صوت ضربات قلبه. تشنّج، ها هو الجسد الذى يحلم به يومياً، ماثلٌ أمامه حقيقةً، أحلام يقظة تحققت بسيناريو لم يخطر على البال.

عندما حكى لى هذا المشهد، تردد قليلا، وارتبك. يبدو انه شعر بالعار من نفسه لأن محاولاته فى مضاجعتها كانت فاشلة، رغم أنها حاولت إثارته بكل الوسائل المرئية والمسموعة. بعدها دخلت حمامها الصغير، وتركته يندب حظه ويلعن فى رجولته التى خذلته فى أهم لحظات حياته الجنسية، لقد أضاع فرصة مضاجعة أجمل امرأة على هذا الكوكب، كان ذلك سبباً كافياً ليتحلّل داخل محلول من الندم.

نهض كالمفزوع، ارتدى ملابسه بسرعة وقرر مغادرة الغرفة قبل أن تخرج من الحمام ولكنه تأخر فى انتعال حذائه، فخرجت ترتدى ملابس مختلفة، بنطلون من الصوف البنى الداكن وبلوزة بلون الكابتشينو. ابتسمت له، تناولت من الرف الذى تحت المرآة قرطها وارتدته. كان واقفاً محبطاً ينتظرها أن تفتح له الباب ليغادر، لكنها طلبت منه البقاء قليلاً ليخرجا سويا، جلس على حافة سريرها يواصل التدخين، وقد تحوّل فى تلك اللحظة إلى شجرة بلا أوراق، حلقه جاف، بمشقة يبتل ريقه. رمقها بطرف عينه وهى أمام المرآة تعدل فى مكياجها بالتفاصيل، تبدو كأنها تُعيد فى أجمل الذكريات، مسحت "بودرة" مشمشية على خدودها، انحنت فى اتجاه صورتها وقوّست رموشها بفرشاة سوداء رقيقة، مررت قلم الروج الأحمر الفاقع على شفتها السفلى ذهاباً وإيابا ومن ثم أطبقت على شفتيها لتكتمل الدائرة الحمراء حول فمها، وأثناء ما هى متوغلة فى رسم حاجبيها إلتفت إليها بالكامل، تأمل مؤخرتها الكروية، عاودته رغبه عارمة ليحتويها مرة أخرى، ولكنه تذكر الفشل الذى حدث قبل قليل، تراجع عن خطته، خلص إلى نتيجة منطقية بأن عدم التوقع والمفاجأة بجسدها العارى أمامه أحدث له خللاً عصبياً لينهار انتصابه، عبر خطوط الندم بمتعة السرد للقصة التى سيرويها بفخر لصديقة مأمون بشير سيحكى عن الطريقة التى اقتحم بها أجمل فتاة فى "الريد لايت" وبمبلغ خمسة قلدر فقط وجعلها تصرخ تحته من النشوة، قام بحبك القصة وعدّل فقط في ما حدث خلف الستار، ابتسم فى سرِّه

لأنه سيدهش أصدقاءه ومعظمهم شاهد هذه العاهرة العاصية المنال، سيحسده الجميع على هذه اللحظات، حتى هو غير مصدِّق. الذى حدث يفوق خياله، إنه يجلس على سريرها، داخل غرفتها، ها هى تقف على بعد خطوات منه، صار راضياً عن نفسه على الأقل بدخوله غرفتها، فى هذه اللحظة أنهت المهمة الأنثوية بجدارة ووضعت عطراً خلف إذنيها وارتدت جاكيتاً قصيراً من الجلد الأسود وأغلقت حقيبة يدها ثم مدّت له الورقة فئة خمسة قلدر، شعر بطعنة خلف ظهره، إهانة لرجولته التى عجزت عن إتمام مهمتها، عضّ على أسنانه بقوة، وكأنها شعرت بالغضب القادم:

– ممكن أن تسدد بها ثمن البيرة فى البار الذى سنقصده.

اخفى الابتسامة مع المبلغ وغادر معها من الباب الخلفى إلى زقاق كالأخدود لا يحتمل المخاصرة بين شخصين، سار خلفها يتمعن فى مؤخرتها اللدنة، دخلت باراً صغيراً ودلف خلفها، يبدو أنها تقصده عادةً لآن كل من كان بالداخل حيّاها بإشارة أو ابتسامة، جلسا فى أقصى ركن، ثم مدّت يدها وصافحته معرَّفه نفسها:

– أنكا، أنكا فان درماين، يمكنك أن تنادينى أنكا فقط.

ثم ابتسمت كما لو أنها تتوقع شيئاً جميلاً سيحدث، تنحنح كأنه سيختار أجمل النبرات وقال:

– أنا اسمى عامر عباس قنديل.

– هل تعتقد بأنى سأحفظ هذا الاسم الطويل؟ مستحيل، سأجتهد مع الاسم الأول، هل يمكن أن تعيده لى مرة أخرى؟

– حسنا، عامر.عاااااامر.

بعد أن ارتشفت من البيرة، مسكت حبة فستق فى يدها وهى تردد فى اسم عامر بطريقة خرقاء، مما جعلهما يضحكان بلا توقف، فشلت فشلاً ذريعاً فى نطق اسمه بطريقة صحيحة، ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً غير أن يعجب بطريقة نطقها لاسمه. وبعدها وجدت اللحظة مناسبة لتعتذر له عن الإساءة التى بدرت منها قبل قليل قالت:

– بكل صدق، لا أدرى ما الذى جعلنى أتفوّه بهذه الحماقات.

وبعدها مباشرة طلبت منه أن يحكى لها كيف جاء إلى هولندا ولماذا رفضت وزارة العدل الهولندية لجوءه. الطريقة التى قدّم بها طلب اللجوء كانت مشابهة لنفس طريقتى، مع اختلاف فى الإحساس الداخلى للتعامل مع هذا الموقف العصيب. جلس فى أقرب مقعد صادفه فى القطار، يحمل الخريطة وتذكرة السفر المجانية التى سلّمتها له الشرطية فى المطار. انتظر حتى تحرّك القطار بعد ذلك نهض يبحث عن تلك الدرجة الخاصة بالتدخين، عرف بهذا المكان من صديقة مأمون بشير، تابع الإشارات المرسومة على عربات القطار والتى ترشده نحو هدفه. جلس مقابل شابين يدخنان بشراهة لا تبدو بينهما إلفه أو صداقة حميمية، فقط علاقة سطحية إن جاز التعبير. كانت حواراتهما شحيحة ومبتورة، كأنما الصدفة وحدها هى التى جمعتهما فى هذا المقعد، تابع الدخان الذى يخرج من أنفيهما، وراح يبحث عن مدخل يستلف به سيجارة، آخر دخان زفره قبل

الجلوس فى مقهى المطار مع مأمون بشير، فتح الخريطة وراح ينظر إليها وهو يخطط لمدخل ومن ثم دفع بها نحو احد الشابين كأنه يستجدى بها، وبلغة انجليزية منهزمة سأل عن المحطة التى يقصدها، نظر الشابان نحو الورقة،الخريطة، دون أن يتجرآ على لمسها وهزا رأسيهما فى توقيت واحد كأنهما متفقان مسبقاً، ثم طلب منهما سيجارة فنظرا إلى بعضهما نظرة توحى عن عدم الرضا، ولكن الذى يجلس قرب النافذة كأنما وقعت عليه قرعة حظ سيئ، أخرج من علبته سيجارة وناولها بطرف أصابعه، استلمها عامر درويش بيد مرتعشة وشكره عدة مرات وهو يعيد له القدّاحة، نفث الدخان بتلذذ ثم راح ينظر إلى السهول الهولندية الخضراء مستمتعاً بنكهة التدخين، قرأ اسم المحطة التى نزل فيها الشابان وقارنها بالاسم المكتوب على الخريطة، عندما تحرّك القطار مرة أخرى. شعر بأنه ربما يتوه عن مكان تقديم اللجوء، تحرك من مقعده وجلس أمام سيدة هولندية بجدارة، كانت تجلس بكامل أناقتها، تدخن وتقرا فى كتاب، انتبهت لجلوسه فحيته بابتسامة غير مصطنعة فوجدها مدخلا ليقدم لها الخريطة، انحنت فى اتجاهه حتى شم رائحة عطرها، وأدهشته عندما أمسكت الخريطة بيدها، كان يعتقد أن هذه الخريطة بها شيء مقزّز. كانت هى أول شخص يمسكها بيده، راحت تتأمل فيها جيداً حتى نسيت سيجارتها لولا الدخان الذى تصاعد عموديا تحت الخريطة وهاجم عينها اليمنى لتدمع بألم، كادت أن تتلفظ بكلمة بذيئة، أو هكذا توقع، أغمضت عينها ثم سحقت السيجارة على المنفضة

الجانبية وأخرجت منديلاً وراحت تتعقّب الدمعة التى أوشكت أن تفسد المكياج، اعتذرت له على هذه المقاطعة، ثم عادت تشرح له باللغة الانجليزية بعد أن تأكد لها غربته بلغتها، ولكى لا يتوه أخرجت من حقيبة يدها قلماً ورسمت دائرة حول اسم المحطة التى يجب عليه أن ينزل بها ليستبدل القطار بقطار آخر، وحتى تطمئن على شرحها أشارت له بأصابعها بعد ثلاث محطات عليه أن يغادر القطار، شكرها حتى داهمته عبرة طارئة فالتفت نحو النافذة ليمحو آثارها، بطرف عينه راقب وجهها المبتهج فرحاً، كانت سعيدة وراضية عن نفسها بما قدمته من مساعدة وعادة لتفتح كتابها فطلب منها سيجارة، فقدمت له العلبة والقداحة وهى مبتسمة. أشعل سيجارة وتأمل الخريطة مرة أخرى، ثم عاد يتأمل ملامحها وهو يدخن، مستخدما تكنيكه فى محاوله قراءتها من الملامح ودحض كل الأشياء التى تبدو اعتيادية فى ذهنه، كانت لها بعض التجاعيد الطفيفة حول عينيها مما جعله يحدد عمرها، مكياجها صباحى بارد رسمته بكل أناقة حدد بها مستواها الثقافى، افترض أنها تنحدر من أصل برجوازى لأن اختيارها للملابس يعلن عن ذلك، تبدو منفصلة عن زوجها، ولها ابنة تعيش بعيدا عنها، شخصيتها قوية وكانت سبب رئيسى فى عدم استمرار زواجها، تعيش الآن وحدها وتتمتع بحريتها، لها صديقة واحدة، تحكى لها كل شيء، وحتماً ستحكى لها فى هذا المساء كيف ساعدت لاجئاً مسكيناً حتى لا يضل الطريق عن مركز اللجوء، تحارب وحدتها بالعمل والقراءة. كان على وشك أن يسألها

ليمتحن تحليله لشخصيتها ولكن تراجع عن قراره، شعر بأنه سيفسد كل شيء، رجع للنافذة يتابع المشهد الخارجى والقطار يبطئ فى حركته مع ظهور مبانٍ متفرقة معلناً عن وصوله إلى محطة، يلتفت نحو المرأة الهولندية الجميلة وهى تعيد الكتاب إلى حقيبتها وتقف وتلتفت وراءها لتتأكد أنها لم تنسَ شيئاً خلفها ثم أشارت له بعلامة النصر لتذكره بأن عليه النزول لتغيير القطار بعد محطتين اثنتين، ثم ودّعته ولم تنسَ أن تتمنى له حظاً سعيداً فى قضية اللجوء، شكرها أكثر من ثلاث مرات وتابعها من النافذة حتى اختفت داخل مبنى المحطة، شيء ما جعله يتفاءل بها، راح يتخيل أن علامة النصر التى رسمتها بإصبعيها ربما تكون دلالة قاطعة فى حصوله على إقامة دائمة، أحس بأن لقاءه بهذه المرأة جلب له السكينة، وشجعه على فكرة اللجوء نفسها التى لم يكن مقتنعاً بها أساساً، وحتما دعوتها له سيكون لها دورٌ فى مستقبله هنا، تذكر الحكاوى التى كانت تسرد عن اللجوء فى شقة صديقة مأمون بشير، وأن أحدهم تمت الموافقة له بحق اللجوء خلال أسبوع فقط، توقع أنه على موعد مع الحظ قريباً، تمنى لو أن كان معه الآن سامى قنديل، كان الوضع سيكون مختلفاً. بعد موته فقد طعم المغامرة، كان سيجعل من طلب اللجوء متعه غير متناهية، تخيّله الآن جالساً أمامه، وبدأ يعلّق على المرأة الهولندية التى غادرت لتوها ثم نبش نفاضة السجائر وأخرج منها أنواعاً مختلفة من السجائر تم تدخين نصفها وسحقت بعصبية، يعدلها بأصابعه لتصبح مستقيمة ويختار أولاً تدخين

الأعقاب التى عليها آثار "الروج" الأحمر، يتلذذ بها كالقبل، ابتسم عامر درويش لأول مره يستدعى صديقة من موته فى لحظات ممتعة مما جعله يتمادى فى خياله، ، انتبه لصديقه لم يعد موجوداً أمامه. تنهد بحسرة، ، تذكر الآن انه ميت لما يقارب السنتين، أخذ إحساسه منحنىً سيئاً، تراجع ملحوظ على مستوى التيقّظ، شعر بأنه يعاقب الآن بسبب سلوكه وتهكمه، فكر فيما لو اعترف بنفسه، وأعلن عن أنه حى يرزق للناس وخاصة أسرته والأصدقاء، هل سيتقبلون هذا الاعتراف المتأخر ويرحبون به؟ أم أنهم سيمتعضون من وجوده مرة أخرى فى حياتهم بعد أن شطبوا اسمه من اللائحة المتداولة. لقد أعاد هذه الفكرة للمرة العاشرة رغم تناقضها الظاهرى، لكنه مثل كل المرات السابقة، سريعاً ما يدرك خطورة الموقف ويتذكر ما تعهّد به من أجل صديقه، لتحقيق مستقبل لروح مشتركة بينه وبين سامى قنديل ولكن ماذا يفعل مع الارتباك المتكرر من ذاكرته؟ لم يكن لديه أى فكرة عمّا حدث بعد خبر موته، لكن إجابات خياله كانت مرضية نوعاً ما. أحيانا كان يناقش صديقه وشريكه فى هذه الشخصية التى يلعب دورها، يخاطب سامى قنديل كأنه يجلس بالقرب منه، آلا تعتقد يا صديقى، أنه قد آن الأوان لبداية علاقة عشق جديدة أتجاوز بها التردد والمخاوف، يبدو لى أنك توافقنى الرأى، أكيد سأسند لك المهمة الأصعب، عندما نلتقيها صدفة، أنت المسئول عن التكنيك لانجذابها نحوى. لقد استلذ الفكرة وراح يحلم مرة أخرى بأن الحظ سيجعله يتعثّر على إحدى فتيات وطنه، توقع حسب الخطة التى

تقوده، يلتقى بها داخل معسكر اللجوء، تتفق معه فى نفس الظروف، هاربة من وطنها بحثاً عن الحرية وخارجة من أنقاض علاقة سابقة، تعشقه بلا حدود، تسكن معه فى غرفة واحدة وتنام معه فى نفس السرير، يقبِّلها وهما فى القطار وداخل ترامات أمستردام يقدمها للأصدقاء كحبيبة من الدرجة الرفيعة، مسد بيده اليسرى رجولته التى انتفخت.

سلك طريقه من المحطة إلى مركز اللجوء متابعاً الخريطة ومستعيناً بالأسئلة إلى أن وصل شارع أسفلت ضيق مخصص للمشاة والدرجات، محاط بأشجار كثيفة وعلى جانبيه جدولا ماء، لم ينتبه لجماليات المكان الأخاذ، ولم يسمع حتى صوت العصافير أو يشاهد البط بالألوان الزاهية تعكسها الشمس، ظل يسير فى الشارع حتى انتهى بمبنى ضخم، دلف إلى صالة زجاجية واسعة فى مقدمتها مكتب صغير به شرطية بدينة وقصيرة، استلمت منه الخريطة والتذكرة وسلمته ورقة ليدوِّن عليها بياناته ومن ثمّ أرشدته بأدب واحترام ليجلس على أحد مقاعد الصالة التى هى عبارة صالتين أشبه بصالات المطارات، يفصلهما مبنىً صغيرٌ وهو حمام وتواليت، وهناك كراسى تصطف فى أناقة مستندة على الحائط، أما الجزء الداخلى هو الأكبر به باب كبير مغلق بإحكام يفتح على مكان لا يعرف عنه أحد شيئا حتى الآن، وهناك باب آخر يفتح على حديقة صغيرة مربعة معروشة بالسحب فقط، ومسورة بحائط مرتفع جداً.

على ما أعتقد كان نفس المكان الذى تقدمت فيه أنا بطلب اللجوء

بعده بسنوات، ولكن لم أعد أتذكر كل التفاصيل التى سردها لى عامر درويش، الغريب فى الأمر، رغم حالته النفسية غير المستقرة لكن كانت لديه ذاكرة مدهشة ونادراً ما تتكرر، رحتُ استرجع معه اللحظات العصيبة التى مررتُ بها ذالك اليوم والرعب الذى اجتاحنى وخاصة عندما تم طرد فتاة افريقية بسبب رفض طلب لجوئها، خرجت من مكتب التحقيق تحمل حقيبتها وكانت فى حالة يرثى لها، انتحبت حتى خارت قواها، لتنتشر الرعب بين الجميع، لم يكن لدىّ فكرة عما يجب على فعله، حاولت بكل ما بوسعى أن أظل هادئاً حتى لاحت لى فكرة جيدة، فطلبتُ من الشرطى أن يفتح لى باب الحديقة لكى أصلى صلاة المغرب وأتماسك.

أما عامر درويش لم يكن يبالى وغير مهتم بما سيحدث، جلس مسترخياً بالقرب من شاب جزائرى، يتصفح فى مجلة بلا رغبة. أما الكراسى التى كانت تقابله فقد احتلتها أسرة إيرانية، وفى الجزء الداخلى للصالة ثلاثة شباب أفارقة يتحدثون همساً وامرأة افريقية بدينة تتجول فى الصالة وتبصق لعابها على البلاط أين ما خطر لها ذلك، دون اعتبار للآخرين، لقد أتعبها الانتظار والجلوس، كانت تمشى وتدمدم مغتاظة، الرجل الأفغانى الذى شاهده فى المطار جلس فى ركن الصالة منزوياً، ثلاث فتيات أسيويات مراهقات لم يجتهد كثيراً ليعرف من أى دولة ينحدرنّ، جلسنّ على المقاعد بطريقة صبيانية ويتحدثنّ بأصوات مرتفعة دون اكتراث. أما الجزء الآخر من الصالة فقد كانت به أسرة صومالية أطفالها بأعمار

متقاربة جداً، أكبرهم عمراً كان شبه مراهق مهمته كانت مختصرة على الجرى خلف أشقاءه الأصغر عمراً وإعادتهم إلى مقاعدهم. عندما دخل عامر درويش الصالة تابعته الأعين بفضول، كان يمنّى نفسه أن يصادف إحدى فتيات وطنه فى هذه اللحظات ويشاركها منذ البداية هذه المغامرة، ولاشك أن المواقف العصيبة التى سيمران بها أثناء تحقيق اللجوء تحفز على فعل التضامن، تجعلهما يحتميان ببعضهما بعضا ومن ثم تنفضح المشاعر. عاد مرة أخرى يستلذ بأحلام اليقظة ولكن جارة فى المقعد أعاده للصالة مرة أخرى بسؤال:

- تحكى العربية يا صاحبى؟

- نعم، أتكلم عربى.

- من الصومال يا صاحبى؟

- لا، أنا من السودان.

- مسلم؟

أجاب عامر درويش موافقاً بإيماءة رأس فقط.

- الحمد لله يا صاحبى، هؤلاء الهولنديون يهود وكفرة، عنصريين يا صاحبى، من شوية طاردين اثنين مغاربة.

لم يرد عليه عامر درويش لاذ بالصمت وحاول أن يتذكر مصدر المتعة التى كانت بداخله قبل أن يقطعها هذا الجزائرى الذى عاد مرة أخرى وتحدّث:

- أنا اسمى شكرى عبد الرازق عائش فى فرنسا، وأنت؟

- انا اسمى عامر.

في هذه اللحظة فكر عامر درويش أن يترك هذا المقعد لأن جاره لن يتوقف عن الثرثرة، ولكن تكاسل عن الانتقال لمقعد آخر وفضّل أن يحسمه إذا شعر بالمضايقة، ولم يتذكر ما كان يفكر فيه ولم يجهد نفسه كثيراً راح يعيد فى سرد القصة التى ابتكرها وهو فى الطريق إلى هنا وشعر بها قصة شبه حقيقية ومقنعة أفضل بكثير من القصة التى ألّفها مأمون بشير وأصدقاؤه. اعتبرها قصة ساذجة. رجع يتأمل المكان، فى وسط الصالة كانت هناك طاولة صغيرة بها ساندوتشات وفاكهة، انتبه الآن لإحساسه بالجوع ولكن لم يتجرأ للاقتراب منها، وكأنما جاره الجزائرى شعر به فأشار إليه على الأكل:

– كل يا صاحبى، الآكل مجاناً.

تردد قليلا، ربما يستغل جاره دعوة الأكل المجانية ويعود لثرثرته مرة أخرى وعندها سيتطلب إسكاته جرأة من نوع خاص، شكره عامر درويش بهزة من رأسه وتحرّك نحو التواليت، انتبه للأنظار التى توجهت نحوه، كل من فى الصالة تابع حركته حتى أغلق الباب خلفه، وقف يتابع طريقة تفريغ مثانته، وهو يفكر فى الحلول البديلة إذا تم طرده بعد التحقيق، ثم وقف أمام المرآة يتأمل نفسه قبل أن يبدأ بغسل وجهه، كانت عيناه حمراوين من آثار سهرة الأمس والإسراف فى الويسكى ثم سأل نفسه، هل لهذا السبب تابعتنى الأنظار حتى دخلت هنا؟ لا أعتقد أن شكل عيونى يثير الاهتمام لهذه الدرجة، أغلب الظن أنهم ملّوا الانتظار والجلوس وأن أى حركة

تستدعى فضولهم. بالفعل، فبعد أن قام بغسل وجهه وغادر الحمام تأكد من صحة رأيه، فالانتظار الطويل والضجر جعل أعين اللاجئين فارغة وتتابع أية حركة أمامها بلا معنى، مدّ يده وتناول ساندوتشاً وجلس يقضمه بلا شهية وهو يتابع أطفال الأسرة الصومالية يلعبون بالفاكهة، والدهم نهض من مقعدة بتكاسل وبّخهم بلا نفس، كأنه لأول مره فى حياته يقوم بهذه المهمة أو ربما لأن ذهنه يبدو مشغولاً بالمصير الذى ينتظره. شكرى الجزائرى راح يحكى، مثلما توقع عامر درويش، سرد قصة حصوله على إقامة مؤقتة فى فرنسا ولكن لم يحبذها بسبب كرهه للفرنسيين، ورغم ذلك ذهب إلى بلجيكا وطلب اللجوء هناك وتم رفضه ثم قرر أن يجرِّب حظه هنا، وان فشل سيعود إلى فرنسا. فعلا لم يكن خائفاً مثل الآخرين ليس لديه ما يخسره، لقد تذمّر عدة مرات من الانتظار الطويل، وخاطب رجال الشرطة بطريقة وقحة، كان يتحدث معهم بالفرنسية ويعرف بعضاً من الكلمات الهولندية، مع مرور الوقت بدأ عامر درويش فى التعوّد على المكان ويتحرك من مقعده وخاصة بعد أن تعرف على ماكينة القهوة الضخمة التى على يمينه وتعلّم من خلال مراقبته للآخرين واكتشف أن عليه فقط الضغط على زر صغير ويمكنه أن يشرب أجود أنواع القهوة ومشتقاتها.

إلتفت الجميع نحو باب الصالة الذى يؤدى إلى مكاتب التحقيق عندما انفتح بصوت صرير ليخرج منه ثلاثة أشخاص، محقق يرتدى بدلة أنيقة وشرطى ضخم الجثة ولاجئ من دولة الكاميرون فى حالة

غضب وهيجان يلعن فى المحقق بأعلى صوته، ويحاول أن يتخلص من قبضة الشرطى القوية الذى استطاع أن يحمله ككلب جربان إلى خارج الصالة ثم تركه يواصل بقايا غضبه بلعنات لم يسمعها أحد سواه، فى تلك اللحظات كان عامر درويش يقف بالقرب من ماكينة القهوة يجرِّب مذاق الكاكاو، ترك مهمته ليتابع المشهد باشمئزاز، أصاب الصالة صمت مخيف، حتى أن أطفال الأسرة الصومالية احتموا بوالدتهم، الفتيات الأسيويات جلسنّ بطريقة مهذبة على المقاعد، المرأة الإفريقية جلست على أول كرسى صادفها. بعد ذلك بدقائق معدودة عاد المحقق ومعه شخص آخر أيضاً يرتدى بدلة سوداء وخاطب شكرى الجزائرى بلهجة مصرية طالباً منه التحرك نحو التحقيق، حمل حقيبته الصغيرة وابتسم وهو ينظر إلى عامر درويش الذى مازال متجهمّاً من الحدث الذى شاهده قبل قليل، لم يتخيّل أبداً أن الشرطة هنا يمكن تتعامل بهذه القسوة، راح يتخيّل لو تم طرده، هل سيعاملونه بهذه البشاعة؟ وكيف يصل إلى صديقه مأمون بشير؟ وماذا هو فاعل بعد ذلك؟ أسئلة تزحف نحو ذهنه، لم يكن يضعها فى الحسبان، تناول مجلة كانت على الطاولة تصفحها وهو يمسك كوب الكاكاو البلاستكى بيده والمجلة على حجره يتصفحها من اليمين إلى اليسار، ولاحظ أن كل صور الفتيات الجميلات شوّهها احد الحاسدين بقلم أسود، رسم على وجوههنّ شوارب. وضع المجلة على الكرسى بيساره فتح حقيبة واخرج منها مصحفا، تذكر تلك اللحظة التى عاتب فيها مأمون بشير بنظرة

استهجان عندما شاهده يضع المصحف فى الحقيبة، ارتبك هذا الأخير واستدرك الموقف سريعا وقال له، ربما يفيد فى الإيقاع الشعرى. أمسك بالمصحف بيده وراح يقلّبه ويبحث عن تاريخ الطباعة وأين طبع؟ ثم بدأ يقرأ فى السور القصيرة التى يحفظها منذ طفولته، لقد مرّت سنوات طويلة ولم يمسك مصحفا بيده، رفع رأسه للأعلى كأنما الذاكرة معلّقة فى سقف الصالة، كان ذلك أيام المرحلة الإعدادية، تحديدا فى صلاة الجمعة داخل مسجد الحى، لكن تداعى الذكريات أحيانا يجلب معه مصائب غير سارة، تذكر أنه سجّل أغانى على أشرطة كاسيت كان بها قرآن مرتل. شعر الآن فقط بفداحة الجرم الذى ارتكبه، هذه اللحظات المرعبة التى تمر عليه جعلت ذهنه يعود إلى إيمان مكدّس منذ أيام الطفولة، والذاكرة اللعينة لم تكتفِ بذلك بل تعمّدت أن ترعبه وتذله بجحوده وزندقته، وجد نفسه فى مواجهة بموقف كان فى طى النسيان، تذكّر فى إحدى جلساته الثقافية مع أصدقائه أعلن إنه يكتب لغة شعرية أفضل من القرآن نفسه، امتعض من جسارته ورافقه ندم إلى حافة الهاوية التى تقف فيها آراؤه الملحدة وشعر بخوف غير معلن، فالندم الناتج عن معصية كان دليلاً قاطعاً على ضعفه. دافع عن نفسه وألصق التهمة بعنفوان شبابه الطائش فى تلك الفترة التى كان ينكل فيها حتى بالقدر. رجع يطلب المغفرة وقرأ بعض الآيات التى يحفظها عن ظهر قلب مما أعاق ذهنه فى التركيز على المعانى، فى هذه الحالات تبدو قراءة المحفوظ تحصيل حاصل لذلك شعر بالملل وانه

فى حاجة ماسة لفعل شىء يليق بحجم الندم، شىء يكفل له عبور هذا المأزق، أغلق المصحف وقبله كما كان يفعل فى صغره عندما يصلى فى المسجد مع والده، نهض وتوجه نحو الشرطيين اللذين قاما بإرشاد الشاب الكاميرونى لمغادرة المكان، طلب منهما أن يفتحا له باب الصالة الداخلية التى تؤدى إلى الحديقة المربعة ليؤدى صلاة العصر، مثلما فعلتُ أنا بعده بالضبط. لقد قام بأداء صلاته بخشوع لم يعرفه من قبل. جلس على العشب الأخضر وراح يبتهل بالدعاء إلى الله أن يقف معه فى هذه الليلة. ولو قدِّر لسامى قنديل أن يسمعه فى تلك اللحظات لانفجر ضاحكاً، وكان سيطلق عليه عامر الدجال، حتى هو لم يصدق نفسه كأنما هناك شخصاً غيره قام بهذه الطقوس الدينية. ولينفى عن نفسه التهمة قال، هذا سلوك يخص عامر عباس وحده. العيون داخل الصالة ظلت تراقبه بمرجعية معتقداتها المختلفة، المراهقات الأسيويات كتمنّ ضحكتهنّ، وربما أحد الأفارقة الثلاثة تفوّه بكلمة داعرة، الرجل الأفغانى وحده ظل حابساً أنفاسه، تمنّى أن يفعل مثله كان أشدهم تركيزاً، وأظنه قد انتبه إلى أن هذه هى الطريقة المثلى لأداء الصلاة ممّا دفعه بعد ذلك لتغيير مقعده والجلوس بالقرب من عامر درويش، جلس يتصنّت التلاوة التى كانت همساً، كان من الطبيعى أن يشعر عامر درويش، أو أى شخص آخر، بالزهو، لأن الرجل الأفغانى راح يمتدحه وكاد أن يقبِّل يده، لحظتئذٍ اكتشف أن خلية الإيمان بداخله لازالت خضراء، فى هذه الأثناء فتح الباب مره أخرى ليطل المحقق ومعه شكرى الجزائرى

وهو أيضا يشتم بأعلى صوته موجهاً لعنات داعرة نحو المترجم المصرى والشرطى الضخم يسير خلفه، وقف أمام عامر درويش:

– قلت لك أن هؤلاء يهود كفرة.

– ....

– وها دا المصرى القواد .. قال لى أنت كذاب، أنت جزائرى موش عراقى. شن دخلو هو ابن القحبة، مهمته أن يترجم فقط.

طلب منه الشرطى أن يغادر الصالة، صافح عامر درويش بالأحضان وأخذ تفاحة وخرج يغمغم بألفاظ وقحة.

عامر درويش حالفه الحظ هذه المرة، تمت الموافقة له بدخول معسكر اللجوء الأولى ليتابع بعد ذلك التحقيقات الأخرى، كان راضياً عن نفسه ليس لارتجاله قصة محكمة، بل لكونه استطاع إضافة اسم قنديل على اسمه الجديد ليقتسم معه طلب اللجوء، لكن أغلب الظن أنه لم يعترف لنفسه بأن الغرض الأساسى من استعارة الاسم الثانى لصديقه كانت إشارات إغاثة واستنجاد بصديقه فى لحظات التحقيق المرعبة. لقد حدث معى أنا نفسى الشىء تقريبا، كانت لحظات قاسية ومن المحتمل أن أكون دخلت نفس معسكر اللجوء بعده بسنوات، لقد تذكرته الآن جيدا، كأنما الذى حدث كان بالأمس، تذكرت ابتسامتى البلهاء عندما أخبرنى المترجم بأنه تم قبولى مبدئياً حتى استكمل التحقيق مره أخرى وعليه سيتم تحويلى إلى معسكر خاص باللاجئين يسمى OC، ولم أعد مرة أخرى لتلك الصالة المرعبة والمملة من الانتظار، نزلت السلم مع المحقق والمترجم إلى

صالة أخرى كان بها شاب سورى مسيحى من مدينة القامشلى، عندما رآنى ابتسم كأننى أنا الذى كنت أنقصه. تعارفنا بفرحة اجتياز المرحلة الأصعب، كنت أثناء حواراتنا أتأمل الصليب المعلّق على صدره وهو بين الفينة والأخرى ينظر إلى المصحف الذى على حجرى، لم نفشِ السر لبعضنا ولكن كلانا آمن بالحظ المدعوم من قوة خارقة. بعد ساعات من الانتظار جاء شرطى وسلّمنى نسخة من التحقيق وبعض الأوراق وطلب منى أن أتبعه إلى الخارج، عانقتُ مراد النابلسى، رائحته ذكرتنى بصديقى رأفت القبطى. وتبادلنا دعوات الحظ. نقلتنى سيارة شرطة إلى معسكر قريب، تقريبا خلف مركز التحقيق، ذهبت إلى الاستقبال مباشرة، كان عبارة عن مبنى كبير به صالة فى المقدمة تفتح عليها مكاتب، وثلاثة مقاعد لا تبدو مريحة مواجهة شباك زجاج كبير تجلس خلفه شرطية ابتسمت لى كما لو كانت تريد أن تتأمل أسنانها فى المرآة، ثم أزاحت مزلاج الزجاج بيدها واستلمت منى الملف، تصفّحته بلا تدقيق ثم داست على زر لمسافة طويلة وبدا جلياً أنها من النوعية التى تتعصّب بسرعة، فتح الباب بصوت مزعج ليخرج منه شرطى أطول من اللازم بقليل وبحركة كسولة من رأسه دعانى للدخول، ثم أغلق الباب بقوة أجفلتنى، تبعته بحذر كأنه سيدخلنى فى زنزانتى الانفرادية، دخلت خلفه مخزناً صغيراً، طلب منى التوقيع على ورق ثم سلّمنى كيسا كبيراً به بطانية ووسادة وملاءة بيضاء، ثم تبعته مرة أخرى لمكتب آخر، ناولنى دفتراً صغيراً اخضر وطلب منى تسجيل بياناتى ثم

طاااخ ختم عليه بانفعال غير مبرر وسلمنى مبلغاً مالياً فى ظرف، ثم رجعت للشباك الخارجى لصاحبة الابتسامة النمطيّة والتى بدورها سلّمتنى مفتاح الغرفة به سلسلة بلاستكية باللون الأزرق مكتوب عليها 1AG وأرشدتنى من خلف زجاجها، خاطبتنى بلغتها الأصلية، كأنما يجب على أن أفهم منذ الآن، تابعت فقط إشاراتها نحو المبنى الأول.

تقريبا نفس المعسكر الذى وصفه عامر درويش، شُيِّد بعيدا عن المدينة عن قصد، تقريباً على بعد خمس كيلومترات من مساكن الهولنديين والأسواق، مما جعل اللاجئين يعتبرونها حركة عنصرية ليس إلا، كان مسوراً بـ "سلك شائك" ولكن بوابته الرئيسية ليست بها حراسة، وهناك فتحة فى السور الذى يفصل المعسكر عن الغابة، فتحة يستخدمها بعض اللاجئين فى اختصار الطريق للمدينة، كان المعسكر مكوّناً من ست وحدات سكنية، بنايات من الخشب متقابلة وكل مبنىً يتكون من طابقين، فى الوسط حدائق صغيرة ومقاعد خشبية مزروعة فى الأرض، وهذه المبانى كانت خاصة بالأفراد، أما العائلات فقد خُصِصت لهم "كرافانات" تم وضعها على ثلاثة صفوف ويفصل بينها وبين المبانى الخشبية الأخرى ملعب كرة قدم تم هدم سوره بحركة اللاجئين اليومية لاختصار الطريق من الكرافانات إلى المبانى الأخرى، أيضا فى الجانب الشمالى للملعب كان هناك طابور آخر من الكرافانات الأكبر حجماً، بالقرب منها مبنى آخر أيضا من الخشب عبارة عن مكاتب كانت خاصة

بمنظمات مساعدة اللاجئين.

عندما فتح عامر درويش باب غرفته وجد رفيقه فى السكن نائماً بالملابس الداخلية فقط من شدة الحر داخل الغرفة. كان نهار اليوم الثانى له من بداية التحقيق، وضع أغراضه على السرير الآخر وغادر رغم التعب يستكشف المكان، نساء إفريقيات بمختلف الأجسام يجلسنّ فى ظل المبانى على المقاعد بفساتين مزركشة تخص النوم أكثر من الشارع، كشفنّ عن أجزاء كبيرة من أجسادهنّ غير المتعارف عليها علناً لتبدو أقل من لون السُمّرة الاعتيادى بدرجة ملحوظة، بعضهنّ استخدمنّ مؤخراتهنّ مقاعد وثيرة، جلسنّ بطرائق تدل على البيئة التى أتينّ منها، الحوارات بينهنّ اقرب للشجار، ضحكات خليعة تصدح دون اعتبار للجميع وربما تكون عادية، لا ينتبه لها إلا الوافد الجديد فقط، الأطفال يلعبون على الدراجات، الطقس حار تحت الشمس فقط ولكن الظل كان بارداً ومنعشاً، شباب من دولة أسيوية يدخنون تحت الشمس بصمت فى انتظار أن تشفق عليهم وزارة العدل الهولندية، كبار سن يمشون بخطوات بطيئة داخل ملعب كرة القدم، تشير كل الدلائل على أنهم من أفغانستان لم تتجانس إقدامهم على مثل هكذا حرية، بمتعة شرعوا يتمرنون عليها. روائح طبخ متعدد الجنسيات امتزجت فى بعضها جعلت الشهية تقف على أمشاطها، رائحة ترنح لها لسان عامر درويش، الثوم والبصل أشد نفاذاً، كتم على إفرازات جوعه بقوة وراح يتجول مستكشفاً المكان، إلى أن سمع لهجة كان لها وقع خاص، مفعول مغنطيسى،

جذبته بحواراتها المتداخلة:

– المحقق قصد محاصرتى بالأسئلة.

– هذا هو أسلوبهم القذر، أكيد المترجم متواطئ معه، ابن الشرموطة.

يرد آخر:

– لكن كان من حقك أن تطالب بتغيير المترجم.

– هل كان المترجم مصرياً أم عراقياً؟

صاحب هذا السؤال كان يود المشاركة فى النقاش فقط لأن كلا الإجابتين لن تفيد استرساله، قال آخر منفعلاً:

– واضح أن المحقق كان مبيت النية.

– بالضبط، أنا كنت على وشك أن أنهار وأعترف لهم.

– هذا ما كانوا ينتظرونه منك يا غبى.

– من المحتمل أن يطلبوا منك تحليل صوت.

– كس أمهم.

أحدهم سأل:

– هل يستطيع الهولنديون اكتشاف بصماتى التى بصمتها فى فرنسا؟

وندم بعد ذلك على سؤاله:

– أساساً من ضمن اتفاقيات الاتحاد الأوروبى هو التوقيع على تعميم البصمة، لمحاولة حصر حركة اللجوء ومحاربة الهجرة غير الشرعية. أنا أحذركم لا تثقوا فى أحد، نحن مراقبون حتى من هؤلاء

العجائز الجالسين على كراسى الإعاقة، بالمناسبة كلهم عبارة عن شبكة تجسس واحدة.

هذا كان رأى أكثرهم ادعاءاً بالمعرفة. عندما سمع عامر درويش هذه الحوارات شعر كأنه فى أحد أحياء الخرطوم بحرى، أصوات وطريقة كلام يعرفها جيدا، نفس طريقة أبناء الحى تحت شجرة النيم، وجد نفسه يبتسم وهو يتجه نحوهم، كانوا يجلسون فى شبه دائرة تحت شجرة فقيرة الظل لصغر عمرها، عندما اقترب منهم، فهم أنهم يستمعون لأحدهم وقد عاد لتوه من التحقيق الثانى للجوء، وراح يحكى كيف حاصره المحقق بالأسئلة، وكانوا يريدون معرفة تلك الأسئلة حرفياً، لأن معظم قصص اللجوء كانت متداولة، التقليد كان سمة أساسية. بعضهم نهض وصافحه والبعض الآخر مدّوا أياديهم بطريقة آلية، تركيزهم كان مصوباً نحو صاحبهم الذى جاءهم بأخبار غير سارة عن التحقيق الذى ينتظرهم، حتى هذا الشخص الذى كان يحكى وسرق انتباه الجميع، مدّ يده لعامر درويش مصافحا دون أن يوليه ادنى اهتمام، كأنه لا زال يقف أمام المحقق الهولندى. امتعض عامر درويش من تصرفاتهم، لكن خنق غضبة بالقوة، ثلاثة فقط هم من رحبّوا به بطريقة مختلفة، صلاح عضة ونجم الدين ود اركويت وموسى كروت، أطلق عليه هذا الاسم لبيعه كروت الاتصالات داخل معسكر اللجوء، وهذا الأخير كان دافع اهتمامه تجاريا صرفاً ليضمن زبوناً جديداً، بعد ذلك انتبه له الجميع وصوّبوا نحوه أسئلة تعارف تقليدية، اعتبرها ساذجة واستغل بساطتهم وأدهشهم بطريقة

كلامه ومفرداته العويصة، ومنذ تلك اللحظة أطلقوا عليه لقب الأستاذ، أما حاج الباقر فقد صنفه شيوعى ملحد، اشترك معهم فى جدول الأكل، شاركهم فقط بالمساهمة المالية وشفعت له مفرداته من غسيل الأوانى، وتم إعفاؤه من جدول الخدمات، ليظل بغرفته يكتب ويقرأ، استطاع أن يتعلّم اللغة الهولندية بسرعة أدهشت الهولنديين أنفسهم، كان يتحاور مع كبار السن وأرباب المعاشات، يقف مع أصحاب الكراسى المتحركة، هم فقط لم يكن يشغلهم مرور الزمن يجد عندهم الوقت الكافى للتدريب على نطق اللغة، انبهرت به معلمته "ألينا" فى المعسكر وقدّمته للبلدية كنابغة وتمت دعوته فى عدة مناسبات، كان يعتكف لساعات فى غرفته يصارع بعناد لغةً لا ناقة له فيها، حتى يأتى صلاح عضة بجسده المترهل ويطرق له شباك الغرفة باحترام وهو يتلصص لغرفة الفتيات الإثيوبيات المجاورة:

– أرح يا أستاذ العضة جاهزة.

تصرفاتهم الساذجة سمحت له بأن يتعامل معهم بفوقية وأحياناً بازدراء، كان مغتاظاً من ضحالة أفكارهم وجهلهم بالثقافة، يتقزز حتى من طريقة حديثهم السليقة وألفاظهم البذيئة، ومعظمهم لا يحمل قضية تستدعى اللجوء أو وضع سياسى يهدد حياتهم للخطر، جلّهم جاء بدافع اقتصادى بحت، باحثين عن مستقبل وفرصة يدعموا بها أسرهم، شعر بأنه الوحيد الذى خرج من المعتقل وتعرّض للتعذيب ويستحق اللجوء بلا منازع، لذلك كان يمتعض عندما يسمع بأن

أحدهم جاءته رسالة من وزارة العدل الهولندية بالموافقة على طلب اللجوء واستلام بطاقة الإقامة، كان يغتاظ من هذه الأخبار ويشتم فى سره غباء المحققين الهولنديين، يخاطب فى سره شريكة فى اللجوء سامى قنديل، تبدو يا صديقى محظوظاً وفى مأمن من هذا الحاضر التعيس، لا تتوقع أننى سأعلن لك عن أخبار سارة، كل الدلائل تشير إلى أن الذهنية الانطباعية تنمو هنا بكثافة، العقل الأوروبى مزيف، نحن من ملّكناه تلك الشفافية. أننى أعلم بأن ردك سيكون حيادى لامتصاص غضبى، ستقول لى، إن تعذّر عليك الأمر فليس أمامك سوى الصبر.

أكاد أن اجزم بأننى عشتُ مع نفس الناس داخل معسكر لجوء واحد ولكن فى فترة زمنية مختلفة، نفس الحكاوى والشخصيات، الشىء الوحيد النقيض هو إحساسى بالتجربة الذى كان مختلفاً عن الطريقة التى اقتحم بها عامر درويش أجواء اللجوء، لقد بدأ تجربته دون رغبه حقيقية واكتسب الإصرار من قساوتها ورعب انتظارها. لا زلت أذكر تلك الليلتين المرّعبتين فى مركز تقديم اللجوء، مرّتا علي كالكابوس، زارنى إحساس منتصف الليل وأنا على سرير، مرتبته أشبه بنقالة مستشفى الحوادث، لم يمتص جلدها المزوّر دموعى، راحت تتدحرج كالزئبق لا ادرى ماذا كنت فاعلاً إزاءها لولا تلك البطانية الخشنة، شعورى فى تلك اللحظات إذا تم رصده بدقة، عبارة عن لوحة إعلانات مضيئة فوق سقف متجر قديم مغلق، الأمل تخطانى من الناحية اليسرى، لم أعد انتمى لنفسى، بمشقة أمسكت بنعاسى، فى

صباح اليوم التالى كنت أول من آمن بغربتى لذلك كان اندماجى سريعا مع مجموعة أبناء وطنى الذين سبقونى فى إجراءات اللجوء، تعرّفت عليهم عن قرب، فعلا لاحظت أن الألقاب منتشرة بسرعة مذهلة كحشائش طفيلية، حتى أنا نفسى بعد يومين من إقامتى بينهم ألصقوا بى من وراء ظهرى لقباً أحببته بعد ذلك، أشرف إقامات، كنت أثق فى الهولنديين بشكل مطلق وأردد دائماً، كلكم ستنالون إقامات. تعرّفت أولاً على أبناء وطنى الشباب، معظمهم كانوا أبناء جيلي، غالبية أسمائهم كانت مرتبطة بالمناطق التى جاءوا منها: عصام الصحافة، بدر الدين أركويت، عوض كوبر، عز الدين كوستى، يقضون اليوم كله مع بعضهم، لا تفرَّقهم إلا ساعات النوم، والمصير المشترك جعلهم مترابطون بشكل مذهل، لا يفترقون أبداً كما لو أنهم نشأوا وترعرعوا فى هذا المكان. كانوا عندما يستيقظون يتجمعون أثناء تناول القهوة والشاى أمام مبنى الاستقبال، ينتجون فى الحكاوى أثناء انتظارهم للوفود الجديدة، وعندما يشاهدون أحد أبناء جلدتهم، يتسابقون فى استقباله، يبتهجون بقدومه، كأنهم كانوا يرغبون فى زيادة عددهم من أجل خوض حرب ضارية مع وزارة العدل الهولندية. صادف دخولى لمعسكر اللجوء مغادرة شاب مهذب يدعى إيهاب كبار، لم ألتقه بعد ذلك مطلقا، وكان العرف المتفق عليه إقامة حفل وداع للشخص الذى يتم تحويله إلى معسكر آخر بعد أن يكون قد أكمل ستة أشهر فى المعسكر الأولى، لينتظر فى معسكر آخر حتى تفتى وزارة العدل فى قضيته. كان حفل الوداع التى نُظِّم

له فى حى "الكرافانات" كما يطلق عليه، تلك الكرافانات الخاصة بالأسر، وذلك لسعتها، والشخص الذى كان يدبر هذه المناسبات هو عمر مواسير أحد أبناء حى السجانة اغتنم الفرصة وتمرّن على الغناء فى ذلك المعسكر، ليصبح في ما بعد مطرباً مشهوراً فى أوساط الجالية السودانية، كان هو الرأس المدبر ليجبر الجميع على سماع صوته، وأعتقد أن هذه الشلة هى التى رّوجت له في ما بعد. قدمونى كآخر من التحق بهم، عرّفت بنفسى وقرأت قصيدة، قرأتها بدافع استلفته من شابه صاحبة ملامح مثيرة، على شفتيها تجتمع الشهوة دون أن تستأذن أحد، كانت تجلس على الطاولة فى ركن "الكرفانة" وتغنى متمايلة طرباً، وكانت على علم كامل بفضيحة أنوثتها. فى تلك اللحظة تشكّل لدى انطباع أنها نجحت فى مهمتها، واستلفت ذهنى عنوة، عديدة هى الطرق التى تجعلك تتحول إلى كائن متحذلق، لكن هذه كانت الأكثر تملقاً، لذلك شعرت بانحياز ضاغطة على كرامتى ورغم ذلك فضلت الفت انتباهها بقراءتى للقصيدة وكنت أخصها فى المفردة والإيقاع، لقد ذكرتنى برباب تاج السر تحمل نفس الجاذبية، استنفرت كل مشاعرى وخبرتى كانت حاضرة لإدهاشها من أول لقاء، انتظرتُ نهاية الحفل لأجد فرصة حتى أرمى بسنارتى وانتظر انجذابها نحوى. وقفت خارج الكرفانة أدخن مع شاب وسيم التقينا فى نقاط مشتركة التدخين، الخمر، الشعر وحى المزاد الذى نشأت فيه، وبالطبع لم نلتقِ هناك وحتى أصحابنا المشتركين لا تهمهم هذه الصدفة، قدّم لى علبة بيرة،

اكتشفت في ما بعد أنها من أرخص الأنواع وأشدها رداءة، رغم ذلك انتشيت بها وساعدتنى على لملمة جرأتى لمواجهة صاحبة الشفتين المثيرتين، كنت أبعزق فى سهرتى مع صديقى الجديد عاكف المزاد، هو أيضا لم ينج من عاقبة الألقاب، خريج الجامعة الأهلية، وقبل أن يبوح بمحاولاته اليائسة فى كتابة الشعر، أكدّ على فخره بانتمائه للجبهة الديمقراطية، ليصنع لنفسه تاريخاً سياسياً داخل ذهنى، ولا يعلم أن ذهنى معتقل مع شابة جميلة داخل الكرفانة وخطر ببالى أن أسأله عنها ليزودنى بمعلومات، ولكن، ليته ينهى حكايته التى يشعر بأهميتها لوحده، لم أكن أتابعه إطلاقا، كنت أنظر إليه فقط وعندما يضحك، ابتسم معه، وفى لحظات كان يجد ضرورة ملحة كى أدعم له قصته، ماذا تفعل يا اشرف مع أناس يتمتعون بهذا الحقد؟ عندما انتبه له ينتظرنى بإجابة داعمة له، وبما أننى غير متابع لقصته أخمَّن انه يقصد الحكومة فأدمدم مغتاظاً، أتفق معك كل الدلائل تشير إلى عدم انتماءهم لطبقة البشر. تبين أسنانه فى الظلام الشاحب، ويواصل القصة وأنا بدورى أفسِّر ابتسامته لا تخص دعمى له بقدر ما كانت تنم على إعجابه بمفرداتى، أحيانا أترنّم مع صوت عمر مواسير رغم النشاز. وبلا توقع تقترب منى التى انتظرها وتصافحنى بيد ناعمة وابتسامة لا تخطئ الهدف وقبل أن أتكفل بإعانة أحاسيسى وأخبئ الرعشة التى داهمتنى، عرّفنى بها زوجها عاكف المزاد:

– دى ابتهال زوجتى.

شعرت لحظتها بضميرى يزوغ عارياً، وقفت متبلداً، لا أدرى ماذا كان سيحدث لو صرّحت له بإعجابى بزوجته قبل قليل؟ يا الله كنت سأعرِّض نفسى لموقف حرج. لا تكن أرعناً وتحاسب نفسك على شيء افتراضى، هكذا كنت أهدئ ارتباكى بكلمات داخلية وفى نهاية المطاف، كان من واجبى أن أتعامل وفق منظومتى الأخلاقية التقليدية وامتثلتُ لأوامر ضميرى الذى عاد لى مترنحاً فتعاملت معها بطريقة محتشمة، ومنذ تلك الليلة صارا أصدقائى، عرفت عنهما الكثير التقيا فى جامعة الأهلية وضربا مثالاً حيّا لتلك العلاقات الجامعية الفاشلة ثم جاءا لباريس بعد زواجهما لقضاء أسبوع شهد من المتعة ونصحه أصدقاؤه بعدم العودة والتقديم لطلب اللجوء فى هولندا التى تعتبر أفضل خيار الآن، توجّس من الفكرة ولكن زوجته ابتهال محمود هى التى شجّعته على الإقدام على هذه الخطوة الجريئة وبمعرفتى المبدئية عنها يمكن تصنيفها متمردة على أسرة غنية ومحافظة، ظل إعجابى بها يؤدى فى واجبه بسلاح خالٍ من الذخيرة. بعد أن عرّفنى بها زوجها التفت إليه ليشاركها دعوة وجبة الغداء التى قدمتها لى، واستدرك هو الموقف وراح ينعت لى موقع كرفانتهما، غادرتهما بعد أن تمنيت لهما ليلة سعيدة وذهبت إلى غرفتى وكانت ليلتى الأولى فى معسكر اللجوء حتى إننى لم التقِ بزميلى فى الغرفة، عرفت أنه يأتى يوم واحد كل أسبوع يستلم الإعانة ثم يغادر إلى روتردام، استيقظت حوالى الساعة الواحدة ظهرا بصوت امرأة هولندية عرّفتنى على نفسها وفهمت أنها تابعة لمنظمة

مساعدة اللاجئين صافحتها وخرجت من الغرفة وسرت خلفها نحو الصالة، غرفتى كانت الأولى من باب الشقة وتفتح على ممر ضيق نهايته الحمام والتواليت وغرفة صغيرة للتحكم فى الكهرباء والغاز وبها غسالة الملابس، وبعدها تبدأ صالة واسعة بها طاولة وكراسى وتلفزيون موضوع على رف فى الأعلى تحتاج مشاهدته لدلك يومى فى عضلات العنق، وكانت هناك ثلاث غرف أخرى تفتح على هذه الصالة وعلى الجانب الآخر المطبخ لم يكن مفصولاً عن الصالة بشكل كامل. قامت هذه المرأة الهولندية والتى لم أستطع تحديد عمرها بشرح مفصل عن السكن والشقة وراحت تشرح لى كيف أتعامل مع الغاز وكيف أستعمل الثلاجة والتلفزيون. تابعتها بجدية كأنها ستتحدث بعدها عن قضية لجوئى. كان هناك شاب عراقى يتابع قناة الأخبار التفت لى وغمغم، هذه القحبة تعتقد أننا جئنا من الصحراء، وهنا انتبهت ليس لعملها الروتينى علاقة بقضية اللجوء وقبل أن تشرع فى شرحها عن عمل غسالة الملابس، أخبرتها أننى أجيد التعامل مع هذه الأجهزة، شكرتنى وانصرفت، ولكنها سلفتنى موضوعاً شيقاً أتحدث به مع عاكف المزاد وزوجته ابتهال أثناء تناولى وجبة الغداء معهما، وفعلاً كان مدخلاً جيداً لنقد الهولنديين، اتفقنا على انطباعاتنا غير الدقيقة حول الأوربيين، وباقى الحكاوى التى نادراً ما كانت تتخطى حاجز اللجوء. وبعد ذلك استمرت علاقتى بهما تتعمّق أكثر، ففى احدى المرات اعترفت لى ابتهال محمود أن معظم أصدقاء زوجها الذين التقتهم هنا كانوا ينظرون لها

بنهم وشهوة، فى تلك اللحظة شعرتُ كأنها تخصنى بهذا التعليق وقرأت أفكارى، فعلا كنت معجباً بها، وأعتقد أن أى شخص من أبناء وطنى يشاهدها حتماً سيعجب بها. لقد أشعلت رغبتى عدة مرات وخاصة فى تلك اللحظات الحميمة، عندما كنت أجلس معهما داخل كرفانتهما نشرب الشاى ثلاثتنا، صراحة استهوتنى علاقتهما وأعجبتُ بثنائيتهما، كانت تصرِّح أمامى بعشقها المحموم له وتعانقه دون حياء فيتملص من عناقها بالقوة وينظر لى مستنكراً الموقف رافعاً أكتافه إلى أعلى: نساء آخر زمن، لا أجد فى قاموسى رد، فأحسده بابتسامة، وغالباً ما كانت تناكفه وتهازره، تسخر من الرعب الذى أصابه أثناء تحقيق اللجوء، تسرد لى تلك التفاصيل وهى تدمع من الضحك وتجلس ملتصقة بى وتمسك يدى أثناء سردها للقصص وفى بعض المرات تنسى كفها عنوة داخل يدى بعد نهاية مكايدتها له، لا أنكر إننى استمتعت بملمس يدها الناعمة وكنت فى حيرة من أمرى هل تقصدها أم براءة مكتسبة؟ علاقتى بها توطدت أكثر أيام حملها، لقد مرّت بظروف وحم عصيبة، كانت تتقيّأ كل شىء يدخل فمها، وكرهت أشياء كثيرة أولها زوجها عاكف المزاد نفسه، لم تعد تطيقه تفتعل معه المشاجرات بأسباب تبدو مضحكة، أتدخل لأصلح بينهما، تكون فى قمة غضبها، عاكف أصبح بلا نكهة يا اشرف. أهدئ من روعها، أطالبها بالصبر، أعدها بأن كل شىء سيرجع مكانه، وبالمقابل طلبت من زوجها عاكف المزاد أن يبتعد عنها قدر الإمكان هذه الفترة وانتقل ليقيم معى فى غرفتى وأن يترك لها الكرفانة، كانت

تكره رائحة الطعام وتشتهى بعض الأكلات الغريبة التى أطبخها لها فى غرفتى، كان تبكى أثناء أكلها الشحيح وتغمغم، إذا كان هناك مكسب فى هذا اللجوء، فهو اللقاء بصديق مثلك. أجيبها مخفياً إعجابى بنفسى، القدر وحده من دبّر هذه الصداقة. وظلت تعتذر لى دوماً لأننى لم أتأفف إطلاقا من تقيؤاتها المستمرة، أنظِّف لها أرضية الكرفانة أسندها حتى تصل السرير، تحملتها من غير زيف حتى تجاوزت تلك المحنة. تمنيت أن تكون لى زوجة مثلها، وسألت نفسى هل كنت سأفعل معها هكذا؟ وبما أنه تمنّى فقط يستحسن ألا يدخل بيننا ملل لأصبح مثل زوجها عاكف.

12

هززت رأسى حتى لا تتدفق كل ذكرياتى، ثم تحركت من المكان ضاغطاً على أسنانى حتى أبعد عن ذكرياتى المخجلة من التدفق، شاهدت بار صغير فتح أبوابه للتو وأحد العمال يرتب الكراسى الخارجية بتكاسل لا يتوافق مع عمره، وغالباً أن سهرة الأمس أرهقته لهذا الحد، مثلما فعلت بذهنى، رحت أراقبه دون تحديد سبب معين لهذه المراقبة، فقط أود تصفية ذهنى لفترة وجيزة، وعلى العكس مما اشتهى لمعت فيه فكرة أن يكون هذا نفس البار الذى جلس فيه عامر دروش وهو يسرد فى قصص متفرقة عن حياته و أمامه "انكا فان درماين" بوجهها الدائرى وعينيها الضاحكتين، لم تغب وجنتها مطلقاً، لقد كانت منفعلة بطريقة سرده الشيقة والتفاصيل، والمنديل بيدها اليسرى تلاحق به دموعها التى لم تهنأ بالجفاف مطلقاً، تسيل أثناء ضحكتها التى تصعب السيطرة عليها، أما حزنها فقد كان يفوق بمقدار أضخم من الحدث الذى يرويه عامر درويش، أحياناً تمرر يدها الناعمة على كتفه، وأحيانا تربّت على ساعده، كان منتشياً وهو يحكى بلا توقف، أحيانا تخذله اللغة فيستلف لغة الإشارة، لم يكن ينوى التوقف عن السرد لأن الصمت هو الذى كان سيعلن نهاية هذا اللقاء، فى كل لحظة كان يتوقع منها نظرة خاطفة لساعتها ومن ثم تهم بالمغادرة، جلوسها أمامه لأكثر من ساعة لم يتخيله حتى فى أحلام اليقظة، لقد هبطت عليه سعادة لم تكن فى الحسبان، لأول مرة

منذ دخوله إلى هولندا يشعر بهذه النشوة، كنست حتى إحساس الإحباط الذى أصابه عندما تخاذلت رجولته قبل قليل، وفى خياله أضاف هذا اللقاء ضمن سيناريو التفاخر بين الأصدقاء، حكى لها عن علاقته الحميمة مع صديقه سامى قنديل، وبدون أن يعترف لها أنه قد غيَر اسمه ليموت مع صديقه وفاءاً لتلك العلاقة، راح يسرد لها مغامرتهما فى جزيرة مالطا قال لها:

– كانت مدهشة تلك الجزيرة الصغيرة، إنها نموذج مصغّر لأوروبا، وهذا يبدو لى ما دفعنا للتمسك بالمغامرة، حرية نفتقدها بشدة، قضينا أياماً عصيبة هناك، لن تتخيلى أبداً بشاعة الإحساس فى تلك الأيام ولكن ما أمتعها تلك المحن عندما تواجهها برفقة صديق حقيقى، كل الدلائل كانت تشير إلى إنسانيته المفرطة، كأنه كان يتلصص لصرخات أمعائى، الجوع والإحباط فى تزامن مستمر، لم أكن املك جرأة صديقى سامى قنديل، ينسحب من الغرفة التى نقتسمها مع ثلاثة نيجيريين لم يتفوقوا علينا إلا فى الإحباط، أحدهم كان يبكى عندما تعلن سمسارة التهريب التونسية تأجيل الرحلة، فى تلك الأمسيات كان يخيم البؤس علينا، نشعر بالكآبة تتعقب خطواتنا والحظ كلما كان يقترب منا ينحنى ويتنفس الصُّعداء. كان سامى قنديل يتسرّب فى تلك اللحظات العصيبة، دون أن أنتبه له، يدور فى شوارع مالطا، يتلصص على الأزقة الضيقة والتى تفتح عليها أبواب المطاعم الخلفية، تلك الأبواب التى يستعملها عمال المطعم الأقل رتبة يخرجون من هذه الأبواب الصغيرة حاملين فضلات الزبائن

داخل أكياس يلقون بها بغضب وعنف داخل برميل كبير بأربع عجلات وبعضهم لا يتهاون فى إصدار اللعنات بطريقة تبرر اللامبالاة، إذا صادف وأن رآه أحدهم وقد بدأ ينبش فى أكياس الفضلات السوداء من داخل القمامة، يصرخ فيه ويطرده مستخدماً ألفاظا بذيئة كأنما شاهد حيواناً غير أليّف ، وقد رجح صديقى سامى هذا العنف اللاإنسانى وغير المبرر بأنه يعود إلى التوبيخ الذى يتعرّض له هذا العامل من رؤسائه داخل المطعم، لذلك كان يبتعد قليلا ثم ينتهز خلو الزقاق من هؤلاء العمال الجدد ويهجم على تلك الفضلات، أطراف بيتزا ناشفة، بطاطس محمرة، شرائح خبز، كيك، فراخ مأكولة الأطراف، أرز خاضع لكل أنواع المذاقات حتى طعم الحلويات لم تسلم منه، يدس هذه المأكولات داخل كيس كبير، وأحياناً تصادفه مشروبات كحولية يضعها داخل كيس آخر ويمسكه بحذر،لا يخفى ابتسامته الطفولية، وعندما يدخل الغرفة حاملاً الغنائم ومنتشياً كما لو أنه استحق النصر بجدارة، يعلن بصوتٍ جهورى، بإمكاننا يا صديقى التغلّب على الحسرات أما الجوع فلا، عندئذٍ يفتح الأكياس أمامى، أقذف بكراسة الشعر على الحائط، وأقول له كنت انتظر الهام الشعر الحقيقى، ويمد لى نصف زجاجة "واين"، أتذوّق لأول مرة هذا النبيذ الأحمر. كان جوعاً من النوع الذى يتطلب ضغطاً قوياً على الأمعاء لخنق تلك الصرخات، لذلك لم يكن الإحساس بهذا الأكل مجرد وجبة اعتيادية، كنا نأكل بمتعة نادرة وتلذذ غير مسبوق، الجوع وحده قادر على فعل ذلك. لقد كانت هذه

الفضلات عبارة عن وليمة بمعنى الكلمة، ندعو لها رفاقنا فى الإبحار المنتظر، أغلبهم تأفف عندما علموا بمصدرها، ولكن من الحماقة أن تسأل عن نوعية الأكل ومصادره وأنت جائع، كان سامى قنديل يردد إذا كنتم ترغبون فى معدة حديدية غضوا الأبصار عما تأكلون، بعد فترة صاروا ينافسونه فى نبش القمامة، العوز وحده يعلّمِ المرءِ مكايدة القدر. كان سامى قنديل يحرص دائماً على إخفاء فضلات الفضلات لنهار الغد، وعلى هامش الخاطر وبؤرة التمنى أن تكون هذه آخر مغامرات البحث عن طعام، كنا نترقب بصبر نافذ ظهور السمسارة التونسية التى استلمت مبلغ التهريب والإيجار وأصبحت تماطلنا بمعوقات وأسباب تبدو واهية، كأنها تعبث بنا. تأتى مره أو مرتين فى الأسبوع لتخبرنا بأن موعد التهريب تحدّد يوم السبت القادم ويجب علينا أن ندخر قوتنا لساعة الإبحار القادمة، كانت تشتعل بداخلنا بهجة احتفالية رائعة، الشاب النيجيرى ذو الوجه الطفولى الذى دائما ما كان يبكى لحظات التأجيل، لم يتعلّم إطلاقا من هذه المراوغة العبثية. يصرخ بفرح طفولى يعانق صديقيه وتجتاحه موجة كرم عارمة فيفتح شنطته المقفلة بإحكام ويوزع علينا بسكويت وشوكولاته، أحلام باهظة التكلفة وفى متناول اليد. ولكن يأتى يوم الموعد المحدد ليتراكم مع الوعود الأخرى المنصرمة ليرتفع منسوب اليأس ويستمر الانتظار حتى تأتى هذه السيدة التونسية مرة أخرى، والتى عادة ما ترتدى ملابس ضيقة تعيق حركتها الطبيعية نسبة لبدانتها، تأتى لتعتذر بأن المهرب أجّل الموعد بسبب توقعات

رياح عاتية وشديدة ومن العبث الإبحار بزورق صغير فى هذا الطقس، والأعذار راحت تتوالد، القمر ساطع هذا الأسبوع، المهرب يحبذ الإبحار فى ظلام دامس، دوريات شرطة السواحل مكثفة هذا الأسبوع تم التأجيل، لتحدد لنا موعد آخر يخفف من وطأة الإحباط.

كانت أنكا فان درماين مذهولة، تابعته بكل جوانحها، رفعت كأس البيرة الفارغ نحو شفتيها عدة مرات، وفى كل مرة تتذكر أنه فارغاً تعيده لمكانه، وقبل أن تمر فترة كافية لهذا الفعل التلقائى وأثناء إحدى سكتات عامر درويش أو لحظة بلعت ريقه، رفعت كأسها مرة أخرى لتصطدم بنفس النتيجة السابقة، ولكى تتغلب على حرجها رفعته لأعلى مستوى يسمح بانحدار آخر قطرة بيرة لتنزلق نحو حلقها، شعرت بها نقطة مطر تسقط داخل كهف، عندئذٍ أحست بحاجتها للمزيد من البيرة، رغبه عارمة لترتشف هذه السائل دون انقطاع، ربما لان القصة مشوِّقة وتحتاج لمؤثرات من هذا النوع، مشروبات مانعة للتشوش، استأذنته بترجٍ ليتوقف للحظة عن السرد السحرى ريثما تعود بالبيرة، ونهضت مستنده على الطاولة، من لا يعرفها يخيّل أنها من المستحيل أن تكون من رواد البار، واستغلت انحناءتها فقط كى تقبّله قبلة تضامن على خده الأيسر وتسير بكل رشاقة نحو طاولة تقديم الطلبات، تركته مستلذ بالقبلة التى ركت على خده، أغمض عينيه وتحسّس مكانها، بدت له كأنها بارزة، ستظل هذه من البرهات السعيدة فى حياته. فتح عينيه واستفرد بصديقه الغائب للحظات، ساعده موقع جلوسه وظهره مقوّس بصورة

حادة نحو طاولة البار الخشبية المرتفعة، كأنه يخفى أسراره الهامة، ظل يحدق فى رسمٍ لخريطة قديمة داخل إطار مستطيل تمثل أمستردام القديمة، عبارة عن مياه تعيق حركتها يابسة مفتعلة، كانت مدينة عائمة فى المياه، راح يتأمل الخريطة ويده تتحسس آثار شفتيها على خده ويخاطب فى سرِّهِ سامى قنديل، هذه يا صديقى متعه غير متناهية، أعلم أنك مغتاظ لفشلى فى مضاجعتها قبل قليل، أعذرنى كنت أختزن صورة جسدها فى ذهنى بطريقة خاطئة، وعندما شاهدت حلمات صدرها الفاتن انهارت رجولتى لم أتحمّل عظمة المفاجأة، لقد كان جسدها ممدداً أمامى وأنا عاجز تماماً. رجع وارتشف آخر ما تبقى فى كأسه من بيرة، كان واثقً جداً أنها ستطلب له كأساً آخر على حسابها، لأن هذا يعتبر أقل كلفة من ثمن القبلة التى صرّحت بها أمام رواد البار ولم تكن تخطر على باله. تذكر أحلام يقظته التى كانت تنحصر فى جسدها وكيف تبدو عارية ويتلذّذ بمفاتنها ويصل به الخيال إلى مضاجعتها التى فشل فيها عندما أصبحت واقعاً، ولكن إطلاقا لم يخطر على باله هذه الجلسة التى تمهّد إلى وئام قادم لا ريب فيه، هبطت عليه سعادة لن يتوقعها أكثر أصحابه تفاؤلاً. لقد استطاع أن يعتقل ذهنها بحكايته وهذا يعنى له استمرارية هذه الجلسة غير المدرجة على أجندة متشرد، وسأل نفسه ما الذى يجعل فتاة بهذا الجمال أن تبذِّر وقتها مع شخص مثله؟ ليس هناك سبب منطقى أو غير منطقى يجعلها تجلس أمام لاجئ فاشل تستمع لقصته باهتمام مقدّر أفضل مما تبرّعت به وزارة

العدل الهولندية ممثلة فى محقق محكوم بمزاج بيتى أو طقس غائم، وحتى إن كانت عاهرة، لن توليه هذا الاهتمام مطلقاً، بل بالعكس ربما تعاملت معه بكراهية مدعومة بقانون المصلحة الشخصية، فصاحبات هذه المهن لهنّ أمزجة خارجة عن المألوف لا أحد بإمكانه توقعها. أصبحت محاولاته للوصول إلى إجابة لسؤاله تتعقد أكثر ممّا تصور. فهو يعلم أن الفتيات الهولنديات فى هذه السن الشبابية لهنّ طباع حادة ولا يصرحنّ بعاطفتهنّ الإنسانية إلا بعد أن يتقدم بهنّ العمر، فهذه الحسناء التى تعرّف عليها قبل قليل بطريقة درامية، إذا جاز التعبير، لا تختلف عن قريناتها فى شىء، تماما مثل سلوكها الذى حدث تقريباً قبل ساعتين من الآن عندما صرخت فى وجهه وكادت أن تستدعى له الشرطة، هذا بالضبط، هو الشعور المناسب الذى تنطلق منه تصرفات العاهرات الجميلات خاضعات لقانون التناقض المستبد ناهيك عن تعويض الجهد المبذول. فى هذه اللحظة انحرف عامر درويش بذهنه، وراح يقيّم أسباب دهشته فى تغير انطباعها الذى حدث بصورة مفاجئة، قبل قليل لعنته بأبشع الألفاظ، وها هى الآن تجلس معه فى بار كصديقة حميمة، استبعد كل الاحتمالات السطحية وأولها احتمال إعجابها به، لاشعوريا ابتسم فى سخرية، ولكن توصل لنتيجة مفادها أنها راضخة لإحدى نزواتها أو بالأحرى مصابة بعاطفة عرضية سببها صراع داخلى اختل فيه معيار الضمير، هذا التعاطف اللحظى يصيب حتى أكثر الناس استبداداً ولكن لسوء حظ الفقراء لن تدوم هذه الحالة طويلاً، كما

يتوقع أن يحدث معه بعد قليل، لقد استهوتها قصته فقط وعندما يصل إلى النهاية، ستدفع ثمن المشروبات وتغادر، لم يكن يعلم أن لقاءه الحقيقى بـ أنكا فان درماين سيغيّر الكثير فى حياته وحياتها. عادت تحمل كأسين ضخمين من البيرة تكاد الرغوة أن تسيل من الحواف وخلفها عاملة البار تحمل طبق فستق وفول سودانى، وللصدفة غير المهمة كانت الفتاة عاملة البار تحمل أيضاً نفس ملامح أنكا فان درماين، والذى يرى المشهد من خارج البار عبر الزجاج فقط، حتماً سيعتقد أنها شقيقتها الصغرى تسير خلفها، يا للعجب نفس قصة الشعر. جلست وتناولت حبة فستق وقشّرتها بطريقة مبتكرة وقذفت بها من على بعد نحو فمها بدقة ولم تخطئ، مما يؤكد أنها تعلمت هذه الحركة منذ طفولتها، ثم ارتشقت رغوة ومسحت بسرعة شفتها بمنديل ابيض لتستبعد أى لحظات مضحكة وسط هذه التراجيديا وسألته:

- ماذا فعلتم مع تلك السيدة التونسية السمسارة؟ لا تقل لى أنها خدعتكم وهربت بأحلامكم؟

هذا هو بالضبط التوقع والإحساس الذى كان يراود عامر درويش، فمن مماطلتها المستمرة بدأ يشك فى مصداقيتها، وتوقع اختفاءها فى أى لحظة وللأبد، وندم أشد الندم، لتسرّعه وتسليمها أجرة التهريب إلى ايطاليا كاملاً له ولصديقة سامى قنديل، كان من الأجدر أن يدفعا لها عربوناً حتى موعد التهريب، ولكنهما بعد أن شاهدا صيف مالطا، بدت لهما ايطاليا على بعد خطوة واحدة وليس هناك سبب

واحد لترددهما، لم يراودهما أي شك أن تنصب عليهما، خاصة أن هناك عدداً من المهاجرين الذين ينتظرون دورهم فى الترحيل ويقيمون معهم فى نفس المنزل. ولكن بعد الإحباطات المتوالية أصبحت مخاوف عامر درويش تتطور، فعندما تأتى السمسارة التونسية لتؤجل الموعد وتعلن عن آخر، كان فى تلك اللحظات بالذات يقرر مع نفسه قراراً دون أن يستشير صديقه، يبدو له هذا هو الصواب بعينه، سيطلب منها أن تعيد لهما مبلغ أجرة التهريب لأنهما صرفا النظر عن هذه المغامرة، ولكن من حسن حظه لم تسعفه الجرأة على قول ذلك، لقد خاف من تبعات قراره ربما ترمى بالأوراق المالية على وجهه وتطلب منهما مغادرة البيت فوراً، ويكون بذلك قد حدّد موعداً آخر مع الندم، وخاصة أذا ما اكتشفا أن العبور نحو ايطاليا لا يتم إلا من خلال هذه السيدة التونسية، عندئذٍ لا أحد يتوقع شماتتها بهما وهما يعودان إليها يتقدمهما ذل. لذلك فضّل أن يكرّج على أسنانه وهو يستمع لتعليماتها خانعاً. وبعد أن تعنِّفهم على إهمالهم للنظافة، تؤكد على الموعد القادم وتخرج. ينفعل عامر درويش ويخرج عن طوره يقف مواجها الباب الذى غادرته لتوها ويسبها بألفاظ بذيئة. بالتأكيد لم يضع فى حساباته احتمال عودتها مرة أخرى فى حالة كونها قد تذكرت شيئاً ما وتفتح الباب لتصبح ضحية وشاهد عيان، ولكن من حسن حظه لم يحدث هذا. كانت لعناته تطول حتى بلوزتها الضيقة، كان صديقه سامى قنديل ينتظره أن يفرغ غضبه مخطئاً الهدف ومن ثم يهدئ من روعه بسرعة فائقة.

• • •

كان يمتلك صبر العناكب، وله مقدرة وتكنيك مدهش فى تحويل الغضب واليأس إلى متعة حقيقية، يقترح عليه أولا الخروج من هذا البيت الكئيب، ثم يبدأ فى تنفيذ خطته يقوده عبر طرقات متعرّجِة، يخرج من جيبه تفاحة استأصل جزءها المعفن، يتناوبان على قضمها فى صمت، لا يسمعان سوى صوت المضغ، ومن ثم يشرع فى تعليقات ساخرة، مقارنات غير متكافئة بين تلك الأزّقة المتربة التى كانا يسيران عليها تحت رحمة إضاءة شاحبة حتى يصلان إلى بيت بائعة العرقى وقوات النظام العام فى الخاطر، فى هذه اللحظة بالتحديد يشير سامى قنديل موجها نظر صديقه لشابه مراهقة تمرجح فخذيها الأبيضين في دغدغة ولذة، تتحرك بغنج على حجر صديقها الجالس على حافة مصطبة وهى مطبقه فمها على شفتيه بانفعال، كأنها تود أن تبتلعه قبلة واحدة، تخيل دهشة قوات النظام العام إذا شاهدوا هذا المنظر. هكذا علّق سامى قنديل وابتسم عامر درويش ولم يتأخر ذهنه فى التغلغل داخل مفارقة عجيبة، تخيّل هذه اللحظة الرومانسية التى تحوّلت فجأة إلى رعب مميت، بسبب الهياج الهستيرى الذى أصاب قوات النظام العام، اقشعر بدنه عندما تذكر تلك السياط وهى تنهال بلا رحمة وتدمى هذه الأفخاذ التى تتململ الآن بلذة. قادهما الطريق المتعرج إلى ساحة كبيرة يتجمهر بها السياح عادة وهذا جزء من الخطة التى رسمها سامى قنديل بخياله الواسع فى ابتكار المتعة، لقد أصبح خلال فترة قصيرة يعرف كل شوارع مالطا وأزقتها، استدرجه إلى هذه الساحة ولم يتوقف عن

قفشاته وتعليقاته الساخرة، يلفت انتباه صديقه ليتابع معه مفاتن نسائية فى متناول الأعين. يدوران حول حافة النافورة الكبيرة ويهمس لعامر درويش، نحن الآن يا صديقى نقوم بطواف الوداع و المآرب الأخرى، يجب أن نتبرّك ونجس نبض علب البيرة المنسية على حافة هذه النافورة، يا للمتعة، بعضها لا زال محتفظاً بالبرودة، حاول يا صديقى أن تجرِب نكهات متعددة، هذا هو الفرح المعلب. ارتويا حتى مرحلة الضحك والترنّح، حتى داهمتهما حاجة ملحة للتبول، وقفا بلا "سنتات" أمام امرأة عجوز تحرس الحمامات العامة توسلاها بلغة الإشارة. كان منظرهما مضحكاً، حتى أنها أفسحت لهما المجال خوفاً من يفرغا مثانتيهما أمامها، وأثناء وقفتهما الطويلة متجاوران تفصلهما ألواح رخام ملساء اعترف عامر درويش لحظة ارتعش جسده بلذة كهربائية هزته بقوة انه لأول مرة يشعر بنشوة التبول ورد عليه سامى قنديل، وتخيّل يا صديقى إن كنت دفعت سنتات مقابل ذلك، من المؤكد ستكون نشوتك مضاعفة. ولم يتوانى عامر درويش أو يكترث ليطلق العنان لضحكته مما سمح للقطرات الأخيرة بأن تسيل على بنطاله دون أن يشعر بها، وقف ببقايا ضحكته أمام العجوز حارسة الحمامات يشكرها بكل اللغات التى يعرفها وكاد أن يقبل رأسها مقابل هذه الراحة التاريخية، تفادت إلحاحه ونظراتها لم تبارح بنطلونه المبتل. بعدها ابتلعهما زحام الجزيرة وضجتها، وبلا اتفاق نمت لهما جرأة لم يتوقعاها، راحا يغازلان ثلاث فتيات بعدد محدود من مفردات اللغة الايطالية وهما يسيران خلفهنّ لمسافة

طويلة، حتى توقفت إحداهن وخنقت خصرها بكلتا يديها وراحت تتكلم معهما بلغة وتعابير حركية غير مفهومة، اختلفا فى ترجمتها سامى قنديل قال:

– لم تكن غاضبة ولكنها مستاءة من هذه المغازلة، أعتقد أنها ليست جزءاً أصيلاُ فى سلوكهم.

ولكن عامر درويش كان ملحاً على متابعتهن إلى النهاية وقد اختلف عن صديقه فى التفسير.

– ألم تلاحظ لحركة إشارتها، لقد كانت تقول لنا إن كنتما تستطيعان إشباع ثلاث فتيات فمرحبا بكما.

– لا، هذا التفسير فقط فى ذهنك أنت يا صديقى.

يتمسك عامر درويش برأيه:

– حسنا ماذا كانت تعنى عندما أشارت بأصابع يدها الثلاثة؟

– لا تتفاءل يا صديق، بديهى أنها كانت ستحسب لنا حتى الرقم ثلاثة وبعد ذلك إذا شاهدتنا نتابعهم سيكون لها تصرفاً آخر.

نشوة الكحول مهدّت لخلاف حميم، انتهى برأى قاطع لعامر درويش بأن صديقه ليست لديه أى اهتمام بالنساء بتاتاً، ولم يخض تجربة جنسية فى حياته وحتى العادة السرية لا يمارسها، ليس للوضع علاقة بتربيته وحيائه المفرط أو أن لدية ضعفاً جنسياُ، ليس هناك سبب واضح وخاصة أن علاقته بالفتيات فى الجامعة كانت جيدة، حتى هو لم تكن لديه فكرة لماذا هو مختلف عن زملائه؟ لم يداهمه ذلك التجويف العاطفى الذى يأتى بعد المراهقة مباشرةً، وفى الغالب

يُملأ بعلاقة عشقية وأحلام متضخمة، وربما التّضخم الذى أصاب كبده والبنكرياس بسبب مرض البلهارسيا أعاق مراهقته. ففى الوقت الذى كان أقرانه يتعلّمون كتابة الرسائل الغرامية ويستمعون لبعض المحظوظين الذين تلقوا رداً على رسائلهم، كان سامى قنديل فى ذلك الوقت يتدرّب على الصبر من خلال قطرات الدم التى تنقل إلى وريده فى احدى المستشفيات البائسة، حارب القلق بقراءة كتب وروايات لم تكن عميقة فى ذلك الوقت ولكن لا بأس بها، كان يعود للبيت لفترة قصيرة، لم تكن كافية ليستمتع بأسرته أو يعود للشارع حيث أصدقاؤه يمارسون حياتهم الطبيعية وألعابهم المختلفة، فسرعان ما ينتكس ويصبح فى حاجة ماسّة لنقل دم وبصورة عاجلة، ليغيب عن مزاولة دوره كمراهق. إحدى هذه النكسات كانت سبباً فى لقائه بعامر درويش، كانت صدفة مثل كل الصدف التى تصادف البشر، ولكن في ما بعد روّج عامر درويش لها واقنع زملاءه بأن لقاءه بصديق عمره كان مدبراً من كليهما، فلم يكن هناك سبب منطقي يجعله يأتى إلى حوادث المستشفى برفقه شقيقته الكبرى التى كانت ترافق عادة والدتهما من أجل حقنتها اليومية، غير أنه جاء ليلبى دعوة هذا اللقاء، شيء ما جعله يقرر أن يذهب معهما ويتنازل عن متعة لمة أصدقاء الحى تحت عامود النور، حتى أن شقيقته اندهشت من مراهق متمرد يسير مع شقيقته ووالدته دون خجل أمام أصحابه، فى تلك اللحظة كان سامى قنديل ممدداً على نقالة قذرة داخل حوادث المستشفى، ويتألم فى سرِّهِ مستلفاً صبر الأنبياء.

• • •

بالقرب منه أيضاً والدته وشقيقته والصدفة التى يعتبرها عامر درويش تكمن هنا فقط، عندما التقت الأعين للحظة وكل منهم ابتسم للآخر من دون سبب، ومن بعدها انتبه عامر درويش لرأى الطبيب الواضح الصريح وهو يطلب من والدة هذا الصبى أن تبحث لوحدها عن متبرعين بالدم، عندئذ كان هو أول من تقدّم نحو الطبيب وأعلن أنه متبرع بدمه. أمام دهشة والدته التى عاتبته بنظرة حادة، أما شقيقته لم تتوارى وصرّحت برأيها علناً وقالت له بصوت حاد:

– عامر، أنت عمرك صغير على التبرع بالدم.

ونظرت للطبيب حتى يتفق معها فى الرأى، ولكنها لم تتمسك بحجتها كثيراً لأنها تعلم أن شقيقها عامر عنيد وسيركب رأسه. تركته يتبرع بدمه لصبى فى مثل عمره وفي ما بعد ستسخر من نفسها عندما شاهدت عمق هذه الصداقة التى نشأت بين شقيقها وهذا الصبى، صداقة استمرت حتى الجامعة. ظل سامى قنديل يحس بدم صديقه يسرى فى عروقه ويؤكد فى غياب عامر درويش، صديقى هو من يتحكم فى ضخ الدم، أعتقد إنه لم يترك مجالاً لقلبى أن يخفق من أجل أنثى، لم تراوده أى رغبة فى أن يلتزم بعلاقة عاطفية أثناء دراسته الجامعية، ممّا أتاح له فرصة نادراً ما تصدق مع أحد، لقد حُظِى بحب كل الفتيات فى الجامعة لأنه كان يتمتع بحميمية مفرطة. أثناء تسكعهما فى هذه الجزيرة الصاخبة، انتبها فجأةً لجمهرة أمام احدى المتاحف، جذبتهما الموسيقى والإيقاعات الإفريقية، فابتلعتهما الدائرة، راحا يرقصان بطريقة هستيرية كأنهما داخل حضرة

صوفية، وجدان التشجيع والمؤازرة من السياح، رقصا حتى أنهكهما التعب، غادرا الدائرة وكل منهما يحمل علبه بيرة باردة فى يده، مكافأة مستحقة من بعض محبى الرقص، سارا متعانقين على ضحكة لا حدود لها. صادفتهما جمهرة أخرى حول سينما، لحظة الاستراحة على ما يبدو، فيتابعان الفيلم من الجزء الثانى مجاناً بمتعة واستيعاب كامل للقصة، قال سامى قنديل:

– أعتقد استمتعنا أكثر من الذين شاهدوا مقابل تذاكر.

يضحك عامر درويش:

– فعلاً، استمتعنا، رغم قناعتى بأن هذه النوعية من الأفلام تنتج من أجل قتل الوقت ليس إلا.

وضع سامى قنديل يده داخل جيبه وتحرّك نحو مقعد حديقة قريب منهما وسأل صديقه:

– هل تؤمن يا عامر باستنساخ الأرواح كما يحكى هذا الفيلم؟

جلس عامر درويش على المقعد، وقبل أن يجيب على سؤال صديقه تأمل شاباً وصديقته يجلسان على المقعد المقابل، كانا ملتصقان بحميمية مفرطة، خاصرته بقوة ودفنت رأسها داخل صدره واحتواها هو بكلتا يديه، ممّا أتاح لعامر درويش الوصول لاستنتاج سريع بأن كلمات العشق لم تعد تَفِي بغرضها. ترك سامى قنديل بضع ثوانٍ تمضى عن قصد، ثم طرح سؤاله بطريقة مختلفة:

– أنت لا تؤمن بوجود حياة بعد الموت، أليس كذلك؟

– أنا لم اعد أؤمن بشيء مطلقاً، ولكن فى اعتقادى يا صديقى.

الموت هو أهم الأفكار، أنا متفق مع فكرة الذروة تصل أقصى درجاتها مع فعل الموت.

يسند سامى قنديل ظهره على مقعد الحديقة ويجيبه:

– ولكن الأفكار قابلة للتبديل.

– صحيح، من الممكن أن تتغير قناعاتى حسب البراهين.

– بعد أن نصل إلى أوروبا لن تعود ذلك الشخص اللامنتمى، ستنظر إلى الحياة بطريقة أخرى فى ظل حرية مترفة.

قال عامر درويش:

– ربما.

نطقها وكما لو أنه يشك فى نفسه. ونبش هذا الحوار شكوكه حول الوصول إلى ايطاليا فالتفت إلى سامى قنديل:

– هل تعتقد أننا سنفعلها ونعبر إلى ايطاليا؟

قال سامى قنديل:

– بكل تأكيد.

أخرج عامر درويش زفرة حادة وقال:

– لدى إحساس سيئ تجاه هذه المهرِّبة التونسية، ربما تختفى فجأة.

– تقصد أنها تهرب.

يهز عامر درويش رأسه موافقاً. يستطرد سامى قنديل:

– لم أفكر فى ذلك مطلقاً، ستكون كارثة إن حدث توقعك، ولكن لا أعتقد أنها ستفعل ذلك، أنا متأكد.

نظر له عامر درويش نظره خاطفة وقال:

– ما الذى يجعلك متأكدا؟

– ببساطة شديدة لأنها هرّبت قبلنا دفعات من المهاجرين. أبعد هذا الشك من ذهنك ودعنا نحلم بحياة أفضل. هيا بنا الآن فأنا جائع.

ثم بعد ذلك شرعا بهمة وعزم للحصول على وليمة منتصف الليل من أزقة المطاعم، ومن ثم عادا ادراجهما، كان يسيران فى صمت خاص، صمت يعتنى فقط بلحظة انسحاب مفعول الكحول من حالة السكر إلى حالة النشوة، انسجام معلن فى قائمة سريان الدم، فقدان تدريجى للكآبة، شعور لا يحس به إلا ذو حظ عظيم. متعة محسوسة ومرئية تعرب عنها بوابة حديقة أوروبا الخارجية – مالطا – الطقس، الحرية، وكذلك الخمر والفتيات، دعوة صريحة تفتح الشهية على مصراعيها بلعاب سائل على الشواطئ الأوربية.

فى لحظة لم تكن فى الحسبان، جزءاً من أمسية عادية دخلت عليهم خديجة التونسية، بمكياج لم يؤدِ وظيفته بدقةٍ، أفقرها لمواصفات الجمال العادية، مبتهجة، أعلنت بصوت عالٍ وبه شيء من الثقة، وذلك بعد أن أغلقت الباب بإحكام:

– الليلة ستبحرون إلى الشواطئ الإيطالية.

أبناء كل دولة تعانقوا داخل الحدود الخاصة بهم، كان معها المهرب بنفسه. قدمته للتعارف، تونسى الجنسية ذو جسدٍ نحيل، يبدو عليه مجرد صيّاد أسماك، صافح الجميع بصمت. كان اسمه ميلود يرتدى بنطلون جينز وسترة سوداء لا تناسب مقاسه بأى حال. الذى يتمعّنه بتفحص يكتشف انه لم يشترِ هذه الملابس، من المؤكد أنها تخص

ميتاً صاحب أكتاف عريضة وتمتّع فى حياته، كان محرجاً بعض الشيء، ثم وقف متردداً، شرح خطة الإبحار بلهجة عويصة وصوت مرتبك ولم يفهمه احد.

بعد منتصف الليل نقلتهم خديجة التونسية بعربة خاصة بالبضائع يقودها شخص أشقر طويل القامة، كدّسهم داخل صندوق الشاحنة كتدريب أولى على المغامرة القادمة وسارت بهم لأكثر من ساعة. مما جعل سامى قنديل الخبير بمالطا يؤكد أن الشاحنة قامت بدوره كاملة حول جزيرة مالطا كأنها مركبة فضائية تريد أن تنعتق من جاذبية الأرض. ظلوا فى صمت مرعب، عيونهم جاحظة، نفس الرعب الذى تعرّضت له الكلبة "لايكا" وهى داخل اسطوانة وفى طريقها إلى القمر، وهى لا تعلم أنها مهما تبوّلت لن تعرف طريق عودتها. بعد ذلك خرجت الشاحنة عن جاذبية شارع الأسفلت وسارت فى طريق وعر ومظلم ثم توقفت كأنما اصطدمت بصخرة، رجّتهم بقوة. نزلت خديجة التونسية من الكابينة الأمامية وفتحت لهم الباب وطلبت منهم النزول بسرعة ويتبعونها بحذر نحو الساحل، ساروا خلفها فى طابور مُعْوج على طريقٍ منحدر بشكل مرّعب، كان الظلام فى أشد حالة سواده، ترجتهم السمسارة ألا يصدروا أصواتاً مطلقاً. كان المنحدر جزءاً من نفق جبلى نبتت على أطرافه أشجار قصيرة، راحوا يتلمّسون مواقع أقدامهم وأنفاسهم محبوسة تدفعهم أحلامهم، وعند بلوغهم بمشقة ساحل البحر، أمرتهم بالاختباء خلف الصخرة الكبيرة، لان هناك إضاءة شاحبة منبعثة من الميناء والسفن التى على المرسى. تدافعت

المجموعة بهرج وارتباك، اصطدمت أجسادهم بسحناتها المختلفة، إلى أن تمكنوا بصعوبة بالغة ليندسوا خلف الصخرة فى تلاحم دافئ، لم يكن هناك شيء يتابعونه سوى زبد الموج الأبيض الذى يتشبث باليابسة، يستريح هنيهة على الصخور ثم تأتى موجة أخرى كأنها مبعوثة بمؤامرة من البحر نفسه ومخوّلة بطرده للأبد ولكن يعود مها مرة أخرى ويستأنف المحاولة بلا يأس. ظلوا متوجسين فى انتظار الخطوة التالية، حوارات إقليمية شحيحة يشوبها الحذر، كل أبناء دولة تهامسوا فيما بينهم، منهم من عبّر عن فرحته دون مواربة:

- ألم اقل لك سنفعلها يا صديقى؟

همس سامى قنديل لعامر درويش الذى بدأ مضطرباً وليس لديه أدنى فكرة عن هذا الخوف الذى داهمه فى تلك اللحظات الأخيرة، لقد استعجب من نفسه كان هناك شيء يحول دون فرحته بهذه اللحظة التاريخية ولولا الخدمة الجليلة التى قدّمها له الظلام الدامس لشاهد الجميع جسده يرتعش، حتى إنه حاول أن يجلس ليمنع أقدامه من الارتجاف ولكن شعر كأنه سيخالف القواعد المتبعة فى هذا الوضع المتوتر ولن يتحمّل نظرات العتاب التى سترمقها به السمسارة، التى هى الأخرى كانت محتمية معهم خلف الصخرة وتتحدث بجهاز لاسلكى مع شخصٍ ما، بلغةٍ لم يفهمها أحد. وفى لحظة ما تركتهم دون أن تتخلى عن تحذيراتها لتعود بعد لحظات بصحبة خمس فتيات واحدة افريقية ببشرة لا تسترها هذه الظلمة وترتدى أسوأ ثياب تناسب رحلة إبحار، وأربع أخريات بملامح عربية باهتة وعلى رؤوسهنّ التفت

خرق بالية، تختزل البؤس الذى انحدرنّ منه، انتبه الشباب بلا مبالاة لهذه العناصر النسائية التى انضمت للمغامرة، ولكن لا أحد تشكل لديه انطباع ذكورى فى تلك اللحظة، لأن حالة الأنانية كانت طاغية، الكلّ محصن داخل قوقعته. رغم ذلك تظل العادات المتأصلة لا تخطئ هدفها ولو لحين. مرت لحظات مشحونة بالترقب، خوف فى طور نمو، تجسيد متقن لرّعب الغزلان. بدأت أعينهم رويداً رويداً تفرض نفسها على العتمة، اعتادوا على الرؤية فى الظلام بوضوح غير مدرك، كانوا يتابعون حركة رأس خديجة التونسية يلتفت فى كل الاتجاهات، أقلّهم رعباً هو من أقنع نفسه بخدمة لم توكل له، فقام بإحصاء عددهم، كانوا حوالى عشرون شخص. مرّت عليهم لحظات شعر بعضهم بالنقاط السلبية تتعاظم، وأن انتماءهم لطبقة البشر يبدو مزيّفاً. وبلا توقع اقترب منهم شبح ملثم ليكتشفوا أنه المهرب ميلود التونسى نفسه. كانت الحصيلة، تنفس الحظ الصعداء. وبعد أن عاين المكان جيدا طلب منهم أن يسيروا خلفه بذات الصمت والأدب ليصعدوا بهدوء تام داخل زورق مطاطى أشبه بزوارق النجاة التى تحملها السفن الكبيرة، مرفقا به موتور بصوت كاتم، أمسكوا بالزورق وهو يترنح على الشاطئ، وضعوا أغراضهم فى الوسط وتركوا الفتيات يقرفصنّ أولاً مع الحقائب الصغيرة والأكياس ثم جلس الشباب على حواف الزورق بحذر لتنطلق المغامرة نحو الشواطئ الإيطالية. كان عامر درويش يجلس فى مقدمة الزورق بين ميلود وسامى قنديل ملتزماً بفطرة الخوف حتى انه لم يتبادل مع صديقة جملة هامسة.

كان الصمت هو الذى يبحر كأنه احد إفرازات الليل الحالك، لا يُسمع سوى أزيز الموتور وانزلاق الزورق على سطح الماء، حاول عامر درويش سحق توتره بفكرة ما، فهمس لنفسه، معضلة جيلنا تكمن فى عدم وجود روح المغامرة، نبحث دائماً عن أسهل الطرق، والاعتماد على تجارب مضمونة. أما الأبطال الرائعون هم وحدهم من يبتكرون تجاربهم، لحدٍ ما شعر بالرضا وسطعت أسنانه فى ظلام يدعو لمتابعة أنوار الميناء، راح يتأمل حاملة الطائرات الأمريكية العملاقة الراسية على أطراف ميناء مالطا وراداراتها تدور مصدرة إنارة حمراء، ولسبب ما توقّع أن يتم القبض عليهم بعد أن ترصدهم هذه الرادارات، تابع الإضاءة فى الميناء هل هناك حركة أنوار تقترب منهم، لم يلاحظ سواء ابتعاد تلك الأنوار التى أصبحت عبارة عن هالات ضوئية شاحبة، متناثرة كشظايا، والزورق يبتلعه ظلام تام، وعلى ذهنه المتشائم يبتكر تخيّلات أخرى، يتوقع الأحداث الأسوأ، أن تتحوّل هذه الظلمة فى لحظة إلى أنوار كاشفة مصدرها ثلاثة زوارق بإضاءات جاهرة والمكبر الصوتى يفزع حتى الأسماك. يطلب منهم التوقف، كان يتوقع الفشل حتى لا يحدث، هذه عادة متفشية يتم تغليف الأمنية باحتمالات عدم تحقيقها. أولاً ليتستّر عليها من القدر وسوء الحظ، وثانياً للتخفيف من وطأة الإحباط المنتظر. واظب عامر درويش على الترقب، نظراته عبثاً تتفرّس الوجوه المعتمة، يطوف بعينيه حول القطيع الخائف من مغبة التصدير، يتساءل، هل يا ترى صمتهم هذا يعنى نفس إحساس النحس الذى ينتابنى؟ لم يهتدِ

لإجابة، وتعذّر عليه التفكير فى حد ذاته. رجع يتابع الأنوار وهى تبتعد وتتضاءل فى ذات اللحظة، ثم التجأ دفعة واحدة للقوة الخارقة وباستحياء راح يدعو الله سراً، فارضاً نفسه على الغيبيات، مُطوّحاً بقناعاته واعتقاداته، والمبادئ، قدّم أولاً اعتذاراً إلى الله عن عجزه وعدم مقدرته لرفع كفيه للأعلى ليبتهل لأنه ممسك على طرف الزورق البلاستيكى حتى لا يسقط، رفع رأسه للسماء نيابة عن كفيه توسّل ربه بعينين مغرورقتين: ألا يتم القبض عليهم، ويصلوا بسلام، أخفى لحظة انكساره، خوفاً من أن يقبض عليه سامى قنديل متلبساً، ظل وجهه للأعلى وهو يغمغم كما لو كان ينقل فى وشاية. السماء كانت مزدحمة بالنجوم كأنها ليلة استثنائية، الظلام الدامس وحده كان وراء هذا المشهد الخلاب، لم يكن هناك "سنتيمتر" واحد خالٍ من البريق واللمعان، سقف من الشظايا، ولولا هذه اللحظات العصيبة كان يمكن له أن يحتفل بهذا المنظر الخلاّق. عاد يراقب أنوار الميناء التى أصبحت معلّقة فى فراغ مظلم، كأنها امتداد للسماء، وحتى أنوار السفن كانت تبرق مقلدة النجوم. تحوّلت الإضاءة هى الأخرى إلى دوائر متخيلة، تبتكرها العين المدمعة مرتبطة بجاذبية بؤرة العين والتكوين الافتراضى، عندئذٍ شاهد وجه والدته داخل احدى الهالات المضيئة، وجهها يطل من العدم تتضرّع معه بهمة، تقف حافية على رمال إحدى المزارات التى تؤمن بها وبيدها راية خضراء تخص أحد أولياء الله الصالحين الذين تعتقد فيهم ويستجيبون لدعواتها أكثر من رب العالمين. كانت ملامحها كئيبة، نفس الحزن الذى صاحبها فى

أيامها الأخيرة بمستشفى الخرطوم حتى أنه اشتم تلك الرائحة الكريهة التى تنبعث من ذلك العنبر الذى لفظت فيه روحها، أغمض عينيه مسافة كانت كافيه لإعادة أسوأ المشاهد فى حياته وهو جالس على مصطبة أمام عنبر الباطنية يتحدث مع سامى قنديل وأسرتيهما، يجلسون على سجادة مهترئة حول متطلبات الزيارة من أكل وقهوة. كان هو الذى يتكلم عندما اندفعت شقيقته البكر سلوى خارجة من العنبر بكرشها المنتفخ، فقد كانت فى شهور حملها الأخيرة، عبثاً كانت محاولات الممرضات والطبيب بالإمساك بها، أفلتت من بين أيديهم برعب الحزن، صارخة بأعلى صوتها:

- أمى ماتت يا عامر.

لتنطلق صرخات من كل جانب، أفزعت الطيور النائمة على أشجار "المسكيت". جرت شقيقته فى اتجاهات بلا معنى، راحت تتخبط عشوائياً، شقيقة سامى قنديل وحدها من استطاعت السيطرة على هذا الحزن المندفع، لقد انهارت شقيقته، لأول مره فى حياتها تشاهد لحظة خروج الروح، كانت لحظة مرعبها بالنسبة لها. أما هو فوقف متبلداً، تائهاً، لم يودع أمه، امتلأت عيناه بالدموع محافظاً على وقفته المستقيمة كأنه يعاند دموعه حتى لا تسقط، كانت ليلة أشبه بهذه اللحظة، شحنة كآبة تم توزيعها عشوائياً ومجاناً. كان أزيز محرك الزورق يكاد لا يسمع، جعله مطمئناً أن شرطة السواحل لن تسمع أو ترى، لذلك نقل الطمأنينة لصديقه وهمس فى أذن سامى قنديل بهذه السكينة، لان الآخر كان أيضا مرعوباً من فشل المغامرة أو هكذا قد

تخيّل. هبّت نسمة باردة من وسط البحر جعلتهم يطأطئون رؤوسهم داخل الزورق، وبعد أن اختفت مالطا عن الأنظار لم يعد يرى أحدهم ظلال الآخر وأصبح الزورق يرتفع إلى الأعلى ويهوى ليرتطم بالماء بقوة ويقذفهم إلى أعلى. فصرخ بهم ميلود:

– تمسكوا جيدا.

تدافعوا بالغريزة نحو الوسط. استمر الزورق يتقافز بين الأمواج العاتية برشاقة، لمسافة تحبس فيها الأنفاس ويسقط بقوة ارتطام لا يستطيع أحد تخمين لحظة السقوط أو توقيتها، كانت الرّجة عنيفة، تكاد تقتلعهم بالقوة. الخوف يستبدل أدواته فى العتمة، ويواجههم برُعب لم يكن فى الحسبان. الفتيات المهاجرات أثبتنّ أن لديهنّ طاقة جبارة فى استخدام الحناجر، صرخنّ بفزعٍ وهلع. توقّع الجميع أنه الخوف الأنثوى الرائج فى مثل هكذا حالات من الزوبعة. تجاسر الشاب النيجيرى الضخم وعنّفهنّ بصوته المزمجر، طالباً منهنّ السكوت، ولكن إحداهن أعلنت بصوت عالٍ:

– إن المياه تتسرب من تحتهنّ بقوة.

لحظتها ارتعب الجميع عدا ميلود الذى طلب منهنّ استخدام وشاحاتهن التى يسترنّ بها رقابهنّ فى تجفيف الماء، واستمر يقود الزورق ولكنه خفف من سرعته، انشغل الكل بمحاولة تجفيف الماء مستخدمين كل الوسائل المتاحة ولكن بلا جدوى . كان الماء يزداد تسرّبه طردياً مع بكاء وصرخات الفتيات ليصاب الجميع بالهلع والظلام الحالك كثّف من حالة الاضطراب والهيجان وعدوى الخوف

تفشّت بصورة مزرية، أصبحت دربكة عُميان على قمة هاوية. وفى احدى وثبات الزورق العالية وصرخات الذعر تتطاير كرزاز، سقط بقوة كاتماً على حناجر الفتيات للأبد. لقد تفتقت أرضيته البلاستكية وانفصلت بالكامل. كان المشهد مرعباً للغاية لقد انفصل الجزء التحتى من الزورق فى لحظة من الثانية لتغيب الفتيات الخمسة للأبد، ومن رعب المفاجأة تأخرت محاولات الإمساك بهنّ، وسوء الحظ فتح فكيّه وابتلع الشهامة دفعة واحدة، لقد اندفع ثلاثة شبان كانت نواياهم واضحة وملامحهم استفرد بها الظلام، بذلوا مجهوداً مضاعفاً للمحافظة على أرواحهم، بالكاد كانت تسمع أصواتهم مع هدير البحر حتى غمرتهم موجة عاتية، كانت تلك هى أول الجثث التى وصلت شواطئ مالطا. توقّف بعد ذالك الزورق الذى أصبح عبارة عن طوق نجاة بيضاوى كبير الحجم تشبث به الجميع بأيادى متشنجة، بعد أن أصبح الجلوس على حوافه دون أرضية مستحيلا، أما أجسادهم فظلت مغمورة تحت المياه ترتعش من شدة الخوف، حالة من الذعر والهيجان لم يتواروا فى التعبير عنها بصرخات مضطربة والأمواج الهائجة تبطش بهم بلا رحمة، كأنها تختزن ثأر قديم، تطوّح بهم نحو هاوية معتمة وتصفعهم موجة أخرى تكتم أنفاسهم والصرخات، لا أحد كان يفكر فى تلك اللحظات العصيبة، الغريزة الطبيعية وحدها هى التى كانت تؤدى فى واجبها بكل نزاهة، ورغم ذلك تخاذلت بعض الأجساد بعد أن أشفق عليها الموت نفسه، فالقدر لا يملك ضميراً ليحاسب، تضاءل عددهم دون انتباه. لم يستطع أحد أن يتأمل جمال

الشمس الخرافى وهى ترتفع من سطح الماء ببطء كأنها غواصة عملاقة قذفت بأشعتها أفقياً على سطح الماء كأنها مسحت الأمواج بطبقة ذهبية لامعة، ليصبح البحر عبارة عن بحيرة ساكنة، الرياح أُسكتت، الوجوه بُعثرت، الأذهان شُوّشت والقلوب جفلت، والأرواح التى غادرت بأى حقٍ صُودرت. لا أحد تجاسر ولام المهرب ميلود أو عنّفه، كانوا يتابعونه بأعين جاحظة وأمل ممحوق، أما هو فظل متشبثا بيد واحدة ويحاول بالأخرى إصلاح الموتور الذى تعطّل بسبب القطعة البلاستكية التى فرمتها المروحة وأصبح تشغيلها بهذه الوضعية يبدو مستحيلا، حاول أن يرفع الموتور بمروحته على الحافة التى تشبه ظهر الدلفين غاصت به وانزلق مما أشاع الهلع بينهم وبقانون فطرى كبست أيديهم على حواف الزورق بعصبية، لم ييأس ميلود من محاولته، قام بمحاولة التجربة مرة أخرى من داخل دائرة طوق النجاة، غطس إلى المروحة وحاول أن ينزع عنها البلاستيك الملفوف حولها، تترّقبه الأنظار متوجسة حتى تكبس عليه أنفاسه فيخرج رأسه بشهقة عالية، كانوا يحبسون أنفاسهم معه كجنود على خنادق مائية يترقبون بصبر متآكل وهو يحاول إبطال لغم . كل واحد دافع عن حياته ببسالة نادرة، ما أبشع اللحظات التى على المرء أن يكون مرغماً على النضال من أجل حياته. ظل الوضع ساكناً لمدة زمنية طويلة ومحاولات ميلود التونسى تراوغ الجميع وخلّصت الأجساد من توترها قليلاً، أصبحوا جميعا طافحين على سطح الماء وتخلوا عن القبضة العصبية على حافة الزورق، حتى عامر درويش الذى لا

يجيد السباحة استطاع أن يطفو بجسده ومستندا براحة يديه فقط على الزورق ولم ينتبه حتى لخفة وزنه على الماء، فى تلك اللحظات فقط انسلخ الجزء الأمامى من الرعب، راح كلٌ ينادى باسم صديقه ليطمئن انه ما زال حياً، سامى قنديل هو الذى نادى على صديقه عامر دروش الذى صرخ بدوره من شدة الفرح عندما سمع صوت صديقه، وبدأت بينهما حوارات قليلة بعضها كان عبارة عن تحسّر يخص الذين سقطوا من الزورق مع بدايات الفجر، كان ضمن المفقودين ذلك النيجيرى القصير الذى يبكى دائما عندما يتم تأجيل موعد الإبحار، تذكّر عامر درويش ذلك الوجه الطفولى الباكى، كأنه كان يتعجّل نهايته، صدرت عن البعض آراء انفعالية تتخبّط حول الخروج من هذا المأزق، الغالبية كانت تتحدث العربية، أما الأفارقة فقد كانت لهم اقتراحات تبدو مفيدة وجيدة ولكن لم يفهمها الآخرون. أصبح الجميع معلِّقا حياته وآماله فى النجاة على محاولات ميلود اليائسة فى تشغيل الموتور، قام بمساعدته الذين يجيدون السباحة، النيجيرى صاحب الجسد الضخم دخل وسط الأنبوب من الداخل وغطس عدة مرات واستطاع أن يمزق جزءا قليلا من البلاستيك الملتف حول المروحة، ثم قام بمحاولة كانت عملية على ما يبدو وقلب الموتور لترتفع المروحة خارج سطح الماء وحافظ بقوة على التوازن ليتمكن ميلود بمعاونة آخرين من تحريكها، ورغم ذلك باءت المحاولة بالفشل ليتفشى إحباط يؤرشف إلى نهاية حتمية. خلص البعض إلى نتيجة عبثية مفادها الموت غرقاً أو عن طريق اسماك مفترسة، وبمجرد ما

خطرت على الأذهان فكرة الأسماك المفترسة أصبحت الشكوك مرعبة، تخيّلات تجعل العيون جاحظة تتابع الخطر المتوقع، فك مفترس لا يبدأ بخطة مسبقة، سيطبق فكه بغباء جشع على الأطراف البارزة معتمداً على الحظ فقط، ثم يدور حول الضحية بدافع سوء النية، أصحاب هذا الخيال المسبق تشبثوا بحافة الأنبوب بقوة وتقوقعوا كلٌ داخل رحم. اقترح عليهم ميلود فكرة أنعشت الآمال، من الطبيعى جداً أن يكون هو وحده الذى كان يفكر فى تلك اللحظات ليتحولوا هم إلى جنود يتلقون الأوامر وينفذونها دون أخطاء، ساعدوه فى التخلص من الموتور بعد أن اكتشف عدم جدواه وحتى لا يصبح عائقا وعبئا على حركة الزورق، فبعد أن فصله وتركه يسقط نحو القاع، طلب من الذين يجيدون السباحة أن يلتفوا حول الجانبين ويستندوا على حافة الزورق ويسبحوا به إلى الأمام وهو بدوره سيكون فى المقدمة للتوجيه لأنه يعرف اتجاه شواطئ ايطاليا ولازالت البوصلة ملعقة على رقبته، أما عامر درويش وسامى قنديل وثلاثة آخرين لا يجيدون السباحة عليهم التمسك بأنبوب الزورق من الخلف وبعضهم من داخل الدائرة المجوفة، بدت الفكرة مشجعة وأنعشت غيبوبة الإحباط، أظهر الجميع إصرارا وعزيمة، حرّكوا أجسادهم بانفعال عشوائى ليدفعوا الزورق نحو الأمام، استمروا فى هذا الوضع حتى أصبحت الشمس فى وسط السماء، فتوقفوا عندما نال منهم التعب وداهمهم عطش لم يكن فى الحسبان. قرر ميلود أن يرتاحوا قليلاً ثم يواصلون الإبحار، كل المؤن والمدخرات سقطت مع الفتيات لحظة

انهارت أرضية الزورق البلاستكية، ضاعت مع الأرواح، بعضها دفعته فيما بعد الأمواج نحو شواطئ مالطا للإعلان عن قرار الموت قبل صدوره. عاد اليأس أشد رعباً من الإرهاق، اتكأت الرؤوس على حافة الزورق والأجساد طافحة والأوجه تنظر إلى السماء التى تحتلها الشمس بلا منازع، كان المنظر من أعلى لا يشبه الواقع إطلاقا كأنهم يقدمون إحدى عروض الرقص الاستعراضى على الماء. راح سامى قنديل يمارس عادته مع عامر درويش عندما بدأ الأخير فى حالة مزرية، استرجع معه بعضاً من ذكريات أيام مالطا والضحك الذى استهلكوه فى تلك اللحظات:

– لا تيأس يا صديقى هناك متعة تنتظرنا فى أوروبا و لن نتنازل عن أحلامنا كما اتفقنا.

تتلاعب موجة بجسده وتعيق سؤاله:

– هل تعتقد أننا سنعيش؟

يسنده سامى قنديل لتستقر رقبته على حافة الزورق وفى نفس اللحظة يرد على سؤاله حتى يطمئن:

– بلا شك سننجو يا صديقى، وأنت من سيؤرخ لهذه التجربة.

يبلع عامر درويش ريقه بطعم مالح لتنمو داخل حلقه عبرة، ونطق بجملة لا أعتقد أنه فكر فيها:

– ليس لديك أدنى فكرة عن الخطر الذى يتربّص بنا، نحن أموات فى انتظار النداء الأخير.

يهزه بلطف ليطفو جسده على سطح الماء لينشله من دوامة الإحباط:

– لا تتشاءم يا صديقى، لازلنا نملك أرواحاً ونتحكم فى معنوياتها.
بذل سامى قنديل جهداً مضاعفاً وصارع اليأس بأحلام يقظة مكثفة حتى لا يفقد حماسته:
– أكيد سيحالفنا الحظ هذه المرة، أنا اعرف يا صديقى انه خذلنا فى مرات عديدة، جعل حياتنا بائسة ربما تكون ضرورة مقصودة، ولكن هذه المرة لن يجد مفراً سوى أن يحالفنا فى هذه اللحظة المصيّرية.
شعر بأنه كسب الرهان لآن جسد عامر درويش أصبح يطفو مسترخياً دون مساعدة ممّا يعنى انهزام التوتر، فواصل سامى قنديل تداعياته:
– أوعدك يا صديقى، ستمر بعد قليل من هنا باخرة ضخمة، ستأتى بسبب نزوة من نزوات القدر النادرة، أولاً ستفزعنا صفارتها العالية، ركابها الذين يحتسون البيرة على السطح هم الذين سيشاهدوننا، فيصرخون بأعلى أصواتهم ويلوحون بأيديهم للقبطان الذى سيتوقف على بعد مسافة من زورقنا المخروم، ونحن بدورنا سنصرخ معهم ابتهاجاً بحملة الإنقاذ، نتمايل طربا مع الأمواج وسنسبح بزورقنا المنكوب نحو القلعة الحديدية، الركاب والملاحون سيتابعوننا بقبعاتهم الشمسية بنفس متعة المباريات الختامية للعبة التنس. تخيّل معى اللحظة التى سيمدون لنا فيها سلماً من الحبال الغليظة نتسلّقها بفرح أمام تشجيعاتهم: هيا أسرعوا .. تقووا .. نعم هكذا. ونصعد جميعاً إلى سطحها واحدا تلو الآخر يعانقوننا فرحاً، يلفون حولنا بطاطين من الصوف ويقدمون لنا شوربة دافئة قبل الماء وبعد ذلك وجبة

دسمة، سمك محمّر بدرجة قرقشة مع خضروات مبخرة وأرز مفلفل مع شرائح لحم، لن نسأل عن مصدرها، سنأكل دون أسئلة، اتفقنا يا صديقى؟ من العبث أن نخضع لقشرة الإيمان الخارجية كما تقول أنت دائماً، أذن يجب علينا بعد أن نشبع ونشرب "الواين" ونستبدل ملابسنا دون أن نهتم بالمقاسات، ومن ثم سنسأل القبطان عن وجهة السفينة، ثم بعدها نتوجه إلى الطباخ ونستفسر عن الأكل، هل هو حلال أم حرام؟ لا تنسى أن القبطان سيقدِّم لنا خطبة طويلة عن الاتفاقيات الدولية والمياه الإقليمية والمعاهدات التى تخص الدول الصناعية الكبرى، ثم يعتذر ولكن ليس بسبب اللحمة الحرام بل ليعلن أنه مجبرٌ على تسليمنا إلى الشرطة الأمريكية حتى يرضى ضميره، وهو غافل عن الخدمة الجليلة التى سيقدمها لنا ولم نكن نتوقعها، سنلتقى بصديقنا عادل سعد الدين.

يعرج به إلى الوطن حيث رفقة السنين الطويلة منذ المرحلة الثانوية والجامعة، كانا يسندان رأسيهما على حافة الزورق وبدأ عامر درويش يتخلّص رويداً رويداً من كآبته عبر التمتع بخيال سامى قنديل وطريقته العبقرية فى إغراءاته المتنوعة بقبول الواقع على علاته.

– هل تتذكر تلك اللحظة التى تعرّفنا فيها على صديقنا عادل سعد الدين، كان الزيت يسيل من يده اليمنى وهو ممسك بسمكة بلطى تتنفس البخار الحار، توقعنا أنه "شماشى" بائس ودون سابق اتفاق تضامنا معه، كان جائعاً جدا والإغراء جاء من عامل المطعم، كان مستفزاً، رفع بـ "المقراف" السمكة المستوية من الزيت وعرضها فى

الهواء مجحفاً للسمكة نفسها، مستعرضاً موهبة أقل من عادية فى تحمير السمك، كأنه يغرى الزبائن، ثم غمرها فى الزيت مرة أخرى وعندما أخرجها للمرة الثانية لتستنشق الهواء اعتقد شهود العيان أن صقراً هوى وخطفها لولا أنهم شاهدوا عادل سعد الدين ينسل من بينهم كقذيفة حارقة، لقد خطفها بزيتها الحار وجرى بها، هاربا فى اتجاهنا كأنه كان على علم بمستجدات القدر، احتمى بنا عندما شعر بخطر المطاردة، تبرّع عدد من الناس للحاق به وأصبح للسمكة فجأة شرف يدافعون عنه بضراوة، لعنات بذيئة، صراخ هستيرى:

– اقبضوا الحارااامى.

رجال يهرولون بلا رشاقة وتتقدمهم كروشهم . كنا لحظتها أمام الزقاق المؤدى لمنزلنا، سريعا ما أخفيناه عن أعدائه فى صالون بيتنا، هل تتذكر انك من عالجت له يده اليمنى بمعجون الأسنان بعد أن انتفخت وتجمّع بها سائل لزج جرّاء الزيت الحار، لقد اختار أشهى سمكة على الإطلاق، لم أتذوق أشهى من تلك السمكة، لقد تخيّلنا أنه مجرد متشرد وواجبنا حمايته من أصحاب التجشؤات المتواصلة، ما أعظم تلك الدهشة التى رسمتها على وجهك عندما عرفنا أنه طالب جديد فى نفس جامعتنا ويعيش فى الداخلية، لم يكن لصاً لقد اشتهى أكل السمك ولم يكن معه نقود، ومنذ تلك السمكة أصبح ثالثنا، حالفه الحظ أن يصل إلى أمريكا بعد التخرّج مباشرةً:

– لا تنسَ يا صديق لقد وعدناه أن نلحق به أو نزوره بجوازات أوروبية.

يرد عليه عامر درويش:

– أحس بسمكة تقتحم ملابسى الداخلية، ربما هى إحدى حفيدات سمكة صديقنا عادل سعد الدين.

يبتسم سامى قنديل، ينظر للسماء ولا يرى سوى سحب من الذكريات تمطر عليه، حافظ على ساعده ملتفاً خلف عنق عامر درويش حتى لا يتخاذل وينزلق وهمس له:

– هل تتذكر ما قاله ميلان كونديرا، كلما كان الزمن الذى نخلِّفه وراءنا اكبر كلما أصبح الصوت الذى يحثنا إلى العودة لا يقاوم. الآن فقط أحس به.

فوجئ برد عامر درويش غير المتوقع:

– هذا إن دلّ على شيء يا صديقى إنما يدل على أننا نمتلك مقدره رهيبة على فقدان الذاكرة، نتناسى بسرعة الأمور السيئة التى حدثت فى السابق، ونتهاون مع بشاعتها كيفما اتفق. أضف إلى ذلك أن القدر يوزع المحن بالتساوى فى الماضى والحاضر والمستقبل كذلك.

عندئذ انتحب شاب جزائرى بصوتٍ عالٍ دون خجل. ترك الإحباط يطفو على الماء كالزيت. لا أحد كان لديه طاقة ليصرخ معه ويجامله من شدة الرّعب، كانوا مصعوقين جميعاً. سامى قنديل حضن صديقه عامر درويش الذى كان يرّتعش، ليصبحا متلاصقين بحميمية مفرطة وتتنازعهما مشاعر مختلفة، ممّا أتاح لهما فرصة عبور الخيبة مؤقتاً ليسأل سامى قنديل صديقه:

– ما الذى جعلك يا عامر تتبرّع لى بدمك عندما التقينا أول مرة فى

قسم الحوادث بالمستشفى؟

ابتسم عامر درويش بمرارة:

– حتى أنا لا أدرى لماذا فعلت ذلك؟ لا اعتقد أنها كانت شهامة فى تلك المراهقة، يبدو لى أننى كنت ابحث عن إثبات ذاتى، ووجدتها فرصة فى اتخاذ قرار ضد رغبة أمى وشقيقتى، هذا القرار جعلنى كتلة من الحضور.

– هل تعتقد أننا دبرنا ذلك اللقاء؟

يسأله سامى قنديل:

– كان من الضرورى أن نلتقى فى هذا الحشد من المصادفات.

يلتفت إليه سامى قنديل ببطء دون أن يرى البؤس الذى على وجهه:

– هل تعلم إننى فى تلك الفترة من المرض، روّضت نفسى على حياتى البائسة بعد أن تسرّبت معنوياتى ورضيتُ بسوء حظى، كنت أشاهد يومياً عمرى يتدفق منى بلا شفقة، حتى ذلك اليوم الذى التقينا فيه، يبدو لى أن قرارك لم يشكل حياتك فقط بل أكد لى حضورى الكلى.

أخذ فترة من الصمت وسأل نفسه:

هل كان هذا الحوار ليكون بنفس المستوى إذا كانا ممددين على اليابسة؟

لم يستطع أن يجزم، خطر بباله مطلع قصيدة لمحمود درويش كان يرددها عامر درويش أعادها فى سره فقط: ماذا جنينا نحن يا أماه حتى نموت مرتين؟ فمرّة نموت فى الحياة .. ومرة نموت عند الموت.

ثم إلتفت نحو عامر درويش كأنه يريد أن يتأكد من صحة القصيدة:

– هل تذكر يا صديقى عندما قررت أن تسحب البساط من أقدام أركان النقاش السياسية داخل الجامعة؟ كانت تزعجك تلك المهاترات السياسية.

حركة رأس عامر درويش المتكئ على كتفه فسّرها إيماءة إيجابية ثم واصل:

– وشكّلنا معاً أول نواة لمنتدى ثقافى مستمر حتى الآن، لقد راهنا عليه، اعتمدنا على تخميناتك الصائبة، لقد أعجبنى اقتراحك فى الاستفادة من البص المهجور منذ فترة طويلة خلف مبانى الجامعة، فعلا كان مكاناً جريئاً ويليق بالفكرة، وطبّقنا فكرتك وتحوّل ذلك البص المهجور المترب إلى معرض للوحات الفنية، ومقدمته حوّلناها لمنصة خاصة بالإلقاءات الشعرية. تتذكر أول من دشنها كان عادل سعد الدين بقصيدته التى كنت تعشق مفرداتها العويصة، وأطلقنا عليه فى ذلك اليوم لقب "جان جينيه" لطريقة إلقائه الغريبة واستمراره فى سرقة السمك المحمر.

يصرخ به عامر درويش:

– أرجوك، كف عن هذه الحماقات إنها تزيد من توترى. لم أعد قادر على مقاومة هذا الصراع.

ثم يغيّر من نبرة صوته:

– أنا خائف يا سامى، منذ البارحة كنت أرتجف متوقعاً كارثة، متوقعاً أن تفشل هذه المغامرة ويتم القبض علينا، ليت ذلك هو الذى حدث،

لم يخطر ببالى مطلقاً أننا سنواجه الموت بهذه القسوة.
يهزّه سامى قنديل بعنف:
– لا تكن جباناً يا عامر، نحن لا زلنا أحياء وبوسعنا أن نصمد أكثر حتى تأتى نجدة.
يرد عليه عامر درويش بصوت بكائى:
– لا تكن ساذجاً نحن لا محالة أموات. لن يأتى احد، لن يرانا احد.
– لا أخفى عليك يا عامر أنا أيضا خائف ولكن سأظل متفائلا حتى النهاية.
– إننا نتعرض لأسوأ نهاية يا سامى. الشىء الوحيد المختلف نمتلك تأشيرة غياب وسنعايش اللحظات الأخيرة لموتنا قبل أن نتحوّل إلى دمُىّ. لا يمكن أن نصمد وسط هذه الأمواج. بصراحة أنا مرّعوب، كلما تصفعنى موجة أتوقع أنها النهاية. أسوأ ما فى الأمر يا صديقى، أنك ترصد بألم اللحظات الأخيرة لموتك.
صمت سامى قنديل للحظة ثم قال:
– أرجوك لا تدعنا ننهار أكثر، أنا لازال يحدونى أمل بالنجاة.
يصرخ عامر درويش:
– إن لم نمت غرقاً سنموت عطشاً.
بعدها ساد صمت مرّبك. لقد أصبحا منهكين، شاحبين وبائسين. كان واضحاً تشبث عامر درويش بالحياة إلى أبعد الحدود برغم بلوغه حافة اليأس من جرّاء الحالة التى تفوق قدرته على الاحتمال، ولكن فى دواخله كان يبحث عن أى بارقة أمل مهما كانت ضئيلة حتماً

ستكتسب عنده قيمة عظيمة. أما سامى قنديل كان على النقيض تماماً، متفائلاً إلى أبعد الحدود، ولكن كان على الاستعداد للتنازل عن حياته بكل يُسر، لقد اكتسب هذه القناعة من انتكاساته المريضة المتكرره.، وراح يبقى على الأمل الضئيل متمسكاً بصديقه و يقرّ بينه وبين نفسه بأن عامر درويش أحد فرسان الساموراى الذين يتعهدون بالدم من أجل الصداقة المتينة.

ثم أضاف:

– هل تعلم إننى لا زلت فخوراً بدمك الذى يجرى فى عروقى.

ثم رفع رأسه للأعلى، شاهد دموع صديقه تـُزيد البحر عمقاً، احتضنه وصرخ:

– أرجوك، لا تتخاذل يا عامر درويش.

فى هذه اللحظة من الذكرى انفجر عامر درويش فى بكاءٍ مفاجئ وهو جالس أمام أنكا فان درماين والتى نهضت مدفوعة بإحساس أنها خيّبت ظنه. تركت مقعدها لتجلس على يساره، مرتبكة فى بادئ الأمر، ثم حضنته برفق، لم تكترث حتى لرواد البار والهمهمة التى ظلت تراوح فى منطقة نفوذها، لقد التفتوا نحو مصدر الصوت بتعابير يمكن إدراجها فى خانة تضامن باهت. تركته ينتحب بصدق على صدرها، قبّلته على جبينه وخده، كقطة يتيمة مسحت دموعها على شعره وقميصه، التصقت به وأحاطته بسكينة حتى يهدئ دون أن تنطق كلمة واحدة. هناك لحظات يبدو فيها الكلام باهتاً وركيكاً أو تحصيل حاصل إن جاز التعبير. طلبت له ماء وراحت تنظر له

برزمة من الأحاسيس المتباينة، لأول مرة يحكى هذه القصة ويتذكر تفاصيلها الدقيقة، حتى أصدقاءه فى أمستردام لم يسردها لهم. كان يزوغ مرواغاً حتى نفسه، ترّجته أنكا فان درماين أن يكبح ذاكرته قليلاً ويكف عن الاسترسال عندما شعرت بحجم المأساة القادمة. أمسكت كفه بيدها الناعمة وسحبته من مقعده وخرجت به إلى هواء طلق، كانت روائح حى "الريد لايت" المميزة تحتل الفضاء، رطوبة مختلطة برائحة زيت البطاطس المحمر والقهوة ونكهة الماريجوانا، وأثناء مغادرتهما المكان، اغتاظ عامر درويش من نفسه وتحسّر على بوحه بأسراره الحزينة والتى تخص عامر درويش الحقيقى وصديقه، أسرار احتفظ بها أكثر من ثلاث سنوات وعندما سلّط الضوء عليها، شعر بخيبة تحط على جبهته، شنّف شخصيته فى سره، كنت سخيفاً يا صديقى وأنا أخذلك، شعرتُ بأنى اسرد القصة حتى أنصب لها فخاً على أنقاض موتك. أعتقد أن خِسّته كانت سبباً كافياً ليفكر فى فض هذا اللقاء، رغم أنها لا زالت ممسكة يده، تسرّب له إحساس سرى، ولكن لن تدوم هذه المتعة طويلا، فبمجرد وصولهما طريق "الترام" ستودعه بقبله ومن ثم تغادر لتنتهى هذه اللحظات النادرة فى حياته. هكذا كان يفكر ويعتقد، ولكنه من وقت لآخر كان يتلذذ بنعومة يدها تدغدغ كفه فيدوس عليها بقوة وترمقه بابتسامة تجسِّد رغبتها فى مغامرة ما، وأثناء عبورهما جسراً صغيراً فوق احدى قنوات أمستردام المائية، دفعته نحو عامود حديدى مزخرف بالمنحوتات، ولولا سرعتها فى المباغتة للحركة التى جاءت بعد ذلك لكان تفسيره

انحصر فى خانة الغضب، لقد هجمت عليه والتصقت به وقبّلته قبلة طويلة، أدهشه هذا التصرف، ولكن رد عليها بالمثل فاحتواها من خاصرتها بقوة ورفعها نحوه حتى شهقت، تملّصت منه بمشقة، لم يكن فى نيته أن يطلق سراحها لولا أنها أمسكت انتصابه الذى انتفخ، وداعبته بأناملها وهى تضحك:

- أين كان هذا الوغد الصغير مختفيا.

صرخ عامر درويش وانحنى بعد أن أبعدها للخلف وهو يضحك، تمنّى فى تلك اللحظة أن يعودا إلى غرفتها أو يصادف هذا التوقيت مرور أحد أصدقائه ليشاهد النعمة التى أبرّ الله بها عبده عامر قنديل، بمشقة استطاع أن يواصل سيره، خاصرَها وتدحرجا من الجسر وبذل جهدا مضاعفا ليرتخى انتصابه، رائحة الماريجوانا تعبق بالجو دون منازع، اجتازا طريق "الترام" دون أن تفارقه كما كان يعتقد، ثم توقع أنها ستستغل ترامها بعد ميدان الدام مباشرة، سايرها وهو يُخمّر فى ذهنه فرصة لقاء آخر، لكن تنازعته أحاسيس متفاوتة، وبدأ يتساءل، هل سترحب بى مرة أخرى فى غرفتها أثناء العمل؟ ربما تستاء من وقفتى أمام بابها الزجاجى أثناء عملها، هل اسألها عن موعد؟ أم أترك الصدفة تتصرف لوحدها. طلبت منه التوقف للحظة لتتأمل رجل دهن ملابسه بلون برونزى ووقف دون حراك كأنه تمثال فى وسط ميدان الدام، اقتربت منه وهى مبتسمة، اقتحمته بحركة مباغتة أمام وجهه كأنها تود صفعة، ورغم ذلك لم ترمش عينيه كما كانت تتوقع، لحظتها انفجرت فى ضحكة بأعلى صوتها

وأخرجت من حقيبة يدها مبلغاً من المال ووضعته على صندوق مربع أمامه، تابع عامر درويش حركتها الطفولية بابتسامة ولم تنسَ وضعها السابق رجعت تخاصره، حتى هى لم تجد تبريراً لحركتها التى قامت بها قبل قليل، لقد شعرت فقط برغبة وإغراء بقبول الحياة والتسامح معها متجاوزة حسراتها، ربما القصة التى حكاها هذا الشخص الذى تعرف اسمه الأول فقط وتعرّفت عليه قبل قليل بعد أن أساءته بألفاظ وقحة وكادت أن تبلغ عنه الشرطة، أثارت عاطفتها وفى العادة المرء يصبح سخيّاً عندما تتاح له فرصة تقيّم حظوظه من خلال مآسى الآخرين. ولكن الشيء الذى أدهشها وإربك حساباتها، أنها مستلذه بهذا الشخص وتخاصره بحب، لم يكن لديها أى فكرة عن المشاعر التى تدفعها نحوه وسألت نفسها، كيف تدفقت مشاعرى دون سابق معرفة؟ واحتارت فى الإجابة، فالأجوبة التى تخص المشاعر عادة ما تهرب مخلّفة وراءها حيرة، التفت إليه وسألته:

- هل أنت على ما يرام؟

أجابها بالموافقة بإشارة رأسه دون أن يحاول التحقق من سبب سؤالها. عندئذٍ أمسكته من يديه ووقفت أمامه تنظر إليه كما لو أنها خسرت رهاناً:

- أنا آسفة جداً على الألفاظ الوقحة التى نعتك بها.

مسح بكفه على ظهرها فقط، تخيّل أنها اللحظة الأخيرة من عمر اللقاء ووقف متهيئاً لقبلة الوداع ولكنها أردفت بسؤال آخر:

– ما هو نوع الأكل الذى تفضله؟

توقّع أنها ستصطحبه إلى مطعم قريب لتكفِّر عن إساءتها أو تعاطفاً مع بؤسه، حقيقة لم تكن لديه أكله مفضلة فى حد ذاتها، يعجبه كل الأكل، يبدو له لذيذا، لكن فضّل فى تلك اللحظة الفراخ المحمّر، أعلنت بمرح وهى تجذبه من يديه ومتراجعة بخطواتها للخلف بطريقة تدل على أنها مصممة على هدف، إنها ستقدم له هذه الوجبة فى شقتها إن لم يكن لديه مانع، بصعوبة هرس عبرته بالأسنان، بلع لعاب حتى يزيل تعارض الغصّة عن حلقة. استعجب، لا يمكن لأحد أن يتوقع هذا الكرم العاطفى يصدر عن عاهرة، تساءل، هل هى نادمة على إساءتها لهذا الحد، وتحاول إرضائى قدر الإمكان؟ ما الذى جعلها تغيّر رأيها بعد أن كانت على وشك إنهاء اللقاء؟ كل الإجابات لم تثبت صحة تكهناته، فشعر بأنها أصبحت أقرب شخص له فى هذا الكوكب حتى أنه فكر بأنها تستحق وبجدارة أن يعترف لها بشخصيته المزورة ثم خاطب نفسه، إذا كنت سأعترف يوماً ما لشخص ستكون حتماً هى. وبعد ذلك تحول إلى هدف لتعليماتها:

هيا نسرع، انتبه للسيارات، تمسك جيداً، أجرى قبل أن تمطر.

هرول معها محافظاً على إمساكه بكفها للحاق بترام رقم 7 خلف ميدان الدام.

13

لقد كنت تقريبا أول زبون يدخل البار الذى فتح لتوه واخترت الجلوس على طاولة قصيّة. توقعت أنهما ربما جلسا فى هذا المكان بالتحديد، ولم أكن فى العادة أحتسى بيرة فى هذا التوقيت، ولكنى جرّبتها حتى يسترخى ذهنى الذى انفجر بالذكريات والأحداث التى سردها عامر درويش، كنت فى أمسّ الحاجة إلى الصفاء والهدوء، رأسى تختلط فيه الذكريات مع الأسئلة. طلبت البيرة ومعها طبق المكسرات، لا شعورياً بصرى تابع المكياج الصارخ الذى استخدمته نادلة البار ولم يفِ غرضه ويستجيب لملامحها، انتظرتها تضع طلباتى حتى أقارن مؤخرتها بالتزوير العلنى لملامحها، مما جعلنى أفسر انتصابى المفاجئ خانة النعاس. ارتشفت البيرة ومسحت فمى كما فعلت أنكا فان درماين آنذاك. حاولتُ أن أتخيل عاطفتها التى تبدّلت فجأة من عاهرة شرسة، إلى إنسانة وديعة فى غضون لحظات. ثمة لقاءات تتم فى هذه الكوكب وتبدو أحياناً غير منطقية. فكرّتُ فى احتمالات كلها كانت متناقضة، حتى صار التفكير نفسه مشكلة، لذلك رجعت أتابع حركة عامر درويش عندما دخل شقتها أول مره، لقد استنشق رائحة المعابد، كانت شقتها صغيرة مكونة من غرفة ومطبخ وحمام، وصالة مربعة، سجاد أرضيتها سميك وناعم، فى الوسط وضعت طاولة زجاجية صغيرة دائرية حولها كنبة جلد حمراء ومقابلها يستند كرسى من الجلد الأسود على الفراغ أشبه بكرسى عيادة الأسنان،

وعلى الجزء الداخلى من الصالة وعلى الحائط كانت هناك طاولة زجاج أخرى، على رفها التحتى جهاز موسيقى يخضع لموضة الاسطوانات والكاسيت معاً، وفى الأعلى جهاز تلفزيون ماركة سونى وعلى الأركان سماعات كبيرة على الأرض من فوقها وضعت فازات صغيرة وتماثيل، من الناحية الأخرى مكتبة مقسّمة إلى رفوف عديدة تحتل مساحة الحائط بالكامل ولكن الكتب بها تعد على الأصابع، اسطوانات موسيقية، كروت معايدة وضعت بعناية فائقة، ميداليات بأحجام مختلفة، صور على براويز عتيقة بعضها باللون الأبيض والأسود. اقترب عامر درويش من تلك الصور كعادة كل شخص عندما يدخل منزل أول مرة ويجد نفسه فى مواجهة لوحده مع تراث الأسرة وفخرها، فيبدد الانتظار بتأمل الصور والانجازات كأنه يريد أن يتأكد أولاً من دخوله المكان الصحيح أو تدفعه رغبة انتقامية للتقليل من أهمية التباهى بتاريخ هذه الأسرة. عادت أنكا فان درماين من غرفتها بعد أن خلعت الجاكيت، ابتسمت عندما رأته يتأملها فى الصور فأزاحت الستار عن نافذة الصالة لتدخل إضاءة كافية للتعرّف، معظم الصور كانت لوالدتها التى توفيت قبل سنوات عديدة بداء السرطان، وصور أنكا فان درماين فى طفولتها ومع صديقاتها فى مراحل دراسية مختلفة وأيضا صورة فى عيد ميلادها الثامن عشر، ركّز فى هذه الصورة، واضح التقطها صديقها وكان قريباً جداً وقد فوجئت به ليصدر عنها تعبير احتجاجى أكد على الزوايا الجمالية لوجهها، وقفت بالقرب منه تشاركه التأمل، بدت سعيدة كأنها

للمرة الأولى تشاهد صورها وبمتعة متوارثة منذ الأزل، حكت بإيجاز عن تاريخ الصور ومناسباتها، أدارت جهاز التسجيل بعد ذلك على موسيقى "سالسا"، كانت تضع سماعات فى كل أجزاء الشقة وبما فى ذلك الحمام، تعشق الموسيقى الكاريبية بشكل جنونى وتعزف على الفايولينا والجيتار، نصبت مؤخرتها أمامه وراحت ترقص مخلصة للموسيقى، وبما أنه كان أطول منها انحنى بساقيه وجعلها تهتز مع الإيقاع داخل مجال فخذيه كسهم ينتظر تحديد الهدف، لقد تعلّم هذه الرقصة أثناء تسكعه فى ديسكوهات أمستردام، وعندما شعر بلحظة انفجار وشيكة احتضنها وقبّلها قبلة عميقة وصار مثل أكلة لحوم البشر، قضم خلف أذنها بنهم لتنهار على ساعديه بشهقة آتية من بئر عميق، عرّاها بسرعة فائقة، بدت له خجولة كأنها تمارس الجنس لأول مره فى حياتها، نفذ فى داخلها بقوة، شعر بروحه غادرته وهو ينتشى لافظاً شخيره أعلى من صرختها وهمدت. قفا لثوانٍ معدودة على صدرها يتنفس بمشقة، فعلاً التوافق فى الوصول للذروة الجنسية أشبه بتجربة خروج الروح. ظلت أنكا فان درماين ممدة تحته ترتعش، عندئذٍ تذكّرت كفيها اللتين لا زالتا متشبثتين بشعره منذ لحظة خروج المتعة، سحبتهما بلطف ليس بدواعى عدم إزعاجه بل بدافع غريزى أنثوى بحت، لتبعد عن نفسها تهمة النشوة العارمة، أفاق من إغماءته واستدرك هروب اللذة التى تسرّبت كدوران الأرض، رفع رأسه ببطء مستدعياً ابتسامة من العدم كأنه سيواجه نفسه أمام مرآة لحظة انجازه لمهمة مستحيلة، تأمل وجهها الدائرى الذى احتشدت به كل كريات

الدم فى مظاهرة ، كان وجهاً متوهجاً ببقايا الإثارة، شفتاها مسترخيتان وغليظتان يستحيل تجاوزهما دون قبلة، عيناها مشبعتان بالفرح حد الضحكة، لم يصدِّق نفسه، لقد مارس الجنس مع هذه المخلوقة البديعة، داهمته رغبة ملحة ليحكى عن هذا الانجاز لكل الذين يعرفهم، ويستمتع بالسرد ضعف حقيقة النشوة، وبما أن انتصابه لم يخذله هذه المرة قال فى سره مخاطباً صديقه سامى قنديل، لم أخذلك يا صديقى هذه المرة، أتمنى أن تكون شعرت بهذه المتعة غير المتناهية. وهى بالمقابل كانت مبتهجة كأنه يخاطبها، شعرت بنفسها تنتشى عن حب، جذبته لصدرها وقبلته بشغف وأطلقت العنان لمشاعرها وقهقهت ليهتز جسده من فوقها، أحس بأنه سرق متعة جميع الخلق فى هذه اللحظة. انسحبت من تحته برفق وذهبت إلى الحمام عارية، تابعها وهو يكاد يصرخ من الفرح والبهجة. نهض بنشاط وحيوية وارتدى ملابسه بعد أن أزال الواقى المطاطى برفق كما لو انه سيحتفظ به ذكرى لهذه اليوم أو دليلاً مادياً، جلس على طاولة السفرة وأشعل سيجارة من علبة المارلبورو الخاصة بـ أنكا فان درماين دون أن يشعر بحاجة لاستئذانها سيجارة ليس بسبب الخطوة الايجابية فى علاقته بها، بل لتقليله من قيمة السيجارة نفسها، سحب نفساً عميقاً، وراح يعيد ببطء فى لحظات المتعة التى مرّت عليه قبل قليل حتى ترسخ بذاكرته جيدا، أكيد سيعيدها مرات عديدة، غير مصدقاً لما حدث، تجاوز كامل لأحلام اليقظة، نهض من الكرسى لأن انتصابه أفشل عليه جلسة

الاسترخاء، تأمل أوراقاً عُلقت عشوائياً على باب الثلاجة، معظمها شيكات وفواتير تنتظر موعد دفعها، قصاصات من صحف، صورة لها من مجلة علّقتها على الحائط بعناية تظهر فيها وهى تعزف على آلة "الفايولينا". خرجت من الحمام ترتدى فستانا قصيراً وتفوح منها رائحة كريمات معطرة ومنعشة. التفت نحوها واحتضنها بعنف، سحبت من بين أصابعه السيجارة وقامت بمصها ثم أعادتها إلى فمه. شرعت مباشرة فى أعداد وجبة الدجاج المحمر كما لو أنها خجلانة من الذى حدث قبل قليل. سألها:

– كيف أقدم المساعده؟

طلبت منه أن يفتح زجاجة "الواين" الأحمر ويصب منها في كأسين، كانت تستمتع بشراب "الواين" أثناء تجهيز الوجبة، اعترفت له:

– هل تعلم، نادراً ما أكون فى هذا المزاج الجيد. وقف بالقرب منها يتابعها وهى تقوم بعملها بمهارة، كأنها شعرت بسؤاله القادم. قالت:

– هل تعلم بأننى تعلّمت الطبخ منذ طفولتى، بعد مرض والدتى لم يكن هناك خيار، وخاصة أن والدى هجرنا فى تلك الظروف. لم يعقِّب عليها شعر بأنها مرّت بمأساة ضعف ما تعرّض له، مسح بيده على ظهره، ابتسمت وراحت تعلّمه بعض مفردات اللغة الهولندية المطبخية.

14

خرجتُ من البار وأنا أتدحرج بمفعول البيرة الصباحية، أبحث عن موطأ أقدامى على الأسفلت وأحياناً أتعثر، مرة أخرى بدأ النعاس يطرق الباب وليس لى رغبة فى استقباله، رحتُ افترض خطواتهما فى هذه الأزقة مثل متتبعى الأثر، بحثت حتى عن الجسر الذى قبلته فيه أنكا فان درماين، لقد أثارت فضولى علاقتها به وتطوّرها بهذه السرعة، لكن لا أعتقد أنها أحبته منذ البداية فأنا افهم جزءاً من سايكولوجية الفتيات الهولنديات، فمن الصعب أن يفضحنّ مشاعرهنّ بهذه السرعة، أذن الأمر كان يتعلّق بتعاطف مؤقت، تعاطف عابر يصيب المرء عن طريق عدوى تفتعلها المشاعر الجيّاشة فعندما عرفت أنه لاجئ متشرد تماسكت بمقاومة مكتسبة، ولكن بعد أن سرد قصة المغامرة المأساوية داخل الزورق شعرت بحجم الرعب الذى تعرض له، تشكّل لديها انطباع انه تعرض لصدمة قاسية بسبب غفوة الحظ، أو ربما وحدته التى يتجرّعها يومياً، جعلتها تتأمل نفسها من خلاله، لتنتبه أن المقارنة غير متكافئة، فالظروف المأساوية الحرجة التى مرّت بها أصبحت لها عادية، فعلا لا تهون على المرء حالته إلا عندما يفتقد الآخرين، لم تستطع كبح مشاعرها، اختلجت عيناها لحظة سرده الصادم لمعاناته اليومية يعيش بلا مصدر دخل وليس له مأوى، ويجب عليه إخلاء هولندا فى أسرع وقت، يتجوّل متشردا بين الأصدقاء الذين كانوا معجبين

بشخصيته ولكنهم ملئوا نقاشاته وأرائه الحادة، بعضهم كانوا يتهرّبون من استقباله بأعذار تؤنبهم سذاجتها، إذا دخل شقة أحدهم يظل لمدة أسبوع كامل يثير ضجره، تخلّص حتى عن إحساسه بالذل واستبدله بالفرعنة، الغطرسة وعدم المبالاة، ولم ينكر ذلك بل أكد أنه كان يفتعل التصرفات التى تثير سخطهم وتزعجهم، حتى مأمون بشير بدأ يتذّمر منه ويتهرّب من لقائه. لقد استطاعت أنكا فان درماين أن تشعر بذلك الإحساس المرير، عندما لا يستقبلك أحد ويختفى عنك الذين تحبهم، تشعر بأنك تتحلل وفى طريقك للذوبان. لقد فقدت والدتها وهى فى سن صغيرة ولم يبذل والدها مجهوداً مضاعفاً للاهتمام بها، بحث عن ملاذاته وتخبط فى علاقات فاشلة حتى دخل السجن بتهمة اغتصاب قاصرة، صديقها الذى احتمت بحضنه كان مدمناً لكل أنواع المخدرات وهو الذى أجبرها على مهنة الدعارة لأن دخلها يوفر له متطلباته، ولكنه طردها بعد ذلك عندما أصبح مهرباً دولياً. عاشت أياماً عصيبة ثم واصلت فى مهنتها مرة أخرى لتستمر فى حياتها .

لقد طلبت من عامر درويش أن يظل معها هذه الليلة فى الشقة، لأنها كانت تعلم انه سيستجدى أحد أصدقائه من أجل النوم، بكى عندما شعر بإحساسها الطافح يغمره، لم يصدِّق أن هذه الكائنة التى تجمهرت داخلها الإنسانية برمتها، يستحيل أن تكون مخلوقة عادية ناهيك عن أنها عاهرة. مارسا الحب هذه المرة كعشاقين التقيا بعد غياب، لهفه عارمة، أشواق مكبوتة أعلنت عنها تشنجات، مقدمة

النشوة كانت تحمل عنوان المماطلة من جانب الطرفين، رغم الاستدعاء المبكرة حاول كل منهما تأجيل موعد الختام، منعته من استعمال الواقى المطاطى مغامرة بمهنتها وصحتها أولا، دفعها إحساس خاص لأول مره تفعلها مع أحد، استمرت النشوة مدة زمنية طويلة لم يحسان بها، لحظات قابلة للتبرع بالأرواح بلا تردد، وإذا تم خصم هذه المدة الزمنية مضاعفة من عمر أحد فلن يعترض، ومن العبث أن تُوصف بمفردات عادية، ثم بعد ذلك همدا فى لحظة واحدة كأنما اتفقا مسبقاً على إغماءة صغيرة، وأثناء التدخين وهما على سرير غرفتها، كانت أسنانه فاقعة فى الظلام، يضحك بلا صوت، لم يتخيّل مطلقاً أن الذى حدث حقيقة، تعزّرت شكوكه وذهنه عالق بسقف الغرفة ينتظر منه إعانات منطقية، هل يعتبر هذه هفوة حظ أم قدر ضلّ الطريق إليه؟ وسأل نفسه صراحةً، من يا ترى، هو صاحب البخت النادر الذى تنام بالقرب منه امرأة بهذا الجمال، هل عامر درويش أم عامر قنديل؟ لا أعتقد أن لعامر درويش هذه الخاصية من الحظ. نهض بنصف جسده الأعلى وأطفأ سيجارته فى المنفضة التى على "الكومدين" ليتصاعد منها آخر دخان أزرق متموج تصاعد كالروح متخللاً سقف الأباجورة، راسماً ظلالاً باهته ثم تلاشى. رجع لوضعه السابق بعد أن قبّل أنكا فان درماين قبلة بصوت مسموع، ابتسمت ومدّت ساعدها الناعم لتملأ التجويف بين المسند وخلف عنقه، كأنما هو مكانها الطبيعى سد هذا الفراغ، عندئذٍ أحس بنبضات عروقها تقرع داخل طبلة أذنه إيقاع خرافى مصدره

محارة بحرية ضخمة، حتى أنه لم يعد يسمع صوت الموسيقى، فقط إيقاع منتظم. تذكر تلك اللحظة وقوته الخائرة ولهاته اليابسة وهو ممدد مثل الآن ولكن على سطح ماء لا يشعر بدرجة حرارته، كان رأسه متكئاً بنفس هذه الوضعية على ذراع سامى قنديل الذى كان يهمس له داخل أذنه كلمات إصرار نابعة من تحدٍ، يحثّه على التمسك بروحه، يؤكد له بما لا يدعو للشك، وصولهما سالمين إلى السواحل الايطالية، جعله يسمع حتى صوت وقع أقدامه على رمال الشاطئ وأنين التربة الرطبة، حاول أن يمنع عنه اليأس بالحكاوى، رسم له تفاصيل دقيقة عن مستقبلهما داخل أوروبا والانجازات الممكنة، وصل به الخيال أن يستقرئ هذه اللحظة التى يعيشها الآن:

- لا تخف يا صديقى سننجو وتسند رأسك على ساعد أنثى شقراء.

ضغط على أضراسه حتى يمنع العبرة ويفشل لها الخطة، ولكن على ما يبدو استطاعت أنكا فان درماين عن طريق مخابرات شرايين ساعدها أن تتلصص على ذاكرته، أو ربما كانت أساسا متشوِّقة لمعرفة تكملة القصة التى لم تكتمل فى البار بسبب بكائه المرير، وانتظرت لحظة مناسبة لتطلب منه مواصلة السرد، نهضت وأشعلت سيجارة ثم التفت إليه وسألته بنبرة محايدة:

- هل لديك مانع أن تكمل لى ما حدث؟

وقبل أن تتراجع بشق آخر من سؤالها وتترك استعداده النفسى يحدد التوقيت المناسب للسرد، نهض وأسند ظهره مثلما فعلت هى على حافة السرير وأشعل سيجارة، الصمت فى تلك اللحظة كان محسوباً

أساساً كفجوة للحزن القادم:

– ظللنا مستلقين على الماء نسترق الأمل رؤوسنا طافحة، كأنها جُزّت من أجسادها وأُلقيت على البحر، العيون جاحظة محمرة، الفم غليظ ويابس، نترقب إحدى السفن التى كانت راسية فى ميناء مالطا ربما يدفعها الموج والقدر نحونا، آمالنا انحصرت داخل حزمة ترّقب، انزلاق الشمس فى الأفق نحو الغرق، كان يعنى لنا انهياراً تاماً لمعنوياتنا، كنا نتمنى أن تظل فى وضعها المائل هذا، أشعتها منعكسة علينا بزاوية حادة لتسلِّط الأنظار نحونا وتعجِّل بفرصة إنقاذنا، لكنها تنزلق بلا رحمة، كما لو كانت تستلذ بما تحدِّثه من رّعب. لم ينتبه أحد لجماليات منظرها البديع، لحظة أن تغطس داخل البحر ببطء لتتسترّ بوقاحة على فرصة نجاتنا. غابت هذا اليوم وتركت خلفها الضغينة ملونة وتيّه على الأفق، بكيت كطفل عوقب بالخطأ متكئاً على كتف صديقى سامى قنديل، تركنى أنتحب حتى أصابنى التعب. لم أرَ فى حياتى شخصاً له المقدرة على هذا الصبر، قال لى: لا تقلق سنكون على ما يرام.

– ما الذى يجعلك متأكداً من نجاتنا؟

قلت ذلك بنبرة حادة، أجابنى بهدوء كأنه مستلقٍ على رمال:

– أعرف ذلك فقط، إحساسى دائماً مصيبٌ فى هذه الحالات العصيبة.

ثم أضاف بعد صمت توقعتُ إنه تجاهل الأمر:

– حين أكون معك، لا يخالجنى شعور بالخوف.

ثم بعدها سرق ذهنى بتداعياته، نبّهنى كى أحدِّق فى قبة السماء، كانت مظاهرة نجوم حقيقية، خيّل لى إننى أسمع ضجتها، لقد رأيت هذا المشهد سابقاً، طبعاً فى ظروف طبيعية، لكن لم أشاهد هذا العدد الهائل من النجوم، بدت سماء مختلفة، ليس هناك شىء نشاهده غيرها وأساسا وضعنا كان يفرض علينا هذا التأمل، مستلقيين على سطح الماء وننظر للسماء، يده تلتف حول عنقى كأنما النجوم اللامعة ستلتقط لنا صوراً تذكارية لتوثق آخر اللحظات، والنيازك والشهب أكدّت على تلك اللقطات، تابعت إحدى هذه النيازك احترقت بذيلٍ ناريٍّ طويل وكانت قريبة من موقعنا كأنما أحدنا أرسل طلقة استغاثة مضيئة، تذكرت ونحن صغار، كنا نتخيل أن الشياطين تتجمع، وتصعد بعضها فوق بعض لتحاول الوصول إلى السماء فيرجمهم الله بهذه الكتلة الحارقة ويشتت شملهم، كنت على وشك أن اسأل سامى قنديل عن هذا الاعتقاد الطفولى الساذج ولكن سبقنى، وجّه لى بصرى نحو درب التبانة حتى أتمعنه أكثر، زحمة نجوم مبعثرة داخل مجرة واحدة، عرفت إنه سيحكى شيئاً ما، قال أنه يعتقد أن هناك خللاً حدث فى تلك المنطقة ربما انفجار نجم ضخم وتحوّل لشظايا من النجوم الصغيرة، وأصبح هذا الجزء من الفضاء أكثر ضياءاً، ولكن كان لجدته ست الدار رأى آخر، أخبرته وهو صغير أن هذه السحابة المضيئة هى أثر خطوات الرسول وجبريل فى طريقهما نحو العرش، وتذكر بدايات ظهور مرضه، كان فقدان الدم يمنعه من النوم، يظل مستيقظاً لوحده يراقب هذه النجوم وخاصة

درب التبانة، يتسلّقه، كان يفتنه هذا الطريق الضوئى، يتخيّل أن بإمكانه مشاهدة آثار أقدام حافية، كان ينام قبل أن يكمل تسلقه نحو النجوم، والغريب ما فى الأمر كان أول من يستيقظ وهو جائع ويشعر بتحسن كامل، يصنع لوحده شاى الصباح ويأكل معه رغيفاً جافاً، وعندما تستيقظ والدته على صوت القرقشة، تبتهج بفرح عظيم وهى تراه يأكل بنهم، وتعلن عن بهجتها بدعوات شكر بصوت مسموع ويستيقظ على أثرها أفراد الأسرة، وبعض الجيران. ومباشرة تفكر فى الطريقة التى ستوفى بها نذرها لشيوخها الورعين، كل أمنياتها كانت معلّقة على الأضرحة، يلتفت نحوى وداخل محارة أذنى كأنه يفشى سرا مخيفا:

– العجيب يا عامر درويش نحن شعب نحب الواسطات، حتى الله ندعوه ونتوسله من خلال أوليائه الصالحين، هل تعتقد لأنه لا يستجيب لدعائنا مباشرة؟

لم أعلِّق عليه، مرّت فترة صمت تخيّلت أنه تجاهل الفكرة، ولكن سألنى مرة أخرى:

– هل إن دعونا الله فى هذه اللحظة أن يقف معنا وينجينا، سيفعل؟

لم تكن حالتى النفسية تؤهلنى للرد عليه، فصمتى كان كفيلاً للإجابة على تساؤله فهو يعلم سلفاً بموقفى من الدين، وربما فكر أن يدفعنى نحو يقينه بأمرٍ غير صارم، بعد أن بدت له النهاية وشيكة وحتمية ولا يريد الاعتراف بها ضمنياً، وكان يجب على الاعتراف بأن سبب اعتذارى للرد عليه نتج عن شلل ذهنى وطفحت تناقضاتى، لقد

أرعبتنى تخيّلات سوء الخاتمة، الظلام قدّم لى خدمة جليلة وتستّر على اضطرابى، كنت مشوّشاً، تارةً أؤيد أفكارى وأؤكد لنفسى أننى على حق وليس هناك سببٌ يرغمنى لكى أتخاذل عن موقفى وقناعاتى، لقد تعلّمت الشك فى الملاحظة وتوصلت إلى هذه القناعة الصلبة وأصبح إلحادى جزءاً أساسياً فى منطق تفكيرى، وتارةً أخرى تنهال على الشكوك ويتلبّسنى وسواس، ويقول لى ما الذى يضرّك إذا نطقت بالشهادة قبل أن تموت، توسّل ربك أن يغفر لك؟ لن تخسر شيئاً، كأنما سامى قنديل هو الذى كان يهمس فى أذنى. فعلاً كانت لحظة مصيرية، لحظة يمكن للمرء أن يمتحن فيها قناعاته ومدى درجة إيمانه بها، إما أن أموت على قناعتى أو أعود إلى فطرتى التى نشأت عليها مثلى مثل صديقى سامى قنديل؟ شعرت بمعتقداتى تتفسخ بكل يُسر كلحاء الشجر المبتل وأتهيأ للاستغفار وطلب الرحمة. ولكن ظل هناك صوت داخلى يسخر منى ويهتف: لا يمكن أن يكون الله ساذجاً ليصدقك، فالخوف وحده من دفعك لطلب المغفرة فى هذه اللحظة، ومن العبث أن تقبل منك التوبة الآن، التفت إلى يمينى ويغمر الماء نصف وجهى وأحاجج نفسى، ربما يكون هذا هو الشيطان بعينه يوسوس لى، لعنته وقلت له أن الله غفور رحيم. ربما كنت مخطئاً فعلاً وإلحادى تمرداً ليس إلا، دافعت عنه وأنا على اليابسة فى مأمن من الموت ولهذا يجب على الآن أن أتوب واستغفر، لا داعى للمكابرة، يهتف صوتى الداخلى مرة أخرى، ما أبشع أن تتخاذل عن قناعاتك بسبب الخوف، ويحتدم بداخلى نقاش

حاد. لا، لا يمكن، ولكن لن يعلم أحد بتخاذلك هذا، ومن حقى أن استبدل قناعاتى، لا تنسى إنك لم تعبده لكى تطلب منه الرحمة الآن، لا تنسى إنك حتى أنكرت وجوده. والصوت الداخلى مثل مدعى الاتهام نبش ذاكرتى واستحضر المعروضات، تذكّرت تلك الأمسية وأنا مخمور أعلنت لأصدقائى بكل فخر أن مفرداتى فى الشعر تتفوّق حتى على كلمات القرآن نفسه، وأيضا خطرت ببالى تلك الحادثة التى اقشعّر لها بدنى الآن، فبعد وفاة والدى بفترة طويلة عثرتُ داخل حقيبته القديمة المهترئة على صندوق مستطيل كان عبارة عن مصحفٍ مرتل ومسجل على أشرطة كاسيت لقد أحضره معه من الحج، قمت دون أن يهتز لى جفن وبكل جسارة وسجّلت عليها أغانى الحقيبة التى أحبها بعد أن مزّقت الملصقات التى كانت مثبتة على أشرطة الكاسيت بلون أخضر وكتبت عليه اسم السورة وعدد الآيات المرتلة. صوت ميلود المهرِّب أعادنى إلى عرض البحر هتف لنا كأنه يقف على الشاطئ، أتانى صوته من داخل مغارة بعيدا لأن أذنى ارتوت بالماء، أمرنا بالتمسك جيداً، لأن هناك أمواجاً متحركة، إما بسبب الرياح أو سفينة عابرة، نطق الجملة الأخيرة بحسرة، لأن قبطان السفينة لن يشاهدنا فى هذا الظلام، شعرت بجسدى بدأ يتمرجح، أفكر فى طريقة يمكن أن نلفت بها الأنظار فى حالة مرور سفينة، فضّلت أن يشاركنى الآخرون الفكرة ولكن لم يجتهد أحد، ظل الجميع فى صراع داخلى.

استمرت الشمس لمدة ثلاثة أيام تخرج من الماء كالمنطاد تتسلق

السماء بحذر وتتحرك ببطء لتستقر فى الأجساد وتلسعها ثم تغطس بنفس التوقيت مصدرة نفس الأشعة كأنها لا تجيد سوى هذا العمل الروتينى الممل تشرق لتغرب، أما فى هذا اليوم الرابع فقد انزلقت كعادتها دون أن تستشير أحدا، كان منظرها وهى تغرق ببطء داخل البحر وأشعتها منعكسة على الأمواج فى تلألؤ ولمعان كاشفة عن أوجه مرعبة، تصارع الموت بلا تكافؤ. فى تمام اللحظة التى غابت فيها الشمس بالكامل، ارتفعت ثلاثة أرواح للأعلى وهبطت أجسادها ببطء نحو القاع، كانت لحظة قاسية وإنذار نهائى للجميع، فمن العادة أن لا يقدم الموت إنذاراً عندما يختار الضحية. يعتمد دائماً على الفجائية كما لو أنه يبعد عن نفسه الشبهات، أما فى هذه الحالة الاستثنائية فقد صار الموت مُعلناً وتأخيره مرتبط بقوة التحمل فقط، فما أبشع تلك اللحظات، ارتفع صوت النحيب عالياً، وكاد أنبوب الزورق أن ينفلت من شدة الصراع، فزع وهرج، الكل راح يتمسك ويحاول الصعود اعلى الحافة، كان هروباً غير ذى جدوى، لأن الموت صار مثل سمكة قرش تدور حولهم وتصطادهم واحداً بعد الآخر والشيء الذى ضاعف من حدة الرعب كان للأسف هو الموج الذى اشتد مع بدايات المساء، نفسه ذلك الموج الذى عندما يصل الشاطئ يتكسّر على سيقان الفتيات وتحت أقدام العشاق، أما الآن فقد تحوّل إلى حيوان خرافى مفترس وسط عشيرته ومسنوداً بدعم من قاع البحر، راح يضربهم بقوة، ويزيدهم هلعاً، سامى قنديل رغم خوفه صار ممسكاً بصديقه يدافع عن روحين فى وقت واحد، مبدياً بسالة

مفرطة، كأنه قرر أن يعيشا سوياً أو يموتا مع بعضهما البعض. لم يعد عامر درويش يشعر بخوف بعد أن رأى نفسه يغوص داخل القاع كان المكان دافئاً أعشاب مرجانية تتراقص فى غور بحر فيروزى، أسراب من الأسماك الملونة تتمايل فى طرب، خُصل خضراء رخوة ولزجة تتحرك بغنج ودلال، صخور بلورية مضيئة حتى أنه خيِّل إليه بأن الشمس تنام تحت القاع، كلما توغل أعمق ينتشى بالدفء أكثر والمكان يصبح آمناً، لم تعد لديه رغبة للعودة إلى السطح ليستنشق الهواء، واصل الهبوط وهو يتأمل المكان بانبهار. بعض الأسماك كانت رؤوسها آدمية، تمعّن فيها، بعض الوجوه مألوفة لديه ولكن لم يتذكرها، لمح بالقرب منه الشاب النيجيرى ذا الوجه الطفولى الذى كان يبكى عندما يتم تأجيل موعد التهريب، من غير العادة كان ضاحكاً ومبتهجاً هذه المرة وأشار لعامر درويش رافعاً إصبعيه علامة النصر، كان يسبح خلف الفتيات الخمس اللائى انهَدّ بهنّ الزورق فى الليلة الأولى لمغامرة الإبحار، تأملهنّ يسبحنّ برشاقة، باسمات ضاحكات، الفتاة الإفريقية انتبهت له وغيّرت مسارها، سبحت فى اتجاهه كان فى نيتها أن تخبره بشىء ما، بدت جميلة غير ما كان يتوقع أو لأنه لمحها لمحة خاطفة فى الظلام عند شاطئ مالطا يوم التهريب، لم يكن بمقدوره فى تلك اللحظات المرعبة أن يقيِّم نسبة الجمال، وقفت أمامه تتراقص على الماء لتحافظ على توازنها، كانت عارية وفوق عورتها يلتف إخطبوط زاهى الألوان، نظرت إليه بعينيها الواسعتين، مندهشة لوجوده

فاستخدمت كل أدوات الاستفهام وسألته بلغة انجليزية محرِّكة فمها بصورة مبالغ فيها، لماذا أنت هنا؟ أجاب عليها بحركة من كتفيه تعنى بكل لغات البشر، لا أدرى. وبحركة من رأسها فهم إن عليه المتابعة خلفها، لم تكن لديه نفس الرشاقة، كان هابطاً برفق كمظلى حتى استقرت أقدامه على صخرة كأنما هناك خللٌ حدث فى قوة الجاذبية، شاهد والدته جالسة على ربوة مرجانية ترتشف قهوتها وبالقرب منها سامى قنديل، صرخ من الفرح وسبح نحوهما وهو يهتف، كنت سأحبط إن لم أركما، عانقهما وهو يبكى، ممسكاً يد صديقه ويرد على استفسارات والدته التى كانت ترتدى ثوبها الأسود والتصق بها حتى صار جسمها مثل الدلفين، سألته عن شقيقته سلوى وأخبار أشقائه الكبار، جاوبها وهو لازال ممسكاً بكف صديقه، وانتبه فجأة لهذا اللقاء الغريب فسأله، كيف التقيت بأمى فى هذا المكان؟ رد عليه وهو يصدر فقعات ملونة، تخيّل، التقيتها صدفة، كانت تبحث عنك، فجلسنا ننتظرك هنا على هذه الشعاب المرجانية لأنك لا تستطيع أن تغوص إلى أعمق من ذلك. كان المنظر بديعاً، شعاب فى شكل أنابيب بللورية بألوان قوس قزح تتراقص حولهم، والدته تجلس على حجر من الزمرد يشع منه ضوء اخضر، أسماك ملوّنة زاهية الأشكال تحمل فاكهة معلّقة على سنارات تلقى بها على الأفواه، لاحظ عامر درويش أن والدته تمسك بتفاحة وتقضمها ببطء، اشتهاها حتى امتلأ فمه باللعاب، دنا ليأخذها منها ولكن يد صديقه أمسكته بقوة ومنعته، فالتفت مستفسراً!! جاء الرد سريعاً، غير

مسموح لك الآن، ويحب عليك أن تعود إلى أعلى وتستنشق الهواء، هيا أسرع ليس هناك وقت. ورد عليه عامر درويش، لماذا لا تريدنى أن ابقى معكما هنا فى هذا المكان؟ جاءه الرد هذه المرة من والدته وبصورة قاطعة، لأن دورك لم يأتِ بعد، والآن وداعا، سيرشدك صديقك إلى الطريق، ثم سبحت كدلفين رشيق واختفت، وقبل أن يستدعى دهشته أمسكه سامى قنديل من ظهره وسبح به نحو السطح. صفعته موجة على وجهه أعادته من حالة الإغماءة، وسعل حتى تقيأ ماءاً مالحاً، لقد اختفت يد صديقه التى كانت تخاصره، رفع رأسه ببطء، كانت أشعة الشمس تتلألأ داخل عينيه، بمشقة حاول أن يعاين المكان فلم يبق أحد غيره، لقد أصبح لوحده مع الزورق ضاع منه صديقه الذى كان يمنع عنه الإحباط والموت، بكى كطفل وهو يحتضن أنبوب الزورق بقوة، ويخبط قدميه بعنف كأنه يحاول منع الموت كى لا يسحبه نحو القاع، أو ربما كانت محاولة يائسة لتحريك الزورق ليبحر، أصبح فى حالة مزرية للغاية، صار يرتعش بقوة، برودة تضرب جسده بالكامل مقياسها كان اصطكاك أسنانه بلا توقف، وفى نفس اللحظة أحسّ بحمى تنخر عظامه، لا يوجد أسوأ وأفظع من الموت عطشا داخل البحر، كلما حاول أن يبل ريقه برشفة يزداد عطشا، كأنما هناك شخص بداخله يغمغم بكلام غير مفهوم، يبدو أنه أوشك على موعد لحظة الإغماء وراح جسده ينسحب عنه ببطء، شعر بها لحظة النهاية صرخ صرخة عالية واحتضن أنبوبة الزورق بطريقة هستيرية.

• • •

قبل شروق شمس اليوم الخامس كانت كل الأجساد قد تبخرّت أرواحها بعد أن تخلّت عن مقاومتها بسبب عدم التكافؤ فى الصراع لتهبط إلى القاع بسلام، ظل عامر درويش وحده ممسكا بالزورق بنفس القوة والتشنج ولكن غائباً عن الوعى ويتمرجح كدمية من الفلّين، عندئذ شاهده مهرِّب يقود مركب صيد كبيرة كان يحمل بداخله مختلف الجنسيات لتصديرها للشواطئ الأوروبية، لم يكن فى نيته التوقف، تعامل مع المشهد كجثة عالقة على زورق ولكن صرخة النساء وانفعالات الرجال، جعلته يقترب من الزورق المنكوب ببطء شديد، تبرّع شخصان بسحب الزورق والجسد الذى التصق به وشاركهم شاب ثالث ليفحص الجثة، وعندما تأكدوا انه لا زال ينبض، قرروا أن يحملوه معهم ليس بدافع إنسانى وحسب بل خوفاً أن يحدث لهم نفس المصير كعقوبة إلهية، عندما حاولوا أن يرفعوه ارتفع الزورق معه لان أطرافه كانت متخشبة حول أنبوب الزورق من شدة التشنج وهذا التصلّب هو بعينه الذى أنقذ حياته وجعله طافياً مع الزورق ولم يغطس مثل الجميع، بصعوبة استطاعوا أن يفكوا يديه من الزورق، اهتم به شاب من موريتانيا لم يكمل دراسة الطب لأسباب اقتصادية واستطاع أن يقوم بعمل إنسانى عظيم وساعدته امرأة افريقية عجوز سقته سائلاً من الأعشاب المصحونة كانت تحمله معها، حتى الذين تساءلوا منذ البداية عن هدف مغامرة هذه العجوز، تحصّلوا الآن على إجابة نموذجية ومرضية، اعتقدوا أن القدر هو الذى جعلها تدفع أجرة التهريب من أجل إنقاذ هذا الشاب،

لأنه مجرد ما أن تذوق وصفتها السحرية استعاد وعيه ولكن بلا ذاكره، ثم رويداً رويداً وبمهارة الطبيب الموريتانى وراح يبكى بلا صوت، ويستعيد الذى حدث، ظلت دموعه تسيل بلا جفاف وهو جالس على أرضية المركب ملتحفا بطانية سوداء ومتكئاً بظهره على كتف الطبيب الموريتانى الذى أرغمه على مواجهة البحر لتقبُّل ما حدث، كان ينظر إلى مجرى الزبد الذى تخلّفِه المركب بسيرها البطيء، يتخيل فى أى لحظة إنه سيشاهد سامى قنديل يخرج من هذا الممر الأبيض فجأةً ويضحك عليه. يحوِّل بصره إلى ناحية أخرى لتصبح فى نظره كل الأمواج المتكسرة وجه صديقه متعدد الإيماءات، أحياناً يخفى تلك الابتسامة الماكرة خلف مغامرة ما، وتارةً غاضباً، ولكن غالبية الوجوه كانت ضاحكة مستبشرة، تذكر إنه التقى بصديقه ووالدته فى عمق هذا البحر، هل حدث ذلك حقيقة أم مجرد حلم وتخيّلات، حتى اللحظة التى سرد لى فيها قصته لم يجد إجابة شافية للذى حدث، هل فعلا التقى بوالدته وصديقه وهما من طلبا منه العودة للسطح بحجة إنقاذ حياته. لم تعد لديه مقدرة على البكاء، ظل صامتاً كأحد مشاهير متحف الشمع. عندما وصلت المركب الشواطئ الايطالية هو وحده الذى لم يحتفل بهذا الانجاز، طلب منهم المهرِّب النزول على الماء قرب ساحل صخرى، حملوا أمتعتهم القليلة فوق الرؤوس وخاضوا مياهاً غمرتهم حتى حدود الأفخاذ لم يشعروا بها من شدة الفرح، البعض حضن اليابسة، وآخرون راحوا يقفزون من صخرة إلى أخرى ويصرخون كالأطفال معبرين عن متعة

كانت محبوسة لساعات وسط ترقب وقلق. الشاب الموريتانى لم يخفِ سعادته ورغم ذلك كان آخر من غادر المركب وهو يسند عامر درويش على كتفه ويسير به نحو اليابسة. لقد مكث داخل مستشفى فى إحدى القرى الايطالية لمدة ثلاثة أشهر حتى تعافى تماما، تعرّف هناك على راهبة تقدِّم خدمات مجانية راح يساعدها فى أعمال مختلفة متعلِّماً اللغة بسرعة فائقة وتوزيع كتيبات دينية صغيرة الحجم يدسها داخل صناديق البريد وتحت فتحات أبواب المنازل مقابل الغذاء ومبلغ زهيد يتبخر فى شكل دخان سجائر، ظل بهذا الوضع لعدة أشهر، حاول فيها تجاوز ما حدث دون جدوى، لقد وفّرت له الراهبة أيضا إقامة مجانية فى سكن مشترك جوار الكنيسة عبارة عن إسطبل تحوّل إلى مكان للنوم، كان أشبه بعنبر طويل اصطفت به أسره عتيقة يسكنه مشردون، منبوذون وبعض المدمنين، قضى هناك شتاءً مؤلماً، تصطك أسنانه بمجرد أن يتذكر تلك الأيام القاسية، يلتحف البطانية التى تبرّعت بها الكنيسة، حتى سريره كان يصدر أصوات من اهتزاز جسده، تعرّض لكل أنواع الذل، بالكاد كان يجد ما يسد رمقه، إلى أن جاء فصل الصيف وتعرّف على أحد أصحاب مزارع التفاح وخدم معه عدة شهور، بداية من مرحلة شتل أشجار التفاح. كان صاحب المزرعة يقود جراراً قديماً بمقطورة يحمل بها الشتلات التى كانت عبارة عن أعواد جافة يستحيل أن يتخيّل احد أنها من الممكن أن تثمر تفاحا، كانت مهمة عامر درويش أن ينزع هذه الأعواد و يغرسها داخل حفر ويهيل عليها التراب، يستمر

هذا الغرس على الجانبين وبطول المزرعة، ثم يدور الجرار ويسلك طريق عودة آخر. كان العمل يبدأ منذ طلوع الشمس حتى غروبها. اشتغل عامر درويش بكل إخلاص، لم يكن يكل أو يتوقف إلا عندما يطلب منه صاحب المزرعة الاستراحة من أجل القهوة أو الأكل، لم يكن نشاطه بدافع الحرص على عمله، بقدر ما كانت محاولة منه لنسيان ما حدث وتشتيت أفكاره، وبعد أن أكمل مع صاحب المزرعة المرحة الأولى من "الشتل"، جاء دور نظافة الأرض من الحشائش الضارة وتجهيز المخازن، ولمجهوده الجبار أكرمه هذا المزارع الطيب بكرفانة صغيرة ليقيم فيها مجاناً، وبعد ذلك أنجز مع المزارع مرحلة وضع الدعائم على الأشجار التى امتلأت بالفروع الخضراء وبعضها اخرج النوّار. لقد كدّس كل أجرته مع هذا المزارع، ليس هناك ما ينفقه سوى القليل للتدخين، وجرّب مرة واحده وشرب نصف لتر من الويسكى وبكى بشدة ولم يكررها ثانية، ظل مقيماً بالمزرعة حتى نهاية موسم جنى الثمار وبعدها سافر إلى روما. كانت أنكا فان درماين تستمع له ولم تكف عن مسح دموعها، أحيانا كانت تضم رأسه نحو صدرها بقوة كما لو أنها ترغب فى عصر ذاكرته حتى آخر قطرة، تركته ينتحب وذهبت إلى الحمام، بكت بحرقة وهى مستندة بمرفقيها على حوض غسيل الوجه، وعندما رجعت غرفتها وجدته نائماً وأنفاسه منتظمة وبين الفينة والأخرى تصدر عنه أنّة حزينة. لا أدرى لماذا لم يواصل لها تكملة القصة؟ هل لأنها المرة الأولى التى يحكى فيها ما حدث وأرهقته الذاكرة المؤلمة وقرر أن

يكمل لها بعد ذلك؟ وربما يكون التفسير الأرجح للمنطق رغبته هو فى مواصلة الحياة بالشخصية التى ارتضاها لنفسه، وإذا اعترف لها انه ميت منذ ثلاثة أعوام فى نظر الآخرين، فالاحتمال الوارد أنها لن تصدِّقه ويمكن أن تتشكك حتى فى قصته كلها، إضافة لذلك لن يجازف بخيانة صديقه بعد أن قرر مواصلة الموت معه. عندما وصل مدينة روما كان فى نيته أن يتصل بأحد الذين يملكون هواتف فى السودان ويخبره بما حدث، تماطل فى اختيار الشخص الذى سينقل له الخبر، أو ربما منعه إحساسه بأن يصبح موت صديقه حقيقة، لم يكن يدرى أن الخبر وصل قبل شهور عن طريق عم سامى قنديل المقيم بليبيا حتى ذلك اليوم الذى التقى فيه ببعض أبناء وطنه فى سكن جماعى فى إحدى أحياء روما الفقيرة، كانوا من المهاجرين الجدد معظمهم خاطروا بعبور البحر، قضى معهم عدة أيام دون أن يعرفوا عنه الكثير، ولكنه فى ليلته الأولى أكرمهم بزجاجة فودكا لمقاومة بداية البرد، استمتع بحكاويهم، أحدهم كان قد تهرّب عن طريق مالطا أيضا وهو الذى أشرف على توزيع الفودكا على كبايات بلاستيك مستعملة. كان من النوعية التى لا يدع فرصة ليتحدث أحد غيره، وأى جملة كانت تنطق تذكره بموقف أو حادثة، لا ينتظر فرصته، يقتلعها بالقوة وعلى لسانه دائماً، بدون مقاطعة لكلامك ذكرتنى قصة لطيفة، وبعد ذلك ينطلق فى سرد مطوّل ولا يهمل أدق التفاصيل، كان اسمه معاوية الطيب، لم ينساه عامر درويش مطلقاً، وأثناء احتضانه زجاجة الفودكا وكعادته يسرد فى

قصة ويتفرّع منها لعدة حكايات فرعية ومن ثم يعود لمواصلة حبكته الأساسية، وفجأة عرّج لرواية يدعم بها قصته:

– وأثناء ما نحن فى مالطا، تقريباً قبل أسبوع من موعد التهريب، سمعنا أن هناك زورقاً قد غرق قبل شهور، قرب سواحل مالطا كان به حوالى عشرين شخصا، من ضمنهم سودانيين، أحدهم يدعى سامى قنديل والآخر اعتقد أسمه عامر درويش، فى تلك اللحظة كان عامر درويش يتجرّع فى كأسه تجمّدت الفودكا على حلقه وصارت كأنها قطعة ثلج ووقفت فى بلعومه، شعر بكتمة نفس، تشنج، جحظت عيناه، أصدر فحيح إغاثة، كأنه غرق فى هذه اللحظة حقيقة، انتبه له أحدهم فنهض بسرعة وهزّ له جسده بقوة، عندئذ شعر بأنه ابتلع أكسجين الكوكب كله دفعة واحدة، اعتذر عمّا حدث ومسح الدموع التى تجمّعت فى عينيه، يستحيل أن يكون أحد منهم مهما كان خياله وعبقريته أن يفسِّر سبب اختناقه، وبدون قصد جعل خبر قصة موته التى أعلن عنها معاوية الطيب يتم تجاهلها دون استفسارات، طلب كأساً طويلاً وحمل كباية البلاستيك وذهب بها إلى أقصى ركن فى "الهنجر" ليتمدّد على سرير كئيب غير عابئ بما سيقال من خلفه، زجاجة الفودكا التى اشتراها بعرق جبينه ستقلل من حدة السخرية، لقد أدهشته معرفة أنه ميت، سأل نفسه، هل الخبر تسرّب ووصل الوطن؟ لام نفسه، كان يجب أن اتصل منذ أيام المستشفى وأخبر الناس بالذى حدث. يرتشف قليلا من الفودكا، يبدو أننى لم أحسن التصرف، كان من المفروض أن اتصل وأبلِّغ عن

نجاتى وموت الجميع، هل أعود لهؤلاء الشباب وأخبرهم بأننى عامر درويش ولا زلت حياً؟ شعر بالحماقة من طريقة تفكيره، ما الذى يهمهم إن كنت حيّا أم ميتا؟ يطمئن نفسه قليلاً، ربما لا يزال مصيرنا مجهولاً عند الأصدقاء والأهل. يقفز سؤال غير متوقع من أين جاء هذا الشاب بخبر موتنا؟ هرس كباية البلاستيك بكفه بعد أن ارتشف آخر قطره بها، ظل مستيقظاً حتى طلوع الشمس، رفض أن يتقبّل كل الأفكار التى تؤكد أن موت سامى قنديل أصبح حقيقة، ويجب عليه الامتثال لقانون الطبيعة، صارع نفسه دون أن ينتصر أحد، انتحب كأسير حرب، حد التشنّج، غادر "الهنجر" وسط شخير غير متناغم، لا ينسجم مع التفاؤل الذى ناموا به، تجوّل حول أماكن عريقة وفى طقس غير سياحى البتة، برد برياح عاجزة من سماكة البنيان، جنرال على كرسى متحرك، كانت محاولة انتحارية خجولة جداً، هطلت عليه كآبة العالم دفعة واحدة، تشكّل لديه انطباع أنه معاقب بحزن انفرادى، بعد شهور من الضياع اتخذ قراره واستقل القطار إلى ألمانيا ثم إلى هولندا.

فى تلك الأيام كان أصدقاؤه فى الجامعة وبعض زملائه الخريجين قد بدأوا فى الاستعدادات لإقامة حفل التأبين للشهيدين عامر درويش وسامى قنديل، اذكر أننى كنت مشغولاً بإتمام بحث التخرج، تهرّبت حتى من أنوثة رباب تاج السر، لقد أخبرتنى أنها اختيرت ضمن لجنة حفل التأبين، لم اعترض لحظتها ولكن عندما عرفت أنهم طلبوا منها أن تتحدث عن عامر درويش الشاعر والمثقف والصديق،

اعترضت بشدة وحدثت بيننا مشادة كلامية وصلت حد الانفعال، ولم أتنازل عن رأيى، وقفت حمقاء تنظر لى فى غضب دون أن ترمش، حتى بانت على جبينها تلك التكشيرة التى تظهر أيضاً لحظة نشوتها العارمة، كانت نظرة مستنكرة ولم يمنعنى الدمع الذى تجمع فى مقلتيها عن قراءتها، يا للغباء، تغار من شخص ميت! كنت حاداً فى آرائي ولا أتنازل عنها مطلقاً حتى وإن كنت مخطئاً، أظل متعصباً لرأيى حتى ولو من أجل العناد فقط، كنت واثقاً تماماً بأن رباب تاج السر سوف تنفذ طلباتى بحذافيرها حتى وإن لم تكن مقتنعة بها. انتبهت لملاحظة غير مهمة أن معظم شجاراتنا كانت تتم فى نفس الأماكن التى مارسنا فيها جنساً عنيفاً وبمغامرة خطيرة، كنا لحظتها نقف تحت كبرى النيل الأزرق وهى تضم حقيبة يدها على صدرها، ربما لتضمن لها المحافظة على انفعالاتها وعينيها الواسعتين فضاء شاسع قاب قوسين أو تهطل، وفعلا كما توقعت تنازلت عما أُوكلت به ومزّقت أمامى الورقة التى رصدت فيها محاسن الشهيد عامر درويش، وفى نفس اللحظة ترجتنى ألا امنعها من المشاركة فى الغناء الكورالى، وافقت على مضض رغم أن القصائد التى ستغنى كانت من كلمات عامر درويش نفسه الذى احتل معظم مساحة التأبين. أستعجب كيف تذكرت هذه التفاهات بحذافيرها؟ تصرفاتى الوضيعة، غضبى غير المبرر. كنت أبالغ فى حقارتى، أنفعل مدفوعاً بذاكرة شرقية، اعتقد أننى كنت فى منتهى السخافة، كونى أجعلها تترجانى وتتوسلنى وأنا افرض عليها دفع الجزية. الغريب فى

الأمر عندما سمعنا خبر مصرعهما كان لسامى قنديل الحزن الأكبر داخل حرم الجامعة. لكن الحركات السياسية برغم اختلافاتها اتفقت على وجهة نظر واحدة فى تصنيف الأرواح، اهتموا بعامر درويش بشكل خاص حسب مصالحهم، ليصبح الشهداء خاضعين للترقية اعتماداً على عدم النزاهة وغياب العدل الذى كان داخل الصراعات الإيديولوجية. لذلك، وبكل أسف، هناك العديد من الأرواح الطاهرة تدحرجت إلى أسفل الذاكرة عمداً.

15

وقفت أمام ميدان الدام أتأمل الزحام والطابور الطويل المتعرِّج أمام متحف الشمع، هنا فقط تذكرت أن اليوم هو السبت، سمعت اسمى يتردد من أحد أركان الميدان بلغة عربية، لكن ليست اللهجة السودانية التى تعودتُ عليها، تلفتُ كالأبله فى عدة اتجاهات، داهمنى من الركن الوحيد الذى تجاهلته، كان هو حسام اللبنانى، شاب وسيم جداً كان معى فى معسكر اللجوء الأولى، عانقنى بلهفة غير متوقعة منه، تبادلنا التحايا والأخبار، لم أكن منتشياً بهذا اللقاء مثله، من الواضح إنه كان يكن لى جميلاً قد نسيته، أخبرنى بفرح طفولى انه تزوّج سامية، شابة سودانية أطلق عليها شباب المعسكر "سامية بنت الشّيريا" أولا لعدم جمالها وعجرفتها وثانياً، جاءت من مركز التحقيق إلى معسكر اللجوء بصحبة شاب لبنانى وسكنت معه فى كرفانة واحدة، مترفعةً على أبناء وطنها، الذين لم يترددوا فى نعتها بكل أنواع التهم الممكنة، تداولوا سيرتها دون حشمة:

– قبيحة وكمان متفرعنة.

– دى بنت فاجرة ومنحطة.

يعقِّب آخر:

– أنا محتار فى حاجة واحدة بس، سامية بت الشّيريا دى، الجميل فيها شنو عشان حسام اللبنانى الوجيه دا يعجب بيها؟

يتفق معه آخر:

– صاح والله، لا شكل ولا جسم.

يضحك احدهم ويعيد نفس الجملة فى شكل مثل:

– زى ما قالوا، لا خلقة ولا أخلاق.

ويعلِّق أحدهم ويلفت انتباههم لشيء غير متوقع:

– غالباً ما تكون شبقة جنسياً، أصلا زى نوع سامية بت الشيريا، الله بعوضهم بدل فاقد، اقسم بالله بتكون ممتعة فى الجنس لدرجة رهيبة.

غمغم أحد الذين داهمتهم الإثارة:

– دى شرموطة ما عندها أهل.

– الهبلة فاكرة ممكن اللبنانى دا يتزوجها، هو بعرفها من وين؟

– قابلها فى صالة تحقيق اللجوء.

– يا شباب، اسمعوا الكلام المفيد، والله ما ممكن نترك واحدة حقيرة تدعك كرامتنا فى التراب.

– أنا بتكلم معاها.

– أولا، فى البداية لازم نكسر الخول حسام اللبنانى.

ينفعل أحدهم:

– دا كلام صاح.

تبرّع اثنان منهم وطلبا منها ترك الكرفانة والسكن فى غرفة لوحدها أو أن تنضم إلى احدى الأسر السودانية، أجابتهم بكل بساطة:

– ما فى شخص وصى على هنا.

واصلت فى علاقة عشقها مع حسام اللبنانى مستمتعة بحرية كاملة،

ولم تعِر أبناء وطنها داخل المعسكر أدنى انتباه، تربصوا بعشيقها المسكين، لقد ذكرنى الآن بتلك الحادثة والكمين الذى تعرّض له فى ذلك المساء، كان عائداً بدراجته من المدينة بعد الغروب بقليل، قطع طريقه مجموعة من أبناء وطنى وضربوه حتى سالت دماؤه، وعندما أوقفه شرطى الاستقبال فى باب المعسكر وسأله، قال إنه تعرض لحادث سير، أنا من ضمّد له جروحه فى تلك الليلة، لا أدرى حتى الآن ما سبب تعاطفى مع علاقتهما، حتى سامية كانت تتعامل معى بطريقة راقية من دون أبناء وطنى، لقد دافعت عن عشقها بأنوثة مفرطة، يبدو أنها كانت مؤمنة به حد اليقين، و لم يخذلها كما توقع الجميع، كنت سأكون أكثر سعادة إذا سمعت خبر زواجهما قبل لقائى بعامر درويش لقد شوّش ذهنى، أكيد الخبر أسعدنى، ولكن لم أبتهج بالطريقة التى كان يتوقعها حسام اللبنانى، لقد دعانى بإلحاح لوجبة فطور فى المطعم الذى يعمل به، وموقعه كان فى بداية شارع "مارنكس" القريب جداً من ميدان الدام، حاولت أن أتملّص من إصراره، لكنه أغرانى برائحة الفلافل. أعتقد كان من ألذّ الساندوتشات التى تذوقتها فى حياتى، قام بنفسه بتحميص الخبز اللبنانى وردم بداخله سلطة مشكلة وباذنجان وأنواع مختلفة من المخلل ثم رص الفلافل وصب عليها طحينة وشطة خضراء سائلة، استحيت أن اطلب منه واحداً آخر. صار يدردش معى أثناء متعة المضغ:

– شو صار مع عم الريح وأسرته؟

أرد عليه وفمى مشغول بمذاق نادر:

– لقد تحصلوا على إقامة، ويعيشون الآن فى مدينة "ماستريخت".

– جيد، خبر جميل.

ثم سألنى عن اقرب أصدقائى فى تلك المرحلة من حياتى:

– شو أخبار ابتهال وعاكف؟

كنت على وشك أن أقول له لقد تذكرتهم هذا الصباح، لكن احتفظت بدهشة الصدفة لنفسى وقالت له:

– للأسف لم ألتقِ بهما منذ أيام المعسكر، ولكن سمعت عنهما بعض الأخبار لقد صار لهما ثلاثة أطفال، ولكن للأسف لم يتم الموافقة على طلب لجوئهم فغادروا إلى بلجيكا.

تأسّف هو الآخر على عدم بقائهما داخل هولندا، تذكرت فجأة أننى لم أسأله عن أخباره:

– وماذا عنك؟

قال مبتهجاً:

– استطعتُ أن أنتزع إقامتى منهم بالمحكمة.

قلت:

– يسرّنى أن اسمع ذلك.

وهتف لى متهلل الوجه:

– أنا وسامية فى يناير القادم ناطرين طفل.

هنأته على الخبر ووعدته بزيارة قريباً.

16

رجعت إلى نفس محطة الترام التى نزلت فيها من قبل، الشبع جعلنى أحس بالنعاس، أتثاءب مبتلعاً فراغاً وأتجشأ رائحة الفلافل، قررت أن استغل أول ترام وأعود إلى البيت، تخيّلت عامر درويش وانكا فان درماين وهما يجتازان شارع الأسفلت متماسكان للحاق بالترام رقم 7. استقليت نفس الترام عائداً إلى شقتى، اخترت مقعداً على النافذة ورميت جسدى عليه، أغمضت عينى لأن الاسترخاء يبدأ بحجب أكثر الحواس إرهاقاً، داخل ظلامى المفتعل خطرت لى فكرة ابتكار صورة تخيّليه لوجه أنكا فان درماين، الأوصاف التى ذكرها عامر درويش غير كافية لاستحضارها، وبما أننى أحببت هذه الشخصية لم أتجرأ وأتخيل وجهها كعاهرة تقف خلف زجاج غرفتها فى "الريد لايت"، اجتهدت ذاكرتى مشكورة وجلبت لى وجه حسناء شاهدتها قبل فترة فى مطار أمستردام ربما تكون بنفس هذا الجمال، ولكن موقف أنكا فان درماين الإنسانى مع عامر درويش جعلها تصبح فى نظرى بجمال خرافى والوجه الذى أنتجته ذاكرتى بدا شاحباً مقارنة بها، فتحت عينى ورحت أتابع من النافذة الفتيات الجميلات المتسكعات فى الشوارع، أصبحت كالأرعن أمدُ رأسى أتابع حسناء حتى تصطدم جبهتى بزجاج النافذة، كلما أشاهد واحدة جميلة أخمِّن بأنها تشبه أنكا فان درماين ثم أغيِّر رأيى عندما أرى حسناء أخرى. توقّف الترام فى

محطة إيسبلين الشهيرة، كانت مزدحمة بالسياح كعادتها، أكاد اسمع حتى صوت مبارزة الزبائن مستخدمين السكاكين والملاعق تأتى من داخل المطاعم المكتظة، كان فى وسط الساحة التى تقع أمام مجمع السينما شاب متعدد المواهب يبهر الجمهرة التى التفت حوله فى دائرة وصار محيطها يتسع بقانون حب الاستطلاع، تابعت الوجوه بتركيز شديد كما لو أننى اشتبه فى احد، معظمهم كانوا سعداء ومبتسمين، ليس لديهم أدنى فكرة عن المآسى التى يعيشها غيرهم من البشر. رفعت رأسى للأعلى تابعت فتاة تفتح نافذة شقتها فى الطابق الثانى وتلوِّح بيدها لشخص ما، كما حدث بالضبط نهار اليوم الثانى عندما خرج عامر درويش من شقة أنكا فان درماين ليزور صديقه مأمون بشير بعد أن ظل معها ليلة أخرى، لم يشعر بمثل هذه السعادة منذ دخوله أوروبا، كانت نيّته أن يحكى لأحد بما حدث مع هذه العاهرة، ليس بدافع المتعة فقط، كان يريد أن يؤكد لنفسه لم يكن حلماً وأنها حقيقة وقد مارس معها الجنس، وكلما كان يتوقع النهاية تفاجئه بقرارات لا تصدق والآن طلبت منه إحضار حقيبة ملابسه لأنه سيقيم معها فى الشقة، وقفت على النافذة تلوِّح له بيدها، مشى خطوات للوراء وهو مبتسماً يرد عليها بكلتا يديه، ثم غيّر مشيته إلى خطوات عسكرية عرجاء تقليد لبطل الفيلم الايطالى الذى شاهده معها ليلة أمس، جعلها تتلوى من الضحك، وشعرت أنها محقة فى قرار بقائه معها فى الشقة، وشىء ما يجذبها نحوه بقوة لدرجة أنها أحست لأول مره بوحدتها فى غيابه. أعجبنى موقفها وتعاطفها معه،

فعلت ما بخل به أبناء وطنه، أعتقد أن المواقف الإنسانية لا علاقة لها بالجينات، تكتسب من تراكم سوء الحظ.

صادَف زيارتَه " لمة" متفقاً عليها بين أصدقاء أمستردام فى شقة مأمون بشير، هذا هو البيت الوحيد الذى لازال يرحب بقدومه نوعا ما، مدّ له أحدهم الكأس الأولى، أمسكه بتردد، منسوب الويسكى كان أقل، ولكن تجاهل افتعال العداوة بمبررات تبدو سخيفة، أجّل مشاجرته مع موزع الكاسات إلى فرصة أخرى يتم فيها اختبار العضلات، دلق الكأس داخل حلقه، وشعر باسترخاء ثم بدأ يحكى لهم بتلذذ ما حدث له أول أمس مع العاهرة صاحبة بنطلون الجينز الممزّق عنوة وأزراره مفتوحة، نطق اسمها بتأكيد على الحروف ليدعم مصداقيته، كأنه كان يقص عليهم حكاية فيلم ممتع ومقتبس من قصة واقعية، لدرجة أنه استرجع فى ذهنه بعض صور تلك اللذة ليتأكد بنفسه على صحة ما يقول، ولكن حتى أكثرهم سذاجة ورومانسية لم يتقبّل هذا الخيال الجامح، لم يصدِّقه أحد، همس أحدهم للآخر:

– أساسا إغلاق ملف اللجوء يفعل أسوأ من ذلك.

حتى مأمون بشير نفسه رغم حميميته شكّك فى صدق القصة، وحاول استخدام منطق التفكير الذى تعلّمه من عامر درويش واستنبط عدة أسئلة تشكيكية ليصل للدوافع والأسباب التى جعلت صديقه يتطاول على الواقعية السحرية وتوصل لنفس نتيجة الوعى السائد واتفق مع الهمس الذى فاح من أحدهم بدون أن يسمعه،

عامر درويش. كان تركيزه منصبا حول المتعة المزدوجة، متعة السرد والتلذذ بغيرتهم عليه، لذلك ترجم انطباعاتهم المتناقضة فى خانة الحسد، لم يلحظ للإيماءات الساخرة، البعض اعتبرها حيلة جديدة ليتصيّد بها أماكن نومه بعد أن أصبح منبوذا فى أمستردام، والتأكيد على هذا الرأى جاء من الذين شاهدوا العاهرة صاحبة بنطلون الجينز ذى الأزرار المفتوحة التى كان يحكى عنها، لقد بهرهم جمالها فيستحيل أن ترمقه حتى بنظرة عابرة، ناهيك عن الحديث معها. كان هدفه التباهى أمامهم بعد أن صار يمقتهم بشدة خاصة بعد مواقفهم المتخاذلة وتهرّبِهم من استضافته بأعذار سخيفة، أساساً كان مستاءاً، منذ بداية معرفته بهم، كان يكره أشباه المثقفين الذين لا يتحدثون إلا عن السياسة، وبطبيعة الحال أصبح يفهم منطق تفكيرهم وترويج الأفكار بالتقليد كأنهم ببغاوات، لقد أشعروه بتعاسة مضاعفة. ومن المعروف أن المرء يمكن أن يكره بشدة من يعرفهم جيداً، وبما أنه لم يختارهم كأصدقاء، والغربة هى من فرضتهم عليه عنوة. تعامل معهم عبارة عن زكاة قدر ليس إلا، أو صدقة مذلة، مقابل تستره على موت صديقه. لذا كان عليه تقبّلهم والتعامل معهم بحذر، صنّفهم أصدقاء مناطق، أطلق عليهم أصدقاء أمستردام، تعرّف عليهم عن طريق مأمون بشير قبل أكثر من ثلاث سنوات عندما التقاه صدفة فى محطة أمستردام فى صباح بارد، كان قد نزل لتوه من قطار قادماً من روما هاربا من المدينة التى سمع فيها خبر موته، وتأكد بما لا يدعو للشك إنه أصبح ميتاً فى نظر

أهله وأصدقائه. وخاصة بعد أن علم بحفل التأبين الذى أقيم لهما هو وصديقة سامى قنديل، فجعه هذا الخبر، كاد أن يصرخ من هول المفاجأة، داهمه إحساس بأن هناك تراباً يردم عليه وهو لا يقوى على فعل شيء، هرول إلى الشارع كان المطر يهطل بغزاره، جرى بلا هدف، لقد اختار توقيتاً مناسباً ليفجِّر حزنه، اختلطت دموعه مع حبات المطر، توقف بعد أن أنهكه التعب أمام أحد المحلات التجارية، تسيل المياه خيوطاً من أطراف ملابسه، تأمّل نفسه على الواجهات الزجاجية، كما لو أنه يريد أن يتأكد من وجوده حياً. دخل سوبرماركت واشترى زجاجة خمر محلية، رخيصة، تجرّعها وهو هائم فى شوارع روما بلا معنى، تتنازعه أفكارٌ شريرة، ولكن ما حصل قد حصل، وبدأ يسترخى قليلاً وغاب عنه إحساس البلل، راح ينعى نفسه وصديقه فى حزن واحد، شعر بأن من الحماقة أن ينفى خبر موته الآن، ليس بسبب الإحراج الذى سيسببه للذين عبّروا عن حزنهم عليه، بل تضامناً ووفاء لصديقه سامى قنديل، لذلك اتخذ قراره فى الربع الأخير من منسوب زجاجة الخمر، تكلّم مع نفسه كأنما كان يخاطب فى صديقه، صدّقنى لن اعترف لأحد وسأظل ميتاً من اجل رفقتك، لن استبدلك بأحد. ارتشف جرعة كبيرة حتى لا يدع أى احتمال للعبرة المتوقعة، ثم أضاف قبل أن يستعيد وجهه الملامح الطبيعية، أما فيما يخص هذه الروح التى أنقذتها أنت يا صديقى، فإنها ستصبح مناصفة بيننا، سنكون شركاء فى الروح التى ماتت والأخرى التى لازالت تتعذّب، سنتركها تفعل ما تشاء، تقوم بما

عجزنا عنه. كان عامر درويش يعلم أن مواجهة الغربة بلا سامى قنديل تبدو قاسية، لقد جرّب تلك الأيام فى مالطا فلولا صديقه لم يكن بمقدوره أن يغامر، لذلك قرر مسبقاً أن يخفى فشله المتوقع بموت معلن وتقمّص شخصية جديدة ليس لها تاريخ ولن يحاسبها احد. تجرّع الرشفات الأخيرة حارقة الصدر وملهمة التدفئة والصبر، ثم داخل الهنجر البارد لم ينتبه له أبناء وطنه المهاجرون الجدد، الذين كانوا منشغلين فى لعبة الورق. استبدل ملابسه المبتلة وتمدد فى ركنه المفضل غير عابئ بزعيقهم وصراخ المغالطة. حاول أن يستعيد ذلك الصمت الذى يحدث بينه وبين صديقه دائماً، تذكر تلك الأمسية وهما يغادران ندوة ثقافية فى مدينة أمدرمان يسيران فى صمت، اجتازا كبرى شمبات حتى الخرطوم بحرى ثم اجتازا كبرى النيل الأزرق دون أن ينطق احد بكلمة. قال لنفسه مخاطباً شريك روحه، ما أجمل تلك الرفقة يا صديق، عندما تكون مع شخص تحبه لا تحتاج للكلام مطلقاً. عندما وقع اختياره للذهاب إلى هولندا، كان بدافع تحقيق رغبة صديقه سامى قنديل الذى كان معجباً بمدينة أمستردام التى صوّرها له كاتبه العبثى المفضل ابن الحرام "جان جينيه"، وأثناء جلوسه فى القطار راح يتخيّل لنفسه ولصديقه ردة فعل أصدقائهما فى الوطن إزاء موتهما وكيف كان وقع الخبر على من يهمهم الأمر؟ وصل به الخيال لرسم تفاصيل تلخص ما حدث فى ليلة حفل تأبينهما، أسند رأسه على النافذة وأغمض عينيه؛ "أتخيل أنهم اجتهدوا ليجدوا لى محاسن ويعلونها للجميع، أكيد تفوقت على

أنت فى هذه النقطة يا صديقى، كنت أحسدك، كل طالبات الكلية كنّ معجبات بشخصيتك رغم انك لم تبادل أحداهنّ نفس الشعور، من المؤكد قد ذرفنّ من أجلك دمعّاً ثرّا، لا تنس يا صديقى أن اللجنة المنظمة للتأبين ستبدأ الأمسية بالقراءات الشعرية وأغانى كورال الكلية، لا تستبعد أن صديقنا على حسين السياسى المشاكس صاحب الركن السياسى، سيطلب بكلمة قصيرة ويتهمنى زوراً بالمناضل السخى ومن ثم يحول أمسية التأبين إلى معركة سياسية. أولا سيحمل الحكومة مسؤولية موتنا. وسيستعرض بعد ذلك النضال الطلابى والقمع اليومى، الاعتقالات، مصادرة الحريات، ولن يتوانى فى المطالبة بإسقاط الحكومة وسيشتم بصوته المبحوح الطلاب الموالين للحكومة ولن يستثنى حتى المحايدين، وحتما فى نهاية التأبين تم اعتقاله، اعتقد هذا ما حدث يا صديقى). ومن تلك اللحظة راقت لعامر درويش فكرة انه ميت فى نظر الآخرين، وقرر أن ويستمتع متنكراً بشخصية أخرى، قد يكون من الصعب على المرء أن يصبح شخصاً آخر لكن عامر درويش شعر بمقدوره التعايش مع هذه الحالة وخاصة أن صديقه متواطئ معه، وبكل يُسر توصل لاسم موسيقى، قرر أن يطلقه على نفسه وحتى يكون أكثر دقة كان يجب عليه تغير ملامح شكله قدر الإمكان، تفادياً لأية صدفة قد تجمعه مع احد من معارفه السابقين وخصوصاً انه ذاهب إلى مكان لا يعرفه جيداً، استغل شعره الذى طال و أصبح كثيف استخدم علبة فازلين كاملة وحوله لضفائر غليظة ليصبح كما لو انه احد معجبى

المغنى الجاميكى بوب مارلى، وبهذه الكيفية اخفى ملامح عامر درويش نهائياً، ليقدم نفسه لمأمون بشير باسم عامر عباس، اختياره لاسم عباس كان محض صدفة. عندما كان فى ايطاليا أكتشف أن أبناء وطنه المهاجرون يطلقون فيما بينهم على الشرطة
مصطلح عباس. أعجبته الفكرة واجتهد مع نفسه ليعرف سبب التسمية ولماذا اختاروا هذه الاسم تحديداً؟ ومن يا ترى الشخص الذى أطلق هذه التسمية؟ ولكن سرعان ما أدرك أن لا أهمية لأسئلته. وصادف عندما وصل محطة أمستردام شاهد شرطى واعتقده أنه سيسأله عن أوراقه الثبوتية ولكن هذا الأخير حياه مبتسماً دون توقع، عندئذ التقى بمأمون بشير وقدم نفسه باسم عامر عباس. ذاب سريعا بين الأصدقاء الجدد ومعظمهم كانوا من اليسار فوجدوا فيه التمرد والإلحاد الداعمين لأفكارهم، نظموا من اجله جلسات مسائية تجرع خلالها كميات من الويسكى، كانت كافية ليتقمص الشخصية الجديدة التى دعمها بثقافة عامر درويش وبداياته فى كتابات الشعر، وفى احدى الجلسات قراء قصيده وهو مخمور، فعلق احدهم على جماليات الصور الشعرية فى القصيد ثم أصابه بطلقة موجعة

– عارف، ذكرتنى بشعر المرحوم عامر درويش.

فانتفض واقفاً ومذعوراً أمام دهشة الجميع، مما جعل صاحب هذا الرأى يستدرك سريعا لهفوته ويعتذر لهذا التشبيه غير المقصود. حاول عامر درويش جاهداً أن يخفى ارتباكه، جلس بطريقة شخص

منهار وأجهش فى البكاء، بكى على نفسه، (إحساس فظيع وأنت تسمع اسمك مسبوق بصفة الميت–المرحوم) راحوا يهدئوا من روعه، وهو يفكر كيف يخرج من هذا المأزق وأن يبرّر بكاءه، لم يهدأ إلى أن وصل إلى صياغة مناسبة ومقنعة للطرفين:

– آسف يا شباب، لم أكن أعلم أن عامر درويش قد توفى، كان صديقى.

أعجبوا أشد الإعجاب بطريقة حزنه وتعبيره الإنسانى على فقدان صديقه، هبط صمتٌ اضطرارى، خيّم عليهم حزن مثقل بالكآبة، ومن ثم انهالت على المرحوم الشهيد عامر درويش ترحمات ودعوات دينية خرجت من منبع اللاوعى، أشعرته بالخجل، تمنّى أن تنتهى هذه اللحظات وبسرعة، ولكن غصباً عن التمنى استمرت الأمسية بحكاوٍ ملفّقة عن حياته وإبداعه والطريقة المأساوية التى لقى به حتفه لدرجة أنه تخيّل أنهم يتحدثون عن شخص آخر غيره، وصلت بأحدهم الجرأة ليدعى انه كان صديقاً له منذ المرحلة الثانوية، وفيما بعد سيكون هذا الشخص المنافق أول الذين تعارك معهم عامر عباس. كان ذهنه خلّاقاً وطريقة تحليله للأشياء مدهشة، حتى نقده للآراء كانت تنم على ذكاء وفلسفة خاصة لا تعتمد على الإطلاع، كان قليلاً ما يقرأ، ولكنه كان يفكر بشكلٍ مستمر، وحتى الأشياء الاعتيادية كان يتأملها كأنه يشاهدها للمرة الأولى ليعيد التفكير بها مرة أخرى. لذا كانوا معجبين بطريقة تحليله وتفكيره، استمرت علاقته بهم حتى بعد أن تم استيعابه فى أحد مراكز اللجوء، وبعدها أصبح

يشعر بالاستقلالية وانزوى فى عالمه الخاص وانكفأ لدراسة اللغة الهولندية بجدية، كان يرفض فرص الأعمال الهامشية التى يقدّمها له هؤلاء الأصحاب وراح ينظر لبعضهم بدونية صارخة، يتحدث بنزاهة لا تعجب الآخرين، وأحياناً يصبح عصبياً، لا يفوّت السذاجة الناجمة عن أفكار ضحلة، كان أحياناً يعض على أسنانه، وعندما لم يعد قادراً على مقاومة الرعونة الفجة، لا يتوانى مطلقاً فى نعت أحدهم بالغباء علناً. وصل به الغيظ ليمد يده، ويعتذر فى الصباح، يتأسّف للجميع، ولكن وبعد أيام قليلة يعجز مرة أخرى عن كتم الغيظ .

انتبهت للدهشة الغريبة التى رمقنى بها مفتش الترام، كان يقف أمامى يتلفّت يسرة ويمنة كما لو أنه يبحث عن مترجم لأنى أجبت على سؤاله بلهجة عربية دون قصد، لقد سألنى عن تذكرتى وكنت ساهياً ولا أدرى بأى حماقة نطقت، ولكن استدركت سريعاً ونهضت واقفاً وأخرجت التذكرة من محفظتى وغمغمت معتذراً، ابتسمت لى عجوز وضحك رجل آخر فى نفس عمرها، جلست مرة أخرى على مقعدى محرجاً، التفتُ نحو النافذة حتى أخفى ابتسامتى، كان الترام متوقفاً فى إحدى المحطات. تخيلتُ ردة فعل رباب تاج السر لو علمت أن عامر درويش لا زال حيياً يُرزق وأصبحتُ متعاطفاً معه، برغم عدم وجود قنوات اتصال بينى وبينها تخيّلت دهشتها وبكاءها. تذكرتُ يوم أن أخبرتنى بخبر علاقتها مع عامر درويش، كنت جالساً على عتبة الممر بين القاعات الدراسية ومستنداً بظهرى على عامود، والشئ الذى يدعو للسخرية، كنت لحظتها أدوّن لها فى دفترها محاضرة

سابقة لم تحضرها. كنت أفعل ذلك بمتعة، حتى اقترب من قلبها، وقفت أمامى مبتسمة وعيناها تضجان فرحة، أطراف فستانها الطويل ترفرف مثل رايات المزارات، أعلنت لى دون مراعاة لإيقاع نبضى عن ارتباطها العاطفى:

- بما إنك اقرب أصدقائى يا أشرف، فضلتُ أن تشاركنى فرحتى. إنه شخص مدهش، كلامه غريب، مفهومه للحب عميق، تخيل! حتى إحساسه بالحب مختلف، والأروع من ذلك اعترف لى بحبه أمام مجموعة من أصدقائه، لقد أربكنى، جعلنى أتعرّق، لأول مرة أشعر بالدم يسرى فى عروقى، لم أكن أتوقع بأن أحداً يستطيع السيطرة على قلبى بهذه السرعة. إنه إنسان رائع سأعرفك عليه، لا تنس أننى حدّثته عنك.

غادرتنى بنفس ضجتها وفمها الكاكاوى يتسع حاجباً أنفاسى لتنقل الأخبار السارة لزميلاتها. شعرتُ فى تلك اللحظة بالقنوط، لم استطع مواصلة الكتابة ولا دخول المحاضرة، تركت الكلية على وجه السرعة، ليس لدى أى فكره عمّا سأفعله بعد ذلك. ترجلت من الحافلة فى الميدان الكبير، ذهنى مشوش، فضّلت مراقبة الناس حتى لا أفكر، كان نفس المشهد اليومى المعتاد، لكن شاهدته اليوم بطريقة مختلفة، أو ربما كنت أعبر دون تأمل. كانت هناك زحمة كأنها مفتعلة، حشد من الناس يسيرون بلا هدف، تشعر بهم فقدوا وقارهم من شدة المهانة اليومية، أصوات بطبقاتٍ مختلفة تعلن عن بضائع رخيصة مخزنة، نغمات ماسحى الأحذية، أجراس بائعى الماء، أغانى

تنبعث من كل الاتجاهات، عجوز يجلس داخل تاكسى ماركة "هيلمان" ويعلن بالميكرفون عن علاج الأمراض المستعصية وتخفيف الآلام، ولم ينسَ حتى أمراض الحب، وقفت أتأمله. دونما سابق تخطيط أدخلت رأسى من النافذة وأخبرته بأسرار عشقى حتى لا يسمعنى أحد. كأنه كان يعلم بقدومى، الوصفة كانت أمامه، قايضته المال مقابل قطعة من لحاء شجرة، وقفتُ ممسكاً بإنجازاتى، ولكن سرعان ما انتبهت لغبائى، يمر أمامى مجنون بحضوره الكئيب اليومى، الشىء الذى أغاظنى، ضجيج الباعة المتجولين يعرضون ما يحملون أمام وجهى كدعوة مشاجرة. انعطفتُ إلى زقاق ولم تنقطع عنى الأصوات، سندت ظهرى على الحائط، احتميتُ بنهايات آخر ظل، كان طقساً قاسياً على البشر، مسحتُ العرق بكفى ورحتُ أخفف من وطأة حزنى بإعادة سريعة لهذه الوجوه البائسة، أُناس أنهكتهم الظروف المعاكسة، رغم كل هذه المحن لا أحد منهم رفع راية الاستسلام. انتبهتُ لنسّاج "عناقريب" كان يعمل بصمت فى هذا الزقاق، جسده نحيل، منهمك فى عمله كعنكبوت واثق من حظه، اجتزت الزقاق لتصفعنى أحلام يقظة، أشاهدنى وأنا أهم طالب بالكلية، الأساتذة يشيدون بعقليتى وعبقريتى، سيرتى تصبح هى حوارات الطلاب المتداولة، ينظرون لى بإعجاب، أتباهى بفخامة المدح الذى يطوِّل حتى غيابى، أشتم رائحة الندم تنبعث من رباب تاج السر ولا أعيرها اهتماما. وصلت منزلنا منهكاً فنمتُ بحذائى .

بعد ذلك قررت أن تصبح أحلامى واقعاً، اقضى معظم وقتى

بالمكتبة، أقرأ بنهمٍ غير طبيعى، وفى ذهنى صورة نسّاج العناقريب وإصراره وهو يمسك بالعزيمة. أطالع كتباً مختلفة، ادرسها بحيوية وشغف، وعندما أشعر بالإرهاق، أجلس منهكاً أحاسب نفسى، ماذا افعل؟ ما الذى كنت أريده من هذا الكتاب؟ لا إجابة. أغادر مستاءاً، الشىء الوحيد الذى تعلّمته جيداً آنذاك الصبر والقراءة الجيدة، استمتعت بالكتب ورائحتها قبل مفرداتها، كنت أقوم بشم الكتاب عندما أفتحه. كانت روائح مميزة، كفيلةً بإشباع رغباتى، بدأت برائحة روايات الكاتب حنّا مينا وانتهيت بمقالات جاك دريدا، وعندما استعصت على مفرداته التجأتُ لماركيز المذهل، رواياته لم تكن بها فقرة أو جملة واحدة مملة، أدمنته لدرجة أصبحتُ أتحدث مقتبساً جملاً من رواياته، حتى أننى فكرت أن أصبح روائيا، وحاولت كتابة القصة القصيرة، وشعرتُ بعد ذلك بالملل. أدركتُ آنذاك بأنه ما كان يجب على تجاوز أقرانى، و أبناء دفعتى، فالقراءة فتحت أمامى طبائع عديدة وجعلت منى ضحية لحفنة لا يستهان بها من المملّين، وأصبحت متّهمَ زور بأننى سياسى محنك، يقدمونى ككادر خطابى فى الأركان السياسية، لم يشفع لى كل ذلك كى أتجاوز عقبة رباب تاج السر، بقيت عالقة بالذهن، لم أعد أحتمل ذلك، والأسوأ ما فى الأمر إننى كنت أشاهدها يومياً داخل الكلية، وأحياناً تتحدّث معى بكل اعتيادية، وهذا ما كان يؤلمنى أكثر. لم استعِد توازنى إلا عندما عادت لى تحكى عن نهاية علاقتها بعامر درويش الذى تحاشيت أن التقيه، لم أشاهده سوى مرة واحده ومن على بعد.

17

دخلت شقتى يسبقنى نعاسٌ خرافى لم أشعر به من قبل، توقعت أننى سأنام قبل أن أصل السرير، خلعتُ سترتى والحذاء وارتميت بجسمى على المرتبة وطويت طرف البطانية على وجهى، تجشأتُ مرة أخرى طعم الفلافل، أغمضتُ عينى، لحظتها تذكّرت أين التقيتُ بمأمون بشير، حدث ذلك فى شقة ابن خالتى ياسر علوب، اعتقد أننى سمعت أنه تزوّج وترك أمستردام، استعدت بعضاً من ملامحه، جبهته عريضة وله عينان بارزتان تجعلانه يبدو كأنه ينظر إليك بخوف، لونه قمحى ويبدو ناعماً، وفعلاً كما قال عنه عامر درويش تندس بداخلة أنوثة. كان يحسب ألف حساب لآراء عامر درويش ومعجباً بشخصيته، يا للسخرية لم يكتشف انه ضحك عليه، كانت شقته فى منطقة "البرتكايب" وسط أمستردام على ما أذكر. بعد أن غادره عامر درويش وأخذ حقيبة ملابسه ذهب ليقيم بصورة دائمة مع أنكا فان درماين ولكنه لم ينقطع عنه، ظل يزوره بصورة متقطعة، مصطحباً أحياناً حبيبته أنكا فان درماين وخاصة عندما يسمع بجلسة مسائية تجمع كل أصحابه الأعداء فى مكان واحد ليغيظهم ويثير غيرتهم. كان يختار لها بنفسه فستان السهرة، ترتديه وهى سعيدة لا تعلم بمآربه، الشىء الوحيد الذى كان يهمه هو أن يكون فستانا

قصيراً ومُحزّقاً، ضاغطاً على الصدر بقوة ليُظهر مثلث الرعب المظلم بين النهدين. هكذا كان يحيك المؤامرة ناصباً مفاتنها فخاً لأعدائه. كانوا يصافحونها مرتبكين، يتأملونها بجوع حقيقى، من مؤخرتها المكورة تنزلق الأعين نحو أفخاذٍ بضّة، متسترّة تحت سواد الفستان، وأعين أخرى مثبّتة بسذاجة على النّهدين النافرين، كانت ابتسامتها مشرقة كما لو أنها مستلذة بما تثيره من إعجاب، وأما مثلث الرعب المظلم فقد انحصرت مهمته الأساسية فى إيقاعات بلعت الريق. وجنتها كانت غير مدرجة فى قائمة التوقعات لتصبح الفجوة التى تلهى الجميع عن منحنى الإغراء، يتابعون روعتها من قلب الحسد، آه لو استدرجتها لشقتى ليلة واحدة، لا شك أن احدهم تفوّه فى سره بذلك، فيما ظل اللعاب يسيل على الأفواه. كان عامر درويش متلذذاً وهو يراقب نظراتهم الجشعة، يتملّقونها حد التقزز، يتبارون فى التودد لها وتخونهم المفردات الهولندية، كان يحس بسعادة داخلية من جرّاء فضح دواخلهم، وعندما يسرى مفعول الخمر فى الأذهان وتبدأ مرحلة الدندنة يصبون عليه مزيداً من السعادة بتعليقاتهم:

– يجب أن نطلق عليك منذ الآن، اسم عامر محظوظ، دى مخلوقة عجيبة.

– بالمناسبة يا عامر، والله أنا حاسدك.

– عليك الله يا عامر عباس المخلوقة دى بتنوم معاها كل يوم؟ إن شاء الله ما تنفعك.

يضحك من نشوة الانتصار عليهم، ويتباهى بعشقها الخرافى له، ولم يحسب حساباً لمشاعره التى سرعان ما تورّطت فى عشقها، ليصبح متيمّاً بها، فبعد أسابيع قليلة من إقامته معها، بدأت تنهشه الغيرة، لم يعد يطيق عملها فى "الريد لايت" كعاهرة محترفة، ولكن لم يكن بمقدوره أن يتفوّه بذلك ويعبِّر عمّا بداخله، ظلت وتيرة غضبه تتصاعد يوماً بعد آخر. الغريب فى الأمر عند بداية علاقته بها لم يكن يهمّه سوى إشباع رغباته، كان يفكر كيف يستغلها لأبعد الحدود ما دامت تمتلك براءة ساذجة وحناناً حقيقياً، لقد وفرّت له كل احتياجاته مجانا، السكن، الأكل، الخمور بأنواعها والجنس الذى تخيّله معها، يوماً ما، فى أحلام اليقظة. كان يبقى وحده فى الشقة ينتظرها مبدداً الوقت بطهى الطعام وترتيب الشقة، يقوم بكل الواجبات المنزلية حتى اعتراه الملل وأصبح يدّخن بشراهة للحد الذى كره فيه طعم النيكوتين، يبدأ بشرب الواين ثم يتحوّل للبيرة ويعرج بعد ذلك إلى الويسكى، وعندما تعود من عملها منتصف الليل منهكة تجده مستلقياً على الكرسى الأسود، الذى أطلق عليه سراً كرسى الأسنان، يتابع على التلفزيون فيلم أمريكى، تنحنى بمشقة تقبله وتدخل الحمام. وبعد ذلك يذهب إليها مترنحاً يضاجعها وهى مستلقية على السرير تظل هامدة بلا إحساس أو انفعال، وأحيانا تعتذر بأنها مرهقة وتنام بسرعة، لم يجتهد كثيراً لمعرفة عدم تفاعلها معه، فهى عاهرة محترفة تنتشى عشرات المرات فى اليوم إضافة لوقفتها الطويلة وهى تصطاد الزبائن، لم تعد تثيره مثلما كان يحدث فى أول

الأمر، الجسد الذى كان يجعله يحس بالظمأ، أصبح عاديا، يراها عارية بالكامل ولا تنهض رجولته للتحية، وصل به الحال إلى العجز التام عن تسلّق سلم النشوة، كان ينقطع عنه الحبل الجنسى عندما لا تصدر تأوهاتها المعتادة. صار مغتاظاً منها ولكنه فضَّل الصمت، حتى ذلك اليوم الذى أعارته دون أن تقصد حافزاً من الخيال. ففى إحدى أيام عطلتها الأسبوعية وهما يحتسيان نبيذاً أحمر قبل الوجبة الساخنة، أكملت زجاجة كاملة لوحدها، أعادت للمزاج نصابه، كانت منتشية لدرجة استرخاء كامل للسان، حكت عن مواقف طريفة حدثت لها مع زبائن، رجل خمسينىّ بكرش ضخمة دفع المبلغ كاملا واستلقى على ظهره عارياً وأغمض عينيه وطلب منها أن تظل واقفة مكانها وتسعفه بمنديل وتأوهات فقط ثم بدأ يمارس العادة السرية بيده، فى بادئ الأمر أخرستها الدهشة فأمرها بيده الأخرى العذراء على مواصلة التأوهات، كتمت ضحكتها وراحت تدور فى الغرفة وهى كالقطة الجائعة تخرج من حلقها أصواتاً غريبة أحيانا تختلط بضحكتها، وكانت تراقبه من لحظة إلى أخرى وعندما شعرت بأصواتها تتحكّم فى إيقاع انفعالاته، استلذّت الفكرة وحوّلتها للعبة مسلية، ابتكرت أصوات إغراء تدفعه بها نحو قمة النشوة وفجأة تجعله يسقط على الهاوية لتضحك، يتوسلها بحركة يده غير المشغولة بالحدث للمواصلة فى أصواتها. وبينما هو يرتدى فى معطفه لمغادرة التفت إليها:

– أنتِ عاهرة شبقة.

تقريبا ضحكت بنفس الطريقة التى انفجرت بها خلف زبونها غريب الأطوار. عامر درويش كان فى تلك اللحظة قد أفرغ ثلاث علب بيرة من الحجم الكبيرة، كفلت له متعة الحكاوى وجعلته يتجرّأ وينصب كمين متعته فى القصة القادمة فطرح عليها سؤاله مباشرة:

– هل هناك زبون جعلك تستمتعين معه حقيقية؟

أخذت فترة صمت وهى محافظة على آخر ابتسامة، جعلت عامر درويش يفسِّر هذا الصمت ليس خاصاً بآلية الذاكرة، وإنما خمّن إنها كتمت لذتها أثناء استعادتها السريعة للحظة المتعة التى ستروبها الآن، وفتحها لزجاجة "واين" أخرى كانت بصمة تأكيد على تفسيره، حكت له عن شخص متسوِّل بولندى الجنسية نحيف بشكل ملفت للنظر كان يرتدى بنطلون جينز مشدوداً بحزام لآخر درجة وسويتر اسود يخفى داخله عظاماً بارزة، فى بداية الأمر رفضت أن تتجاوب معه معتمدة على هيئته، ولم تفتح له حتى باب الزجاج إلا عندما أخرج رزمة أوراق نقدية، لقد دفع لها ضعف ما طلبت، عندما خلع ملابسه أمامها كادت أن تضحك، توقعت ربما يلفظ أنفاسه الأخيرة فى غرفتها، أقسمت لعامر درويش أن هذا الهيكل العظمى استمر يضاجعها لأكثر من ساعة بلا توقف، جعلها تصرخ بأعلى صوتها، وعندما ارتدى ملابسه وغادر، ظلت ممدة فى سريرها مدة زمنية لم تحسبها بالضبط، كما أنها قامت بحساب عدد المرات التى انتشت فيها مع هذا الهيكل العظمى الفظيع، بمشقة وصلت الحمام وهى تحبو على ركبتيها ككلبة أنجبت صغيرها لتوها. عامر درويش لسوء

براءته استفاد من سردها المفصّل عن القصة ونجح فى ما كان يصبو إليه، فقام بتخزين التفاصيل فى ذهنه بصورها الإباحية وراح يستدعيها أثناء ممارسته معها جنساً غير متكافئ، يتصبب عرقاً من الانفعال، يدعم نفسه بتخّيله لصرختها وتأوهاتها تحت ذلك الهيكل العظمى حتى ينتشى وهى ممددة تحته بلا انفعال تنتظر انتهاء واجباته لتنام. كان لا بد أن يصل معها لطريق مسدود، لأنه يعلم أن علاقته بها محدودة ستنتهى فى أى لحظة يحاول أن يتدخل فى شئونها الخاصة، وبالذات إن اعترض على وظيفتها فى "الريد لايت"، ثقافته لا تستوعب هذا الوضع، لذلك فكّر بطريقة أكثر من سطحية، معتمداً فقط على الجزء الشرقى من ذهنيته، تشاجر معها لسببٍ تافه، حتى أنه لم يتذكره فيما بعد، وترك الشقة لمدة يومين فقط، شعر خلالهما بفداحة ما أقدم عليه. وعندما عاد متخفياً وراء عذرٍ لا يرتقى لمبدأ عزة النفس، مدعياً إنه جاء فقط ليأخذ حقيبة ملابسه، فتحت له الباب وأسندت ظهرها بالحائط، ليس بداعى السماح له بالمرور، وإنما كان مُكراً منها حتى تخفى اضطرابها ولا يشعر بالهزّة التى أحدثها دخوله، غالباً ما يصبح الكبرياء ضد المصلحة الشخصية، كان بالإمكان أن تنتهى تلك العلاقة للأبد، لولا اعترافه غير المدرج فى الخطة، صرّح به كآخر حفنة تراب على نعش العلاقة، قال لها بصوت متشنج أثناء جمعه لبعض الأغراض ووضعها داخل حقيبته:

– لا تنسى، أنا شرقى غيور لا يمكن أن أرضى لحبيبتى أن تنام مع

غيرى.

كانت فى تلك اللحظة قد تجاوزت رعشتها وأغلقت الباب وهى تشعر بغرور غامض، دخلت المطبخ وأشعلت سيجارة، بعد أن سحبت نفس عميق كتمت به على سعادتها ممّا سمعت:

– لماذا لم تقل ذلك مباشرة؟ ليس هناك حاجة لتعقيد المشكلة بمشكلات حولها.

شعر بها تبدو مختلفة لحظات الغضب، بدت له مثيرة بهذه التعبيرات الصارمة، كان فى حاجة للتدخين وحافظ على كرامته، لم يعقِّب عليها ظلت نظراته تتأرجح بين شفتيها وعلبة السجائر التى على الطاولة، ثم راح يفكر فى الخطوة القادمة، وهى بدورها فعلت نفس الشيء ليتركا المجال للصمت، يسرح فى المطبخ مع دخان السجائر، نهضت بسرعة ساحقة السيجارة فى منتصفها لأنها أحسّت باحتمالية اتخاذه لقرار أحمق جرّاء الصمت، وناولته جريدة وأشارت على مكان محدد:

– لقد قدّمت لهذه الوظيفة، ومعاينتى الأسبوع القادم، لن أعود مرة أخرى إلى "الريد لايت".

ترك الجريدة وأمسك بيدها وجذبها نحوه، كأنها لم تتوقع منه ذلك مباشرة، حضنته وأجهشت فى بكاء معظمه قبلات عشوائية طالت حتى أنفه، ومنذ تلك اللحظة لم تعد لعملها فى "الريد لايت".

عدّلتُ وضعية تمددى واستلقيت على ظهرى محاولا أن الهى ذهنى عن التفكير، بيدى مسدثُ ذكرى الذى انتصب من جرّاء هذه

التخيلات، لا شيء سيوقف هذا التفكير غير جرعات من الويسكى، نهضت بتكاسل وذهبتُ إلى المطبخ يتقدمنى انتفاخ البنطلون، تناولت الزجاجة وارتشفت منها مباشرة جرعات سريعة أحرقت جوفى، أحضرت الزجاجة معى إلى غرفتى، عادة ما تخطر ببالى رباب تاج السر فى هذه اللحظات التى يصبح فيها ذكرى متحجراً وليس أمامى سوى الاستمناء، بإعادة مشاهد مثيرة فى أيام بداية علاقتنا. ولكن هذه المرة ذاكرتى عرّجت مباشرة نحو سلافة الجميلة، أغمضتُ عينيّ وتركتُ ذهنى يتداعى مستحضراً صوراً كأنى أشاهد فيلما.

فى أحد أيام عطالتى رجعت إلى البيت مشبّعاً بطعم القهوة والسجائر، وجدتُ شابة خجولة حديثة الزواج تجلس مع أمى فى المطبخ، عرفت إنها قادمة من مدينة كسلا ولها صلة قرابة بوالدتى وستقيم معنا فى البيت حتى تكمل إجراءات سفرها لتلتحق بزوجها المقيم فى إحدى دول الخليج، صافحتها دون أن انتبه حتى لملامحها. والدتى فتحت لها غرفة سهام، أصغر شقيقاتى والتى هاجرت مع زوجها إلى كندا، كى تستخدمها مؤقتاً حتى تتسهل أمورها وتسافر. فى صباح اليوم الثانى أيقظتنى والدتى مبكراً وبعد أن تضرّعت لأوليا الله الصالحين ليتوسطوا لها حتى أحصل على وظيفة، ثم قالت:

– اشرف، قوم امشى مع سلافة ساعدها فى الإجراءات ينوبك ثواب يا ولدى.

تمتمت مغتاظاً ورحت أتململ فى فراشى مما جعل والدتى تستبدل

مزاجها:

– قوم اعمل ليك حاجة مفيدة بدل نوم العطالة.

جرجرتُ أقدامى وخرجتُ بعد أن دسّت لى والدتى مبلغا من المال فى جيبى وتبعتنى سلافة مثل ظلى، رائحة طقوس العُرس تفوح منها بشدة ممّا دفعنى أن أسبقها بخطوة، حاولتُ بكل ما بوسعى ألا تبدو للناس أنها ترافقنى، ورغم ذلك كانت الدهشة واضحة فى ملامح معارفى الذين ألقيتُ عليهم تحية الصباح، لاحظتُ أن بعضاً منهم ظل فاغراً فمه دون أن يرد لى تحيتى، كنت أردد فى سرى بغضب:

– هذه ليست زوجتى، أفهموا يا بشر.

أثناء سيرنا نحو محطة المواصلات مدت لى جواز سفرها وملفا به الأوراق المطلوب استخراجها، ثم فتحت حقيبة يدها وناولتنى مبلغاً ضخماً وتكلّمت لأول مرة. كانت نبرة صوتها بها اهتزاز كما لو أنها تتحدث من مكان به هزة أرضية:

– هذا المبلغ يخص المواصلات فقط، وأنت من سيدفع.

وعندما حاولت أن اعترض فتحت لى حقيبتها التى كانت مكدّسة بالأوراق المالية ورزمة من الدولارات. أخبرتنى أن زوجها ترك لها هذه الأموال حتى تنجز إجراءاتها بيسر. عندئذٍ عدّلت عن قرارى من فكرة استخدام المواصلات العامة وبدأنا حركتنا باستخدام التكاسى. عندما دخلنا مبنى جهاز المغتربين كانت الوجوه الذكورية تتابعنا بشكل مزعج، حتى رجال الشرطة اعتقلت عيونهم، أخيراً انتبهت لأحد الموظفين يبحلق فيها وكاد لعابه أن يسيل، مما جعل غضبى

يستفحل فصرخت فى وجهه ليتحدث معى أنا شخصياً، نظر لى محرجاً ناسياً فمه مفتوح كأبله. لم تكن لدى أى فكرة عن سبب عدم الحياء الذى هبط فجأة، لم أستوعب ما كان يحدث إلا عندما دخلنا مطعم لنأكل وجبة سريعة وشاهدت أعين الزبائن تتابعها بشغف. فى هذه اللحظة قررت أن اكتشف الخطأ، جلست فى مواجهتها، تأملت وجهها لدرجة أننى شعرتُ بهزة، بلعتُ ريقى بصعوبة، عندئذ وجدت للناس عذرا. شحمة إذنها كانت كافية لإشعال حريق، لونها كخشب الصندل بعد أن تحوِّله والدتى بخلطتها السحرية لعيدان بخور، كانت تتمتّع بجمال طبيعى يحبس الأنفاس، لم أر فى حياتى وجه امرأة بهذا الجمال، تأسفت أننى لم أنتبه لملامحها منذ أمس، استرخيت فى جلستى وبدأت مستمتعاً بالجلوس معها. طلبنا بيتزا وعصير برتقال وعينى مثبتة بعناية على وجهها، مبهوراً بها. قررت أن أتعرّف عليها. تزوجت حديثاً قبل أن تكمل عامها الأول فى الجامعة وكان واضحاً السبب، جمالها الفاتن. لم تكن تتحدث من تلقاء نفسها، تجيب فقط على أسئلتى وبصورة تقريرية دون أن تتخلى عن عبثها بسيور حقيبة يدها وهى منحنية، مما أتاح لى فرصة تأمل شفتيها الرهيبتين. كان بوسعى أن أتخيل نظرات الحسد التى تتبعنى فى كل الأماكن، مبنى الجوازات، الضرائب، الخدمة العامة، حتى موظفى ديوان الزكاة. الجميع كان يعتقد أنها زوجتى، يا لك من رجل محظوظ، أتخيل أن أحدهم همس لنفسه بهذه العبارة، لم أتخيل أننى سأستمتع بنظرات الحسد كل هذه المتعة، بالضبط نفس المتعة التى

شعر بها عامر درويش عندما كان يصطحب أنكا فان درماين لشلة أصحابه ويشاهد شظايا الحسد. بعد ذلك قررتُ أن أسير معها خطوة بخطوة، وأحياناً ممسكاً بيدها لنجتاز شارع الأسفلت حتى نستقل تاكسى من الجهة المعاكسة، يظل عرق كفها عالقا بيدى كأننى لا زلتُ احتفظ بحرارتها، أدّعى "النحنحة" حتى أشتم عطرها الذى عبق بيدى وأدمنته. وعندما ضبطت أحد أصحاب "التاكسى" يتأملها من على مرآته، صرت أجلس بجوارها فى المقعد الخلفى كمعظم حديثى الزواج. أهمس لها بأشياء مضحكة، أعرِّفها بالأماكن غير الهامة فى مدينة الخرطوم، حتى نشأت بيننا إلفه غير متوقعة. نخرج منذ الصباح ننهى بعض الإجراءات ونتسكع بين المطاعم والحدائق، نعود فى المساء نحكى لوالدتى عن انجاز اليوم، تكافئنى بدعوات حاسمات. رائحة عطورها كانت كالأطياف تتحرك فى كل أرجاء المنزل، لذا لم اعد رغباً فى مغادرته مساءاً كعادتى، أفتعل مشاهدة التلفزيون حتى أتأملها، وهى تحكى لوالدتى عن قصص وحكاوى عن أهلها فى مدينة كسلا، أحياناً أتابع نبرة صوتها المرتجف، وفى نفس الوقت أتمنى نهاية السرد كى تغادر والدتى إلى سريرها، انتظر بفارغ الصبر اللحظة التى تصاب فيها والدتى بموجة تثاؤبات، تتركنا بعد أن تقول:

- يا أشرف لو طلعت لأصحابك ما تتأخر، وما تنسى تقفل باب الشارع والتلفزيون وباب الصالون.

بعد ذلك استلم أنا دفة السرد وأحكى لها عن مغامراتى الليلة مع

أصدقائى أثناء بحثنا اليومى عن "العرقي"، كانت تكتم ضحكتها وهى مستمتعة بقصصى، حكيت لها عن رباب تاج السر وهاجر ابنة عمتها التى كانت تتعامل مع أدوات التجميل كما لو أنها علاج بلدى، وحقيبة يدها لا تخلو أبدا من ثمار البلح توزعه لزميلاتها أثناء المحاضرة. كانت سلافة مبتهجة بقصصى، وقد تشكّل لديها انطباع أننى شخص مدهش، والأروع من ذلك دهشتها وإعجابها بنكاتى البذيئة، كانت تشهق شهقة تجعل وجهها الدائرى يشعُ إثارة، ترتعش شفتها السفلى، تشعر بحاجة ماسة لتضغط على شىء ما، فكانت الحصيلة ازدياد جرأتها، فراحت تمسك يدى وتدوس عليها بكفيها وهى تهمس:

– كفاية يا اشرف، ح أموت من الضحك، أنت مجنون.

لحظتئذ أتآمر عليها بخبثٍ لا مفر منه:

– أرجوك، اقتربى منى وتأكدى، هل تنبعث عنى رائحة خمر؟

وعندما تنحنى مدفوعةً ببراءة متوقعة، أطبع على خدها قبلة سريعة، ترد عليها بصفعة حادة على كتفى:

– صعلوك.

كانت حيلة ساذجة، استهلكتها كثيراً، بسبب عدم اجتهادى لابتكار غيرها. استمرت مشاويرنا اليومية ولم نعد نعبأ بالبيروقراطية بتاتاً، تأجيل المواعيد لم تعد تزعجنا إطلاقا. فى احدى المرات طلب منى صاحب استديو التصوير أن يصوَّرها مجاناً مقابل أن يعرض صورتها فى واجهة المحل، رفضت بشده، تعاملت معه كما لو كانت

زوجتى. وعندما غادرنا المكان همست لى بخجل:

– أنا فخورة أن أحتمى بك.

عندها شعرت بأن شاربى يطول، وخطواتى تدك الأرض دكاً. باختصار، استمتعت برفقتها، مهملاً حتى أصدقائى. أتذكر أننى فى ذلك الوقت لم أكن قد التقيت بصديقتى نهلة جمال الدين بعد، وعلاقتى برباب تاج السر تمر بمنحنىَ يائس. أعاقر عطالتى وهى منشغلة بدراساتها العليا، وتتعلّم العزف على آلة الكمان، نلتقى على فترات متباعدة فى منزل رأفت القبطى، نقضى لحظات بها حاجة جسدية دون إحساس. وسريعاً ما تصاب بالضجر عندما تخطر ببالها حادثة ابنة عمتها هاجر، وتفيض عيناها كالعادة وهى تسترجع اللحظة التى داهمتنى فيها بالغرفة وأنا عارٍ أتمرّغ بنشوة على جسد هاجر، فيعاودها نفس الغم، تغادرنى وهى ساخطة، ثم أعود أنا منزوياً فى عطالتى من جديد، حتى جاءت سلافة وحرّكت بركتى بجمالها المدهش، وجعلتنى أصبح كائناً بيتياً، اعتقد حتى والدتى استمتعت بوجودى وانضمامى لوجبة العشاء آنذاك. حتى جاءت تلك الأمسية الملتهبة الحارة، كان الطقس لا يطاق، كتمة بشعة، كأنما الأوكسجين غادر المكان فجأةً، رجعت البيت متأخراً، بعد أن شربتُ نصف لتر عرقى، وجدتُ والدى نائماً فى الصالون ومكيف الهواء فى أعلى درجاته، شخير والدتى أمام غرفتها يصدر فى طبقات صوتية متعددة يصْلُح تمريناً لطلاب مادة الهارمونى. ابتسمت بعد أن انتبهت لمبررات والدى بنومه فى الصالون، وهو أيضا لا تنقصه

الموهبة فى العزف الليلى . دخلتُ المطبخ وفتحت الثلاجة، شربتُ بالمقابل نصف لتر ماء بارد لدواعى احترازية، وبينما أنا عائد إلى الصالون، انتبهت لغرفة سهام شقيقتى، كانت مضاءة، تأكدتُ أن سلافة مستيقظة لأن الباب كان موارباً، ففى لحظة غير مدرجة فى ذهنى، ولا أدرى من أين جاءتنى الفكرة، دخلت عليها، كانت تحاول أن ترتدى قميص نومها، فزعت بشهقة عندما رأتنى، جحظت عيناها الداعجتان، ارتعشت وتراجعت خطوة للوراء لتختبئ خلف قميص نومها الأحمر الشفاف الذى بالكاد حجب جسدها العارى. شعرتُ بنفسى كثور أسبانى محفّز، يخطو نحو مصارع بثبات يتحرّش باللون الأحمر ولا تنقصه الجسارة. ظلت مرتبكة فى مكانها، شعرها مبتل، تبعثر على وجهها بصوره عشوائية ليعظِّم من شدة اشتهائها، لقد كانت عائدة لتوها من الحمام ولم تكمل ارتداء ملابسها بعد. أغلقتُ الباب ببطء وتقدمت نحوها خطوة، قالت لى وهى تهرس فى الكلمات بأسنانها:

– لو ما طلعت ح اصرخ بأعلى صوتى.

واصلت خطواتى نحوها متأكداً أنها لن تصرخ، متلهفاً لأغرز قرونى المنتصبة على نهديها، تراجعت حتى التصقت بالحائط، كررت تحذيراتها مرة أخرى عاضّة على أضراسها:

– أشرف، أرجوك اطلع من الغرفة بسرعة.

أمسكت بيديها كى أزيح الحاجز الشفاف بينى وبين جسدها، فى هذه اللحظة اكتشفت أن فكرتها فى الصراخ كان تهديداً لم يجدِ نفعاً،

لذلك قررت أن تدافع عن نفسها مستخدمة القوة، راحت تصارعنى دون أن تهمل إخفاء جسدها، دفعتنى بقوة حتى لا ألمسها. نشبت بيننا معركة صامته، بدأ الصراع بلَيّ الأيدى ودعس المفاصل، كشّرت عن أسنانها، دافعت عن مقدساتها بضراوة وإيمان منقطع النظير، أنفاسنا تتصاعد مع آهات مكتومة، استطعتُ بصعوبة أن اصرعها بعد أن أمسكتها من خصرها وطوحتُ بها عارية على السرير، مما سمح لها باستخدام ساقيها المكتنزتين لتدفعنى بقوة. رفستنى بأقدامها على بطنى، خمشَت وجهى وخربشت صدرى، لم تعد مهتمة بعريها مثل إصرارها على الانتصار فى هذه المعركة كاتمة الأنفاس، كان العرق ينز رغماً عن هواء المكيف. تمكنت بطريقة بارعة أن تتملص من بين قبضتى بجسدها الناعم كأنها ثعبان بمساعدة من عرقها، لتنفلت، ومن ثم دحرجتنى نحو الحائط وصعدت من فوقى، منفعلة، مستلمة زمام المبادرة، ضاغطة بقوة على سواعدى. هاجت وماجت عاضة على لسانها، خرج من صدرها فحيح الغيظ، لم أتوقع منها كل هذه القوه، وعندما شاهدتنى اضحك تخلّت عن دفاعاتها للحظة، كنا نتنفس بإيقاع منسجم كما لو كنا شخصاً واحداً ممّا أضحكنا، وتحول الصراع إلى مزاحٍ ودى، لحستُ حلمت صدرها الدانية، جفلت بشهقة، مما جعلنى أن انتفض وأباغتها، وأنقضّ عليها وفى غضون لحظة كنت قد نفذتُ داخلها بقوة، ممانعتها جاءت متأخرة، مجرد غمغمة وحشرجة، طوقتنى بساقيها وساعديها، كأنها خافت أن افلت منها، عضت كتفى وأنا

اهمد على صدرها لتهمس بأنفاس ساخنة فى إذنى:

أنت فظيع، فظيع.

لو كان بإمكانى إعادة ترتيب حياتى الجنسية، لكنتُ أخترت أن تكون هذه ممارستى الأولى من شدة تفردها.

استعنت فى هذه اللحظة بمنديل ورق ونمت دون أن أحرِّك يدى من قبضتها.

18

استيقظتُ على صوت جرس التلفون، لم أتمكن من الرد عليه، صحوت مفزوعاً وللوهلة الأولى لم أتبين ما إذا كان الوقت صباحاً أو مساءاً. شوّشنى الضوء الباهت الذى كان يتسرّب داخل الغرفة. تذكّرت يدى لا زالت فى مكانها السابق سحبتها وكان منديل الورق متيبساً فى مكانه، بمشقة انتزعت أجزاء منه، رفعت التلفون كى أرى المتصل، كان التوقيت 17:17 ابتسمت لنفسى وقررت النهوض انه المساء، والدتى لا تحبذ نومى فى هذا التوقيت، وضعت التلفون مكانه من غير أن أنتبه لمعرفة المتصل. دخلت الحمام تعرّيت بالكامل، وقفت اضبط فى درجة حرارة الماء، ثم دلفتُ تحت الدش مستمتعاً بنشوة دفء الماء، حاولت أن أتذكر كيف نمتُ؟ فتحتُ علبة الشامبو ودلكت جسدى جيداً، تبوّلت على رغوة الصابون، تذكرت كلام عامر درويش، كلما عشت بمفردك مدة زمنية طويلة تقترب أكثر من الإحساس بالإنسانية، شعرت أننى أدحض فكرته بهذا التبول، الوحدة علمتنى التصرف بعشوائية. سمعت هاتفى يرن مرة أخرى بإلحاح، رجعت أدعك فى جسدى للمرة الثانية، تذكرتُ أننى استمنيت على ذكرى سلافة الجميلة، كانت تبكى بأسف حقيقى وأنا أودِّعها فى المطار لتسافر لزوجها فى الخليج. بعد تلك الأمسية،

تمادينا فى إجراءات سفرها. علّمتها ممارس الجنس بمختلف الوضعيات، حتى أدمنتنى، سألتنى وهى تضع رأسها على صدرى:

– هل تفتكر ما أفعله معك حرام؟

قلت:

– بلا شك.

قالت بعد تنهيدة:

– طيب، الذى كنت أفعله مع زوجى.

قلت:

أكيد مع زوجك هو الحلال.

قالت بضحكة:

– صدق هذا ممتع أكثر من ذلك.

قلت وكأنى اكتشفت شيئاً عظيماً:

– المحرّمات غالباً ما تكون لذيذة.

صارت مهووسة بى وقررت أن تنفصل عن زوجها، انحصرت أحلامها معى فى غرفة واحدة، غير عابئة بما سيترتب على ذلك، حتى أنها بدأت تهتم بشئون البيت وتساعد والدتى لكى ترضى عنها وتوافق على زواجنا. كنت أحيانا اشعر بأنى على وشك الموافقة على فكرتها المستحيلة، جمالها قد شلّ ذهنى وجعل أفكارى طائشة، ولكن فى نهاية الأمر ضغطت على نفسى، وغيابها أحدث بداخلى خللا، لم أتعافَ حتى التقيت بنهلة جمال الدين.

حلقت لحيتى وأنا أتأمل وجهى على المرآة، كان الأرق واضحاً مما

بشّع ملامحى، حاولت عبثاً أن أبتكر لنفسى تعابير مرضية، أخلجتُ حاجبى، ابتسمتُ لنفسى بطريقة بلهاء، حتى تبيّن لى أن ملامحى أساساً لم تكن جميلة. وأسوأ ما فى الأمر ظهرت لى شعيرات بيضاء، صدرت عنى زفرة قوية ومتوقعة. دخلت المطبخ، فتحت الثلاجة وأخذتُ منها صدر فراخ مجمّد على شكل مكعبات ووضعتها على حوض الغسيل وفتحت عليها الماء الساخن. أشعلت ماكينة القهوة وجلست انتظرها، أتلاعب بسيجارة مع الولاعة، أحاول أن أتريث فى إشعالها بعد رشفة القهوة الأولى، ولكنى فى حاجة للتدخين، أتابع القطرات الأولى من القهوة، نهضتُ وفتحتُ الثلاجة مرة أخرى، أكلتُ شريحة جبنة وأشعلت السيجارة مباشرةً. فى ذلك اليوم الذى رجع فيه عامر درويش إلى شقة أنكا فان درماين أيضاً كانت حاجته للنيكوتين بالغة، ففى غضون ساعة كان قد أنهى نصف علبة سجائر. وبعد تلك الهدنة عادت حياتهما أكثر ألفة وخاصة بعد حصولها على وظيفة أخرى. بدأ يشعر أن علاقته مع أنكا فان درماين تسير بالطريق الذى يرسمه لها ومن خلال علاقاتها الجديدة استطاع أن يتعرّف على شخصيات هولندية مختلفة. ومعرفته الجيدة باللغة الهولندية كان لها نصيب فى انغماسه السريع داخل تفاصيل المجتمع الهولندى، فى البدء كانت خطته أن يظل معها ويبحث عن طريقة لمغادرة هولندا بجواز مزور لدخول بريطانيا، أو أى طريقة تهريب أخرى ومع مرور الوقت اعتاد عليها بعد أن تكفّلت بتهدئة أحزانه، وعشقه لمدينة أمستردام من خلال

حكاويه لشريكه سامى قنديل شعر بها المدينة التى يبحث عنها، يفتقدها ويشتاق لها، يستطيع أن يشعر بطيف صديقه يتجوّل بها، لذلك غير فى إستراتجيته وراح يستدرج أنكا فان درماين إلى وكر الحياة الزوجية، اعتمد فى ذلك على شخصيتها البريئة، وتصديقها لكل ما يقوله، إطلاقا لم يخطر على بالها انه يعرف الكذب، وتركيزه كان منصبّاً على عشقه الفضفاض وهى لم تتوارَ مطلقاً فى التعبير عنه، تقبّله فى الأماكن العامة وداخل الترام ويستلذ ذلك عندما تفعلها أمام أصحابه الأعداء. أصبحت فرصته الأسهل فى الحصول على إقامة من خلال الزواج، وراح ينسج فى الخطة التى تجعل أنكا فان درماين هى التى يجب أن تبادر بالفكرة.

فى احدى لحظات الضجر منتصف شهر يناير كان عامر درويش يقف فى بلكونة المطبخ والطقس الماطر جاثم على صدره، كان على وشك أن يتفوّه بكلمة داعرة، لولا أن انضمت إليه أنكا فان درماين عندما أحست بكآبته، وقفت ملتصقة به ووضعت سيجارتها على فمه، انتظرته حتى سحب نفساً عميقاً ثم سحبتها منه وأسندت رأسها على صدره، استمعت للإيقاعات الإفريقية، دقات طبول منتظمة، راحت تمرِّغ شعرها القمحى على صدره تزيح عنه وتمسح خيباته المتكرر، لحظتئذٍ اقترحت عليه الزواج من أجل أن تصبح له إقامة رسمية فى هولندا، واصل فى صمته مخفياً عنها ابتسامته، وهى بدورها شرعت تشرح فى خطتها وتحفّزه على الموافقة، قالت وهى تتأمل عينيه:

– ويحق لك بعد أن نتزوج أن تفعل كل ما تتمناه، تحصل على وظيفة جيدة، وفى خلال ثلاث سنوات ستستلم الجواز الهولندى وتزور أهلك، ألا ترغب فى ذلك يا عامر؟ أنا متأكدة أنك ستكون على ما يرام.

لم تكن تعلم أنها ستتزوج من شخص ميت فى نظر أهله. فى تلك اللحظة كان ذهنه يراوح على صراع ما بين فكرتين أساسيتين: الزواج من عاهرة محترفة لن يكون مفيدا لتكوين أسرة سعيدة ولكن من أجل الحصول على الجواز الهولندى حتماً سيكون شيئا مفيدا. فى نهاية الأمر وافق دون أن يحسم قراره، لماذا تزوجها؟ عندما نقل هذا الخبر إلى صديقه مأمون بشير استخدم أسلوباً يحبذّه لقراءة الآراء الحقيقية. فى أثناء وقفتهما فى المطبخ، وهما يحتسيان بيرة كمقدمة منطقية لجلسة الفودكا القادمة، انتظر حتى اللحظة التى داس فيها صديقه العلبة الفارغة براحة يده ورمى بها فى القمامة الخاصة بتلك النوع من النفايات، ثم التفت إليه:

– إن كنت مكانى، هل من الممكن أن تتزوج أنكا فان درماين؟

– إطلاقا.

– لماذا؟

شعر هنا مأمون بشير إنه قد تورّط فى إجابته السريعة بلا تفكير، فلا يمكن أن يعلِّل سببه ويقول لأنها عاهرة، إذ سيكشف التناقض فى شخصيته وأفكاره التقدمية، لذلك كان موفقا فى أول فكرة تعثّر فيها:

– لأننى ببساطة شديدة مرتبط بحبيبة تنتظرنى.

– أنا وانكا سنتزوج الأيام القادمة.

كانت مناسبة ليحتفى به الأصحاب فى شقة مأمون بشير، كانت أمسية بهيجة لولا زلّة اللسان التى خرجت بإيعاز من الإسراف فى شرب الكحول، نطق بها أحدهم كان جالسا فى مقعد ومسترخياً للغاية، رفع رأسه وقال:

– معقول تتزوج عاهرة من "الريد لايت"؟

لم يتمكن من أن ينطق أكثر من ذلك لمدة أسبوع كامل، لأن عامر درويش ضربه على رأسه بزجاجة إل "سميرنوف" التى وصلت لتوها، ثم حطم نافذة شقة صديقه، ولم يستثنِ أحداً من الإساءات، بعدها انقطعت علاقته بهم نهائياً حتى غادر أمستردام. عندما عاد فى تلك الليلة إلى أنكا فان درماين وشاهدت آثار الدم على ملابسه، عاتبته على مشاجرته للأصدقاء، واتهمته بالعصبية الزائدة وصرخت فى وجهه:

– هل من المعقول أن ترفع يدك وتضرب أحداً! لماذا يا عامر؟

كان لحظتها يقف عارى الصدر يغسل آثار الدم عن ملابسه، نظر إلى المرآة الصغيرة أمامه، انتبه لملامح وجهه الغاضب لم تكن تخلو من وجاهة، استند بمرفقيه على حوض غسيل الوجه وقال:

– ضربته لأنه يعتقد أننى سأتزوج من عاهرة محترفة، أليس هذا سبباً كافياً؟

أخرستها إجابته، دخلت المطبخ أشعلت سيجارة وعادت تحمل صندوق الإسعافات الأولية وراحت تعالج له جرحاً على ساعده، ولم

يعودا لمناقشة هذا الموضوع مرة أخرى لأنها قامت بتعريته وفعل بها نفس الشيء أمام الحمام، ومن ثم مارسا حباً مشتعلاً بالعناق على بساط الصالة أمام وهج التدفئة. قضيا أسبوعاً مفعماً بالحب، أعدّت له برنامجاً سياحياً ممتعاً، شاهد معها معظم المتاحف ابتداءا من منزل "آنى فرانك" مروراً بمتحف المقاومة فى شرق أمستردام وكذلك متحفى تاريخ أمستردام وفان جوخ، لأول مرة يزور هذه المواقع، كان يمر بها ويشاهد الطوابير التى تنتظر دورها فى الدخول، لم يكن وضعه النفسى آنذاك يؤهله لكى يفكر فى هذه المواقع التاريخية ناهيك عن دفع رسوم لزيارتها. استمتع بهذه الجولة السياحية، وخاصة برحلة الزورق الذى استأجرته أنكا فان درماين، تجولا به لعدة ساعات داخل أزقة أمستردام عبر قنواتها المائية المتعرجة، ولم ينسيا أهم المعالم فزارا معا حى "الريد لايت" ووقفا يبتسمان للفتاة الشقراء الجديدة التى استأجرت مكان أنكا فان درماين، جاملتهما بابتسامة مختصرة ممّا يدل على أنها تمتلك أنواع ابتسامات أخرى تخص بها الزبون المضمون، إطلاقا لم يخطر ببالها أن هذين العاشقين جاءا لمشاهدة المكان الذى ولدت فيه علاقتهما. هذا الأسبوع أطلق عليه عامر درويش أسبوع المتعة التى تسبق شهر العسل، وتوصّل أثناء هذه الجولة السياحية إلى نتيجة مفادها أن قرار زواجه من أنكا فان درماين من الأشياء النادرة التى لن يندم عليها. كانت تستحق فعلاً أن تكون رفيقته بجدارة، وفيما بعد سيكتشف أن الدافع الرئيس لزواجه بها، كان بسبب استهجان أصدقائه، الأصحاب

منهم والأعداء، كان استنكارهم لارتباطه بعاهرة دوراً حاسماً ليتمسك بها أكثر مما كان سيفعل، لقد أقدم على ذلك نكايةً بهم، إذا جاز التعبير. لقد خاطبهم بلهجة صادمة فى ذلك اليوم بعد أن هشّم زجاج النافذة، وقف أمام باب الشقة صارخاً بأعلى صوته:

– أنتم حثالة ليس إلا، أشباه مثقفين، متطفِّلون على يسار لم يكن فى طريقكم، جئتم من أزقة نتنة وملتوية، لا يوجد أحدٌ منكم يحمل أفكاراً تقدمية بالمعنى الحقيقى، لا أحد مطلقاً. كان الأجدر بكم والأنسب لعقولكم العقيمة رفع شعارات اليمين المتطرف، بدلا من محاكاة المثقف بطريقة مشمئزة ومضحكة. التقليد الأعمى، التّباهى بفخامة المعتقل، صحبة شخصيات مشهورة، عشق الوطن المنكوب، مفردات تخرج فى نشاز، آه، يا وطنى المجروح، طعنوك ذات ليلة مظلمة، عذراً يا وطنى لقد أهانوك، هكذا تتفوهون. يومياً نفس الإيماءات، الامتلاء بمتعة الأحلام، إعادة وتكرار نفس السيرة، كتابة المنشورات، الملاحقات، الحبس، وأخيراً النضال المترع بالسكينة، فقط لأنكم هنا فى منجى من أنياب النظام، ولكن قسماً لن تنجوا من غضبى، سأفضحكم جميعاً . الشيء الوحيد الذى كنتم بارعين فيه وأنجزتموه بجدارة تحسدون عليها، هو للأسف الشديد الخذلان الممنهج لحبيباتكم فى الوطن، وجئتم هنا ترفعون شعارات مناصرة المرأة وحقوقها. اللعنة عليكم يا أشباه المثقفين.

بصق لعابه بقوة عندما شعر أن لعناته لم تنفّس عن غيظه بالشكل المطلوب، أو ربما بسبب خذلانه من عدم ظهور ردة فعل إزاء

انفعاله، لم يعِره أحد انتباهاً، حتى أنهم لم يتابعوا خطبته بتركيز، كان اهتمامهم منصباً على صديقهم الذى فقد الوعى والدم بسبب الضربة القاضية. تخيلتُ كأننى كنت معهم فى تلك اللحظة، شعرت بطعنة احتقار لأنه شملى معهم بلعناته، لقد انطبقت على بعض أرائه الحادة والتى لم تكن تخلو من الصدق. رغم أننى لم أكن احتفظ بأى سبب يؤيد اعتقادى. ولكن بعد ليلة أمس مع عامر درويش فيمكن أن اعترف بأننى كنت بارعاً فى ادّعاء المعرفة واستغليتُ ثقافتى لأغراض دنيئة وخذلت حبيبتى رباب تاج السر دون أن يطرف لى جفن، بصراحة شعرتُ بأننى أحقر مما كنت أتوقع. زفرتُ أنفاسى لتهتز شفتى السفلى وتصدر ذلك الصوت العجيب "طرررررر" كعادتى دائما عندما لا أريد أن أبالى بالإحباط الذى يأتى بموجب قانون الندم. شربت قهوتى على ثلاث رشفات، نهضت أشعلت النور، دخلت غرفتى وأخذتُ زجاجة الويسكى والموبايل وجدتُ ثلاثة اتصالات من عثمان فخة. لم أفكر أن أتصل به لأننى خمّنت سبب اتصاله، ربما سيعاتبنى لأننى تجاوزته وتعاملت مع صاحب الغرفة مباشرة ولم أتصل به أمس عندما وصلت تلك المدينة. صببت لنفسى كأس ويسكى بعد أن شعرتُ بغضب، غالباً وراءه إحساس الذنب بخذلانى لرباب تاج السر. جلست أتمايل بالكرسى واضرب بمؤخرة رأسى على الحائط فى محاولة يائسة لعرقلة الذاكرة واعتراضها بشىء من عدم اللامبالاة، ولكن تنهار كل الحصون، ففى اليوم الذى استلمت جواز سفرى من السفارة الفرنسية وبه التأشيرة تأملتها

بإعجاب لا حدود له، مسحتُ بأناملى عليها كما لو كنت أزيل عنها الغبار، جهرتنى بلمعانها، نعم هى تأشيرة دخول المستقبل، لم أكن أتخيل أن تأتى على لحظة أسعد فيها بعد كل هذا الإحباط، تأملتها عشرات المرات، أفتح جواز سفرى أتصفحه ثم أعيده إلى جيبى، أذكر إننى لم أتردد وأعرض صفحة التأشيرة لشخص كان يجلس جوارى فى حافلة المواصلات، تجاذبنا بعض الآراء حول الوضع الراهن باتفاق يخص كل المهمشين، وفى اللحظة التى صرّح فيها عن أسباب تردى الوضع فى البلاد ولعن الحكومة والشعب معاً، اتفقتُ معه فى الرأى ثم أعلنتُ له بابتسامة عبيطة عن مغادرتى الوطن شاهراً أمامه تأشيرة فرنسا. لحظتها قال لى:

– أنت محظوظ، ستخرج فى توقيت مناسب. نصيحة أخوية أقولها لك لا تعود لهذا البلد مرة أخرى، وتزوج بأجنبية إن أمكن ذلك.

هرعت مباشرةً لنقل الخبر إلى رباب تاج السر، كانت علاقتنا آنذاك تمشى بوقود الالتزام الأخلاقى فقط. كنا نلتقى من وقت لآخر تحت شجرة الهام ست الشاى، التى يحتمى بها معظم أبناء الدفعة لمؤازرة بعضنا البعض فى مواجهة العثرات وشبح العطالة، نقلت لها الخبر وأنا أكاد لا أصدق، قلت لها:

– سأرى برج إيفل حقيقة.

تجاوبت معى وأطلقت العنان لفرحتها قالت:

– أخيراً ابتسم لك الحظ يا اشرف.

قلت:

– أرجوك، دققى فى مفرداتك، لقد ابتسم لنا الحظ.

احتضنت صدرها بكلتا يديها ونظرت ذات اليمن واليسار ولم يفدها ذلك، وكنت متأكداً من أنها لا ترى فى تلك اللحظة سوء ظلمة، سريعا ما ذبلت عيناها وهطلتا، تخيّلت أنها غرست كعب حذائها فى التربة الطينية من أجل المحافظة على توازنها، لم أرَ فى حياتى مخلوقاً لديه القدرة على البكاء بهذه السرعة مثلها، قالت مخنوقة بعبرة:

– أود أن أصدق كلامك.

انفلتت من رئتى تنهيده غير مقصودة، ولكنى شعرت بأنها ستحسب ضدى لذا قلت:

– تعرفين جيداً يا رباب، من الصعب أن أعيش من غيرك، أنا سمكة وأنت الماء.

قالت:

– أنا أبذل قصارى جهدى من أجل ضخ الدم فى عروقك، لكن ينتابنى إحساس إنه لم يعد يصل إلى قلبك.

قلت:

– ليس من العدل أن تحكمى على إحساسى بهذه البساطة.

قالت بعد أن مسحت دموعها:

– لا استطيع يا أشرف تفسير الأمر أفضل من ذلك.

قلت لها:

– أعتقد انك تفهمين جيداً ما أشعر به وما أقوله، وربما تكونين

المخلوق الوحيد على سطح هذا الكوكب الذى يستطيع فهمى، ولكن لا تهملى عامل الظروف المحيطة بنا، أوعدك أننا سنبنى حياتنا فى مكانٍ صحى ومعافى.

قالت:

– أنت تعلم يا أشرف لا أستطيع أن أعيش مع رجل آخر غيرك.

قلت:

– أعلم، وزيدى على ذلك أننى ملتزم أخلاقياً تجاهك.

قالت مخفيةً سعادتها:

– دعنا الآن نحتفل بهذا الانجاز.

وأمسكت بجواز سفرى وفتحت صفحة التأشيرة وأعلنت عن الخبر للجميع . احتفى بى أصدقاؤنا المشتركون، حتى إلهام ست الشاى لم تتردد وأطلقت زغرودة أضحكتنا جميعاً. وبهذه المناسبة السعيدة، ذهبنا لنتناول وجبة الغداء فى مطعم شعبى جديد، كانت الوجبة الوحيدة التى يقدمها "كسرة" مخلوطة بالسلطة والشطة، كان سعر الوجبة مناسباً مما أتاح لنا أن نشبع ونطلب عصائر. انتبهتُ للسعادة التى غمرت جميع أصدقائى، كانوا يضحكون بصخب، عدا رباب تاج السر التى كانت تضحك بمرارة كما لو أنها كانت تعلم بأننى سأخذلها. ملامحها كانت كئيبة جداً، استفردت بالحزن لوحدها، ابتسامتها لم تكن موفقة حول القفشات التى يطلقها أظرف أبناء الدفعة ياسر أبو راس، ربما أنا الوحيد الذى راقبتها، ظننتُ أن ضجرها ناتج عن غيابى الوشيك، فمن المؤكد إنها ستفتقدنى بعد أن

أسافر، لذلك من الطبيعى أن يبدأ حزنها من الآن فى طور التكوين، لكن لا يجب أن تفسد على فرحتى هذا اليوم، سفرى من أجل مستقبلنا سوياً. هكذا كنت أفكر، وعندما طلبتُ منها أن تكون طبيعية، ادّعت أن الدورة الشهرية فاجأتها قبل موعدها وجعلتها متوترة. لكن بعد ذلك حدث شيء غريب، وللدقة بعد يومين من استلامى التأشيرة الفرنسية، عندما تبرّع لى خالى، وهو ضابط برتبة كبيرة فى القوات المسلحة، بشراء تذكرة السفر وطلب منى إحضار جواز سفرى، وقتها اختفى جواز السفر بحثتُ عنه فى كل مكان، تخيّلت إنه ضاع لدرجة تحسّرى على سوء حظى، اقترح أحد زملائى فى الصحيفة التى أعمل بها محرراً متعاوناً، نشرت إعلاناً عن ضياعه وتحديد مكافأة مالية لمن يجده أو يعيده. سألتُ جميع أصدقائى الذين شاطرونى الفرحة وحتى رباب تاج السر التى أبدت أسفها الشديد وراحت تبحث معى، اقتنعتُ إنه ضاع، وأصابنى إحباط مزمن، فقدتُ السيطرة على ذهنى وعجزتُ تماماً عن التفكير، طلبت رباب تاج السر من جميع الأصدقاء تفتيش حقائبهم، ولكن دون جدوى، كل الأصدقاء تضامنوا مع محنتى، مارسوا نفس الحزن والإحباط، ذهبوا حتى إلى مطعم "الكسرة" ليقتفوا أثره، ربما فقدته هناك ولكنهم رجعوا محبطين، ظللت جالساً معهم مشوّشاً مستمعاً لاقتراحاتهم:

– أعتقد من الأفضل فتح بلاغ فى الشرطة واستخراج جواز جديد.

– ولكن هل تعتقد أن السفارة الفرنسية يمكن أن تضع عليه تأشيرة

مرة أخرى؟

– لم لا؟

– من الأفضل إخطار السفارة.

– دعونا يا شباب ننتظر يوم آخر ربما إعلان الصحيفة يجدى نفعاً.

– لا تكن سخيفاً، إذا سرقه أحد لا يمكن أن يوّرِط نفسه فى إعادته.

– أنا أعتقد أن فكرة إخطار السفارة خطوة مهمة.

– يا عزيزى السفارة لا تتعامل إلا بعد بلاغ الشرطة.

فى تلك اللحظة كانت رباب تاج السر تجلس بالقرب منى وتقاسمنى الحزن بالتساوى وتبكى، وفى نهاية اليوم كانت المفاجأة من زميلتنا إيمان صالح والصديقة المخلصة جداً لرباب تاج السر، طلبت منى أن نتحدث على انفراد. وقفت أمامى ناظرةً لى كما لو أنها تنظر إلى سلعة للبيع ومترددة فى قرار الشراء. أولاً اعتذرت لى ثم أخبرتنى بأن جواز سفرى فى مكان آمن، لقد اتفقت مع رباب تاج السر بأن تسحب جواز سفرى من حقيبتى دون أن أشعر، لا شعوريا انفجر غضبى. ولعنتها هى ورباب:

– أولا يا أشرف رباب ليس لديها ذنب، أنا صاحبة الفكرة.

فى البدء بعد أن هدّأت من روعى، اعتبرتها مزحة سخيفة ابتكرتها إيمان صالح، "الحلبية" الصارمة التى كنت أرغبُ فيها دوماً وتربكنى اهتزازات صدرها بشكل جنونى وقوامها كذلك، لون بشرتها الموروث عن أم مصرية، ولكنى الآن صرت أكرهها لدرجة أننى فكرت أن ابصق فى وجهها، ظلت واقفة أمامى بملامحها الجادة والمثيرة فى

نفس الوقت، كان لها حاجبان مرسومان بزاوية حادة ممّا جعلها أكثر خلاعة، وأعتقد أن هذا ما جعلها عرضة للتحرش. نفخت أنفاسى وسألتها:

– أين جواز سفرى الآن؟

قالت:

– جواز سفرك معى، فى مكان آمن.

شعرت بأن المسألة ليست مزحة كما اعتقدتُ، قلت لها:

– هل تعنى أنه ليس فى حقيبة يدك الآن؟

قالت:

– سأعيده لك، لكن بشرط.

قلت:

بشرط؟!

وتقدّمت نحوها خطوة ممتعضاً:

– يجب أن تعيده الآن وبلا أى مماحكة، مفهوم؟

أدارت وجهها عنى حتى لا تربكها ملامحى الغاضبة قالت بهدوء:

– سوف أعيده لك يا أشرف، ولكن مقابل ذلك لدى طلب، وأرجوك ألا تخذلنى.

كنت على وشك أن أتهمها بالسرقة، ولكن تراجعت نحو معرفة طلبها، وقلت:

– ما هو المطلوب منى؟

بلعت ريقها ونظرت حولها ثم اقتربت نصف خطوة نحوى وقالت دون

أن تنظر لى مباشرة:

– رباب أخبرتنى بكل ما حدث بينكما، حكت لى بكل صراحة. يجب عليك أن تعيد لها عذريتها وبالمقابل أعيد لك جوازك.

قلت لها وأنا أحاول كبح غضبى:

– هذه قضية تخصنى أنا ورباب تاج السر، لا دخل لكِ بها.

قالت:

– إنها صديقتى، وتعذّر عليها مواجهتك.

قلت:

– افهمى يا إيمان صالح، إن لم تعيدى لى جواز سفرى فى الحال سأتهمك بسرقته.

قالت خانعة:

– سأعيده لك، أقسم بربى، ولكن كنت آمل فى وقفتك معنا من أجل مساعدتها.

قلت ساخطاً:

– ولكن بهذه الجسارة يا إيمان صالح! لا يمكن، يستحيل أن أصدق أن تكونى بهذه البجاحة. كيف تتعاملين مع المشكلة بهذا الوضاعة، كان من الأجدر بكِ أن تقولى ذلك مباشرة، لم يكن هناك أى داعٍ لكل هذا اللف والدوران.

قالت متذمرة:

– أعترف لك أننى أسأت التصرف، أعذرنى فأنا منفعلة مع صديقتى، تاه عنى المنطق، وأرجو أن تعذرنى. لعنتها هى ورباب

تاج السر بألفاظ سيئة، لكن فى سرى طبعاً. وقفتُ صامتاً ربما يلهمنى ذهنى فكرة ما، كان أقصى اجتهاد توصلت إليه فى تلك اللحظة هو التفكير فى سؤال واحد، ما هى الطريقة التى يجب أن أتبعها حتى أعيد لرباب تاج السر عذريتها مرة أخرى؟ وقفت متبلّداً، واصلت حديثها أقرب للهمس، وبترجٍ وأسف واعتذارات مقززة، حمّلت نفسها المسؤولية كاملة وهى صاحبة الفكرة، وأن رباب ظرفها المادى لا يسمح لها بإعادة ترميم جهازها التناسلى بعد أن أشعلت به الرغبة، واكتشفت فى تلك اللحظة أن إيمان صالح ليست مثيرة فقط بل تمتلك أيضا ذكاءا يؤهلها للتأمر، وراقت لى خطتها التى تخدم الطرفين. فإعادة عذرية رباب تاج السر ستكون ضماناً لعدم انجرافها وراء رغبتها فى غيابى وتأكيد موثق للالتزام بيننا، ورغم أننى كنت قد قررت مسبقاً قطع علاقتى بها بعد مغادرة الوطن، يستحيل أن أتزوجها وكل أصدقائى يعلمون أنها شبقة، تمارس معى الجنس فى أماكن لا تخطر على بال احد، وفى نفس اللحظة أكون بهذه الطريقة قد تآمرت على إفشال نوايا كل الذين يتربصون لورثة متعتى بعد سفرى، أولئك الذين يرغبون فى مضاجعتها، ينتظرون فقط دخولى صالة المغادرة، وفعلا حدث بعض ما توقعته بالضبط، ففى آخر مكالمة هاتفية بيننا قبل أن تتزوج، عبّرت لى عن سخطها عندما وصلنا لباب مُوصد:

– الله يسامحك يا اشرف، تركتنى وسط ذئاب، تخيّل حتى ياسر أبو راس يتحرّش بى كى أنام معه!!

ورغم ذلك شكرتنى على موقفى الرجولى معها وإعادة عذريتها الملفّقة مرة أخرى، لتكمل حياتها بطريقة تقليدية . استطعت أن أوفر لرباب تاج السر وصديقتها المبلغ المطلوب وتم إنجاز المهمة بتدبير من قبل إيمان صالح التى كانت تخفى عن صديقتها يقينها التام بنهاية مدة صلاحية علاقتنا المتزامن مع العد التنازلى لتأشيرة الخروج.

لأول مرة أشعر بالندم يحبس أنفاسى، شىء غاية فى اللزوجة وأنت تتحسس وقاحتك، لقد خذلتها مع سبق الإصرار والأنانية، كان من الأجدر بى أن التزم معها أخلاقياً على أسوأ الفروض، والذى يؤلمنى الآن أكثر من أى شىء آخر، أن كل ما قالته عنى كان للأسف صحيحاً، لكن لن يفلح الندم مهما كان مقداره فى استرجاع ما فات. أتذكر عندما شاهدتها بعد ذلك فى صدفة غريبة داخل صالة مطار دبى كانت لحظات قاسية جدا، شعرتُ بأننى أسوأ مخلوق على كوكب الأرض، تضرعتُ لأولياء الله الصالحين الذين اعتمدت عليهم أمى بلا فائدة، تمنيتُ ألا يخذلونى أنا أيضا، ترجيتهم أن يشغلوا بصرها عنى قدر المستطاع، كنا نقف فى صفين متوازيين، نزحف ببطء كالسلاحف أمتعتنا ثقيلة فوق الظهر نحو إجراءات الجوازات، من حسن حظى لم تشاهدنى. كان تحمل ابنها النائم، ويبدو أنه من أعاق التفاتتها نحوى، وهذا ما جعلنى أتأملها بإعجاب وخوف. كل الذى قاله عامر درويش عنّا حقيقى، لا جدال فيه، لقد خذلنا حبيباتنا وهذا هو أهم انجازات جيلنا المدهشة، وهو رغم تناقضاته العديدة كان شجاعاً بما يكفى وتحدى أصحابه وتزوج عاهرة محترفة،

وحصر حياته بعد ذلك داخل علاقات هولندية فقط، حصل على وظيفة هامشية ولكنها حجبته بشكل كامل عن رؤية أبناء وطنه، وتقدّم خطوة ايجابية نحو حسم الصراع الداخلى نهائياً بذوبانٍ مستحق داخل المجتمع الهولندى، ظروفه كانت تؤهله لإنشاء حياة مختلفة باسمه الجديد عامر عباس قنديل ليصبح مواطناً هولندياً كامل الدسم، وبلا شك هذا ما دفعه للشروع فى تكوين أسرة من العدم على اسم عائلى ابتكره ليقتسم به الحياة مع صديقه الميت. وبعد إجراءات الزواج فى البلدية تحولت أنكا فان درماين إلى أنكا قنديل. وجاء بعد ذلك ابنهما سامى قنديل، ليشعر عامر درويش بسعادة غير متناهية وهو ينجب صديقه من العدم. لقد هزتنى هذه الفكرة، عندما أخبرنى إنه أصبح يتحدث مع طفله كأنه صديقه الحقيقى. يخاطبه عادة، مرحبا صديقى الصغير، هل تعلم أننى لم أكن قادراً على احتمال هذه الحياة الافتراضية من دونك؟ بصدق ستصبح امتدادى الطبيعى، أعرف أن هذا مؤلم حقاً، أن أعيدك مرة أخرى لهذه الحياة التعيسة، ولكن ليس باليد حيلة يا صديقى، مهما وصفت لك لن تتخيل تلك الليالى الباردة التى قضيتها وحدى، كنت أستدعى طيفك ليؤازرنى، موتك كان مرعباً. أعرف انك ما زلت صغيراً على هذا الكلام لتجيبنى وتعترض على اقتراحاتى، تناكفنى كما عهدتك، ولكن حتماً سيأتى ذلك اليوم وتتكلم معى بندية، من حسن حظك هذه المرة ستنشأ فى ظروف صحية مغايرة، لن تصاب بفقر الدم أو بتضخم البنكرياس، لأن والدتك هذه المرة هى أنكا فان درماين وكلانا يهتم

بأمر صحتك. لن تتخيل مدى شغفى لأسمع صوتك وأنت تتكلم، هل يا ترى ستستعيد نفس نبرة صوتك؟ أنا أتوق لسماع مفرداتك، أود أن نتناقش أولا عن أدونيس، وأمور أخرى غاية فى الجدية، لدى أطنان من المواضيع حدثت فى غيابك، انتظرك بها. كان معظم وقته مع طفله، تعلّم كيف يغير له حفاضاته و يغسل له جسده داخل حوض بلاستيكى بماء فاتر مستخدماً جهاز مقياس حرارة وصابوناً خاصاً، بعدها يمسح له جسده ببودرة مرطبه، لم يدع لانكا قنديل أن تمارس أمومتها إلا بالرضاعة. لا يفعل شيئاً آخر إلا بعد أن ينام سامى. ولكن كان لابد أن تكون له غرفة خاصة، لذلك بدأ البحث عن شقة أوسع، فكان الخيار المتوفر مغادرة أمستردام والسكن فى هذه المدينة الجديدة.

صببتُ لنفسى هذه المرة كأساً بمواصفات احتفالية، بعد أن شرعتُ فى تجهيز وجبة مبتكرة من خيالى. قمتُ بتقطيع بصلة فى شكل حلقات رفيعة وفلفلة خضراء وقطعة بطاطس بنفس الدوائر ثم وضعتها بدقة على سطح صينية فرن فوق مكعبات صدر الفراخ، كما لو أننى انتظر احداً لنلعب لعبة الدومينو. أضفت إليها بعد ذلك نصف علبة صوص طماطم مخلوطاً بالثوم ثم نثرت عليها ملحاً وتوابل ومن ثم أدخلتها إلى فرن الغاز، بعد أن قمت بضبط الزمن على 20 دقيقة، تأملت صينية الفرن بإعجاب، كانت من النوع الغالى جدا ولكنى اشتريتها بواحد يورو فقط، كان ذلك فى يوم عيد الملكة، يا لها من صفقة رابحة، هكذا عبرتُ عن أحدى انجازاتى، جلستُ

على طاولة المطبخ أشعلت سيجارة.

رنّ موبايلى، نظرتُ له وهو يهتز على الطاولة، المتصل عثمان فخة للمرة الرابعة. خاطبتُ الموبايل بغضب كأنى آمره أن يكف عن الرنين، ليس لدى مزاج يا عثمان فخة. لكن الجهاز بدأ يتدحرج بقوة الاهتزاز نحوى، تناولته بيدى اليسرى:

– الو.

وانتظرت ما أتوقعه ولكنه قال:

– للأسف أنقل لك أخباراً غير سارة. صاحبنا المجنون الذى سألتنى عن اسمه، عامر عباس، توفى صباح اليوم فى حادث بشع.

قاطعته وأنا أحوّل التلفون إلى أُذنى اليمنى:

– هل أنت متأكد مما تقول؟

قال وصوته يتخذ نبرة حزن:

– نعم، هذا ما حدث، مسكين، رمى بنفسه أمام القطار الفرنسى السريع، مزّقه إلى أشلاء. بمشقة استطعنا جمع أجزاء منه لتصبح له جثة، الرحمة له. سندفنه غداً، هل ستأتى؟ أومأتُ بالإيجاب بهزة رأسى كأنه يشاهدنى. كنت مذهولا، شىء لا يصدق. ظللت جالساً فى مكانى عاجزاً تماماً، ليس لدى أى فكرة عن الخطوة القادمة كى أخرج من ذهولى، سمعت صوتاً يأتى من بعيد:

– الو، هل تسمعنى؟ أشرف، هل مازلت على الخط؟

انتبهت إلى أننى لا زلت ممسكاً بالموبايل بيمناى، خرج صوتى من بين فلجات العبرة:

– نعم، نلتقى غداً.

وضعت الموبايل على طاولة المطبخ، بقيتُ ساهياً للحظة، بصعوبة استرجعت وجهه وهو يتكلم بأسى. نهضت، فتحت باب البلكونة، تركتُ بصرى يتجوّل فى الفضاء، كانت إضاءة الشفق باهتة جعلت الأشجار تبدو كما لو أنها ظلالٌ مرسومة على ورق فضى، كانت بلا أوراق، كأنها مصنوعة من السلك الشائك. وقفت انظر لهذا المشهد، شعرتُ به يسلفنى حزناً عظيماً، لفحتنى نسمة باردة، تابعتُ النوافذ المضاءة، تظهر خلفها شخصيات تتحرك، وتمارس حياتها باعتيادية، لا احد مهتم بإحساسى الآن. خربشتُ بأظافرى على حافة سياج البلكونة. رجعت إلى غرفتى، تمددتُ على السرير ونظرت للسقف قلت لنفسى، يجب أن أفكر بجدية فى الذى حدث وماذا على فعله فى مثل هكذا موقف؟ كانت تنقصنى البداية، لا أدرى من أين أبدأ؟ ولكن للأمانة كانت رغبتى الحقيقية هى النوم، أنام حتى يتورّم وجهى لآن التفكير فى ظل هذا الحزن القادم سيصبح إشكالية فى حدّ ذاته، حاولت عبثاً أن أحصّن نفسى من مغبة ذاكرتى الممزقة. نهضت بسرعة، كأنما قد لاحت لى فكرة جهنمية. جلستُ على طاولة المطبخ مرة أخرى وسكبتُ لنفسى كأس وسكى وارتشفته دفعة واحدة، ثم ملأتُ كأسى بالكامل ورحتُ أدوره بيدى فى مكانه محافظاً على نفس دائرة قاعدته، أخذتُ منه رشفة كبيرة ولسان حالى يقول اليوم خمرٌ وغداً أمر. شممتُ رائحة شىء محروق، نهضتُ بسرعة وأغلقتُ فرن الغاز ثم أخرجتُ الصينية، كانت صدور الفراخ مستوية

لدرجة التخشب، عندئذ تخيلتُ جثة عامر درويش التى تحولت إلى شظايا لحم متناثر، شعرتُ بحاجة لخروج أمعائى، امتلأ فمى بلعاب كثيف، رميتُ بالصينية على حوض المطبخ وهرعتُ نحو التواليت، وانحنيتُ ابصق فى لعاب متكاثر. سألتُ نفسى لماذا انتحر؟ ولكن سرعان ما شعرت بسذاجة سؤالى لأن ملامحه التى بانت أمامى تكفلت بالإجابة. فهو أساساً لم يكن حيا ليموت، ناهيك عن الظروف التى ألمّت به. شعرتُ باشمئزاز عنيف جراء الطعم النابع من حلقى مخلوطا بنكهة الويسكى . ليتنى لم ألتقِ بعامر درويش وأستمع لاعترافاته، هاهو ينتحر ليحمِّلنى راية القلق. انتبهتُ لحدسى لم يكن مجرد مظنة، وإنما تدبير مسبق، فعندما خصنّي ليلة أمس باعترافاته وأسراره لم يكن مهتماً مطلقاً، بأننى يمكن أن أفشى أسراره التى أحتفظ بها طوال هذه السنوات. من الواضح أنه كان قد حسم أمره واستلم تأشيرة الغياب. بالضبط كما فعلت معى نهلة جمال الدين. تذكّرت تلك الأيام العصيبة، عشت أياماً منغلقاً داخل صدفة، لا أتحدث مع أحد ولا أسمع ماذا يقولون؟ لم أعد اهتم بالوسط الذى حولى، تتنازعنى مشاعر مضطربة. لقد ترك غيابها فراغاً لم احسب له حساب، استطاع الزمن وحده أن يتكفل بأحزانى، ولكن رغم ذلك فاقم من إحباطى. يا الله، مجرد التفكير فى ذلك اليوم وأنا داخل المشرحة للمرة الأولى فى حياتى، يبعث القشعريرة فى جسدى.

كنتُ آخر شخص تحدث معها تلك الليلة، مثلما حدث الآن تماماً مع عامر درويش، إعادة مشابهة لنفس السيناريو. كانت علاقتى بها قد

تحوّلت إلى صداقة حميمية، استطاعت بشخصيتها وتعاملها أن تسبب لى هزة ذهنية وخيبة أمل فى نظرتى التقليدية للمرأة، نظرتى الشهوانية التى كانت مختصرة فى تحالف مبرم مع الرغبة الجنسية، حتى هى نفسها كنت أتأملها بدناءة، عسى أن تنجح الخطط التى كنت أرسمها قبل لقاءنا، ولكن سرعان ما تبيّن لى كم كنت مخطئاً فى فهمها، فتحوّلت إلى صديق من نوع خاص، أقضى معها ساعات طويلة نتحدث عن مواضيع مختلفة فى أماكن متعددة، أبذل قصارى جهدى للإجابة على أسئلتها، بعد أن ثبت لى أن أسئلتها هى أسئلتى نفسها ولكن لم أتجرّأ وأطرحها على نفسى، لذا أصبحت كمن يتحدث عن نفسه. أحياناً كنت أتخيلها زوجتى ونعيش فى شقتنا، وبيننا الآن نقاش ودى بعد وجبة الغداء، لم يكن لدى أى مانع فى مواصلة تدخينها للبنقو، ولكن للأسف لم تكن لديها مشاعر عشق تجاهى ناهيك عن التفكير فى الجنس. كانت تمر على يومياً بسيارتها فى مقر الصحيفة التى أعمل بها محرراً، لنتناول الغداء فى مطعم بالقرب من مقر عملى، وفى الغالب كنا نستبدل نوعية الأكل، وندور بسيارتها نبحث عن الأماكن التى تخلو من الضجة، لم تكن تدعنى أدفع قيمة فاتورة الطعام مطلقاً، إلا فى مرة واحدة عندما أخذتها إلى المطعم الذى يقدِّم كسرة بالسلطة، أعجبت بهذا الوجبة لأنها كانت نباتية، كنا نجد صعوبة فى اختيار وجبتها، أصحاب المطاعم كانت وجوههم كمن وقع فى مصيدة وهم يقدمون لنا اعتذاراتهم. تكفّلت رفقتنا اليومية بمهمة التطبُّع لتجعلنا أشبه بنسخة واحدة، حتى قالت

ذات مرة:

– لا أدرى ولكن أشعر أنك تفكر بنفس الطريقة التى أفكر بها.

لقد صارت جزءاً أساسياً فى حياتى، لقد استوعبتنى بكل تناقضاتى، فى إحدى المرات طلبت منى أن أعرّفِها على رباب تاج السر التى لم تخفِ غيرتها، ولم أنتبه لذلك، ثمة أشياء لا تدركها سوى حواء نفسها، فلاحظت أن نهلة جمال الدين كانت عندما نلتقى ثلاثتنا، توليها اهتماماً خاصاً، تجبرنى على الجلوس فى المقعد الخلفى وتستفرد برباب تاج السر فى المقعد الأمامى لسيارتها وتصبح المحصلة النهائية أننى كائن لا معنى لوجوده، اكتشفت فيما بعد أنها كانت تفعل ذلك من باب حوش النساء الخاص، باختصار احتفظت بعلاقتها مع رباب تاح السر لتحظى بالهدوء. أستعيد الآن اللحظة التى صرخت فيها رباب تاج السر عندما أخبرتها بوفاتها، بكتها كما لم تبكِ احداً، بركت فى الأرض وأجهشت حتى لطخت يديها بالطين. بعد لقائى الثانى معها، أصبحت أنا من يتدّبر أمر إحضار البنقو، فضّلت أن أعرِّض نفسى للمجازفة بدلاً عنها، استمتعت نوعاً ما بهذه المغامرات، استأجرت سيارات أجرة لأنجز المهمة فى أسرع وقت، وبعد أن تعرّفت على أحد أصحاب هذه السيارات من الذين يتعاطون الحشيش سهّل لى المهمة، أصبحنا ننتظره فى إحدى المطاعم وينجز لنا المهمة دون مخاطرة.

كنّا نجلس فى شقتها ندخن البنقو ونتحاور. كانت تتحدث بطريقة متقطّعة أقرب للتأتأة، لكن كان ذلك يعود لعدم معرفتها الجيدة باللغة

العربية، كانت تجتهد لتعثر على مفردات تعبر عن فكرتها بالضبط.
قالت لى:

– إننى أعرف أن الذى أدخنّه لن يحل آياً من مشاكلى.

قلت لها:

– المشاكل لا تستمر للأبد، ستنتهى يوماً ما.

قالت وهى تنفخ دخان سيجارتها نحو دخان البخور المتصاعد عمودياً كما لو أنها قررت أن تعترض خط سيره أو ترغب فى مزج الرائحة:

– فعلاً أشعر أنها ستنتهى قريباً، فى لحظة ما سيتوقف كل شىء، كل شىء.

لم أهتم آنذاك لهذا الرد، واصلت معها حوارى دون أن اقرأ الدلالات التى كانت تندس تحت مفرداتها، قلت لها:

– أنت تفكرين أثناء التوتر يا نهلة وهذا يزيد المشكلة تعقيداً، لذلك تتوقعين دائماً حدوث الأسوأ.

أجابتنى بطريقة حازمة:

– أبداً، لم أتعود على التفكير أثناء توترى، لا أفكر إلا عندما أكون متصالحة مع نفسى كما الآن.

نبرتها الجادة جعلتنى أراجع ما قلته، ربما تفوّهت بشىء لا ينبغى قوله. ساد صمت مزعج خدشته بصوت الولاعة التى استعصت عليها، مما جعلنى أن أشعل لها من ولاعتى، نفثت دخانها نحو الطاولة وقالت:

- آسفة يا صديقى جعلتك تكتئب، تجاهل ما قلته، أنا فقط غاضبة من نفسى. أنا فعلاً متوترة ومرتبكة، الأمر أعمق ممّا تتصور يا اشرف، أتمنى أن أنام بعمق. والآن قل لى حكاية من حكاياتك المدهشة.

أعتقد أننى لم أفهمها جيداً، لم أكن بالذكاء الذى تصوّرته عن نفسى، قالت لى فى لقائنا الأخير:

- هل يمكن يا أشرف أن تقدم لى معروفاً؟

قلت:

- بكل تأكيد.

أمسكت بيدى وقالت:

- أرجوك، لا تنظر لى كأننى فتاة ساذجة تضيع وقتها معك. ولا تغضب منى إذا تصرّفت بحماقة.

قلت لها وأنا أبتسم:

- إطلاقا، أنا مستمتع برفقتك، ولا أنكر أننى تعلّمت منك الكثير.

نهضت هذه المرة من جلستها المفضلّة أمام الطاولة حيث تمارس فى طقوسها ولف المخدرات بالماكينة الصغيرة المدهشة، وقفت أمامى وتأملتنى كأنها تنظر إلى آثار قديمة، ثم قالت:

- أشعر بأننى أتحلل وقريباً سأذوب.

ثم بلا توقع جلست على حجرى وراحت تحرِّك فى مؤخرتها من فوقى ونظراتها مصوّبة داخل بؤرة عينى، كانت ليّنة وناعمة لدرجة أننى توقعتُ أن تذوب على جسدى. راحت تتحرّك ببطء ثم ازداد إيقاع

حركتها كأنها تمطتى فرساً تزداد سرعته كلما اقترب أكثر من نهاية المضمار، لم أشعر بلذة كهذه، انتصبتُ بسرعة فائقة. نهضت عندما شعرت برجولتى، حاولتُ أن أتمسك بأكتافها لتجلس، تملّصت منى وأخذت سيجارتها من المنفضة، وجلست بقربى وأخرجت دخانها بزفرة حادة واستلقت بظهرها على الكنبة ورفعت رأسها تنظر للسقف. قلت لها وأنا أمسك بيدها:

– أرجوك عودى لهذا الوضع مره أخرى، إنه مدهش.

هزّت رأسها نافية وقالت:

– أنا آسفة، لا يمكن لنا أن نتحمّل ذلك.

قلت بإصرار خبيث:

– لن يحدث شيء مطلقاً، سنظل هكذا ولن نتقدّم خطوة أعمق، أقسم بذلك.

نظرت لى بابتسامة متوترة:

– أنت تتكلم عن نفسك يا صديقى، أما أنا كنت بعد قليل سأبكى لك وأتوسلك أن تضاجعنى.

انتهزت فرصة وضعت يديها خلف رأسها واتكأت على الكنبة، فأشعلتُ سيجارة كى أعبِّر بها شدة الإثارة التى داهمتنى، لم أتوقع أن هذه الكلمات أججت بداخلى كل هذه النار. ساد بيننا صمت، اعتقدتُ أنه كان كافياً لتنسى الفكرة ولكنها أضافت:

– أعذرنى يا أشرف، إن كان هناك شخص واحد أود أن أنام معه فهو أنت، ولكن أخاف أن أكرهك بعد ذلك، أنا سعيد أن تكون

صديقى الذى أحبه.

أمسكتنى من يدى وطبعت قبلة على خدى، حبست بها ما تبقى من دماء فى عروقى، ربما أبالغ إن قلت أننى شعرت بقلبى تحوّل إلى الناحية اليمنى من صدرى. ظللتُ مبتهجاً بهذه اللحظة، ولم أنتبه لغُمّها إلا بعد أن رفعت رأسها وكانت رموشها مبتلة وقالت بأسّى:

– هذا أقل شىء أقدمه لك، لقد أسعدتنى.

بعدها قررت مغادرتها فاستأذنتنى لاستبدال ملابسها وتوصيلى إلى البيت كالعادة اليومية. ولكنها استهلكت مدة طويلة، قضيتها فى التحسّر والندم لإضاعتى فرصة التهام شفتيها. عادت من غرفتها ترتدى فستان سهرة من النوعية التى أشاهدها فقط فى المجلات ولأول مرة أراها تضع مكياج، كانت مدهشة قلت بصوت عال:

– واااو.

كانت تبدو بذلك الفستان كأنها فراشة، لقد أظهر أنوثتها بشكل ساحر، سألتها رغم تأخر الوقت:

– هل أنتى ذاهبة إلى مناسبة؟

قالت وهى تجلس بالقرب منى:

– أبداً، هكذا أحتفل بنفسى عندما تمر على لحظات سعيد، والآن هيا بنا، اشتهى هواءا نقياً.

استيقظتُ فى الصباح وأنا أحاول أعيد إحساس لذة، مؤخرتها تهتزّ من فوقى ليلة البارحة، كانت لحظة عجيبة. وأثناء وجودى فى دار الصحيفة أنفقت وقتى فى ترسيخ هذا المشهد الساحر، اعتقلت ذهنى

فى إعادة تصوير بطيء، نبرة صوتها وهى تنطق بجملتها التى أثارتنى:

– سأبكى لك وأتوسلك أن تضاجعنى.

خزنتُ صوتها داخل الأرشيف، ورحتُ أحلم بتكرار التجربة مساء اليوم، فإذا برجل من شرطة المباحث يداهم متعتى، عرّفنى بنفسه ثم أخذنى على انفراد ونقل لى خبر انتحارها. لقد اكتشفت خادمتها الفلبينية الجثة فى الصباح واتصلت بالشرطة، وجدوها ممدة على سريرها بنفس الفستان والمكياج، أعتقد أنها كانت تود أن تغادر بأناقة. الملازم الذى تولى التحقيق فى القضية اكتشف إن آخر ما فعلته قبل أن تبتلع كمية مهولة من الأقراص المنومة. كتبت رسالة معنونة بأسمى بالكامل مع عنوان الصحيفة، كانت ترغب فى أن تصلنى الرسالة مع سبق الإصرار، لذلك كانت هذه الرسالة القصيرة أول الخيوط التى تتبعها ضابط المباحث الذى استجوبنى داخل مركز الشرطة، لم تكن الشبهات تحوم حولى لأن موتها حسب تقرير الطبيب الشرعى، كان عبارة عن انتحار. كنت أرتعش وأنا جالس فى مكتب الضابط اقرأ رسالتها لى:

– لقد كتبت لك فى هذه اللحظات من دون خلق الله، لأنك تعنينى يا أشرف، تعنينى بمعنى الكلمة. أعرف أننى كنتُ عبئاً ثقيلاً عليك، تجاوب على أسئلتى الساذجة بكل أريحية. تجتهد كى أظل أحافظ على ابتسامتى، كنتُ يومياً أرى مشاعرك الطيبة التى تكنّها لى، وهى التى جعلتنى فى غاية السعادة، الرفقة معك كانت أكثر إتّسَاقا

ممّا تتخيل وممتعة حقيقةً. وكان يمكن لـى أن أستمر معك فـى هذه الصداقة للأبد، لأننـى أحببتك يا مُؤنِس يا نديم، لكن ثمة أشياء لا يمكن للمرءِ أن يفعلها إلا بمفرده. أرجو أن تتفهم موقفى جيداً، وتسامحنـى. فأنا إنسانة متصدِّعة أكثر ممّا تتخيل، كان لابد لـى من غياب. كلما أريد أن أنقله لك فـى هذه الرسالة، أن تعلم عظمة تلك السعادة التـى وهبتها لـى. أرجوك، لا تنسَ وعدك لـى بألا تغضب منـى أذا تصرفتُ بحماقة. كل ما فـى الأمر، قررتُ أن أنام للأبد كما أخبرتك من قبل. أما الشـىء الذى يؤلمنـى أكثر من أى شـىء آخر، هو افتقادك لـى، وإن كان هناك سبب واحد جعلنـى أتردد للحظات فـى قرارى، هو حزنك المتوقع. وداعاً يا صديقى الحميم. مهلاً، لا تنسى أن تشجع فريق مانشيستر.

عندئذ أجهشتُ فى البكاء، حاول ضابط الشرطة بكل الوسائل المتاحة فى مكتبه أن يهدئ من روعى. كانت الإجراءات القانونية قد أجبرتنى لرؤيتها داخل المشرحة. كانت لحظة قاسية فى حياتى، رغم إنها كانت تبدو نائمة ولكن منظرها أفجعنى. أمام باب المشرحة التقيت بوالدها الذى حضر بسرعة غير متوقعة، ضغط على يدى بقوة شعرتُ كأنه يقول لى، لا تخبر احداً أنها انتحرت، مفهوم؟

بعد هذه الفاجعة اندلع بداخلى اكتئاب مزمن، دخلتُ فى عزلة استمرت شهراً كاملاً، لم أخرج من البيت إطلاقا، حبستُ نفسى داخل غرفة شقيقتى، كان من وقت لآخر يدخل على والدى يتحدث معى مطولاً، أهز رأسى موافقاً دون أن اسمع ما يقول، غالبا ما كان يردد

لى عبارات الحكمة، كان يحرّضنى على مواجهة المحنة، يدعونى للامتثال لتجربته. ومن بعده تتسلل والدتى مع بدايات الغروب، مثل ما يفعل بخورها، لتصبح الغرفة عبارة عن سحابة وتغمغم بتعويذة شيوخها، تجبرنى على استنشاق الدخان، تداهمها موجة تثاؤبات تفتك بحنكها وتؤكد لها أننى مسحور، أترك لها المكان وأختبئ داخل الحمام.

لقد أصبحت نهلة جمال الدين تزورنى يومياً فى أحلامى، أحياناً تقول لى:

– لا تكترث يا صديقى إنه نوم عميق فقط، هذا بالضبط ما كنت أرغب به.

وفى لحظات أخرى كانت تذكرنى بوعدى لها:

– اتفقنا ألا تغضب منى ولا تسخر من حماقاتى. أعلم أننى تصرفتُ بأنانية، ولكنى سعيدة فى هذا المكان.

عندما أخبرت والدتى بهذه الأحلام قالت لى:

– سجم أمك، عايزة تلحقك أمات طه.

مع مرور الوقت وتكرارها فى أحلامى بدأتُ اشعر بأن الموت ليس بهذه البشاعة التى كنت أتصورها، وإنما هو جزء لا ينفصل عن الحياة، امتداد آخر، عبارة عن نسيان يأخذ منحنىً تدريجياً، شىء ما جعلنى متأكداً أنها تعيش فى مكانٍ ما وسعيدة بتحقيق رغبتها. ظلّت صورتها منطبعة بذاكرتى للأبد وهى تلعق قطعة الثلج المكعبة وتقرقشها بأسنانها وتضحك عاجزة عن منع تسرّب الماء من بين

شفتيها، أضحك معها. أتذكر فى الأسبوع الأول من بداية عزلتى رفضت أن اخرج لمقابلة رباب تاج السر التى جاءت تزورنى، وتواسينى. ولكن فى محاولتها الثانية كنتُ قد بدأتُ رويداً رويداً أن أستفيق من ذهولى وأتعايش مع غياب نهلة جمال الدين، كانت فقط تنقصنى الجرأة لمواجهة الناس. إلى أن جاء ذلك اليوم الذى طلبت منى والدتى أن افتح لها باب الغرفة كى تُدخل لى وجبة الفطور، فوجئتُ برباب تاج السر تدخل وهى تحمل الأكل وتضعه أمامى. كانت دموعى هذه المرة أسرع منها، احتضنتها وأجهشنا فى بكاء استمر لوقت طويل، قبّلتها بنهم، لم أخطئ أى مكان فى وجهها، حتى أننى شعرتُ بحلمات صدرها منتصبة، أجلستها على حجرى وتأملتها بإعجاب، اعترانى شعور عظيم بالألفة نحوها، تركتُ الصمت يتحدث نيابة عن الإحساس. مررتُ أناملى على خدها برفق، مسحت دموعها، وهى متشبثة بيدى الأخرى، كنت أسمع بلعة ريقها، انتصابى بدأ يثيرها، يمرجحها، أشعر بفخذيها يرتعشان. تذكرتُ جلست نهلة جمال الدين على نفس المكان وحركة مؤخرتها اللدنة وسرحتُ فى تلك اللحظة. همست لى رباب تاج السر كما لو أنها كانت تجلس على ذهنى:

– فيم تفكر؟ هل تذكرت صديقتك؟

تلعثمت وقلت لها كاذباً:

– أبداً. كنت أفكر أن نفعلها هنا، هذا المكان الوحيد الذى لم نجرِّبه من قبل.

حاولت أن تتملص وتنهض ولكنى أجبرتها على البقاء مكانها:

– أنت مجنون، الباب مفتوح.

قلت لها:

– إذا كان على الباب فيمكن إغلاقه.

صرخت بطريقة طفولية:

– لا، لا والدتك! ماذا ستقول عنى؟

قلت بطريقة لا تخلو من الخبث:

– والدتى هى التى جاءت بك إلى هنا.

نهضت وهى تضحك:

– تافة، صعلوك، هيا يجب أن تأكل.

أطعمتنى فى فمى كطفل، شعرتُ بجوع لم أشعر به من قبل، التهمت كل ما كان أمامى. استطاعت رباب تاج السر أن تخرجنى من عزلتى ورجعنا لممارسة الجنس بلهفة مثل أيامنا الأولى، ولكن سرعان ما داهمنا نفس الملل. أعتقد بسبب كآبتها التى لا تنتهى مطلقاً، دائما أرى ماسات تتلألأ تحت أهدابها، دموعها فى متناول خدها، تتألّم من مشاهد البؤس اليومى التى تراها، أنفعل:

– يا رباب الفقر أكل حتى شارع الظلط، انظرى!

تخرج مفرداتها من بين النحيب:

– لا يمكن أن يكون هناك عدل فى هذا البلد.

أعتقد أنها كانت متقدمة علينا إنسانياً.

انتبهت أننى تجرّعت كل الويسكى الذى كان بالزجاجة ولازلت فى

حالى، كأننى أتناول فى ماء. نهضت وارتديتُ سترتى وقمتُ بإعادة الجرد لمقتنياتى، تأكدّتُ من محفظتى وبها مبلغ من المال، الموبايل، مفاتيحى ثم خرجت. قررت أن امشى فقط، لم أحدد مكانا بعينه. قلت لنفسى كما لو كنتُ أخاطب فى شخصاً يمشى بمحاذاتى:

– أخيراً تمكنت يا عامر درويش من اللحاق برفيقك سامى قنديل.

خُيّل إلى أنه عندما عجز عن استرجاع ابنه سامى قنديل، فضّل استخدام أسهل الطرق للوصول لصديقه الأصل. ظللت أمشى فى هذا الظلام الشاحب محاذياً قناة مائية، سيارات مرصوصة بطريقة كأنها درجات سلم، قوارب صغيرة تتمايل فى طرب، موسيقى تنبعث من بعض المحلات. لقد قررتُ أن أسير، ولكن لم تكن لدى فكرة عمّا سأفعله بعد ذلك. لا أعتقد أننى كنت حزيناً على موت عامر درويش بقدر ما كان ألمي نابعاً عن الانفجار الذى حدث بالذاكرة، هذا الخبر كان بمثابة، ثقب تدفقت من خلاله الذكريات بغزارة، تعذّر على كبحها، وجدتنى أعود إلى نفس الكآبة التى أحدثتها نهلة جمال الدين بانتحارها. مشيتُ قدر المستطاع، أدوس بحذائى على متاهة، مررتُ ببار تنبعث منه موسيقى صاخبة، كانت أمامه ثلاث فتيات يدخنّ فى شراهة، ضحكنّ بلا سبب، صنفته خانة بؤسى ولم أكترث. واصلت سيرى، غير عابئ بزخات المطر الذى هطل فجأة وبللتنى، تابعت منظرها وهى تتساقط تعكسها إضاءة أعمدة النور كما لو كانت حشرات فى حالة إبادة جماعية. شعرتُ أننى ابتعدتُ كثيراً عن مكان سكنى، توقفت بداعى الشك والخوف، قررتُ أن أعود إلى البار

الذى تجاوزته قبل قليل. دلفتُ مبتلاً، معظم الأنظار تابعتنى، فعلاً كنتُ أبدو دخيلاً، ليس على البار وحسب، بل على الواقع نفسه. جلستُ على كرسى مرتفع، الماء تسرب حتى ملابسى الداخلية، ابتسامة صاحب البار لم تكن تتناسب مع شكله مطلقاً، ضخم الجثة، عضلات وجهه تجعلك ترمش، ليس هناك مكان فى جسده خالٍ من الوشم، أشبه بالمصارع، صبّ كأس بيرة من لحجم كبير وبقطعة خشب رفيعة أزال الرغوة التى فارت وطفحت، ثم اقترب منى وسألنى عن طلباتى، صوت الموسيقى الصاخب جعله يمد لى أذنه لأفشى عن طلباتى صرخت:

– كأس ويسكى مع الثلج.

شعرت إننى انتصرت عليه بهذه الصرخة ثم نظرت حولى كما لو أننى سأجد الاستحسان، وقع بصرى على الفتيات الثلاث اللائى شاهدتهن قبل قليل يجلسنّ على طاولة ويتحدث صراخاً. وضع صاحب الجثة الضخمة أمامى قطعة كرتون دائرية بها شعار أحدى شركات البيرة ومن فوقها وضع الكأس، أمسكته بيدى جعلت الثلج يهتز، ثم لا شعورياً أدخلتُ أصابعى وأخذت قطعة مصصتها ثم قرقشتها، كما كانت تفعل نهلة جمال الدين بالضبط، نظرتُ أمامى، كأننى سأشاهدها، كانت هناك مرآة ضخمة، رأيتُ نفسى أجلس كئيباً، ملامحى غريبة، بدا لى وجهى قديماً جداً، أقدمُ من عمرى، قلت لنفسى، لقد كبرتُ بصورة مروعة، لا يمكن أن أكون أنا نفسه قبل أيام، تباً لهذا الزمن لقد استغفلنى. أبدو وسط هؤلاء الهولنديون

شخص قبيح، داهمتنى فكرة شريرة، أن اقذف هذه المرآة بكأسى وأحطمها، وانتظر ماذا سيحدث؟ حتماً ستكون نهاية مؤلمة. لكن فكرة لا بأس بها، اتحدى به هذا المصارع. شعرتُ أن المشى تحت المطر أخمد ذاكرتى قليلاً، شربتُ كأساً آخراً ودفعتُ الثمن وغادرت. لم تعد تمطر؛ صفاء شاحب، رائحة حشائش معطّنة. بدأت أتساءل هل هناك داعٍ لذهابى غداً لحضور مراسم دفن جثمان عامر درويش؟ ولكن قبل الوصول إلى قرار صححتُ لنفسى صياغة سؤالى وقلت، يجب أن أقول لدفن أشلائه. فى تلك اللحظة تذكرت الحُلم، لقد كنت أطارده واختفى خلف القطار لم أراه بعد ذلك، أما شواله القذر الذى كنت أحمله على ظهرى، فسرته بأنه هذا الكم الهائل من الذكريات وأنا أستعيدها. لم أتمكن من النوم طوال الليل، جرّبت كل الأوضاع الممكنة لرأسى حتى تستقر، اعترافات عامر درويش فى مكانها ولكنها تدفّقت دون مراعاة لجسدى المرهق. عندما بدأت الأحداث فى المدينة تتسارع، وتتفشّى بعداوة مفرطة. كان لابد من الانتماء إلى أحد الفريقين المتصارعين، وكان من المتوقع أن ينحاز إلى زوجته ويقف فى صف الهولنديين أصحاب المدينة الأصليين ولكن معرفته بأبناء وطنه فى هذه المدينة الجديدة جعلته ينحاز إلى أصوله، رغم أنه لم يصرّح بموقفه علانية، بيد أن أنكا فان درماين لاحظت ذلك، استشفت التغييرات التى حدثت فى شخصيته وانتقدته بشدة ممّا أحدث شرخاً فى علاقتهما وصلت لدرجة مشادات كلامية. المشكلة تتعقّد أكثر بالمناقشة الحادة والصراخ، لا

يكفان عن هذا العبث إلا عندما يصرخ سامى بدوره محتجاً على عدم تمكنه من سماع صوت التلفزيون، فى هذه اللحظة يغادران صالة الجلوس، تدخل هى غرفة النوم وهو ينزوى فى غرفة المكتب، ويصبح الحوار بينهما منحصراً فى الأشياء التى تخص طفلهما سامى. كان يعلم جيداً أن أنكا فان درماين عوّدت نفسها منذ الصغر ألا تعتذر لأحدٍ مطلقاً ولكنها عندما تشعر بأنها مخطئة تتحاور معه حول شئون البيت والعمل كأنما شيئاً لم يكن. تدفعه نحو الحياة اليومية الطبيعية دون خسائر، أحياناً يستجيب وتنتهى الخصومة دون معرفة أسبابها أو محاسبة، لان كليهما يدرك مدى البؤس الذى يكتنف الشقة آنذاك، تصبح عبارة عن بيت أشباح، شىء لا يطاق بالطبع كان يغضبه عدم اعتذارها لأنه لم يكن يقدِّر إحساس التوتر الذى يعتريها أثناء غضبه منها، أحيانا تفرغ الشحنة فى عقابها لابنها سامى، وغالباً ما تظل معتكفة داخل غرفتها تشعر بنفسها تتبدل من الداخل مثل الطقس الهولندى. كانت لديها صديقة واحدة تتصل عليها وتتحدث معها بالساعات، حتى أنها تدخل التواليت بالتلفون. أما عامر درويش فكان يجلس فى غرفة الكمبيوتر بعد أن ينام ابنهما سامى، يشرب البيرة ويناكف البعض فى غرف النقاش على الانترنيت. يصب لنفسه كاس ويسكى ويدخل بهدوء إلى غرفة سامى النائم يتأمله بإعجاب وهو يبدّل فى تعابير وجهه بسرعة غريبة يضحك، يعبس، يبدو على وشك البكاء، يغلق باب الغرفة بنفس الهدوء ويذهب إلى غرفة النوم مخموراً يضجع فى الناحية الأخرى

من السرير، فى العادة تكون هى مستيقظة تتوقع أن يبادرها بالاعتذار، كانت تتمنى ذلك ولكن يخذلها وينام بسرعة مذهلة، تتصنت لتنفسه الذى سرعان ما يتحول لشخير، عندئذ تنهض بزفرة قوية كما لو أنها تريد أن تطفئ شمعة، تفتح الماء الساخن فى البانيو ومن ثم تغطس بداخله، كانت هذه احدى أسلحة دفاعاتها لمغالبة الغضب. فى إحدى المرات جاء من غرفة الكمبيوتر لينام فى مكانه، وجدها مشعلة أبجورتها وتقرأ، كانت ترتدى قميصاً قصيراً، مفعول الخمر والإضاءة الشاحبة صوّرت له مدى إثارتها، ولكن كان يعلم إنهما فى قطيعة مستمرة فلا يمكن أن تسمح له أن يمسّها، ولكن لمعت بذهنه فكرة كانت موصدة بالصدأ، استغل حالة سكره واحتضنها من ظهرها، احكم بساقه على حركة مؤخرتها وراح يقبلها فى كل مكان يصل إليه، طلبت من أن يكف عن هذا الهراء حسب تعبيرها وعندما لم يستجيب دفعته بقوة، انتهرته:

– هل تريد أن تغتصبنى يا عامر؟

لم يرد عليها واصل فى مهمته وتذكر أين تكمن نقطة ضعفها، مدّ إصبعه وعزف على مكان حساس يحفظه جيداً، انتفضت كما لو كانت صعقت بتيار كهربائى، تأوّهت وحاولت أن تبعد يده، ولكن لم تكن جادة فى محاولاتها، لأنها سرعان ما عانقته عندما اهتز جسدها كالزلازل، قالت له وهى تطلق فراشاتها:

– أحبك يا عامر.

فى الصباح عادت الحياة كما كانت ولكن لم يكن يستمر الوضع

كثيراً، سرعان ما يعودا إلى الخلاف المزمن، وخاصة بعد أن أصبح الصراع الخارجى بين الأجانب والهولنديين فى المدينة يأخذ منعرجاً سيئاً، كما لو أن الصراع ألقى بثقله على علاقتهما، أصبحت أنكا فان درماين تعلن عن غضبها من الأجانب والدين الإسلامى نفسه، وأخذت الهوة بينهما تتسع وصلت ذروتها عندما اعترضت على أن يأخذ ابنه سامى لصلاة الجمعة فى المسجد. لم يكن يتوقع أن ابنهما سيصبح نقطة الخلاف، كل منهما حاول فرض طريقته فى التربية، والبحث عن هيمنة. إصرار عامر درويش ومواظبته فى اصطحاب ابنه لصلاة الجمعة فى مسجد المغاربة، جعلها تغتاظ، فما كان أمامها سوى أن تأخذ طفلها صباح الأحد إلى الكنيسة لم يكن يدفعها الإيمان بقدر ما كانت المسألة نكاية بعامر درويش واحتدام الصراع، ليتحوّل همهما الشاغل الاستحواز، من الذى يستطيع أن يستقطب الطفل لديانته؟ رغم أن كليهما كان غير مُلمّ بأمور دينه بشكل يؤهله لهذه المهمة، خصوصاً أمام استفهامات الأطفال المحيرة. لكن المشاحنات تضاعفه من خلال النوايا، فكان عامر درويش يقرأ القرآن لسامى أثناء النهار، ويدربه على طريقة النطق، وفى المساء تستلمه أنكا فان درماين لتسرد له قصصاً من الإنجيل قبل نومه، فكلما كان يُعلِّم سامى شيئاً عن الدين الإسلامى تضيف هى بالمقابل، وصل بها الأمر أن تشترى لوحات لمريم العذراء،علّقتها على جدار الصالة وتماثيل للمسيح وضعت بعضها على سطح المكتبة، والبعض الآخر داخل غرفة سامى. وصل الاستفزاز قمته بعد أن اشترت لابنها قلادة

من الذهب به صليب ليعلقه على رقبته. يومها انفعل عامر درويش وقذف بالصليب بعيداً لينشب بينهما شجاراً حاداً، استدعى حاسة الفضول مما جعل جارتهما "فراوكه" تتدخل هى وزوجها ليصلان إلى اتفاق أن يرتدى سامى الصليب فقط أيام الأحد وهو ذاهب إلى الكنيسة. هذا النزاع جعل ابنهما سامى يتصدّع ويصبح مثل ميدان المعركة أشد خراباً لتعرّضه للدمار من الطرفين. أصبحت علاقتهما فى البيت عبارة عن شخصين يستأجران منزلاً واحداً لكل منهما غرفة مستقلة يشتركان فى المطبخ والحمام ويتحاسبان بالفواتير، كلٌ يدخل المطبخ لوحده لصناعة أكله. أظهر هذا الخلاف الجانب الخفى لشخصيتيهما وبرزت رعونة من الجانبين، كانت أنكا فان درماين تفتعل إثارته، ترتدى ملابس مثيرة وتتمدد على أريكة من الجلد وتتحدث بالتلفون لساعات، ورغم أنها كانت تتحدث مع صديقتها لكنها تتعمّد ألا تستخدم التأنيث أو ذكر اسم صديقتها لتلهب غيرته وغضبه، ولحدٍ ما نجحت فى تأجيجه، يتنصّت لحواراتها وهو داخل غرفة الكمبيوتر، يتخيّل أنها تتحدث مع أحد زبائنها أو زميلها فى الشغل. وكانت عندما تريد أن تنقل له معلومة يكون ذلك عن طريق سامى. مثل مساء ذلك السبت الذى ارتدت فيه فستان شفاف بلون حبة الكرز أظهر ملابسها الداخلية وتعمّدت أن يكون ظهرها كاشفاً دون حاجة لمشد صدر وقالت لابنها:

– حبيبى سامى، أنا ذاهبة مع صديقتى إلى الديسكو، لا تقلق سأعود متأخرة.

هنا خرج عامر درويش من غرفة الكمبيوتر متذّرعاً بمثانته ودخل التواليت بعد أن لمح فستانها، راح يتابع تدفق بوله ويفكر، ربما تخوننى مع شخص ما، لا يمكن أن تظل فى الديسكو فقط. تخيّل فى ذهنه أن أحدهم سيراقصها ويطلب لها مزيداً من الشراب ويضع يده على ظهرها الكاشف ويقودها برفق نحو سيارته ومن ثم إلى شقته، خرج من التواليت مغتاظاً، لأنه لا يستطيع أن يمنعها من الخروج. فكر أن يعتذر لها ويدعوها إلى مكان رومانسى، ولكن حتماً لن توافق وربما لن تقبل اعتذاره. جلس يتابع التلفزيون مع ابنه سامى وقرر أن ينفصل عنها، ولكى يهدئ من غيرته الداخلية قال لنفسه، أساسا كانت عاهرة فلن تتهاون فى خيانتى، أنا أستأهل لأننى تزوجتها، ولكن إذا خرجت اليوم لن تكون لى علاقة بها بعد الآن. فكر لأول مرة فى العودة للوطن ويستخرج جواز سفر سودانى لابنه سامى ويغادران دون علمها، الفكرة هدّأت دواخله. وصل به الحال لدرجة انه بات يكرهها ويتقزز منها، تمنّى فى سره أن تصاب بمرض السرطان مثل والدتها وتغادر مبكراً، علّل ذلك لأنها تريد أن تسلب منه ابنه سامى قنديل. لم يكن يتوقع أنها ستلبى له أمنيته بأسرع مما تصوّر، لتموت فى خلال ثوانٍ معدودة وبطريقة بشعة، ويدرك بعد ذلك حجم الخسارة بغيابها. فى ذلك اليوم الكئيب أنهى عامر درويش إجراءات التحقيق فى مركز الشرطة وأدلى بأقواله ثم سلّمته الشرطية الشقراء ابنه سامى، حمله على صدره دون أن ينظر له هل هو نفسه أم طفل آخر؟ خرج متجهاً إلى شقته دون يتحدث مع أحد، كان

يشعر أنه مراقب، عيون تتابعه، أشخاص يدفعهم حب الفضول، أسئلتهم تلهث، ماذا حدث؟ هل فعلاً انتحرت؟ ولكن لن يتجرّأ أحد حتى أن يوقفه ليواسيه، بسبب وجهه المُكفهر. دخل شقته وأغلق على نفسه الباب، كلما استطاع أن يفعله، وضع سامى على مقعده وفتح له التلفزيون ثم جثا على أرضية التواليت وأجهش فى البكاء، تذكر وجهها المرعب وهى ممسكة بأصابعها حافة سياج البلكونة، كان وجهها عبارة عن كتلة من الدم . تدهورت حالته بصورة مزرية، لم يعد يغادر الشقة إلا عندما لا يجد طعاما يقدمه لسامى، عندئذ يصطحب ابنه إلى السوبر ماركت التركى القريب من العمارة، يشترى وجبات معظمها مُعلبة، يحاول قدر الإمكان ألا يتكلم مع أحد يدفع الحساب ويغادر، باع السيارة لمصطفى المغربى مقابل عشر كراتين بيرة رديئة ومسكرة، لم يعد ينام إلا وهو مخمور لأن وجهة أنكا فان درماين أصبح يلازمه بعد مغيب الشمس، أحياناً تظهر له فى أحلامه، تتحول يدها التى كانت متشبثة بدرابزين البلكونة إلى ذراع طويلة بيضاء كالرخام عظامها تمتد لتخنقه، يستيقظ مفزوعاً، يتنفّس بصعوبة، يشرب الماء بهلع، يرتجف تحت البطانية. امتنع عن التدخين فى البلكونة، أصبح لا يبالى بصحة ابنه، يشعل سيجارته حتى فى غرفة سامى، يفتح علبة الفاصوليا ويصبها على صحن ويقدمه لسامى النائم أمام التلفزيون، يرمى بالفوارغ فى اتجاه البلكونة وتصطدم بالزجاج لتتكوم على الصالة التى أصبحت عبارة عن مزبلة، المطبخ لم يعد يطاق، رائحة كريهة، الثلاجة أصبحت كجرح

فى ظهر دابة، تخرج منها الديدان، الملابس مكوّمة فى كل مكان، سامى يتبرّز كما يحلو له، يتبول على السجاد، غاز النشادر ينبعث من التواليت، حوض غسيل المطبخ تنقصه الضفادع، الروائح بالداخل لم تكن مزعجة لكن فى الخارج أصبحت مقززة، شباك المطبخ يسرِّبها بتواطؤ. "فراوكه" جارته وصلتها الروائح النفاذة وصرخات سامى الليلية، حاولت أن تتكلم معه رفض أن يفتح لها الباب، اتصلت بمنظمة حقوق الطفل. عندما زاروه متعللين بأنهم عمال صيانة حتى يفتح الباب لهم، صدمتهم الرائحة، أخرجوا مناديلهم فى توقيت واحد، لم يتوقعوا أن هناك طفلاً ووالده يعيشان وسط هذه القذارة. رفض الرد على أسئلتهم، أجبروه وهو فى قمة السكر أن يوقع على أوراق. وقف أمام القاضى يترنّح ويبكى، أخذوا منه سامى قنديل، لم تكن مياه البحر المتوسط هذه المرة بل بشر،لا يملكون أمواجاً عادية، فصلوه عن ابنه عنوة، توسّل للقاضى، اقتحمت الشرطة الشقة فى اليوم الثانى واستولوا على سامى بين النفايات، خرج وراءهم يصرخ حتى المحطة.

لم أنم إلا بعد ظهور ضوء الصباح الرمادى .

19

استيقظت منهكاً، ذهبت إلى المحطة واستقللت القطار. وأثناء جلوسى بدأت أفكر من الهدف فى ذهابى إلى تلك المدينة وبالتحديد الآن؟ هل لمشاهدة مكان الحادث؟ أم لأداء واجب العزاء على أحد أبناء وطنى الذى لقى مصرعه بصورة مأساوية فى غربة؟ شخص فى نظر الآخرين معتوه أو لنقل مجنون، ثم لا أحد يعرف له أقرباء أو أصدقاء، كل المتاح من معلومات عنه أنه جاء من أمستردام مع زوجته الهولندية وطفله وسكنوا فى هذه المدينة، أعتقد أن عثمان جبارة اتصل بى، ربما تخيّل أننى صديقه أو أعرف أصدقاء له، ليلة أمس فقط عرفت عنه كل شىء، أخبرنى بسره، هل يا ترى أخبرهم بأن لا وجود لشخص اسمه عامر قنديل؟ وهذا هو عامر درويش الذى يعتبر أساساً ميتاً منذ سنوات فى نظر أصدقائه وأسرته؟ ولكن حتماً سيلصقون بى تهمة المعتوه الآخر، حسناً، ماذا أفعل؟ ذهنى تشوّش، ليتنى لم آتِ لهذه المدينة لأستأجر بها غرفة، إنه سوء طالع ليس إلا، أقنعتُ نفسى بأنها إحدى نزوات القدر، أخرجتُ الموبايل وفكرت فى الاتصال بشخصٍ له صلة بمأمون بشير وأخبره بالذى حدث ربما يعيننى على حل هذه المعضلة وهو أقرب شخص له، وتجاهلت الفكرة كأنى لم اقترحها بنفسى، نظرت إلى جريدة المترو

التى أمامى ولم أمد لها يد العون كعادتى، نظرت خارج النافذة، نفس اللوحة الطبيعية المتكررة شعرت بها أضجرتنى أكثر، تذكرتُ أننى ادحض مقولة سمعتها إن الإنسان المُكتئب يتاح له التخلص من حزنه عبر التمتّع بالمناظر الطبيعية، ابتسمت بمرارة.

عندما توقّف القطار فى المحطة كان الوقت عصراً والطقس تبدّد بسرعة ليصبح أكثر برودة بسبب الأمطار التى هطلت هذا الصباح، نزلت من القطار بتكاسل عبثاً انفض النعاس عن جسدى، وجدت فى استقبالى عثمان فخة وثلاثة من أبناء وطنى لا أعرفهم، اصطف أربعتهم أمامى فى صمتٍ وخشوع، مدّوا أكفهم مسطحة نحوى فى توقيت متقن إعلاناً لبدء التعازى، من لا يعرف طريقتنا فى أداء واجب العزاء سيتخيل أننى سأضع على أيديهم العلم الذى رفع يوم الاستقلال فى طقس مهيب لتنازلى عن جنسيتى الأصلية. لقد فعلت نفسى الشيء، مددتُ كفى أمامى وكان ينقصنى الخشوع فقط، كنت عادة فى كل العزاءات أرفع يدى فقط ولا أقرأ سورة الفاتحة، بل أبدأ فى العدُ من الرقم واحد إلى عشرة وغالباً أظل صامتاً أترّقب المصافحة القادمة، تأملت وجوههم ربما أتعرّف على أحد الأشخاص الثلاثة، وبعين زائغة راقبت رجلاً تركياً أبطأ فى خطواته ليتطفّل على هذا المشهد الغريب الذى يحدث أمامه وعندما عانقنى أربعتهم وعثمان فخة لم يتردد فى رصعاته المتكررة على ظهرى، لحظتها غادر الرجل التركى دون أن يصل لتفسير مرضٍ، أو يبدو أنه لم يجتهد كثير. عزونى وراحوا يرددون عبارات الحكمة والمُواساة

المختلفة والتزامهم المطلق بقانون القدر، لقد حمّلونى وزر صاحب العزاء لا أدرى ماذا قال لهم عثمان فخة عن علاقتى بالمرحوم عامر درويش أو عامر عباس لا يهم الآن بعد موته؟ أسئلتهم تأكد عن عدم مسؤوليتهم من اتخاذ قرار حول الإجراءات القادمة.

- هل اتصلت بأهله؟

- هل هو قريبك؟

معظم إجاباتى كانت بلا، وعندها دفعونى للموافقة على خطتهم الجاهزة:

- إكرام الميت دفنه، وبعدها يمكن أن تتصل بأهله.

يتفق معه آخر:

- نعم هذا هو الصواب بعينه، وما دام يوجد لدينا مقابر مسلمين لا داعى لتكلفة نقل جثمانه.

قال عثمان فخة وهو يضيف رصعات أخرى على ظهرى أكثر ألماً من جملته:

- أساساً الجثمان عبارة عن أشلاء، لا يمكن أن نرسله إلى ذويه بهذه البشاعة.

أومأ الجميع، بما فيهم أنا، بالموافقة. بالفعل، كان الجثمان عبارة عن أشلاء متفرقة تم تجميعها من أماكن مختلفة؛ على الرصيف عثروا على قدم، وعدداً من أصابع اليد كانت معلّقة على سياج المحطة، كتلة من اللحم المعجون التصقت بصندوق البريد، جزء من صدره التصق بمقدمة القطار الفرنسى الذى توقّف خارج المحطة، وتمّ

إغلاق خط سير القطارات لمدة ست ساعات. كان المشهد بشعاً للغاية، جعل شاهدة العيان الوحيدة تنهار وتصرخ بشكل هستيرى. كانت فتاة مغربية تعمل ممرضة فى أحد مستشفيات أمستردام وقفت كعادتها كل الصباح تنتظر بالقرب من الرصيف وصول القطار، ولم يكن مزعجاً لها أن تشاهد المعتوه عامر قنديل يقترب من الرصيف لأنها تراه شبه يوميا، ولكن هذه المرة وقف بمحاذاتها، كأنما ينتظر شيئاً ما، كل الذى فعلته ابتعدت عنه خطوات نافرةً من رائحته النتنة، نظر لها مبتسما ولم تتجاوب معه، أدارت وجهها للناحية الأخرى متابعة حاسة السمع لترى من أين يأتى هذا الهدير، وفى لمحة بصر شاهدته يختفى من أمامها وسمعت خبطة قوية أثناء مرور القطار الفرنسى السريع، حدث كل ذلك فى كسر من الثانية ولم تستوعب الذى حدث، هل التقفه القطار لسرعته القوية؟ أم أنه طار من على الرصيف؟ عندما أصبحت تشاهد الجزء المقابل للرصيف المعاكس، عبثا حاولت متابعة مؤخرة القطار السريع لتفهم ما حدث، عندئذ شعرت بسائل دافئ ينحدر من جبينها نحو الخد الأيسر، وقبل أن تعترضه بأصابعها شاهدت بقع دم على بلوزتها وجزءاً من فروة رأس المعتوه تتمرجح على شنطة يدها، قذفتها وراحت تصرخ بجنون، هرولت فى اتجاهات مختلفة أوشكت أن تسقط على مجرى قضيب القطار، لم تعثر حتى على مخرج المحطة الذى كان خلفها مباشرة، سجدت على ركبتيها ترتعش من الخوف وحنجرتها تجاوزت كل سلالم الأصوات الحادة. رئيس البلدية المغربى مصباح الكواع وصف

الحادث بالبشاعة. وأمر بتشييع أشلاء المعتوه فى مقابر المسلمين الجديدة على حساب البلدية. انتبهتُ لاختياره طريقة موته، ربما تكون محاولة منه للموت ببشاعة أضخم من موت أنكا فان درماين.
وجدتنى أقف مع أربعتهم أبناء وطنى خلف إمامٍ مغربى لنصلى صلاة جنازة على بقايا جثمان داخل المسجد القديم، وقفت مرعوباً من خيالى الذى حاول أن يصوِّر لى أجزاء الجثمان الذى استطاعوا تجميعه وهو داخل التابوت مما جعلنى اضطرب وأتمنى أن تنتهى هذه اللحظات بسرعة. خرجتُ مستوفياً شروط الحزن، أشعلتُ سيجارة ورحتُ أدخن وأعاين المكان، اكتشفت أن المسجد مرفق معه دكان ولكن لم يكن اكتشافاً ذا أهمية لأنه لم يستدعِ أى أسئلة أخرى، قمت بجولة حول المكان أنتظرهم أن يكملوا الإجراءات والدعوات لنتحرك إلى المقابر الجديدة قبل حلول الظلام، أسندت ظهرى على سيارة الإسعاف التى تنتظر مهمتها أيضاً، قرأت اللافتة بخط عريض مسجد المغاربة القديم، فى آخر مره دخل عامر درويش هذا المكان لأداء صلاة الجمعة كان ذلك بعد أسبوع واحد فقط من سقوط أنكا فان درماين من الطابق العاشر، كان أول خروج له منذ أن أغلق على نفسه باب الشقة، لم يكن فى نيته مواجهة الواقع بقدرٍ ما، كانت محاولة منه لأداء صلاة خشوع تهدئ الرعب الذى يعيشه وتحصنه من شبح أنكا فان درماين الذى يهدد نومه. خرج كعادته يمسك يد ابنه سامى ويبحث عن المكان الذى توضع فيه الأحذية، ثم توجّه إلى نفس المكان الذى أقف فيه الآن تقريباً حيث يتجمّع أبناء وطنه

بأطفالهم يتصافحون بطريقة خاصة لا يفك شفرتها غيرهم، يتبادلون أخبارهم وفرص العمل الأسود، دون علم البلدية طبعاً، وقف بالقرب منهم ولم يصافحهم وقطع عليهم نشوتهم بخطبة شدّت انتباههم أكثر من خطبة الإمام التى انتهت للتو:

– أسمعونى جيداً أيها المنافقون بلا استثناء، تداومون على صلاة الجمعة وتلاوة القرآن أيام الآحاد، لتتستروا على النوايا الخبيثة. أنا استغرب لماذا تحبّون أنفسكم لهذه الدرجة المقززة. تصرف لكم مبالغ مالية فى شكل إعانة لحين ميسرة ولكنكم تمارسون أعمالاً هامشية دون علم البلدية، والكل يقسم بدينه إنه لا توجد وظائف شاغرة حتى لا تتوقف عنكم إعانة الدولة. الكذب أصبح فى أفواهكم مثل تحية الصباح التى تنطق دون إحساس. لم يعد لديكم حياء بعد أن كذّبتم أثناء تحقيق اللجوء من أجل الإقامات. أساساً لا أحد منكم يستحق هذا اللجوء، وللأسف الشديد الذين كان من حقهم أن ينالوا شرف هذا اللجوء لم يتمكنوا من الوصول إلى أوروبا، واستوليتم على فرصهم بنهم ودوافعكم اقتصادية لا غير. لو تخيّلتم فقط مدى الرّعب اليومى الذى يتعرّض له آخرون لمجرد بحثهم عن الماء لما ظللتم هنا للحظة، كان من الواجب عليكم الذهاب إلى دول إسلامية، بدلاً من الإساءة لدينكم والديانات الأخرى.

كانوا ينظرون إليه بدهشة ممتعضين من خطبته الغاضبة، بعض الجنسيات الأخرى وقفوا يستمعون إليه بذات السخرية، متجاوزين التهم التى ألصقها بهم زوراً كلٌ حسب شفافيته. انفعل أكثر عندما

شعر بارتباكه القادم بسبب سقوطه فى كمين الهمس واللمز المتشعّب حوله. وختم غضبه بحركة لم يتوقعها أحد، أخرج جواز سفره الهولندى ومزّقه أمامهم معترفاً إنه لا يستحقه ولا حتى الإقامة فى هذا البلد، لأنه أيضاً منافق مثلهم، ثم غادرهم دون أن يلتفت لهمهمات الاستنكار التى تعقّبته، وقطع أقدامه عن المسجد نهائياً. شعرتُ بأننى سأنام واقفا من شدة النعاس الذى داهمنى وجعلنى أترنح فى وقفتى أثناء مراسم الدفن، كنت مجبراً على حضور هذه اللحظات، عثمان فخة ورفاقه نصّبونى، لسببٍ ما لا علم لى به، وريثه الشرعى وأقرب الناس إليه، أجبرونى على تقمّص دور شخصية حزينة ويجب على أن أتلقى العزاء من سحنات مختلفة، البعض يشد على ساعدى بقوة، عناقٌ حزين، قُبلٌ تُبصم على جانبى أكتافى، ولم أنجُ من تلك الرصعات التى هرب منها حتى النعاس. قمت بأداء دورى بجدية وحزنٍ حقيقى. شعرتُ فى تلك اللحظة بالزمن يخصم منى مستحقاته بحسرات. فى طريق عودتنا من مقابر المسلمين، التى كانت خلف العمارات الكبيرة مباشرةً، مررنا بالعمارة التى سكن فيها عامر درويش، كان معى عثمان فخة والثلاثة الذين لم أعرف أسماءهم حتى الآن، أشار هو بسبابته نحو البناية، نظرت إلى أعلى للطابق العاشر. شعرت به ارتفاعاً شاهق، تخيّلت اللحظات المرعبة التى مرت بها أنكا فان درماين قبل يرتطم جسدها بالأرض. أطلقت صرخة رهيبة وجسدها يسبح فى الفراغ، صرخة مدوية تكاد أن تكون المدينة بكاملها قد سمعت استغاثتها، حتى

الكلاب والقطط فزعت فى تلك اللحظة، قبل أن يرتطم جسد أنكا فان درماين بالأرض بصوت تهشم ويتدحرج كدمية قطنية ويصطدم بساق إحدى أشجار الصنوبر المصطفة على حافة شارع الأسفلت وينحسر فستانها القصير ليكشف عن معظم أجزاء جسدها الذى نزف بغزارة. الشخص الوحيد الذى شاهد جسدها لحظة ارتطامه بالأرض، هو عبد النور الصومالى، كان جالساً فى بلكونة شقته بالطابق الأرضى يرتشف قهوته منتصف الظهيرة، لقد استيقظ قبل قليل بعد جلسة القات التى استمرت حتى الفجر، ولولا صلاة الجمعة لا أظن انه كان باستطاعته أن ينهض، كانت ابنته الصغرى تقف بالقرب منه وتترجّاه ليشترى لها شيئاً ما، عندئذٍ سمع الصرخة المفزعة تأتى من عدة اتجاهات، وقبل أن يستفسر ذهنه شاهد جسد امرأة شبه عارٍ يسقط أمامه كاتماً على الصرخة، صوت التهشم اختلط مع شظايا الفنجان الذى سقط، عن يده من شدة هول المفاجأة، على أرضية البلكونة الرخامية، خطف ابنته ودخل الصالة مرتعشا. لم يخرج إلا بعد أن حاصرت سيارات الشرطة العمارة. فى البدء تردد بالإدلاء بشهادته، ولكن عندما شاهد سكان الشقق الأخرى يتحدثون مع الشرطى صاحب القامة الطويلة ويؤكدون على سماعهم تلك الصرخة، لملم شجاعته التى تبعثرت من هول المفاجأة، وأخبرهم أنه شاهد تلك اللحظة المرّعبة. أيضا كانت هناك شاهدة أخرى وهى عجوزٌ هولندية تسكن إحدى البيوت المقابلة للعمارة وخلفها السوبر ماركت التركى، كانت هذه العجوز جاثية على ركبتيها داخل حديقتها

تشتل فى زهرة "دالين"، نهضت مفزوعة برغم تدهور حاسة سمعها أجفلتها الصرخة، استهلكت رصيداً مدخراً من العمر المتبقى حتى تكمل استدارتها لتشاهد الجثة خلف ساق الشجرة على بعد أمتار من حديقتها، هى من أبلغت الشرطة بالحادث وأول من أدلى بشهادته، أكدت أن الصرخة كانت فظيعة، لقد شاهدت الطيور تغادر الأشجار، مفزوعة والبط الذى كان يأكل من فتات الخبز تحت العمارة هرع هو الآخر بصورة جنونية مغامراً بحياته واجتاز شارع الأسفلت بسرعة ليلقى بنفسه داخل المجرى المائى الموازى للشارع. لكن لا أحد شاهد الثوانى الرهيبة المرعبة التى مرّت على أنكا فان درماين وهى تسقط من الطابق العاشر، لحظات تجمّع فيها رعب الكون برمته وانغرس داخل صدرها، جسدها سابح فى الهواء، أطرافها تتخبط عشوائياً تبحث عن حبال داخل فراغ، خوف يغيّب أركان الحواس دفعة واحدة، من المحتمل أن تكون قد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد ارتطامها بالأرض مباشرة، لأن الطبيب الذى شرّح الجثة أكد أنها تعرّضت لتمزّقٍ هائل فى قلبها بسبب الرعب الذى حدث لها أثناء السقوط. وبرغم وصول الإسعاف والشرطة فى توقيت مثالي، إلا أنها كانت جثة باردة تنزف من كل المسام. كان يوم جمعة فى أواخر شهر ابريل والطقس معتدل، شمس دافئة وسحب قطنية مبعثرة فى الفراغ، والمراقب لها يجدها تتحوّل باستمرار إلى أشكال حسب وجهة النظر، أحياناً تبدو كأنها وجوه حيوانات خرافية ومن ثم تتحوّر للوحات سريالية أو خرائط دول غير معروفة. كان عامر درويش

جالساً على كنبة الجلد السوداء يتابع مع ابنه فى برنامج أطفال، عبثاً يحاول تبذير الوقت وتنفيس غضبه من زوجته أنكا فان درماين التى لم تكن تعيره أدنى اهتمام منذ مشاجرة الأمس، راحت تغنى بصوت عالٍ أثناء قيامها بواجبات منزلية، تنفض الغبار من على الصور، تُمسِك صورة سامى فى عيد ميلاده الأول تتأملها كما لو أنها تشاهدها للمرة الأولى، الحقيقة أوقفتها التحولات التى حدثت له، تعرض الصورة على ابنها وهى مبتسمة:

– سامى انظر.. من هذا الطفل الجميل؟

يدفع سامى الصورة من أمامه مغتاظاً، تقبِّله بالقوة، وهى تضحك، يفسر عامر درويش هذه الفعل هدفه جذب الانتباه إلى ذاتها. كان وجهها شاحباً، ولم يلاحظ عامر درويش ذلك، وحتى لو انتبه لن يهمه أمرها فى تلك اللحظة إطلاقا، تعود إلى مواصلة غنائها بطرب وهى تنظِّف "البانيو" استعداداً لحمامها الذى يستمر لأكثر من ثلاث ساعات، هذه طريقتها منذ طفولتها فى تشتيت الغضب بالغطس لساعات داخل الماء. كانت تبدد فى الوقت حتى تتوقف الغسالة الكهربائية عن دورانها، لم تكن تعلم بأنها تبدد فى آخر لحظات عمرها بلا معنى. كان معدّل غضب عامر درويش يرتفع مع حدة صوتها فى الغناء، لذلك قرر أن يستعجل الخروج إلى المسجد مصطحباً ابنه لصلاة الجمعة. تتحرك أنكا فان درماين بنشاط نحو الأسباب التى أدت لحتفها، فتحت الغسالة وأخرجت الملابس وذهبت بها إلى البلكونة، انتبه عامر درويش إلى أن الملابس التى غسلتها

لم تحتوِ على أشياء تخصه، نهض واتجه بسرعة نحو الحمام ليتحقق من صحة تكهناته، فعلاً لم تخيّب ظنه، وجدها فرزت ملابسه، رفس الملابس بقدمه واحتقر تصرفها الوضيع، واستعاد أسباب مشاجرة أمس، عندما وجدها تقف مع جارهم "فيردريك" فى الممر الأمامى للشقق وهى تكيل الشتائم للأجانب بعد حادثة اختفاء المراهقة "هيلين" وتشير بأصابع اتهام لها أظافر بأنهم وراء اختفائها، شارك فى النقاش مدافعاً عن أبناء العالم الثالث، ردّت عليه باقتضاب أمام جاره، ممّا جعله يبتلع كرامته على الريق. وعندما دخلا الشقة احتدم بينهما النقاش إلى جدل انتهى بصرخة من ابنهما سامى الذى لم يعد يسمع برنامجه المفضل. عاد إلى الأريكة بعد أن فهم قصدها وخطتها لتصعيد حالة التوتر، لمحها بطرف عينه وهى تنشر الغسيل بطريقتها الخاصة، تنفض الملابس جيدا تبعد عنها التجعيدات ثم تضعها على الحبل، جلس زافراً أنفاسه كما لو أنه يحتفل بعيد ميلاد ابنه. وليخفف غضبه احتضن سامى وقبّله، وقرر أن يتعامل معها بالمثل، يجعلها تندم على اللحظة التى فرزت فيها ملابسه من الغسيل، رغم علمه التام بأنها نادراً ما تندم، فهى شخصية مصفحة ضد التآكل من الداخل، عندما تغضب يستحيل أن تشعر بالندم ناهيك أن تعتذر، تجبره على مواصلة الحياة دون مناقشة أسباب الخصام. قرر هذه المرة إنه لن يتهاون معها، سيظل عنيداً، صنديداً، سينتهج اللامبالاة معها، مثلما فعل هذا الصباح، رغم أنه لم يكن يقصد أو يفتعل ذلك. لقد خرج صباح اليوم ليشترى سجائر، فطلبت

منه دون أن تلقى عليه تحية الصباح، إحضار قطن طبى لها. ولكن عندما عاد وأشعل سيجارته فى البلكونة، سألته عن وصيتها أجابها بكل برود:

– نسيّت.

لم تتفوّه بكلمة، تحرّكت مباشرة نحو باب الشقة وارتدت جاكيت الجينز المعلق على الشماعة وانتعلت حذاءاً رياضياً وأخذت محفظتها بيدها وخرجت وأغلقت الباب بعنف. فى هذه الأجواء المشحونة بالغضب لا يمكن لها أن تصدق أنه فعلا نسى إحضار القطن الطبى. عادت بعد عشر دقائق تحمل مشترياتها داخل كيس وفى يدها قطعة من شوكولاتة "مارس" وراحت تناكف بها سامى الذى ترك كل شيء وانصب تركيزه على هذه الشوكلاتة، اقتسمتها معه:

أمممم، رائعة أليس كذلك؟ والآن قبلة لماما.

بعد أن خرجت تنشر الملابس فى البلكونة، ظل عامر درويش مستاءً منها والغضب ينخر ذهنه، يتابع بعينيه برنامج الأطفال، ولا يسمع سوى صوت الضغينة يحرّضه بلا أدنى رحمة، تخيّلاته تتدحرج من سيّىء إلى أسوأ، مُتمنياً إصابتها بالسرطان، موتها سيجعله يستفرد بابنه وينشئه كما يرغب. رويدا رويدا انسجم مع برنامج الأطفال الذى يتابعه سامى، وخاصة بعد اختفاء صوت غنائها، لا شعورياً وجد نفسه ينسجم مع الحكاية ويستمتع بها حتى أنه لم ينتبه إليها عندما فتحت باب البلكونة وتناولت أحد كراسى السفرة، ولكن فى لحظة ما التفت نحوها، وجدها تقف على الكرسى

لتعلّق فستانها الأحمر القصير الذى ارتدته عندما ذهبت إلى الديسكو مع صديقتها وكان كاشفاً لظهرها بالكامل، امتعض لحظة أن تذكر أنها كانت تفتعل إغاظته، خرجت فى ذلك الويكيند إلى الديسكو، وقصدت ألا ترتدى رافعة صدر لتؤجج غضبه. عند هذه اللحظة بالضبط أطلقت أنكا فان درماين صرختها المرعبة، هرع عامر درويش مفزوعاً نحو البلكونة، لقد شاهد وجهها لحظة السقوط، كان مرعباً، كما لو أن الشرايين أصبحت خارج الجلد، عيناها كانتا عبارة عن حفرتين ممتلئتين دم، تسمّر مكانه لم يستطع حتى أن يتابعها وهى سابحة فى الفضاء، صرختها أصمّت أذنيه، وقف مذهولاً يرتعش، تقريباً ابنها سامى صرخ معها فى نفس التوقيت، ممّا جعله يستدرك الموقف ويعود لابنه ويحتضنه ويبكى معه بشكلٍ هيستيرى، جعل الطفل يتناسى سبب بكائه ويندهش للحالة التى انتابت والده الذى ينتحب بشده، لكنه عاود البكاء لحظة دخول أفراد الشرطة إلى الشقة، عامر درويش لم يقوَ على النهوض ليفتح لهم الباب فكسروه وامتلأت الشقة بهم، ثلاثة منهم خرجوا للبلكونة يتفحصّون، الكرسى الذى كانت تقف عليه، حبل الغسيل المقطوع بسبب محاولتها للتمسك به. ظل عامر درويش منهاراً على أريكة الجلد السوداء وعلى حضنه نام سامى من شدة الإعياء، ولكن لازال صدره ينتفض بين لحظة وأخرى، يوشك أن ينفلت. للحظة ما شعر بشخص تنبعث من رائحة "الواين"، ينحنى ويعانقه بحزن حقيقى، كان جاره فيردريك ثم ابتعد خارجا مخفياً وجهه بيسراه. لقد شعر هو الآخر بهلع، لقد

أذهلته المفاجأة، كان يدلى بشهادته وهو يرتعش، وهو آخر شخص تحدّث معها قبل سقوطها بلحظات، عندما سمع صرختها لم يتخيل مطلقاً أنها جارته أنكا فان درماين، لحظتها كان بالمطبخ، يده اليمنى ترتعش كعادتها أثناء محاولته لضبط شعلة عين البوتاجاز على موجة قصيرة تبُثّ بخاراً معتدلاً يكفى لطهى الخضار المشكل، سمع الصرخة من شباك المطبخ وظنّ أن يكون مصدرها الجزء الأمامى للعمارة، لذا هرع نحو باب الشقة الرئيسى فتحه وخرج بعد أن أخذ المفتاح خشية أن ينغلق الباب من خلفه، لأن باب البلكونة كان فاتح وهناك تيار هواء يلعب بالستائر المخملية الداكنة، وبطبعه يحرص فريدريك كل الحرص فى كل تفاصيل حياته، يهتم بالأشياء لدرجة مزعجة، حتى انه أدهش عامر درويش عندما اعترف أنه محتفظ بفواتير كل الأشياء التى اشتراها خلال العشر سنوات الأخيرة. وقف فى الممر الأمامى متكئاً على الدرابزين ونظر تحته إلى الأرض، بدأ بمكان سيارة زوجته التى لم تصل بعد ومن ثم جال ببصره بالمكان، لم تكن هناك أى حركة تثير الانتباه، سوى ملاحظه صغيرة فى البيوت الأرضية المقابلة للعمارة، كشفت عن ستائرها لفترة وجيزة ومن ثم أغلقت بسرعة. كانت المدينة فى تلك الأيام تعيش حالة قلق وتصاعد عداوة علنية بين الأجانب والهولنديين، لقد توقّع حادثة جديدة، وبما أنه لم يرَ شيئاً يذكر رفع رأسه نحو السماء كانت هناك سحبٌ ناصعة البياض، وسائد ألقيت على بساط السماء، طقس لم يكن ينذر بشؤم ولا علاقة له بما حدث، نظر لساعته كانت تشير

إلى 13:52 حوّل المفتاح من يده اليسرى إلى اليمنى كقرار أولى للعودة لداخل الشقة، ولكن الباب كان لازال مواربأً، دخل بعد أن أغلقه ببطء ومن ثم أعاد المفتاح لمكانه ورجع للمطبخ لينحنى ويتأمل شعلة النار على البوتاجاز هل لازالت مستقرة فى وضعها المثالى؟ وفى نفس اللحظة فكّر فى الصرخة التى سمعها قبل قليل وأنها يمكن أن تكون أنباءً شيّقة ليسردها لزوجته "فراوكه" أثناء وجبة الغداء أو عندما يستقبلها أمام المصعد، ولكن تذكر أنها ستطالبه بالتفاصيل، لذا قرر أن يدعم موقفه من الناحية الأخرى ليستطلع الأخبار من جهة البلكونة التى استبعدها فى بادى الأمر، وانتبه أيضا انه مطالب بنقل أخبار جديدة إلى أصدقائه فى مقهى السنتر صباح الغد أمام شلة المسنين وأرباب المعاشات. تحرّك بهذه الدوافع إلى البلكونة، أخرسته المفاجأة، لم يتخيّل أن الصرخة بالقرب منه، من جارته التى قبل قليل أفزعت سكونه عندما كان يتأمل الشارع ويرتشف قهوته فى البلكونة، كانت لحظتها قد صعدت هى على كرسى ولمحته من فوق الحاجز الخرسانى الذى يفصل بين البلكونات وقالت له:

– نهارك سعيد فريدريك.

ارتبك فى بادى الأمر وتلعّثم، اجتهد بلا جدوى فى رسم ابتسامة مصاحبة لرده على التحية، لكنه فشل فى هذه المهمة الشاقة ليحمّر وجهه، مما جعلها تسأله عن صحته:

– هل أنت على ما يرام؟

– نعم أنا بخير، أجل بخير.

ارتشف آخر قهوته بعد أن أصابه خجل أطفال وغادر البلكونة ليبدد توتره فى المطبخ، هو من النوعية التى تربكه المفاجأة . لذا كانت يده ترتعش وهو يضبط شعلة البوتاجاز. هذه بالضبط اللحظة التى غادر فيها البلكونة وبدأت هى بنشر آخر فساتينها على الجزء الأعلى من الحبل، ففقدت توازنها وكان ارتفاعها أعلى من سياج البلكونة فحاولت أن تتمسك بالحبل الذى انقطع وهوت متشبثة للحظة بالسياج ولكنها سرعان ما انفلتت لتصرخ صرختها النهائية.

حدثت هذه الفاجعة قبل ساعة من موعد عودة زوجته "فراوكه" لتفسد عليه لقاءه الرومانسى اليومى، كان من عادته أن يقف على الممر الأمامى يترقب وصول زوجته بشغف طفولى، وعندما يشاهد سيارتها تقف فى المكان المخصص لها وتترّجل، يلوِّح لها بيده، ولا يسعه الفرح، كما لو كانت جاءت بعد غياب من السنين، ثم يهرع لاستقبالها أمام المصعد، يقبّلها ويحمل عنها كل أغراضها بما فى ذلك حقيبة يدها، ويسير مبتهجاً من خلفها، يبدو كأنه يقفز فرحاً بجسده النحيف وخطواته الرشيقة، ناسياً الابتسامة على شفتيه، يسرد لها مقتطفات من حكاوى الصباح التى حدثت فى مقهى السنتر، المحلات التى أعلنت عن تخفيضات مذهلة، إنجازاته لوجبة اليوم، أما التفاصيل فيسردها بمتعة أثناء الأكل، يحكى بدقة مدهشة، يتذكر حتى عدد ملاعق السكر التى وضعتها العجوز لوسى فى قهوتها نكاية فى الأطباء. لذلك عندما أدلى بأقواله لضابط الشرطة سرد تفاصيل لا تهم أحدا، جعل المحقق يغمغم مغتاظاً.

• • •

أما فى هذا اليوم المشؤوم، عندما ترجّلت فراوكه من سيارتها ورفعت رأسها للأعلى متوقعة ابتسامته من الطابق العاشر، لم ترَ سوى عددٍ من رجال الشرطة يحتلون الممر، عندئذ سقط من يدها ملفا كانت تحمله، راحت تلملم فى الأوراق المبعثرة وذهنها توقّف عن إنتاج أى احتمالات أخرى تطمئن بها نفسها، كان تفكيرها يدور حول كيفية إستمرارها فى حياة يغيب عنها فريدريك. رغم أنها كانت متوقعة موته فى أى لحظة، ولكن لم تهيئ نفسها لحالة الوحدة إلا فى هذه اللحظة بالذات، كانت تعلم بحدوث ذلك عاجلاً أم آجلاً، خاصة بعد إصابته بالسرطان وتقاعده اختيارياً من وظيفته. تحرّكت وبيدٍ مرتعشة فتحت باب العمارة ولم تلقِ أى نظرة على صندوق البريد كعادتها، دخلت المصعد وداست بعصبية على رقم عشرة ولم تتأمل نفسها فى المرآة داخل المصعد ظلت واجمة، ربما تم اغتياله، هكذا فكرت لحظة أن خطر ببالها التهديد الذى تلّقاه أثناء عمله التطوعى أمام مدرسة الأطفال قبل فترة. اللعنة على هؤلاء الأجانب، شعرت بأن المصعد قد استغرق وقتاً طويلاً، بدا لها كأنه تجاوز الطابق العاشر ولم يتوقف. وعندما انفتح بابه كانت عدساتها الطبية تحتقن ماءً حاراً، نقلت أقدامها بمشقة خارج المصعد وتحرّكت مرتعشة نحو الممر متيقنةً أن يقترب منها أحد رجال الشرطة لينقل لها الخبر. وعندما فتحت باب الممر بلا توقّع شاهدته يتحدث مع أحدهم مشيراً بيده فى اتجاه شقته، زفرت أنفاسها بقوة وأسندت جسدها المترهل على سياج الممر، عندئذٍ شاهدها، قطع حواره ورسم ابتسامته الخجولة وأسرع

نحوها بخطواته التى لا تليق بعمره، وغالباً بسبب نحالته، والذى يدقق فى مشيته ويراقبه يخيل له أنه يقفز قفزة كل خطوتين. احتضنها، ثم تمتم بكلمات غير مفهومة، وبيدين مرتعشتين راح يتلّمس كأعمى مكان حقيبة يدها والملف وهمس لها بالخبر، ومن ثم بطريقة احتفالية أفسح لها المجال لتسير أمامه ويتحرك خلفها مستحياً ينثر ابتسامات مجانية لرجال الشرطة وبمجرد أن أغلق باب الشقة شرع يسرد لها حتى فى التفاصيل التى لم يشاهدها.

كانت حادثة بشعة زادت أجواء المدينة توتراً، وأصابع الاتهام البيضاء أشارت نحو سمرة عامر درويش، فاقتربت منه شرطية نحيلة شقراء كانت ملامحها حزينة، يبدو أن تعيينها شرطية كان خطأ فى حد ذاته، جلست أمامه على ركبتيها ومررت يدها الناعمة على شعر ابنه سامى النائم لحظتئذٍ، رفع رأسه وتذكر أنه شاهدها عدة مرات فى هذه المدينة، كانت بعينها اليسرى دمعة فى طور تكوين مسحتها عندما أحست بالشرطى طويل القامة يراقبها، فأخرجت مفكرتها وقلم وسألت عامر درويش:

هل يمكن أن تسرد لى ما حصل، إذا كنت فى حالتك النفسية تسمح بذلك؟

لقد تركت شقتها فى أمستردام لتموت فى هذا المكان. كانت تبحث عن شقة أرحب بعد أن أصبح ثالثهما طفلهما سامى، وجدت بالصدفة إعلاناً فى احدى الصحف بأن إحدى شركات العقارات المعروفة تعلن عن شقق جديد بهذه البلدة الصغيرة التى فى طريقها

لأن تصبح مدينة وهى ليست بعيدة عن أمستردام وأنشئت بها عمارات جديد وفرصة الحصول على شقة تتكون من ثلاث غرف يتم بكل يُسر، نقلت هذا النبأ الرائع ببهجة لعامر درويش ومن ثم راسلت الشركة ليبعثوا لها خلال يومين فقط الاستمارة الخاصة بالسكن، وبعد أقل من شهر انتقلت العائلة السعيدة إلى شقة واسعة فى الطابق العاشر بها مطبخ بحجم شقة أمستردام وغرفة نوم مرفقة بحمام داخلى وغرفة خاصة لابنهما سامى، أما الغرفة الثالثة فقد تحوّلت إلى مكتب وضع به الكمبيوتر والطابعة والكتب والملفات. كانت الشقة تحتوى أيضاً على بلكونة واسعة تطل على منظر بحيرة صغيرة وغابة كثيفة من الأشجار على امتداد حد البصر، حتى إّنهما تحسرا على الوقت الذى قضياه فى شقة أمستردام برائحة رطوبتها النتنة. لقد تعرّفا سريعاً على أصحاب الشقة التى على يسارهم، كان يسكنها فيرديرك وزوجته فراوكه، وسرعان ما نشأت بينهما ألفة وتبادلوا دعوات القهوة المسائية مع حوارات مربكة لوجود اجتبى بينهما مثل عامر درويش، الذى سرعان ما فطن لعدم النزاهة التى يتحدث بها جاره فريدريك وأستشف سريعاً إنه من المعارضين بشدة لدخول الأجانب إلى المدينة، عكس زوجته فراوكه التى كانت سعيدة بتحويل البلدة إلى مدينة، أما هو، فيردريك كان ينظر إلى ابعد من ذلك، ولكن لم يصرِّح بعداوته المستترة نحو الوافدين الجدد علانية، فقط كان يلمِّح أمام زوجته وأصدقائه رواد مقهى السنتر أثناء الجدل اليومى، ولكن علاقته استمرت جيدة بعامر درويش، الذى تبيّن له

فيما بعد أن فريدريك حافظ على شعرة معاوية ليتفادى السخرية التى كانت متوقعة. رغم ذلك، فإن علاقته بهما ظلت تتحكم فى إيقاعها أنكا فان درماين التى انخرطت بكل إحساسها، اعتبرتهما أبويها اللذين حلمت بهما، كانت تزورهما باستمرار، تحكى لهما عن كل شيء، حتى الخلافات الصغيرة التى كانت تحدث بسبب الوضع الجديد، و تطلب منهما الشورى، أو تنتظر الدعم المعنوى وتعود لأسرتها. عكسها كان عامر درويش لم يمدد علاقته أطول من مساحة البلكونة التى تفصل بين الشقتين. كانت شكوكه تدور حول جاره فريدريك ويعتقد انه شخص غامض ومتآمر ولا يمكن لأحد أن يتوقع الطريقة التى يفكر بها. بالرغم من أن عامر درويش كان قد هيأ نفسه ليصبح إنساناً هولندياً والى الأبد منذ أيام أمستردام، لكن جاره فيرديرك أحبط له هذه المحاولة، جعله يتشكك فى قبوله فى هذا المجتمع، صحيح أنه اعتمد فى تقديراته على شخصية زوجته التى جعلته يدرك معنى التحالف والاندماج ولكنه اصطدم بشخصيات مثل جاره فريدريك أثار بداخله غضب شخص خسر الرهان، ليقول لنفسه، أنا أجنبى وأسود، لا يمكن أن أتعامل كهولندى. رغم ذلك اعتمد على الإحساس الذى يتلقاه يومياً من زوجته أنكا فان درماين وفضّل أن يحافظ على قراره، لم يختلط بالأجانب مطلقاً وأحيانا إن كان مزاجه جيد يرد عليهم السلام. وفى الوقت الذى اشتد فيه الصراع فى الخارج بين الهولنديين والأجانب كان الجدل بينهما متوازناً نوعاً ما، فريدريك اتفق مع أنكا فان درماين ليمثلان رأياً مناهضا لوجود

الأجانب فى المدينة، وفراوكه ظلت على رأيها كأنها متضامنة مع عامر الدرويش، رغم أنهم حاولوا بكل السبل عدم تصنيفه مع الأجانب. ولكن على النقيض كان يشعر بمحاولة إخراجه من بؤرة الصراع دون أن يكون مستوفياً للشروط ليست سوى ذريعة تؤكد على عدم النزاهة. فى البدء لم يستفحل الصراع ليصل مرحلة المواجهة، استمرت حياتهما كما الخطة التى رسمت من قبل تواصل أنكا فان درماين عملها فى أمستردام وهو يهتم بالبيت ليصير مثل جاره فردريك المتقاعد عن العمل لأسباب صحية وراح يتنافسان فى الاهتمام بالواجبات المنزلية حد الغيرة كأنهما ضرّتان فى تنافس محموم. يلتقيان فى البلكونة يتبادلان حديثاً عن الطقس يقول فريدريك بمكر:

- هل شممت رائحة الطعام؟ امممم رائعة أليس كذلك؟ اليوم وجبتنا الساخنة سمك مبخر، مع خضار مشوى وأرز، أنها لذيذه وصحية.

يغتاظ عامر درويش ويرد باقتضاب:

- أعتقد ذلك.

ويدخل المطبخ ويحاول فى ابتكار طعام له رائحة تخترق الجدار، أو يعرض أحدهما للآخر أشياء قيّمة اشتراها فى تخفيضات مذهلة، ليعرض الآخر برنامج عطلته الصيفية القادمة فى إحدى الجزر، ليصبح بينهما تنافس مزمن كان يصب فى مصلحة الزوجتين، عندما يشاهد أحدهما الآخر وهو ينظف البلكونه بطريقة جدية مستخدماً مواد نظافة مستوفية لشروط الجودة العالية ويرتدى قفازات وحذاء

مانعاً لتسرّب الماء، يقلل الآخر من أهمية نظافة هذا المكان، ويبدى امتعاضه فى طريقة استخدام المواد الكيميائية وفى نفس الوقت يذهب لنظافة واجهة الشقة الأمامية مستخدما مواد نظافة مشابهة. فى بعض الأحيان تحدث بينهم فترة هدنة، وغالبا ما يكون ذلك بسبب أن أحدهما مغتاظٌ من زوجته، فيشربان قهوتهما فى بلكونتين منفصلتين، وكل ينتقد زوجته للآخر، فريدريك كان دائما حريصاً ألا يسمعه احد أو ربما كان يتخيّل أن فراوكه، التى يتحاشى غضبها، من الممكن أن تأتى فى أية لحظة وتمسكه متلبساً بلسان لاذع. لذلك كان ينتقدها محافظاً بين كل جملة وأخرى على إيقاع التفاتته نحو الباب الخارجى:

– المرأة يا جارى العزيز إن ساعدتها اليوم فى إتمام عمل ما، غدا توكل لك المهمة بالكامل.

– أصبت يا فريدريك ، هذا بالضبط ما تفعله معى زوجتى أنكا الآن.

يطأطئ رأسه مخفياً ابتسامته عن عامر درويش ويدارى فرحته لابتكار آراءً منطقية أعجبت جاره، بعد ذلك كان لكل منهما اهتماماته الأخرى، وهو يظل مترقباً موعد خروج طلاب المدارس ليقوم بعمله التطوعى، لقد ابتكر فريدريك لنفسه مهنة تطوعية، وهى مساعدة أطفال المدرسة القريبة من العمارة ليجتازوا شارع الأسفلت بطريقة أمنة، كان يرتدى ملابس أقرب لرجل شرطة المرور، ويحمل لافته كتب عليها STOP، يحملها ويقف على جانب الشارع لحظة خروج

التلاميذ مع أولياء أمورهم، يرفع اللافتة فى وجه السيارات ويجبرها على التوقف، كان مستلذاً بهذا العمل حتى أنه اشترى "صافرة" وراح يستخدمها بمرح مع الأطفال. إلى أن جاء ذلك اليوم الذى كاد أن يدهسه أحدهم وهو فى عجلة من أمره، صدمه على فخذه ليرتطم بالأرض ويسيل دمه، مما جعل فراوكه تنفعل و تمنعه من مزاولة هذا العمل التطوعى. ويومها وجد عامر درويش فرصته فى الشماتة، لأنه هو الآخر، بدوره، كان عاطلاً عن العمل، وقد كرّس جلّ وقته فى الاهتمام بابنه سامى وخطّط لتربيته بطريقة عصرية وقرر أن يجعله صديقه منذ الآن، ليحل بديلا عن سامى قنديل الذى يحمل اسمه، هيّأ نفسه لهذا الدور وراح يصطحبه فى كل مشاويره، يتناقش معه كأنه شخص كبير، يعلِّمه كيف ينطق اللغة، درّبه على نطق العربية بطريقة مبتكرة، يفسِّر له معانى الأشياء التى لا تعنى شيئاً، يجيب على أسئلته بمنطق، ثم يلعب معه فى الحديقة ويتحوّل إلى طفل فى عمره، يعلِّمه كيفية ركوب الدراجة بلا كلل، حتى الحمام والنوم كان مشتركاً بينهما لدرجة أن الطفل لم يعد مهتماً لوجود أمه من عدمه، يظل ملازماً والده حتى أصبح يقلّده فى كل شىء؛ يجلس مثله، يعقد يديه خلف رأسه أثناء مشاهدة التلفزيون كما يفعل والده بالضبط، تعلّق به بصورة أزعجت أنكا فان درماين وأشعلت غيرتها وراحت تنتقد هذه الصحبة التى ستجعل سامى لا يعتمد على نفسه ويعجز عن تكوين ذاته كشخصية مستقلة.

– هل تريد أن تحوِّله إلى نسخة من شخصيتك؟

وعندما كان النقاش يتسرّب إلى جدل غير مفيد تقرر أن تحول مساره إلى موضوع آخر، وهى احدى حيلها التى تحبذها عندما تجد نفسها خاسرة فى معركة النقاش، تصرفه نحو موضوع هامشى وتجعله يتصدر قائمة أهمياتها. طلبت منه أنكا فان درماين أن يبحث عن عمل فى الويكيند ليساعدها فى الدعم المالى لأن المتطلبات أصبحت تنمو مع سامى، صحيح أنه شعر بالأزمة و قلل من تناول الويسكى اليومى والسيجارة صار يدخنها على دفعتين، لقد كان واضحاً بأنها تتآمر على علاقته بابنهما سامى بعد أن أصابتها الغيرة وأصبحت ترغب فى فض هذا الالتحام لمصلحتها الشخصية حتى يتم الاهتمام بها كما كان سابقا قبل أن يصبح سامى أحد أضلاع مثلث الأسرة، شعر بأنه فعلاً أخفق فى إهمالها وسرح يفكر فى أسلوب لإعادة الحياة الرومانسية السابقة، وأثناء "هدهدته" لسامى حتى ينام، وصل لرأى بدا له منطقياً نوعا ما، فكل ما اتسع بيت الأسرة تضاءلت الألفة بينهم، واستشهد بشقة أمستردام الصغيرة التى كانت تفرض عليهم ألفة وتحصرهم فى مكانٍ ضيق، أما الآن لا تجمعهم إلا السفرة ساعة الأكل، انتقى من ذاكرته اللحظات الحميمة التى كانت تتوافد باستمرار ومن دون إذن لتتحول بسرعة إلى نشوة عارمة، ولم يقصد الآن مزيداً من المقارنة، بل كان يحاول أن يستجلب تلك الإثارة لتدعمه فى تنفيذ خطته القادمة، نهض مُخفيا مؤامرته بعد أن اطمأن على انتظام تنفس ابنه، ومن ثم دخل على أنكا فى غرفة المكتب كانت منهمكة فى كتابة رسالة على الكمبيوتر

احتضنها من الخلف وقبّلها خلف أذنها حتى أصدرت شهقة، لقد أذهلتها المفاجأة، تركت الكمبيوتر والتفتت له بمساعدة الكرسى الدوار ونهضت لتعانقه وبعدها مارسا جنساً مبتكراً. كانت شحنة عاطفية فضحت الملل المتستّر لمدة أسبوع، وبلا مماحكة وافق على فكرتها فى البحث عن عمل، حتى وإن كان هامشياً، خلال الويكيند. وعن طريق جاره مصطفى المغربى وجد فرصة عمل فى مصنع قريب يمكنه الوصول إليه بالدراجة فقط، وصاحب مكتب العمل مغربى يمكن أن يعينه دون علم البلدية إذا كان يرغب فى ذلك. كان العمل فى مصنع خاص لتعبئة وجبات القطط والكلاب، مكان ذو رائحة نتنة، تعرّف هناك على بعض أبناء وطنه الذين سكنوا المدينة الجديدة من قبله، معظمهم اختار السكن فى العمارات القديمة والقريبة من الأسواق، لأن الشقق فى تلك المنطقة كانت إيجاراتها أقل نظراً لصغر حجمها، والدافع الأكبر كان إشاعة أطلقها وليد البدوى بأن هذه العمارات القديمة سيتم إزالتها فى القريب العاجل لتوسيع سنتر المدينة، وحتماً ستكون هناك تعويضات مالية مجزية لا يعرف مقدارها أحد، ولكنها ظلت تتفاوت حسب أحلام وطموحات السكان، ومنهم من ابتكر حوافز مرضيه وقال ستكون لهم أولويتهم فى اختيار البيوت الأرضية المرغوبة جدا، من المحتمل أن يكون لهذه الأسباب المحفزة قد ارتضوا بالشقق الصغيرة ولم يراعوا لكثافة عدد الأطفال المتزايدة. كان معظم السكان أفارقة يستيقظون بعد الظهيرة بقليل، أما أصحاب جلسات "القات" الليلية فينهضون قبل

المغرب بتكاسل كأنهم لا يرغبون فى مواجهة النهار، بعضهم يجلس على مصطبات سلم العمارة يراقبون أطفالهم يلعبون فى الساحة الأمامية، أما فى الصيف فقد كانت تخرج كراسى وطاولات وتوقد النيران ومن دخانها تتسرّب رائحة الشواءات، أصوات أغانى من مكبرات الصوت، ضحكات داعرة. فى العمارة الأخيرة، وتحديداً فى الشقة الأرضية، كان يسكن عزيز الإيرانى، وهو ميكانيكى حوّل مخزنه إلى ورشة صيانة سيارات بأسعار رمزية، كان تغيير زيوت العربات يتم بصورة عادية فى هذا الحى بلا خوف من العقوبة، وعربة الشرطة أصبحت تتردد فى دخوله، لذلك أطلق عليه عثمان فخة حى "رأس الشيطان". كان عبارة عن عمارات قديمة تكسوها رطوبة، كل عمارة تتألف من ثلاث طوابق فى كل طابق شقتين. حى به حياة حقيقية، هكذا نطقها عامر درويش عندما جلس أول مرة مع أصدقائه الجدد أبناء وطنه بعد أن توطدت علاقته بهم أثناء العمل داخل مصنع تعليب العلف، لقد استهوته بساطتهم والطيبة التى تصحبهم، شعر بهم مختلفين عن المثقفين الذين تعرّف عليهم فى أمستردام واستلذ لعلاقتهم ببعضهم البعض ومناكفاتهم التى لا تنتهى أبداً، يجلس معهم مستبعدا ذهنه الناقد ليستمتع بحواراتهم البسيطة، وليد البدوى وحاج زمراوى وعثمان فخة، وهذا الأخير كان يفجِّر داخل عامر درويش ضحكات مجلجلة بتعليقاته وحكاويه الموقوتة، لقد جعل عامر درويش يحس بالوقت يجرى بسرعة غير عادية أثناء العمل، شعر معهم براحة نفسية، كان يترجم لهم أوامر رؤساءهم

الهولنديين أثناء العمل، لاحظ أنهم غير مهتمين وليس لديهم الرغبة لمعرفة حتى اللغة الهولندية كأنهم جاءوا إلى هنا لفترة مؤقتة وقريبا سيعودون للوطن نهائياً، لم يكترثوا لمعرفة أكثر مما يحتاجون من هذه البلد، حتى أسماء الهولنديون الذين معهم فى المصنع، لم يجتهدوا لمعرفتها أو حفظها راحوا يطلقون عليهم أسماءً من عندهم مثلما يفعل سكان المجتمعات البدائية؛ الهولندى السكران الذى سقط من "الفوركلفت"، الهولندى الذى يفطر بيض يوميا، رئيس قسم التعبئة الأحوص، البنت الهولندية التى تكره المدير. وراح هو الآخر يستخدم مثلهم نفس الأسماء بمتعة، لقد تعوّد عليهم وأصبح يزورهم باستمرار فى هذا الحى الذى لا علاقة بهولندا كأنه سقط سهواً من خريطة قارة إفريقيا، يأتى ليبدد الملل اليومى، يتحرك بمتعة على سلم إحدى العمارات و يتأمل الحى الذى يضج بالحركة، يتابع أصواتاً بلهجات مختلفة، أحياناً تأتى من إحدى النوافذ أوامر لطفل معين ولا يكترث لها، تفتح نافذة أخرى ويطل منها وجهاً بقناع النوم ويشتم الأطفال لأن الكرة التى يلعبون بها اصطدمت بزجاج نافذته التى أغلقها بعنف ومن ثم تبدأ تعليقات عثمان فخة الساخرة على هذه الأحداث، زار بيوت بعضهم وشعر أن حياته تفتقد شيئا مهما ولم يتوصل لإجابة.

الشهور الأولى لعامر درويش فى هذه المدينة كانت ممتعة بعلاقته بابنه سامى، أما مع زوجته أنكا فان درماين كانت فاترة، ولكن لم تخلُ من لحظات قليلة أثناء عبور النشوة على السرير، أما خلاف

ذلك فلم يكن ينظر إليها سوى أنها امرأة مملة، وعندما شاهد زوجات أصدقائه الجدد وتقديسهنّ لأزواجهنّ واجتهادهنّ لإرضائهم، رغم أنها غير مقدّرة ولكن يفعلنّ ذلك بكل حب أو هكذا تخيّل بعد أن تعرّف على حياتهم وتمسّكهم بتقاليدهم، جعله هذا يقارن حياته بهم، رائحة شقته ليس بها ذلك الدفء الذى يبثه بخور الصندل، وحتى الأكل لم يكن له طعماً، وزوجته إما منكفئة فى غرفة المكتب أو تتابع الأخبار الهولندية أو تتمّدد على ظهرها وتستمع للموسيقى، الحوارات بينهم شحيحة وتتم أثناء تناول الوجبات أو فى المطبخ، أصبح يشعر بأن البيت ليس به جو أسرى يشجعه للبقاء به لذا راح يهرب إليهم. فى أحد أيام الآحاد كان فى زيارة لـ "هاشم لاهاى" الذى تعرّف عليه مؤخراً وأخبره بأن الجميع مجتمعون فى شقة محمد الشيخ وبما فيهم عثمان فخة، فذهب معه دون تردد متوقعاً أن هناك جلسة تسامر، ستكون لحظات جيدة لتأخيره عن العودة إلى شقته المملة، صافح الجميع وهو مبتسم، وبمجرد جلوسه استلم كوب شاى ومصحف، اتضح إنها جلسة تلاوة القرآن وهو برنامج ثابت يسمى ختمة القرآن مقرر فى أيام الآحاد فقط، وبلا طهارة فتح المصحف وراح يتابع، تذكر أن آخر مرة قرأ فيها القرآن كانت فى صالة إجراءات اللجوء قبل سنوات، فمنذ أن تزوّج وامتنع عن الاختلاط بأبناء وطنه ابتعد عن الطقس الدينى نهائياً، حتى شهر رمضان لا يشعر به ويسمع به بالصدفة. وجد نفسه الآن فى ورطة دينية، راح يتابع بإصبعه على الآيات التى تُتلى، فكر فى اختلاق عذرٍ مقبول ليغادر به هذا

المكان، ونظر إلى هاشم لاهاى نظرة عتاب حاد أقرب للطعنة، لو أنه فقط اخبره بان الجلسة عبارة عن ختمة قرآن كان الأمر سيكون مختلفاً، ربما اعتذر قبل أن يتورط، ومن خلال نافذة المأزق المشرئبة، تلصّص على وجوههم، لاحظ أنهم صاروا مختلفين، تعابيرهم صارمة، كأنهم استبدلوا بشخصيات أخرى، حتى عثمان فخة افتقد لحيويته المعتادة وأصبح بلا ابتسامة، من الواضح إنهم فى حالة خشوع ورهبة، حالة لا تمد له يد العون تخص البسطاء فقط، يختار لنفسه سؤال: هل يستطيع أن يقرأ بشكل صحيح؟ وخاصة أن عادل الجيلى الذى يتلو فى هذه اللحظة أنفق دوره فى التكرار، أخطأ عدة مرات وراح محمد الشيخ يصححه بصبر ويطالبه بالإعادة مرة أخرى، والغريب فى الأمر كان صوته جميلاً فى التلاوة، استلف منه عامر درويش فكرة يبهرهم بها، فعندما حان دوره قلّد أسلوبه فى قراءته الشعرية، راح يفخم فى الكلمات، تركهم منصتين لصوته وتاهت عنهم أخطاؤه، أساسا لم يتجرّأ أحد على تصحيحه، وخطر له أن عثمان فخة سينطق بجملة الشهيرة، انه متمكن.. ممتاز. عندئذٍ ارتفع بصوته اعلى، وراح يؤكد على التشكيل أكثر وينطق الآيات بصوتٍ جهورى، التمعت لحظات فى ذاكرته جعلته يرى نفسه على منصة فى أمسية شعرية داخل الجامعة، أحس بالزهو، لقد أبهر هؤلاء البسطاء، فى البداية احترموه لمعرفته الجيدة باللغة الهولندية، وبعد تلاوته المّميزة للقرآن دخل قلوبهم كالإيمان، ولن يصدق أحدا إنه نسخ أغانى الحقيبة فى كاسيت به سورة مريم التى قرأها الآن، لقد

أشادوا به جميعاً، غمروه بالاستحسان والتبريكات، دعواتهم طالت حتى والدته فى قبرها، لم يخفِ سعادته وارتشف الشاى بنكهة البهجة. صار بعد ذلك أحد أهم شخصيات تلاوة القرآن فى أيام الآحاد، يعود بعد أن يكون قد تمتّع بود مفرط إلى شقته ليجد أنكا فان درماين وسامى نائمين فى غرفة النوم بوضعية تستدعى الابتسامة، رغم ذلك لم يتخلَ عن نشوته الليلة، يتناول علبة بيرة ويدخل غرفة المكتب ويفتح الكمبيوتر، يبحث عن غرف الدردشة وهو لا زال منتشياً بالإشادات التى تلقاها فى التلاوة قبل قليل من أبناء وطنه الذين اصطفوا لوداعه كرئيس، تركهم يواصلون مدحه فى الغياب. يتناقش عن الدين مع شخصيات أسفيرية، يغتاظ من ردوهم، يتجرّع كميات من البيرة، تحدث بينه وبينهم ملاسنات، فى نهاية الأمر يشتمهم. أصبح برنامج التلاوة بالنسبة له متعة أكثر مما هو طقس دينى، لأن بعد الانتهاء منها يعود عثمان فخة لقفشاته ويتحدثون ببساطة، وتحكى بعض النكات البذيئة ويتطرقوا لمشاكل غربتهم وصعوبة الاستقرار النهائى فى الوطن. كان عامر درويش يختلف عنهم قليلاً، يعمل بطريقة شرعية لأن زوجته موظفة لم يكن تشملهما إعانة البلدية، فلم يهتم بما يحدث حوله، دون اكتراث تابع النقاشات التى تدور بينهم وخوفهم من اكتشاف الأمر الذى يعنى غرامات وخصم من الإعانة وربما تتوقف بالكامل، ممّا يعنى إجبارهم على العمل. ففى احدى الأيام استمرت النقاشات بعد تلاوة القرآن، التى كان مقرها فى منزل وليد البدوى الذى اختار عن قصد أن تكون

التلاوة فى شقته هذه الأمسية ليهدأ الرعب الذى نمى فى داخله، كان أكثرهم خوفاً، حتى أنه فكر فى ترك العمل الأسود بجدية ويضحى بالمبلغ الذى يجعله متوازناً ويساعد به أهله، عثمان فخة سخر منه وضحك على خوفه، وفسّر احتضانه لتلاوة هذا الأسبوع فى شقته لتمنحه طمأنينة وتحجب عنه القدر السيئ، ثم خاطبه مباشرة:

– يا زول بطل خوف، الشغل الأسود ده مافى أحسن منو.

– أنا ما خايف، أنا بحب أمشى بالقانون، ولو قبضونا مصيبة.

– موت الجماعة عرس ولا شنو؟ عثمان فخة من قال ذلك.

انفعل وليد البدوى وانتفخت عروقه وبرزت لتضيق الخناق على رقبته وخرج صوته حاداً مصحوباً بتأتأة غير مألوفة، بالكاد حاول أن ينفى خوفه والتهم التى ألصقها به عثمان فخة، نتيجة انفعاله كانت عكسية أكدت رعبه الداخلى، بدا مرتبكاً جدا لدرجة أنه استأذن الجميع وحمل مصحفه ليغادر قبل أن يتذكر أنه فى شقته ويقهقه قبل الجميع ويجدها سانحة مناسبة ليعترف:

– والله يا خوانا أنا خواف، والخواف ربى عيالو.

يرد عليه محمد الشيخ، الرجل الأكبر عمراً والأكثر أدباً والتزاماً، بعد أن استغفر ربه ومسح دموع الضحك:

– قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ويهز صلاح لاهاى رأسه عدة مرات، ليس للتأكيد على التمسك بالإيمان، بقدر ما كان يحاول تهيئة نفسه لينقض على فترة الصمت القادم ويحكى عن جاره الهولندى الذى يراقبه فى دخوله وخروجه

يومياً، والخبث الذى يظهر فى عينيه أثناء السلام، وقبل أن يتلّقى أى اقتراحات من أصدقائه قال:

– أقسم بالله يا جماعة، حاولت أن أتحاشاه قدر الإمكان، تعمدتُ أمس أن أرجع إلى الشقة متأخراً، خرجت من العمل، درت فى المدينة محاولاً قتل الوقت، طفت حول العمارة، حتى جاءت اللحظة التى انعدمت الإضاءة فى شقة جارى تماماً، فى تلك اللحظة تسللتُ ببطء وصعدتُ السلم بخطوات لا تسمح لكعب حذائى أن يلامس البلاط، وكنت اشعر بثقة تامة، ولكن بدون توقع وجدته واقفاً فى انتظارى، أرعبنى وهو ينطق:

– هل كان لديك عمل إضافي اليوم؟

شعرتُ بقلبى يقفز من صدرى ويتدحرج، ارتبكت ولم أستطع الرد عليه. دخلت شقتى وأنا ارتعش، حكيت لزوجتى ناهد، خافت هى الأخرى أكثر منى. قال له عثمان فخة، بعد أن هرش شعر رأسه من الخلف:

– ما فى أى سبب يجعلك أن تخاف، ماذا سيفعل لك؟

ينفعل صلاح لاهاى:

– ما أخاف كيف؟ وهو من نوعية الهولنديين القوادين، ويعلم جيداً أننى أعيش على إعانة البلدية.

يعقِّب عليه عثمان فخة بنفس الانفعال:

– كان مفروض ترد عليه فى نفس اللحظة، ليس من حقه أن يسألك أو يتدخل فى شؤونك الخاصة. ببساطة كان ممكن أن تقول له هذا

ليس من شأنك.

– المشكلة إننى فى تلك اللحظة ارتبكتُ بسبب ظهوره المفاجئ. لم أتوقعه. لكن قسماً بالله يا جماعة لو بلّغ عنى البلدية، هو لا يعلم إننى مريض بالسكرى وممكن أرتكب جريمة فى حقه.

كانت فرصة لعامر درويش ليتعرّف عن قرب على هؤلاء البسطاء، متشابهين فى طريقة تفكيرهم، طموحاتهم لا تختلف عن ضحكاتهم فقط يكمن فى طريقة تعبيرهم عن الغضب، جميعهم عبروا عن طريق بوابة اللجوء ونددوا ببشاعة الحكومة فى التعامل مع مواطنيها، ولكن بعد أن أصبحوا فى مأمن اقتصادى قلّت حدة عداوتهم لحكومة بلدهم والبعض منهم سرعان ما فقد ذاكرة المحن ولم يتوانَ فى الدفاع عنها باستماتة، وأغلبهم كانوا متفقين على جملة واحدة فى صيغة سؤال يستشهدون بها دوماً فى حواراتهم، البديل منو؟ حتى أن عامر درويش فى البداية تخيّل أنها مقتبسة من حديث قدسى. لكن رغم ذلك تمنّى أن لو كان مثلهم ويمتلك تلك السذاجة الرائعة، كان سينعم براحة أبدية، إنهم ينامون بكل سهولة دون اللجوء إلى المدعو الويسكى، حتى هذه التلاوة التى ابتكروها هنا فى هولندا، فى محاولة ناجحة للتغلب على أوجاع غربة جليدية لا تذوب إلا بالتحصُّن والتمسك بقوة خارقة، لاحظ إنهم سعداء حتى فى خوفهم وقلقهم، لذا راح يتقرّب منهم رويدا رويدا عله يترك ذهنه جانباً ليمتطى السذاجة معهم .

تحول المأتم فى منزل عثمان فخة من سرد محاسن المرحوم عامر

درويش، والذى يعرفونه باسم عامر عباس قنديل، إلى دردشة عادية مما جعلنى أشعر بأننى دخيل وليس لدى لغة تواصل معهم، رغم أننى صرت أعرفهم فرداً فرد من اعترافات عامر درويش ذكرهم لى بأسمائهم . طلبت منهم أن يسمحوا لى بالمغادرة. رجعت إلى المحطة بعد أن تملصتُ بمشقة من إلحاحهم للمبيت فى المأتم. كنتُ قد أستأجرتُ أعذاراً مفروشة جاهزة، تعذرتُ بأنى يجب أن أعود إلى أمستردام حالاً كى أتصل بذوى المرحوم وأصدقائه وفى نفس الوقت لا زالت حركة القطارات مستمرة. استطعتُ أن أزوغ منهم دون أن يشك أحد أن السبب الأساسى أننى لا أريد أن اخسر تذكرة العودة وإمكانياتى لا تسمح لى بشراء تذكره جديدة غداً. وجدتُ المحطة خالية وإضاءتها شاحبة، هناك رياح خفيفة بإمكانها تحريك أوراق الأشجار التى سقطت حديثاً، أول ما توجه به بصرى كان صوب مصطبة النصب التذكارى. نفس المكان الذى تحدثنا فيه أنا وعامر درويش ليلة أول أمس وتداعت دواخلنا بشكل عجيب، وقفت وأخذت نفساً عميقاً، شيء ما جعلنى أتخيل أنه ربما يظهر فجأة من مكانٍ ما، جرجرتنى أقدامى لأجلس فى نفس المكان، كان إحساسى فى تلك اللحظة أن أظل حبيس روحى ولا أفكر فى شيء آخر، أتغلغل فى دواخلى وأختبئ والمس روحى كأننى حلزون رخو يحتمى بصدفة لولبيّة، كنت فى تلك اللحظة فى حاجة ماسة لأكون وسط أصدقاء ولكن أسفى الوحيد، ليس هناك صديق يمكنه أن يفهم هذا الإحساس الغريب، إحساس ترجمته بوجيز العبارة، شخص داس بالخطأ على

صدر ابنته الرضيعة. صرخت بصوتٍ عالٍ، ولم أفهم البتة السبب الحقيقى لهذه الحركة التى قمتُ بها، و لكن أدهى ما فى الأمر إنها كانت مثل جرعة شجاعة، عطّلت خوفى من المكان، كان سقوط أوراق الأشجار مرّعباً، التفت وأجفل، كنت متيقناً أن شبح عامر درويش يراقبنى ويحوم حول المكان، البرودة التى تتسرّب من الرخام إلى مؤخرتى، جعلنى أشعر بحجم اللحم والشحوم التى رهلّتنى وخفّفت من إحساسى بالخدر. شعرت بعد ذلك بميلٍ متعاظمٍ نحو الانغلاق العاطفى، أو ربما لا زلت داخل حُلم لم أستيقظ منه بعد، أو ربما أننى فى حلم داخل حلم، ولكن فى نفس اللحظة لم يكن بوسعى التحقق من هذا الأمر. تذكرت الحلم الذى اختفى فيه عامر درويش خلف القطار وأنا أجرى خلفه حاملاً شواله القذر، عندئذ التفت نحو الشجرة، كان الشوال قابعاً مكانه، بدأ لى وهو متكئ على ساق الشجرة ويسقط عليه جزء من الظل كأنه علم للتو بمصير صاحبه، نظرت إليه بإمعان وقلت لنفسى، سيظل هكذا ولن يمسه أحد، وبعد ذلك وجدتنى أخاطبه مباشرة، للأسف قبل قليل قمنا بدفن الشخص الذى كان مهتماً بكَ وينام مستنداً عليك. شعرت به وكأنه الشىء الوحيد الذى يستحق المواساة فى موت عامر درويش، هو الوحيد الذى رافقه فى أزماته الأخيرة، نهضت وتحركت فى اتجاهه يدفعنى حزن عظيم وتصلّبت بحلقى عبرة، انتبهتُ لحزنى دائماً ما يستثار بصوره غير مباشرة. اقتربتُ منه، كان يبدو هو الأخرى كجثة باردة وتفسّخت برائحة نتنة، بيدى كأنى أشفق عليه أزلت عنه الأوراق الذابلة التى

حطّت عليه كالجراد، البطانية التى تلفحنا بها ها هى مكوّمة لوحدها، يبدو إنه لم يجد الوقت الكافى ليضعها داخله، جلستُ عليها وأسندت ظهرى على ساق الشجرة غير عابئٍ بالرائحة، لاحظت لصورة على فوهة الشوال تناولتها رفعتها للأعلى حتى يسقط عليها ضوءاً أستبين به الملامح، كانت صورة لطفل، دون اجتهاد عرفت أنها لابنه سامى قنديل، حاولت أن أنبش أكثر كى أعثر على صورة لانكا فان درماين، ولكن وجدت ورقة مطوية فتحتها، كانت رسالة لى. تذكرت رسالة نهلة جمال الدين، نهضتُ مفزوعاً، بسرعة توجهت نحو النّصب التذكارى، كانت الإضاءة هناك تسمح بالقراءة لوجود أعمدة الإنارة، رحت التهم السطور ويدى ترتعش:

إلى أشرف، شىء ما جعلنى متأكداً بأنك ستعثر على هذه الرسالة، لا أدرى ما هو هذا الشىء، ولكن ربما يكون إحساسى فى هذه اللحظة الحاسمة هو ما جعلنى أصمم توقعاتى على ذلك، أو لأنى لم أجد شخصاً أجدر منك أحمّله وصيتى. آسف إن كان خطى غير واضح، وهذا راجع لسبب البرد الذى جعلنى أرتعش بعد أن غادرتنى قبل قليل، ولكن حتماً سينتهى كل شىء بعد لحظات. يجب أن تعلم بأننى عندما شاهدتك تذكرت ما كان يجب على أن أفعله منذ مدة، كنت أعيش خارج الواقع، أنت من جعلتنى أصحو واعترف لك بالذى حدث واختار بعد ذلك

الطريقة المثالية لموتى وأنا مطمئنُ لنهاية استحقها. لدى رجاء، لا تعتبرها وصيه بالمعنى الحرفى ولكن اتركها لك حسب إمكانياتك وظروفك. فالخسارة تخصنى وحدى ولكن حاول قدر المستطاع أن تبحث عن ابنى سامى واهتم به، لك مطلق الحرية، أن كنت تود أن تخبره بالحقيقة كاملة، ولكن لابد أن يعرف لماذا أطلقنا عليه سامى قنديل، ستجد داخل الشوال الكبير كيساً اسود به مبلغ مالى أصرفه على ابنى، هذا المبلغ لم أدّخره له ولكننى عثرت عليه مدفوناً بالقرب من حديقة النصب التذكارى وهو مبلغ كبير، انتظرتُ أن يأتى أحد يسألنى عنه. متأسف إذا أقحمتك معى فى ظروف قاسية. عامر درويش.

أعدت قراءة الرسالة مره أخرى وقلبى يرتعش. شعرتُ بخوف يحيط بى قلت لنفسى، يبدو أن إحساسى يبث موجات تؤدى بالمكتئب إلى الانتحار. لا يمكن أن يكون انتحار نهلة جمال الدين وعامر درويش صدفة. تأملت صورة الطفل سامى، وهو يضحك للكاميرا، فى هذه اللحظة بالضبط بكيت عامر درويش. رجعتُ إلى الشوال، بعد أن وضعت الصورة داخل سترتى وقررت أن أنفّذ له وصيته وأبحث عن طفله، نبشته وفعلا وجدت به الكيس الأسود. عندما فتحته أصابنى الذهول، تذكرت فى الحال الخبر الذى قرأته فى جريدة المدينة عن سرقة البنك واختفاء مبلغ قدره ثلاثة مليون يورو.

• • •

استرخيت على مقعد القطار شبه الخالى ووضعت قدمى على كيس قذر تنبعث منه رائحة كريهة وبه ثلاثة مليون يورو، ورجعت أعيد فى قراءة رسالته.

انتهت.

عماد برّاكة

منتصف مارس 2016

Maidenhead – بريطانيا